THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

طَعامٌ... مُعاناةٌ... حُبّ

أسلي بيركير

Asli E. Perker

رواية

مكتبة الرمحي أحمد
١٢٥

طَعامٌ... مُعاناةٌ... حُبٌّ

SUFLE

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1434 هـ - 2013 م

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

طَعامٌ... مُعاناةٌ... حُبّ

SUFLE

روايـة

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

أسلي بيركير

Asli E. Perker

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

1

عرفَت ليليا بوجود خطب ما حالما التفتت إلى اليمين، تماماً كما تفعل كلّ صباح عندما تخرج من غرفتها. فمع أنّ آرني كان ينفق ساعات طويلة للحفاظ على ترتيب غرفته، ويقفل بابها عند مغادرته إلى العمل لكي لا تعبث فيها زوجته، إلاّ أنّه لم يلاحظ قطّ أنّه يزيح دائماً السجّادة الممدودة أمام بابه قليلاً إلى اليسار. ربّما لأنّ ليليا كانت تعيدها إلى مكانها كلّ صباح بطرف قبقابها بعد رحيله.

في السنوات الأخيرة من زواجهما، الذي نجحا في الحفاظ عليه لأكثر من ثلاثين عاماً، فهِما أنّ أذكى تدبير اتّخذاه هو فصل غرفتَي نومهما. هكذا وجدا طريقة للعيش من دون أن يتعدّى أحدهما على حياة الآخر في المنزل نفسه. الشيء الوحيد الذي يوحي أنّهما كانا عاشقَين في الماضي هو القبلة الأنيقة وغير المبالغ فيها التي يطبعها آرني على شفتَي ليليا كلّ مساء عند عودته إلى المنزل. في الدقائق التالية، كانا يجلسان عادة على مقعدين موضوعَين أمام الطاولة وسط المطبخ، ويتناولان الوجبة الشهيّة التي أعدّتها ليليا، وهما يشاهدان نشرة الأخبار التي يذيعها جيم ليرير على القناة 13. ومع أنّ ليليا تحوّلت إلى امرأة أميركية حقيقية خلال الأعوام السبعة والثلاثين التي أمضتها في الولايات المتّحدة، إلاّ أنّ عينيها اللوزيّتين المضيئتين في وجهها الأسمر، اللتين تبدوان مثل حجرَي كهرمان جميلَين، وطعم الزنجبيل الذي يرافق كلّ وجبة، أبقت جذورها الفليبينية حيّة.

يُثني آرني على طعام ليليا بلياقته الدائمة، ثمّ يغسل طبقه ويستأذن

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

للذهاب إلى غرفته. هـذا يعني أنّه بعد انقطـاع لمدّة 45 دقيقـة، تعاود ليليا حياتها. فتمضي بعض الوقت أمام الكمبيوتر في حجرة أعدّتها لنفسـها، أو تتصفّح الجرائد التي أحضرها زوجها معه إلى المنزل. تصغي كلّ ليلة عند السـاعة العاشـرة إلى خطوات إيد هذه المرّة، وعندما يظهر الرجل الأشقر طويل القامة عند بـاب المطبخ، تذكّره بالتزام الهدوء. مع أنّ هذا الشـرطي المتقاعد البالغ من العمر خمسـة وخمسـين عاماً يعيش فـي الطابق الثالث من منزلهما المؤلّف من ثلاثة طوابق منذ عشـر سـنوات، إلاّ أنّ ليليا تجبر نفسها معظم الوقت على تذكّر وجوده. فمنذ أن بدأ يعمل ليلاً كحارس في مركز تجاري، اعتاد النزول كلّ ليلة في الوقت نفسـه، مضيفاً روتيناً جديداً إلى حياة ليليا. يجلس إيد على أحد تلك المقاعد لمدّة خمس عشرة دقيقة لتناول عشـائه المتأخّر، ثـمّ يجيب على نظـرات ليليا الفضوليـة بالقول إنّ الطعام أعجبه حقّاً، وإنّه يشعر بالرضى عن نفسه لملئه جزءاً بسيطاً من هذا الفراغ الكبير في حياة تلك المرأة ذات الاثنين والستّين عاماً.

لكن هذا كلّ شـيء. فالحياة تحت سـقف واحد لا يمكن أن تختزل المسـافة بينهما أكثر مـن ذلك. لم تسـتطع ليليا، ولـو لمرّة واحـدة، إيجاد الشـجاعة لتسـأل هذا الرجل الـذي أصبـح تقريباً جـزءاً من أسـرتهما أين يختفـي في عطـلات نهاية الأسـبوع. لحسـن الحـظّ، كانـت ذكية بمـا فيه الكفاية لتضميـن وجبات الطعام فـي الأربعمئة دولار التـي يدفعها إيد كلّ شـهر، حيث إنهما يجدان عذراً للحديث. وإلاّ، كان إيد سيتحوّل فعلاً إلى شـبح، مع بعض زبدة الفسـتق والمربّى اللذين يدهنهما على شريحتين من التوست، مثلما يفعل جميع الأميركيين.

بفضـل هـذه العـادات الصغيـرة، أدركـت ليليـا وجـود خطـب هذا الصباح. فالسـجّادة الصغيرة الممـدودة أمام باب آرنـي - والتي أحضرتها سـيّدة تركية عاشـت عندهما لمدّة من الزمن في ذلك الوقـت - كانت في

مكانها تماماً. وهـذا لا يعني سـوى شـيء واحد؛ آرنـي لم يغـادر غرفته. طرقـت ليليا على البـاب عدّة مـرّات، قبل أن تبـادر إلى الدخـول. وعندما لم تسـمع أيّ جـواب، دخلـت لتجد زوجهـا ممـدّداً علـى الأرض بجوار سـريره تماماً. كان لا يـزال بثيـاب النوم، لذلك لـم تعرف كـم مضى عليه هناك، بتلـك الوضعيّة. لكـن، عوضاً عن الصـراخ أو الهلـع، ركضت إلى غرفتهـا، ثمّ تناولـت الهاتف واتّصلت برقـم الطوارئ. بينمـا كان المجيب يطرح عليها الأسـئلة، أدركت أنّ زوجها ما زال على قيد الحياة من النبض الضعيف الذي شعرت به تحت أصابعها.

بعد وقت وجيز، تعالى صوت سيّارة الإسعاف في الحي الهادئ. لم يسـبق أن تركت ليليا زوجها وحده حتّى تلك اللحظـة. فاغرورقت عيناها بالدمـوع للمرّة الأولـى وهي تنـزل السـلّم. تألّمت حيـن فكّـرت أنّ آرني حاول على الأرجح أن يسقط بهدوء. وتسـاءلت لماذا لم يسقط بصخب؟ لماذا لم يحـاول عدم الإمسـاك بحافة السـرير؟ كانـت ليليا علـى يقين أنّ زوجها فعل ذلـك حفاظاً على الهـدوء؛ ذلك الهدوء المطبـق اللعين الذي يخيّم على منزلهما.

بعدما فتحـت الباب، وقادت المسـعفين إلـى الطابـق الأوّل، نظرت بعينيها الدامعتين إلى منازل الحيّ. كلاّ، لـم يكن هناك أحد يقف أمام باب البيت. حتّى إن السـتائر لم تتحرّك. وعوضاً عن الاعتراف أنّ أحداً لم يأبه، فضّلت ليليا التفكير في أنّ الجيران كانوا في العمل، أو اصطحبوا أولادهم إلى المـدارس. كيـف نأت بنفسـها عن تلـك الحيـاة الصاخبة التـي كانت تحياها، وسـقطت في هذا الجمود؟ كيف قبلت بالعيش على هذه الحال؟ مع ذلك، لم تسـتطع أن تحمل نفسـها على الغضب: لا على جيرانها، ولا على زوجها، ولا علـى عدم اكتراثها. متـى هدأ غضبها الـذي ظنّت أنّه لن يتوقّف في شـبابها؟ فالشجارات لم تغب قطّ عن أسـرتها الكبيرة، وكذلك العناق والفـرح. فـي الأوقات القصيـرة التـي اجتمعـوا فيهـا، كان المنزل

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يضجّ بالصراخ والضحك، فتتحـوّل الحفلات إلى معـارك، والمعارك إلى حفلات مجدّداً. ويتحـوّل المرح الصاخـب إلى مهرجانـات غضب، لكنّ اجتماعاتهم تنتهي دائماً بمتعة كبيرة. كان ثمّة دائماً مَن يُستغاب في عائلتها الصاخبة. كان ثمّة دائماً من يغضبون عليـه، أو يفخرون به، أو يطردونه من العائلة، ثم يعيدونه إليها في وقت لاحق.

أمّا فـي عالـم آرنـي الصامـت، فلـم تكـن أسـرة ليليـا تختلـف عن السـيرك؛ فهي مسـلّية ومثيرة للاهتمام في البداية، وصاخبـة ورخيصة جدّاً بعد حين. فهل من تسـلية أفضل مـن تمضية عصر يوم الأحد في مشـاهدة مباراة بيسبول، أو تناول عشاء هادئ لا تُسمع فيه سوى جلبة الفضّيات، أو سرد النكات الذكية من دون الإسـراف فيها؟ أيّ مكان يستطيع أن يضاهي غرفة آرني الآمنة، والنظيفة، والمرتّبـة، والمملوءة بأهمّ قصاصات الجرائد المرتّبة بعناية في ملفّ؟ أيّ أغنية شـعبية فلبينية تشبه فرح سماع الأصوات الهادئـة والواثقـة لمنسّـقي الأخبار؟ ومـاذا عن تلـك الحكايـات الخرافية التي كانت زوجتـه وأفراد أسـرتها يروونها بعد عشـاء الميـلاد؟ لقد عاش أولئك الناس في الولايات المتّحدة لسـنوات، واسـتفادوا من كلّ أشـكال التكنولوجيا والطبّ، وقادوا أحدث السـيّارات، إلاّ أنّهـم ما زالوا يعتقدون بوجود مخلوقات تعيش في الأشـجار. لا بل يظنّون أنّه من الجيّد نقل هذه القصص من جيـل إلى جيل. لـم يكن هذا مقبولاً بالنسـبة إلـى آرني، ولم يسمح بالتأكيد بتربية ولديه على هذا الهراء. كان يغضّ النظر عن القصص التي تـروى مرّة فـي السـنة أمامهمـا، إلاّ أنّـه نجح فـي النهاية بـزرع بهجة الهدوء والسـلام فيهما. نجح إلى حدّ أنّه يتفهّم الآن لماذا لا يتّصلان بهما كثيراً، ولا يأتيان لتناول العشاء، ولا يمكثان سـوى لساعة أو نحو ذلك في المناسـبات الخاصّة. حتّى إنّهما لا يطلبان منهما رعاية أحفادهما من حين إلى آخر. وعلـى الرغم من عدم كونهمـا ابنه وابنته البيولوجيّيـن، إلاّ أنّهما تشرّبا عاداته مئة بالمئة.

مع ذلك، اعترفت ليليا لنفسها أنّها شعرت بالحزن خلال الأوقات التي أمضتها بمفردها في غرفتها، لكنّها لم تستطع أن تشعر بالغضب عليهما أيضاً. لقد قدّمت وبذلت كلّ ما في وسعها لهذين الطفلين اللذين لم تحملهما في رحمها تسعة أشهر. نجحت في إحضارهما من فيتنام على الرغم من كلّ المصاعب، وأنفقت أموالاً طائلة ليستعيد كل منهما صحته، وأرسلتهما إلى أفضل المدارس. والأهمّ من ذلك أنّها تخلّت عن حياتها من أجلهما. فخلال السنوات الأولى من زواجهما، عاشا في مانهاتن، وساعدهما جمال ليليا الغريب، واختلافها عن نساء محيطها، وإبداعُها على دخول مختلف الأوساط، وكانا ضيفين مرغوباً بهما في جميع الحفلات. تمكّنت من عرض لوحاتها على شخصيّات هامّة في تلك الحفلات. فأقامت معارض فنّية في صالات يصعب دخولها عادة، واستمتعت بالعيش في الأوساط الفكرية. كان الخروج من المدينة إلى منزل كبير يحتوي على الكثير من الغرف ويضمّ حديقة بالطبع فكرة آرني، بعدما تبنّيا الطفلين. كان يفترض بهما فعل ذلك مثل جميع الأسر الأميركية التي تملك أطفالاً. بالإضافة إلى ذلك، كان الطفلان قد تعرّضا لصدمة هائلة، واحتاجا بالتالي إلى مكان هادئ، ومسالم. ولا حاجة به إلى إخبارها أنّ مانهاتن بعيدة كلّ البعد عن هذا الوصف. فامتثلت ليليا لرغبته.

في النهاية، تُركا بمفردهما في هذا المنزل المحتوي على سبع غرف، وعدد لا يحصى من الخزائن، وأربعة حمّامات، والذي قاما بشرائه من أجل الطفلين. وبما أنّها لم تكن قادرة على تنظيفه بمفردها، وبما أنّ السيّدة المكسيكية التي وظّفتها لم تتقن عملها يوماً، فقد تراكم الغبار في جميع أنحاء المنزل، وكان من المستحيل تقريباً رؤية الحديقة بسبب الطبقة السميكة من الغبار التي تغطّي النوافذ. والآن، يرفض الولدان اللذان ربّياهما بعناية كبيرة جلب أولادهما، ولو لساعة واحدة، بحجّة أنّ المنزل قذر جدّاً.

أعادت الأصوات المتصاعدة من أجهزة اللاسلكي ليليا إلى الواقع. وبعدما حمل المسعفون آرني، ذا الستّين عاماً، إلى سيّارة الإسعاف على حمّالة، صعدت إليها هي أيضاً، وجلست بجانبه، ممسكة بيده. توجّهوا إلى المستشفى، ترافقهم صفّارات الإنذار التي دوت في الشوارع المهجورة لشمال ولاية نيويورك. لم تجد ليليا صمت السيّارة غريباً، بفضل تجربتها الممتدّة على سنوات عديدة.

* * *

في اللحظات نفسها، ولكن بفارق توقيت يبلغ ستّ ساعات إلى الأمام، كان مارك يفتح باب شقّته حاملاً علبة حلوى صغيرة بيده. كان يقفل الصالة ويعود إلى البيت باكراً كلّ يوم جمعة. وكان يشتري دائماً قطعتين من الحلوى من متجر الحلويات، الواقع على الجانب الأيمن من الشارع، فورَ دخوله شارع مونج، ويحثّ خطاه قليلاً ليجتمع مجدّداً مع حبّ حياته، زوجته منذ اثنين وعشرين عاماً، كلارا. عندما يصل إلى السلّم، كان ينتظر بفارغ الصبر رائحة القهوة التي تتسلّل من فجوات باب شقّتهما في الطابق الثاني. كانا قد اكتشفا القهوة المصفّاة خلال رحلة إلى نيويورك منذ سنوات، ومنذ ذلك الحين وضعا الإسبريسو الأثمن في أوروبا جانباً، وأصبحا مدمنَين على قهوة الفانيليا.

كانا يعيشان في الشقّة نفسها منذ زواجهما. وكانت الغرفة الوحيدة الواسعة في هذه الشقّة المؤلّفة من غرفة نوم واحدة هي المطبخ. وبما أنّ كلارا أحبّت الطهي دائماً، وبدأت تمارسه في سنّ مبكرة، فقد أصبح المكان الذي تقضي فيه معظم وقتها. وليس من الخطأ القول إنّها الغرفة الأكثر إغراء في الشقّة، بأزهارها، ونباتاتها، وزينتها، والطاولة الموضوعة في الوسط، والتلفاز الصغير في الزاوية. تحوّلت غرفة المعيشة إلى مكتبة مليئة بالكتب المرتّبة بعناية على الرفوف، وكانا يقرأان عادة الكتب التي يختارانها في المطبخ. لم يشتكِ مارك إطلاقاً من ذلك، بل كان يتبع زوجته

بسرور إلى غرفة نومهما في نهاية كلّ مساء، ويشعر بالنعاس على رائحة عطرها الممزوج بروائح الطعام التي تخلّفها وراءها. في الواقع، ما كان ليستبدل شيئاً بهذه المتعة.

تحدّثا في بداية زواجهما عن الانتقال إلى شقّة أكبر عندما ينجبان أطفالاً. كانا سيحتاجان إلى غرفتَي نوم على الأقلّ. حتّى إنّهما أمِلا في الحصول على مطبخ كبير كهذا مجدّداً. إلاّ أنّهما لم يحتاجا إلى البحث عن شقّة أخرى. حاولا إنجاب الأطفال لمدّة طويلة، من دون الاستسلام أو الإصابة باليأس. ولكن عندما وصل الأمر إلى استخدام بعض الأدوية، أو الخضوع لحُقن هرمونية، استسلما. لم يصغيا إلى نصائح الأصدقاء حول التبنّي. فمع أنّهما لم يبوحا بذلك لأحد، إلاّ أنّ ما أرادته كلارا هو مارك صغير، وما أراده مارك هو كلارا صغيرة. والطفل الآسيوي لا يناسب هذا الوصف. عوضاً عن ذلك، وجدا السعادة مع بعضهما، وأصبحا الطفلين اللذين لم يكبرا قطّ. أصبحت لائحة عاداتهما أطول بمرور السنوات، وازدادا سعادة يوماً بعد يوم. فبينما كانت كلارا تتحسّن يوميّاً في المطبخ، كان مارك يلجأ إلى دفئه، فيجلس في الزاوية، ويستمتع بقراءة مجلاّته الفكاهية، فلويد غلاسيال، ليكو دي سافان، بسيكوبات، بودوي.

كان من المستحيل على كلارا تعليم مارك أسماء الخضار أو روائح التوابل. وعندما انتهى إرساله إلى سوق المزارعين بضع مرّات بكارثة، قرّرت أن تتركه وشأنه، وتعلّمت أن تتقبّله كزبونها الأكثر وفاء. اعتبرت إصرار مارك على شراء الحلوى من المتجر أيّام الجمعة فكرة طفولية، وأحبّتها. واستسلمت لتناول حلوى حقيقية من الخارج مرّة في الأسبوع، وحزنت بشدّة لأنّ حلوياتها لم تكن تضاهيها جودة. كانت تُدخل الكريما في فمها، وتمرغها على أعلى حلقها، وتشعر برائحتها، وتحاول معرفة ما ينقص حلوياتها.

قاما برحلات كثيرة إلى بلدان عديدة على مرّ السنوات. عادت كلارا

بوصفات جديدة، وأحضر مارك معه الصحف، والكتب، والمجلاّت الهزلية. كلاهما لم ينسيا طعم الفلفل المحشوّ الذي تناولاه في إسطنبول. وعندما قال مارك - خلال رحلة إلى اليونان - إنّ طعم الفلفل المحشوّ كان شبيهاً بذاك الذي تناولاه في إسطنبول، اعترضت كلارا بشراسة. وعلى الرغم من محاولاتها العديدة، إلاّ أنّها لم تتمكّن قطّ من طهوه بالطريقة نفسها. وعندما حاولت أيضاً حشو بلح البحر بالأرزّ كما يفعل الأتراك ولم تنجح، بدأت تخطّط لرحلة جديدة إلى منطقة بحر إيجه في تركيا. لم يعترض مارك يوماً على ما أرادته كلارا أو خطّطت له، بل أحبّ أن يستسلم تماماً لإيقاع حياتها. فالسعادة التي خيّمت على مطبخهما الممتدّ على مساحة ستّة عشر متراً مربّعاً استوطنت عظامه.

كان سعيداً جدّاً كذلك في صالته الواقعة على الضفّة المقابلة لنهر السين. كان يبيع الأعمال الأصليّة لفنّاني جميع الكتب الهزلية التي أحبّها منذ نعومة أظفاره. وكان يملك كلّ شيء: الصفحات المحبّرة من لاكي لوك، واسكتشات أستيريكس، وصفحات من مغامرات تان تان. ذاعت شهرة صالته إلى حدّ أنّ الهواة من جميع أنحاء أوروبا كانوا يتوافدون إليها. في الواقع، كان يكسب الكثير من المال. ومع ذلك، ما زالت كلارا تذكر كلفة كلّ وجبة تطهوها، وكم هي قليلة، وكم وفّرا من المال بتناول الطعام في المنزل عوضاً عن المطعم، وهذا ما كان يدفع مارك إلى الضحك كلّ مرّة. كانا يستطيعان تناول الطعام في الخارج كلّ يوم لو أرادا ذلك، وفي أفضل المطاعم، لكنّ مجرّد اقتراح ذلك سيشكّل ضربة كبيرة لسبب عيش كلارا. يكفي أنّه استطاع إقناعها بعدم إعطائه صندوق غداء عند ذهابه إلى العمل. كان مارك يقفل باب صالته كلّ يوم عند الظهيرة، ويتوجّه إلى مكتبات بيع الكتب الهزلية المفضّلة لديه، بعد تناول وجبة سريعة في مكان ما. فقد حاول متابعة كلّ كتاب وفنّان جديد. خلال رحلتهما إلى نيويورك، أذهله الحجم الذي بلغته الصناعة، وقرّر زيارة

مكتبة للكتب الهزلية كلّما زار مطعماً. وعندما اطّلع على الإصدارات التي تخرج كلّ شهر، شعر بالحيرة وهو يحاول أن يفهم كيف يتابع القرّاء كلّ شيء. حتّى إنّ فكرة الانتقال إلى هذه المدينة الفوضوية داعبته وهو يسير بين الرفوف، معجباً بالكتب التي يراها. ولكن، مع اقتراب نهاية رحلتهما التي دامت خمسة عشر يوماً، بدأت كلارا تتذمّر من مدى صغر أسواق الخضار هناك، ومن شحوب صفار البيض، وغرابة طعم الحليب. بدا الأمر وكأنّ ذوّاقة باريس لم يعجبها سوى طعم القهوة في نيويورك. وبالطبع، وكما هو الحال دائماً، كان مستعدّاً لتلبية رغباتها.

انتظر مارك أمام الباب لبضع دقائق حاملاً المفاتيح بيده. أدرك غياب رائحة القهوة مع أنّه حاول اشتمامها بأنفه المرفوع في الهواء. نظر إلى ساعته، كانت الثالثة وعشر دقائق؛ تماماً مثل كلّ يوم جمعة. من المستحيل ألاّ تكون كلارا قد أعدّت القهوة. ومن غير الممكن أيضاً أن تكون قد غادرت لأمر طارئ من دون إخباره. فكلارا تخبره دائماً. وحتّى عندما يكون مضطرّاً إلى مغادرة الصالة لمدّة قصيرة، فهي تتّصل به في الوقت المناسب وتعرف بذلك. شعر بوخز في يده التي كانت تحمل علبة الحلوى. حرّك المفتاح في القفل بعصبيّة. وعندما دخل الرواق، سمع أصواتاً صادرة من البرنامج التلفزيوني "دي ليتر إيه دي شيفر"، حروف وأرقام. لم تكن كلارا تفوّت هذا البرنامج قطّ إلاّ لسبب هامّ، وكانت تحاول إيجاد الرقم المطلوب مع الأرقام المعطاة بسرعة تضاهي سرعة المتنافسين. دخل مارك المطبخ آملاً إيجاد زوجته وهي تكافح مع الأرقام وقد نسيت ما حولها. إلاّ أنّ الأمر لم يكن كذلك؛ كانت كلارا منهارة على الأرض أمام الخزانة، وقد تحطّم مرطبان القهوة الذي كانت تحمله قبل سقوطها. تمكّن مارك من اشتمام رائحة قهوة الفانيليا الآن. خنقته الغصّات تقريباً وهو يضغط بإصبعيه على معصم زوجته النحيل على نحو

لا يُصدَّق. لـم يجد أيّ نبـض. لمس عنقها الغالي، لكنّه لم يشـعر بشـيء. وبعدما أجرى المكالمـة الهاتفية اللازمـة، تمدّد بجوار زوجتـه، واحتضن الرائحة التي خلّفتها وراءها.

* * *

عندمـا رنّ الهاتف عند السـاعة الرابعة وعشـر دقائق، أي بعد سـاعة واحدة من توقيت باريـس، نظرت فيردا إلى السـاعة المعلّقـة على الجدار وابتسمت. شعرت بالسـرور لأنّ بخار طنجرة الضغط خرج للتوّ، فخفّفت الحـرارة، وضبطـت المنبّه علـى عشـرين دقيقة. هكـذا تسـتطيع التحدّث مع ابنتها بحرّيـة. كانت ابنتها القاطنـة في باريس تتّصل بهـا كلّ يوم جمعة في الوقت نفسـه، قبـل الذهاب إلـى عملها. كانـت تقـول إنّ التحدّث مع أمّها في آخر الأسـبوع يسـاعدها على بدء عطلة نهاية أسبوع سـعيدة جدّاً. وكانت تسأل فيردا عن الجميع، وعن كلّ الأحداث التي وقعت بالتفصيل، وتطلب تقريباً تقريراً عن الأشياء التي فاتتها. تسـأل عن حال عمّتها، وعمّا إذا كان خالها بخير، وما إذا كان الأقـارب المتخاصمون قد تصالحوا، وما إذا كان عمّها لا يزال يعيش في منزلـه، أو انتقل إلى مكان آخر. كانت تريد معرفة كلّ شـيء. وفي بعـض الأحيان، تبدو فضولية حيال أسـعار العسـل الـذي يبيعه متجر في الشـارع، ومـا إذا كانت أغصان الأشـجار أمـام مبنى منزلهم قد شُذّبت، وتسأل أحياناً كيف تتبّل فيردا طبق جذور الكرفس.

لم تفهـم فيـردا لمـاذا تهتـمّ ابنتها التـي تعيش فـي باريس منذ سـتّ سـنوات بأسـعار العسـل أو بأغصـان الأشـجار، لكنّها لم تسـأل قـطّ عن السـبب. كانت سـعيدة بالتحدّث معها ما استطاعت ذلـك. بالإضافة إلى أنّ مكالماتها كانت تُشـعرها أنّهما يعيشـان في المكان نفسـه، ويتشـاركان المشـاكل نفسـها، وهذا ما سـاعدها على عـدم الإصابة بالجنون من شـدة افتقادها طفلتها. كانت ابنتها تقول الشـيء نفسه: "الرحلة لا تستغرق سوى ثلاث سـاعات، فلمـاذا لا تقفزين علـى متن الطائـرة وتأتين كلمّـا أردتِ؟

كما أنّني أزور إسطنبول كثيراً. يمكنك المجيء لتناول الفطور ومن ثمّ العودة عند وقت العشاء كما تعلمين" لم تستطع فيردا إخبار ابنتها لماذا لا يمكنها أن تقفز على متن طائرة. فالأمومة ليست هكذا. كانت تريد أن تذهب لزيارتها ولتناول فنجان من القهوة التركية معها في الصباح، أو أن تطهو لها الطعام لكي لا تضطرّ إلى فعل شيء بعد عودتها متعبة من العمل. كم تساعد ابنها وكنّتها! فهي تعتني بحفيديها وتطهو لهما. وما عليهم سوى المرور في آخر النهار وأخذ علبة مليئة بالطعام. لذلك فهم لم يعانوا قطّ من مشكلة انخفاض السكّر في الدم. ولكن لم تكن تستطيع إخبار ابنتها بذلك. فإن فعلت، فمن الممكن، لا قدّر الله، أن تنتقل ابنتها إلى مكان أبعد، خوفاً من الوقوع في فخّ لمدى الحياة.

فهمت في الواقع لماذا انتقلت إيلا إلى أوروبا. فعندما زارت باريس للمرّة الأولى لرؤيتها، تمنّت سرّاً لو أنّها ولدت هناك. كانت مدينة جميلة. كان كلّ شارع، وكلّ زاوية بمثابة عمل فنّي شديد الإتقان. كانت التنقّلات سهلة، وكذلك السير على الأقدام. اصطحبتها إيلا بضع مرّات إلى أسواق الخضار، وحاولت أن تتبيّن من عيني أمّها مدى إعجابها بها. وجدتها فيردا جميلة أيضاً. فقد بدا كلّ شيء مثل إطار فيلم سينمائي، لكنّه لا يمكن أن يحلّ أبداً محلّ سوق فينيريولو مثلاً. فأسواق خضار باريس لم تكن تشكّل سوى عُشر أسواق إسطنبول. إلاّ أنّها لم تستطع أن تنكر استمتاعها بأكشاك الأجبان. واعترفت أنّ فخرها بالجبن القبرصيّ، وبتولوم إزمير (جبن ماعز تقليدي)، وبالكاسيري (جبن تركي أصفر) أو بالجبن المجدول كان سخيفاً بعد رؤيتها التشكيلة الواسعة التي يملكونها.

بينما كانت تعدّ لابنتها طبقها المفضّل، ورق العنب، في ذلك المطبخ الباريسي الصغير، أعدّت لها إيلا بضع عيّنات من المطبخ الفرنسي. شكرت الله لأنّ ابنتها كانت ماهرة في الطهي، فقد مكّنهما ذلك من الحديث باللغة نفسها. ماذا لو كانت ابنتها لا تعرف الفرق بين

البقلة والبقدونس! فهي تعرف الكثير من الشابات اللواتي لا يعرفن الفرق. لذلك، كلّما اتّصلت بها ابنتها لتسألها عن وصفة طعام، شعرت بالفخر. وكانت تخبر صديقاتها كم تحبّ إيلا الطبخ، وكيف جرّبت أصعب الوصفات. أرادت إخبارهنّ أنّها "لن تكون واحدة من أولئك النساء اللواتي لا يستطعن إعداد الطعام لأزواجهنّ"، لكنّها لم تفعل لأنّها لم تعرف ما إذا كان الرجل الذي ستتزوّجه ابنتها سيأبه بذلك أساساً. لم تكن إيلا تهتمّ بالرجال الأتراك. عرفت فيردا من الأفلام أنّ الرجال الفرنسيين يتمتّعون بشهيّة كبيرة مثل الرجال الأتراك، لكنّ الفرق هو أنّهم يطهون الطعام بأنفسهم، ولا يعتقدون أنّ المرأة هي التي يجب أن تعدّ الطعام في المنزل، فهم يملكون ثقافة مختلفة. هكذا ستضيع موهبة إيلا الجميلة، لكنّ هذا الأمر سيشكّل آخر همومها إن تزوّجت ابنتها من رجل فرنسي.

أجابت فيردا على الهاتف متلهّفة إلى حديثهما الأسبوعي الذي كانت تتطلّع إليه بحماسة:

"إيلا..."

"سيّدة فيردا؟"

"نعم، أنا"

"أنا سيما، جارة أمّك"

بما أنّ سيما هي جارة والدة فيردا ومرافقتها على السواء، لم تستطع أن تتبيّن سبب هذه المكالمة. فقد حوّلت الإيجار منذ بضعة أيّام. ربّما واجهتا مشكلة غير متوقّعة، أو ربّما حان وقت زيادة الإيجار ونسيت فيردا ذلك؟ إنّ سبب هذا النسيان هو نقص الفيتامين ب، لا شكّ في ذلك.

"عفواً سيّدة سيما. ابنتي تتّصل من باريس دائماً في هذا الوقت، لهذا

السبب... أعتذر مجدّداً. ما المشكلة؟"

"أعتقد أنّ عليك المجيء بأسرع ما يمكن. فقد سقطت والدتك، وأظنّ أنّها كسرت إحدى عظامها. سمعت صراخها، ولحسن الحظّ، إنّني أملك مفاتيح شقّتها. اضطررت للدخول، أعتذر على ذلك. على أيّ حال، اتّصلنا بسيّارة الإسعاف، وأعتقد أنّهم على وشك الوصول. عليك المجيء إلى هنا أو ربّما الذهاب مباشرة إلى المستشفى، لا أدري..."

أغلقت فيردا سمّاعة الهاتف بعدما قالت إنّها ستحضر قريباً. وبعدما أطفأت الفرن، هُرعت إلى الخارج. ظلّت تكرّر: "أتمنّى ألاّ تكون وركها" فالجميع يعرف ما يعنيه كسر الورك في سنّ الثانية والثمانين.

لحسن الحظّ، كانتا تعيشان على مقربة من بعضهما. فعندما قرّر شقيقها الزواج، وألمح إلى أنّه لا ينوي الانتقال من المنزل الذي عاش فيه مع أمّه لمدّة طويلة، تصرّفت فيردا بذكاء واستأجرت شقّة صغيرة لأمّها بجانب شقّتها. وبفضل ذلك القرار، وصلت بسرعة، بالتزامن مع سيّارة الإسعاف. كانت والدتها، السيّدة نسيبة، تحبّ تضخيم أيّ نوع من الألم، حتّى لو كان بسيطاً، وكانت الآن تئنّ، مستمتعة تقريباً، لتُظهر للعالم مدى ألمها. عرفت فيردا أنّ ما كانت تخشاه قد وقع. إذ سيتحتّم على أمّها أن تنتقل للعيش معها. من يدري إلى متى؟ في تلك اللحظة، فهمت أنّ أصعب أيّام حياتها بدأت للتوّ.

2

لفت الرداء الأخضر نظر ليليا نظراً إلى بياض المستشفى الناصع. انتظرت بهدوء بالغ اقتراب الطبيب منها. كان الاضطراب العاطفي الذي استبدّ بها قبل مغادرتها المنزل قد هدأ في سيّارة الإسعاف، وخلّف مكانه شعوراً غريباً بالسلام. عرفت أنّها تستطيع أن تبقى قويّة وهادئة إن أخبروها أنّ زوجها قد توفّي. في الواقع، لم تشعر حتّى بالانزعاج لإدراكها أنّ هذا هو ما أرادته في أعماقها. شعرت ليليا بالتعب. فالإرهاق العاطفي الذي تعانيه منذ سنوات طفا إلى السطح فجأة في ذلك النهار. أرادت لوحدتها غير الرسمية أن تنتهي، وتمنّت أن يعرفها العالم على أنّها امرأة وحيدة. فآرني، الذي بدا أنّه موجود في حياتها خلال السنوات الثلاثين الماضية، قد انسحب في الواقع إلى قوقعته منذ عشرين عاماً تقريباً، وحكم عليها بوحدة كريمة.

صحيح أنّهم بدوا مثل عائلة في السنوات الأولى من دخول الطفلين إلى حياتهما، وعاشوا على هذا الأساس، إلاّ أنّ هذه الحالة من النشاط استُنفدت في عشر سنوات. فعندما وصل الولدان، كان أحدهما في سنّ الثامنة والآخر في سنّ التاسعة. وكان كلاهما قد اختبرا أحزان الحياة بعمق شديد؛ شديد إلى حدّ أنّ ليليا وآرني لم يتمكّنا من سبر أغواره. وعدم تمكّنهم من التحدّث باللغة نفسها لم يساعدهم أيضاً. هكذا، وبينما كان الولدان يتعلّمان الإنكليزية، بدأت ليليا وآرني بتعلّم بعض الفييتنامية. فكان الأربعة يسيرون في المنزل حاملين القواميس بأيديهم وهم يعملون بجدّ على شيء جديد عليهم. لكن، في النهاية، اعتادوا حقّاً على الصمت

طيلة الوقت، إلى حدّ أنّه حتّى عندما بدأ الولدان يتكلّمان الإنكليزية بطلاقة، لم يعد لديهم ما يقولونه لبعضهم. فحلّت الإيماءات وتعابير الوجه محلّ الكلمات. لم يمضِ وقت طويل على ذلك على أيّ حال، فبعد تسع سنوات فقط، انتقلوا إلى الولايات المتّحدة، ودخل جيانغ، الذي كان يكبر شقيقته البيولوجية بسنة واحدة، الكلّية. ثمّ تبعته دونغ بعد عام. هكذا، وبعد عشر سنوات من العيش معهما، انتهى الأمر بليليا وآرني بدفع الأقساط المدرسية وجميع المصاريف الأخرى، وتحتّم عليهما قبول حقيقة أنّهما لن يمضيا أيّام الشكر والميلاد معاً بعد الآن.

انخفض عدد الزيارات بشكل كبير، وتمحورت المكالمات الهاتفية عموماً حول مبالغ المال اللازمة للولدين. ومع دخول الإنترنت حياتهم، تحوّلت المكالمات الهاتفية إلى رسائل إلكترونية. وهكذا، فإنّ الأصوات التي اعتادت عليها ليليا خرجت من حياتها أيضاً. لم يأبه آرني بأيّ من ذلك. برأيه، لا يختلف هذا الوضع عمّا مرّ به الآباء الآخرون مع أولادهم. ولم يكتشف سوى لاحقاً أنّ كلّ ذلك جزء من الرسالة التي حاول الولدان إيصالها إليهما. مع ذلك، لم يجعله هذا الأمر يثق بأحاسيس ليليا.

كانت ليليا قد فتحت الموضوع بعد سنوات، بعد عشاء الشكر، حول فنجان من القهوة وفطيرة يقطين. فذكرت مدى أهمّية يوم الشكر برأيها، وكيف أنّ الناس يتوقّعون الحصول على التقدير من وقت إلى آخر. فهم الولدان على الفور إلى أين يتّجه هذا الحديث. في الواقع، كانا ينتظران هذه الفرصة منذ سنوات. فبدأت دونغ بردّ الهجوم. لطالما كانت أكثر شراسة بعض الشيء وأسرع غضباً من شقيقها. فاتّهمت ليليا وآرني باستغلالهما لكسب المال. إذ عرفا أنّ الأشخاص الذين تبنّوا أطفالاً من فيتنام تلقّوا مساعدة من الحكومة، وبدا التحدّي واضحاً على وجهها. فبفضل مساعدة الحكومة، لم تُضطرّ ليليا إلى العمل قطّ، أليس كذلك؟ كان جيانغ يهزّ رأسه باستمرار موافقاً على كلامها. حالما سمعت

ليليا ذلك الاتّهام شعرت أنّها فقدت إلى الأبد السعادة التي كانت تنبع وتتراقص دائماً في مكان ما في داخلها، رغم كلّ التحدّيات. وتبيّن لها أنّ ثقتها الراسخة في الجنس البشري كانت خاطئة. ومع ذلك، أبت أن تريهما إيصالات المستشفى الذي تلقّيا فيه علاجاتهما الأولى، والتي احتفظ بها آرني بعناية، أو الأقساط الشهرية للمنزل، الذي اشترياه من أجلهما، أو كومات فواتير نفقاتهما المدرسية. ولم تحاول إقناعهما أنّ المال الذي أتى من الحكومة لم يكن يغطّي حتّى ثلث ما أنفقاه لسنوات. وعوضاً عن ذلك، نامت تلك الليلة محطّمة الفؤاد.

قبّلهما آرني على خدّيهما متمنّياً رؤيتهما لاحقاً، ولم يقل لهما: "لقد ظلمتمانا، وحطّمتما فؤاد ليليا" وعوضاً عن ذلك، استمرّ بإرسال شيكات بأرقام متواضعة لهما ولمواليدهما الجدد في العطل، ومناسبات الميلاد في السنوات التالية. لم يتكلّم أيّ منهما عن ذلك لاحقاً. ولم تعرف ليليا ما إذا كان آرني قد شعر بأنّه أضاع الوقت، والمال، والعاطفة سدى على هذين الولدين؛ كما شعرت. ومع غرفتَي النوم المنفصلتين، دُفنت هذه المسألة، شأنها شأن غيرها.

الآن، أرادت ليليا أن تكون وحدها فعلاً. أرادت أن تقوم قوّة ما بحلّ هذا الرباط الذي لم تستطع الخلاص منه، والذي عذّبها طيلة وجوده. تمنّت أن تقدّم لها الحياة ما أجّلته أو خشيت فعله على طبق من فضّة. أخذت تفكّر بما ستفعله إن تحقّقت أمنيتها. في البداية، عليها أن تذهب في عطلة. أرادت الذهاب إلى إيطاليا التي زارتها مرّة في شبابها، وتنشّق هواء روما مرّة أخرى. لقد كانت كريمة مع الحياة ومع الناس، وتريد منهم الآن ردّ المعروف. عليها أن تبيع ذلك المنزل المملّ والضخم المليء بالغبار فوراً وتنتقل مجدّداً إلى مانهاتن؛ تماماً مثل الأيّام الخوالي. عليها مشاهدة كلّ الأفلام، وزيارة كلّ معارض برودواي، والتجوّل في المتاحف طوال اليوم. لم يفت الأوان بعد على النزهات في سنترال بارك، أو ركوب

الدرّاجات الهوائية في المدينة. كانت زيارة تمثال الحرّية على رأس القائمة، لتذكّر نفسها بسبب مجيئها إلى هذا البلد وإلى هذه المدينة.

كانت قد أتت إلى هذه المدينة لتتألّق، وتُزهر، وترسم، وتنبض بالحياة. في سنّ الثانية والستّين، وخصوصاً في هذه اللحظة من حياتها، لم تشعر قطّ بأنّها متقدّمة في السنّ. كانت تتمتّع بصحّة جيّدة، وبشرتها ما زالت جميلة، وسواد شعرها ما زال يقاوم الشيب. وكأنّ الله منحها جسداً قويّاً لكي تتمتّع بالحياة إلى أقصى حدّ ممكن. ربّما فقدت ثقتها بالناس، ولكن ليس بنفسها. عليها أن تتّصل بإخوتها وترتّب لرحلة معهم. وعليها أن تتحدّث الفيليبينية أكثر وتنظر إلى أميركا من زاوية سياحية. شعرت ليليا بالفخر بحماستها وأملها، وعلت وجهها ابتسامة لاءمت تماماً خدّيها العريضَين. وقفت وحيّت الطبيب بسعادة ولّدتها رغباتها التي اكتشفتها حديثاً. أساء الطبيب تفسير الفرح الذي بدا على وجه ليليا، فابتسم وقال: "وضع زوجك مستقرّ حاليّاً. لقد أصيب بحادث دماغي طفيف سبّب له شللاً جزئيّاً. إلاّ أنّه توقّف قبل أن يسبّب له أذىً أكبر. نصفه الأيسر ضعيف، ولا نعرف تماماً كم سيبقى على هذه الحال، أو ما إذا كان سيستعيد قدرته على الحركة. مع ذلك، سأكتب أسماء الأطبّاء اللازمين من أجل العلاج الجسدي والنفسي، والذي يجب أن نبدأ به حالاً. تنتظرك أيّام صعبة، كلاكما في الواقع. وأنا واثق من أنّك ستحتاجين إلى مساعدة نفسية. سنتحدّث عن ذلك بالتفصيل لاحقاً، هذا كلّ شيء حاليّاً. أنصحك بالذهاب إلى المنزل وأخذ قسط من الراحة، لأنّ عملاً شاقّاً ينتظرك بعد خروجه"

تصلّبت الابتسامة على وجه ليليا. ظلّت نظراتها تائهة لمدّة من الوقت بعد رحيل الطبيب. كانت تحاول استيعاب جملة "نصفه الأيسر ضعيف" عادت للجلوس على الكرسيّ خلفها، وشعرت وكأنّ الطاقة التي غمرتها قبل لحظات قد خرجت من رؤوس أصابعها، وتركت

جسدها أشبه بكيس فارغ. عاد الرقم - اثنان وستون - مجدّداً إلى ذهنها، وشعرت أنّها كبيرة، كبيرة جدّاً. لم تكن واثقة بأيّ من الولدين تتّصل أوّلاً. فمع أنّ دونغ كانت الأشرس بينهما، إلاّ أنّها لم تخفِ قطّ إحساسها بأنّها أقرب إلى آرني. إذ وجّهت معظم اللوم إلى ليليا، وتصرّفت وكأنّ آرني كان واحداً من الضحايا في هذه القصّة ولم تكن له كلمة في القرارات التي اتُّخذت. ربّما كانت تستخدم حقّها بكره أمّها، كما تفعل جميع الفتيات في مرحلة ما من حياتهنّ. ولو أنّها كانت ابنتها البيولوجية، لوجدت سبباً آخر لمعاداتها.

تناولت ليليا هاتفها ونظرت إليه بتردّد لبضع دقائق. لم تكن تحمل معها نظّارة القراءة لأنّها غادرت مسرعة، فأبعدت يدها عن وجهها، وحاولت رؤية الأسماء على الشاشة. تمنّت لو أنّها واحدة من أولئك الأمّهات اللواتي يحفظن أرقام بناتهنّ عن ظهر قلب. فالحبّ الذي أرادت تقديمه لسنوات تراكم في داخلها وأزهر حزناً كبيراً. أخيراً، وجدت الرقم وضغطت على زرّ الاتّصال بتوتّر. كانت دونغ قد وضعت مسافة كبيرة بينهما إلى حدّ أنّها لم تشأ إجراء هذه المكالمة التي كانت تماماً لصالحها. شعرت بقلبها يغوص وهي تدرك أنّها ستسمع صوت ابنتها المنزعج على الطرف الآخر من الخطّ. لهذا السبب، شعرت ليليا باسترخاء كبير لأنّ دونغ لم تردّ على الاتّصال. كانت تعرف أنّ الفتاة الشابّة لا تترك هاتفها أبداً، والسبب الوحيد لعدم ردّها هو أنّها رأت اسم المتّصل على الشاشة، ولم تكن تملك الوقت للتكلّم مع أمّها المزعومة. وعندما سمعت ليليا التحيّة على البريد الصوتي فكرت أن عدم ترك رسالة عقاب كافٍ لها. كانت تعرف أنّ دونغ تعاود الاتّصال بحسب أهمّية الموضوع. وكانت ليليا واثقة أنّ تلك الشابّة سريعة الغضب ستصيح في وجهها لاحقاً لأنّها لم تترك لها رسالة بهذه الأهميّة، لكنّها قرّرت الاتّصال بجيانغ عوضاً عن ذلك. وبعدما رنّ الهاتف طويلاً، سمعت صوت ابنها المتعب غير الراغب

في لفظ كلمة. سألها: "مرحباً ليليا، كيف حالك؟" شعرت ليليا الآن بالأسف لأنّها سمحت لولديها بمناداتها باسمها في سنّ المراهقة. فهي لم تتوقّع آنذاك أن تحلّ محلّ أمّهما، ولم تبحث هذا الموضوع قطّ. بالإضافة إلى ذلك، بما أنّها كانت مسؤولة عن اسمها، ليليا(*)، اسم زهرتها المفضّلة، فقد أحبّت أن يناديها أكبر عدد ممكن من الناس بهذا الاسم. فكلّما ناداها أشخاص أكثر بهذا الاسم، شعرت أنّها أشبه بزهرة السوسن.

كان الاسم الذي أُطلق عليها عند ولادتها هو مانغاغاوي، أي سيّدة المرض. إنّها السيّدة التي تشفي المرضى، وتعالج جروحهم، وتقرّب بين الناس، إنّها المُصلحة التي تملك مكانة محترمة جدّاً في الثقافة الوثنية. ويقال عنها أيضاً إنّها تتنكّر بزيّ معالِجة، إلاّ أنّها في الواقع تنفث المرض. لكنّ ليليا لا تحبّ أبداً سماع هذا التفسير. أحبّت ليليا مانغاغاوي، حتّى إنّها حاولت في صغرها علاج الناس عندما يصابون بالألم، فكانت تُغمض عينيها بقوّة وتضع يديها على مكان الألم. مع ذلك، كان هذا الاسم مستحيلاً بالنسبة إلى الأميركيين. فهم سيحاولون اختزاله، وسيغيّرون المعنى تماماً. لذلك، قامت باختيار اسمها. سمعت عن شخصيّة تدعى ليليا في إحدى روايات إ. م. فورستر، في الحفلات التي حضرتها لاحقاً. إذ سألها بعض المثقّفين ما إذا كان اسمها مأخوذاً من إحدى شخصيّات الرواية. فقرأت الكتاب بغمضة عين وأخافها المعنى الذي أُضفي على الاسم. كانت ليليا في الكتاب امرأة متحرّرة، ذهبت إلى إيطاليا، وأغرمت بتلك البلاد وبشابّ أصغر منها. إلاّ أنّها ماتت في شبابها خلال الولادة، أي إنّها ذبلت قبل أوانها مثل زهرة السوسن. اعتقدت ليليا مثل جميع أجدادها أنّ معاني الأسماء تؤثّر على مصائر الناس، إلاّ أنّها تخلّصت من هذا الخوف مقنعة نفسها أنّ هذا الاعتقاد لا ينطبق سوى على الأسماء

(*) أي زهرة السوسن.

التي تُطلق عند الولادة. على الرغم من هذا العزاء، لم تستطع منع نفسها من التفكير بتلك الخرافة في عدّة مراحل من حياتها. ألا تشبه حياتها حياة أزهار السوسن؟ ألم تذبل قبل أوانها نوعاً ما؟ ألم تكن هي من جرّت على نفسها التعاسة بعبثها بعقيدتها؟ عندما أتى الولدان إلى الولايات المتّحدة، حاولت هي وآرني أمركة اسميهما أيضاً. ولكن، بما أنّهما لم يتمكّنا من شرح هذا الأمر خلال حقبة الصمت تلك، فقد استمرّا بمناداتهما باسميهما الأصليَّين. فكّرا أنّهما سيغيّران اسميهما لاحقاً إن أرادا، لكن تبيّن أنّ الولدين كانا أكثر ولاء لأصولهما منها هي. ربّما لأنّ اسميهما هما كلّ ما يربطهما بحياتهما السابقة. كان جيانغ اسم نهر في فيتنام، واسم دونغ يعني الجمال. وكان كلاهما حاسمَين في جعل الناس يلفظون اسميهما بشكل صحيح. شعرت ليليا في بعض الأحيان أنّ دونغ اعتبرت نفسها متفوّقة عليها في هذه القضيّة، من بين قضايا أخرى. وهي لم تكن مخطئة تماماً عندما افترضت أنّ دونغ تراها كشخص خان هويّته.

"مرحباً جيانغ، لديّ أنباء سيّئة. آرني مريض. لديه... جلطة... انفجرت في دماغه وأصيب بسكتة دماغية. إنّه الآن في العناية المركّزة. نحن في مستشفى سان جوزيف"

"ربّاه! متى حدث ذلك؟"

"وجدته عند الساعة التاسعة وعشر دقائق هذا الصباح. وقد أصيب بالنزيف في وقت سابق"

"لماذا لم تتّصلي من قبل؟"

"أنا آسفة، لم يتسنَّ لي ذلك. استجمعت نفسي للتوّ"

"حسناً، سآتي اليوم بعد العمل. هل عرفت دونغ؟"

"اتّصلت بها لكنّها لم تجب"

"سأخبرها. لست واثقاً ما إذا كانت تستطيع المجيء اليوم. فعائلة

زوجها ستأتي لتناول العشاء الليلة عندها. لكنّني سأمرّ بالتأكيد"

تمنّت وهي تغلق الخطّ لو أنّها لم تتّصل به على الإطلاق. أكثر ما أحزنها هو أنّ الولدين يتحدّثان مع بعضهما يوميّاً، ويعرف أحدهما برنامج الآخر. حتّى إنّهما اشتريا منزلين متجاورَين. كانت هذه المسافة موجودة معهما فقط. أبلغها ابنها الحبيب أنّه سيمرّ بعد انتهاء العمل. في الواقع، كان يعمل مديراً تنفيذياً في شركة تأمين بفضل المال الذي أنفقاه على تعليمه. كان يستطيع ترك مكتبه في أيّ وقت يشاء، لا سيّما في وقت كهذا. لكنّه لن يتمكّن من المرور سوى بعد انتهاء العمل. مع ذلك، تجرّأ على سؤالها عن سبب عدم اتصالها به في وقت سابق، وأجابت بجبن كالعادة، قائلة إنّها آسفة. أعادت الهاتف إلى جيب فستانها، ويداها ترتعشان. تجمّعت الدموع التي كانت تتوقّعها منذ فترة عند أطراف رموشها، وقد سبّبها الغضب. وقفت، وتوجّهت إلى باب المستشفى، وهي تتمايل في الرواق عبر الغشاوة التي كست عينيها. أرادت العودة إلى البيت والتخلّص من الطعام الذي تناولته في المستشفى بأسرع ما يمكن. كانت تتوق إلى تناول النيلاغا؛ تماماً كما تفعل في كلّ مرّة تشعر فيها بالحزن أو بالتعب منذ طفولتها. حساء الملفوف مع البطاطس والقليل من صلصة السمك واللحم.

ترجّلت من سيّارة الأجرة أمام منزلهما، وتوجّهت إلى الباب الجانبي الذي يؤدّي مباشرة إلى المطبخ، عوضاً عن الباب الأمامي. حالما دخلت، غمرها مطبخها برائحته وهدّأ روعها من دون إضاعة الوقت. احتضنها بذراعيه لمداواة جراحها في مدّة قصيرة.

* * *

وقف مارك أمام خزانة كلارا، محاولاً اختيار أحد أثوابها. ما إن فتح باب الخزانة، حتّى فاحت رائحة زوجته، مثل صفعة على وجهه، وحرّكت

مجدّداً جميع الأحاسيس التي ظنّ أنّه سيطر عليها. لم يعرف كم بكى، وكم نام، وماذا فعل منذ أن أخذوا كلارا جثّة هامدة في اليوم السابق. بالكاد تذكّر ما كان يقوله الناس من حوله، لكنّه فهم أنّه تمّ الاتّفاق مع دار للجنازات لتولّي كلّ شيء. تذكّر أيضاً أنّه تناول قرصين من الدواء مع كوب من الماء، ولم يدرك متى رحل الجميع وتُرك بمفرده. كلّ ما يعرفه الآن هو أنّ عليه اختيار ثوب وأخذه إلى دار الجنازات.

لطالما استغرب مارك عرض الأموات في تابوت مفتوح. في الواقع، كلّما ذهب مع كلارا لحضور جنازة، تحدّثا في هذه المسألة لاحقاً، ووعد كلّ منهما الآخر بعدم السماح بذلك لأيّ منهما. لم يعرف أيّ منهما أنّ ذلك اليوم سيحلّ بهذه السرعة. لطالما اعتقدا أنّهما سيموتان واحداً تلو الآخر في شيخوختهما، وبنيا جميع مبادئهما على هذا الأساس.

لكن على العكس من ذلك، وجد مارك نفسه فجأة بمفرده مع جثّة كلارا الهامدة. كان في الخامسة والخمسين من عمره فقط وكلارا في الثانية والخمسين. وقبل أن يتمكّن من التخلّص من مضادّات الاكتئاب التي تناولها، اتُّخذت جميع الترتيبات. كيف يمكنه قول ذلك لكلارا؟ لم يكن الموت عقلانياً ولا عملياً كما اعتقدا. فالصدمة تهزّ المرء حتّى العظم. أراد الرجل الذي تُرك وحيداً رؤية وجه المرأة التي أحبّها مرّة أخرى. لم يكن ممكناً وداعها بهذه السرعة.

كان يفكّر أمام الرفوف. ما الذي كانت كلارا سترغب في ارتدائه؟ ما هي الملابس التي كانت سترتديها في لحظة الوداع؟ نظر إلى أثوابها المعلّقة واحداً بجانب الآخر. استمرّت زوجته بارتداء الأثواب، بينما كانت جميع النساء في العالم يحاولن حشر أجسادهنّ في السراويل. كانت تفضّل الأثواب ذات الأكمام القصيرة في الصيف والشتاء على حدّ سواء، وترتدي إحدى ستراتها الصوفية متعدّدة الألوان عندما تشعر بالبرد. استقرّ رأيه أخيراً على ثوب بنّي. أمّا بالنسبة إلى السترة، فوقع اختياره على

واحدة زرقاء، كانت تبعث الدفء في قلبه كلّما رآها، لكنّه مع الأسف لم يقل ذلك لزوجته قطّ. حمل السترة بيديه وقرّبها من أنفه. ربّما كانت كلارا قد وضعت السترة في الخزانة من دون غسلها وتركت عطرها لزوجها هديّة. لم يقاوم الدموع، بل تركها تجفّ على الصوف الناعم. عندما استعاد قواه مجدّداً، اختار أحد الأحذية المسطّحة الصغيرة الخاصّة بكلارا ووضعها جميعاً في كيس. توجّه إلى باب المنزل متعثّراً، ولم يقوَ على النظر إلى المطبخ. لم يكن قد تناول شيئاً منذ اليوم السابق، بل اكتفى بشرب بعض الماء من حنفيّة الحمّام. خرج، وأغلق الباب تاركاً خلفه شقّة صامتة جدّاً وخالية من الألوان، كما لم تكن مطلقاً.

كان معتاداً على السير أو ركوب مترو الأنفاق للذهاب إلى أيّ مكان. غير أنّه لم يشعر الآن أنّه يملك الطاقة للسير ولا الجرأة لرؤية سوق الخضار في ساحة مونج التي تقع بجانب محطّة المترو تماماً. كانت كلارا تذهب إلى ساحة مونج، الواقعة على بُعد مئة متر فقط من شقّتهما، ثلاث مرّات في الأسبوع، وتشتري من هناك كلّ ما تحتاج إليه من خضار وفاكهة، وكان كلّ من في السوق يعرفها. فتعود إلى المنزل محمّلة بأكياس هدايا من المزارعين مليئة بالكلمنتين، والتفّاح، والسفرجل خلال الميلاد، وكانت تأخذ لهم بالمقابل أشهى حلوياتها ومقبّلاتها ملفوفة بأشرطة جميلة. عرف مارك أنّ المزارعين سيتساءلون عن سبب غياب كلارا في ذلك النهار. فقد كانت معتادة على إخبارهم أنّها ستغيب لفترة، حتّى عندما تذهب لقضاء إجازة. عرف مارك جيّداً أنّ عيونهم أيضاً ستبحث عن وجه كلارا المشرق في هذا اليوم الرمادي.

مشى مقابل السوق، واستقلّ إحدى سيّارات الأجرة المنتظرة في الموقف. أعطى السائق عنوان دار الجنازات، وأغمض عينيه. لم يرغب حتّى في رؤية ضوء النهار. ما زال عاجزاً عن تصديق حقيقة ما يجري، وإمكانيّة تغيّر حياته بتلك السرعة. تذكّر أنّه لم يتّصل لإخبار آمو الذي

يعمل لديه في الصالة بما جرى. لكنّ الفكرة غابت عن ذهنه بالسرعة التي ظهرت بها. تماماً مثل كلّ شيء آخر، لم يكن هذا الأمر أيضاً بذي أهمّية. أحبّ آمو عمله بقدر مارك. وفي بعض الأحيان، كانا يلتقيان صدفة في متاجر مختلفة لبيع الكتب الهزلية خلال استراحات الغداء، لكنّهما يتابعان بحثهما بعد تحيّة وجيزة بالرأس. كان منعزلاً عن الحياة الاجتماعية شأنه شأن مارك، ويريد تخصيص كلّ وقته لأكثر شيء يحبّه، ألا وهو الكتب الفكاهية. كان مارك محظوظاً بزواجه من كلارا، فقد تعرّف على كلّ من حوله بفضلها. والكلّ أحبّه وصادقه من أجل زوجته اللطيفة. لقد رسّخت كلارا صداقاته، وحرصت على أن تستمرّ إلى الأبد. وإن كانت شقّته قد ازدحمت بالناس والأصدقاء في اليوم الفائت، فالسبب الوحيد لذلك هو زوجته. كلّ من في حياتهما يعرف أنّه كان طفلها المدلّل، ولهذا السبب سيهتمّون به مثل ولد يتيم. تمنّى مارك بينه وبين نفسه أن يكون آمو محظوظاً مثله، وتمنّى أن تحبّه امرأة كما أحبّته كلارا.

عندما توقّف سائق سيّارة الأجرة أمام دار الجنازات، هزّ رأسه إلى الأمام والخلف بتفهّم، وأخذ المال بنظرات متعاطفة، ولكن من دون أن يبتسم، ومدّ يده لردّ الباقي. ولكن، كان مارك قد أغلق الباب خلفه، ويده التي تحمل الكيس بإحكام لم تتوقّع أخذ ما تبقى. شعر بالدوار، وتمنّى أن يراه أحد من الداخل، فيأتي ليأخذ الكيس منه ليتمكّن من الرحيل مسرعاً. فهم في تلك اللحظة كم سيكون من الصعب عليه المجيء إلى هذا المكان في اليوم التالي لتوديع كلارا. أجبر نفسه على الدخول، وسلّم الكيس، بعدما أعطى اسمه لأوّل شخص رآه، ثمّ غادر المبنى بالسرعة التي دخل بها. لم يستطع حمل نفسه على القول: "هذه الملابس لكلارا بيلار" لم يكن مستعداً للفظ اسم زوجته بعد. قفز مجدّداً إلى إحدى سيّارات الأجرة قائلاً: "شارع مونج، لوتيل ديزارين"

كان ديزارين واحـداً من الفنادق الموجودة في شـارع منزلهما. وكان واحداً من الأماكـن التي يراها كلّ يـوم تقريباً في طريقه إلـى صالته. طلب من موظّف الاسـتقبال إعطـاءه أظلم غرفة فـي أبعد طابـق، إن أمكن. فهم عامل الاسـتقبال على الفور أنّ هذا الرجل الذي لا يحمل حقائب، والذي يملك عينين شـديدتي الاضطراب باريسي مضطرب، وليس سائحاً، لذلك قام بملء الاسـتمارة بأسـرع ما يمكن، وطلب منه التوقيع عليها، ثمّ أرسله إلى أقلّ غرف الفندق جمالاً وأكثرها عيوبـاً. دخل مارك الغرفة، ومن دون أن يكلّف نفسـه عناء فتح السـتائر، كان واثقـاً أنّ النافذة تطـلّ على جدار. أطفـأ مصبـاح الطاولة الـذي أضيء آليـاً عندما فُتـح الباب، وتهـاوى على السـرير. ولـم يمضِ وقت طويل حتّى اسـتغرق في نوم لن يستيقظ منه قبل اليوم التالي: نوم من دون أحلام ولا ذكريات.

عندمـا فتح عينيـه في اليـوم التالـي، واجـه صعوبة فـي تذكّـر مكانه فـي الدقائق القليلـة الأولى. ولـم تسـاعده الغرفـة الغارقة فـي ظلام دامس علـى معرفة الوقـت. نظـر بعينيه نصـف المغمضتيـن إلى عقارب السـاعة الفسـفورية في يده. كانت تشـير إلى الثانية عشـرة. وعندما نظر إلى الجزء الصغير الذي يشـير إلى التاريـخ، أدرك فجـأة أنّ جنازة كلارا على وشـك أن تفوته. فالمراسـم سـتبدأ عند السـاعة الواحدة والنصف، وسـيتوجّهون إلى مقبـرة مونبارنـاس عند السـاعة الثانية والربـع. فنهض ورحـل. وبينما كان يحاول مواسـاة فؤاده المحطّم باثنتين وعشرين ساعة من النوم، عمّت الفوضى في الخارج. إذ كان جميع الأقـارب البعيدين والأصدقاء يبحثون عنه منذ سـاعات. كانوا قد اتّصلوا بجميع المستشـفيات، وسـألوا الشـرطة عن حوادث الانتحار التـي وقعت في ذلـك اليوم وفي اليوم السـابق. كان الجميـع ينتظـرون ظهـوره مجـدّداً بتوتّـر. لم يكـن مـارك قد فكّـر بذلك، لكنّـه أدرك مدى قلـق الجميع عندما وصـل إلى البيت. مع ذلـك، لم يكن

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في وضع يسمح له بالإحساس بالخجل من عدم مسؤوليّته. في الوقت الحاضر، لم يكن قادراً سوى على التعامل مع شعور واحد، وتوقّع من الجميع التفهّم. من دون أن يقول أيّ كلمة، دخل غرفته وبدّل ملابسه ببذلة رسمية.

عندما دخل الحمّام ليحلق ذقنه، جلس على المرحاض حاملاً آلة الحلاقة بيده، وأغمض عينيه لكي لا يرى شيئاً من أغراض كلارا. حلق ذقنه مغمض العينين. لم يكن قادراً على رؤية شامبو زوجته في تلك اللحظة، ولا كريم العينين المضادّ للتجاعيد. لم يكن ينوي أن يلمس فرشاة كلارا، ولا أحد خواتمها التي نسيتها على المغسلة، بجانب الصابون. عندما عاد إلى غرفة الجلوس للانضمام إلى الموجودين، اقتربت منه إحدى أقدم صديقات كلارا، أوديت، ونفضت شعرة سقطت على ياقة قميصه. احتضنت وجهه بيديها، ونظرت إلى عينيه. كان وجهها متورّماً أيضاً بفعل البكاء، حيث تغيّر شكل أنفها وفمها تقريباً. انتظر مارك عبثاً أن تقول شيئاً غير عادي وتخفّف آلامه. نظر إليها بعينين متوسّلتين، لأنّه لم يكن يعرف كيف يتعامل مع كلّ هذا. عوضاً عن ذلك، سألته أوديت عمّا إذا كان لديه ما يأكله. أدرك مارك أنّ شيئاً لم يعبر حلقه في اليومين الفائتين، فأجابها نافياً بهزّة من رأسه. كلّما مرض أو شعر بالإحباط، كانت كلارا تعدّ له طبق جاردينيير دو ليغوم. فتمزج خضار الموسم، وتطهوها بالطريقة الصحيحة، وبعدما تتأكّد من أنّه تناولها كلّها، تحتضنه بقوّة. كانت تقول: "ستكون الآن على ما يرام"، وتضيف: "لا تقلق، فذراعاي الدافئتان والجاردينيير دو ليغوم سيكون لها مفعول السحر في بضع دقائق"

بعد مساعدته على الجلوس في مكان ما، ذهبت أوديت إلى المطبخ. كان من الصعب عليها هي أيضاً أن تدخله. فوجود كلارا بأكمله كان ظاهراً في كلّ بلاطة، وطبق، وشوكة، وحتّى في الفوضى التي تعمّ

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الطاولة. كانت واثقة من وجود شيء للأكل في برّاد صديقتها. فتحت الباب، وانحنت لتفحّص محتوياته لبرهة. ثمّ أخرجت إحدى العلبتين الصغيرتين وسخّنتها في الميكرويف. عرفت أوديت أنّها لن تتمكّن من جلب مارك إلى المطبخ، فأخذت له الطعام على صينية.

"سيأتي الجميع إلى منزلنا بعد الجنازة. قمت باستئجار خدمة ضيافة جيّدة جدّاً. أنا واثقة أنّها كانت ستُعجب كلارا. ستأتي أنت أيضاً، أليس كذلك؟"

وافق مارك بهزّة من رأسه.

"يمكنك البقاء معنا لفترة إن أردت. سأعيد ترتيب كلّ شيء هنا، إن كنت ترغب بذلك، وأقوم... بـ... تنظيفه..."

عرف مارك ما عنته أوديت بالتنظيف: إفراغ البرّاد، وتنظيف المطبخ، وإخفاء كلّ ما كان ينتمي لكلارا. كان يعرف أنّه لن يتمكّن من فعل أيّ من ذلك، فهزّ رأسه من جديد موافقاً. كان لديه اعتراض واحد فقط.

"سأمكث في أحد الفنادق. سأوضّب حقيبة صغيرة الليلة وأرحل"
"أهو الفندق الذي مكثت فيه ليلة أمس؟"
"أجل"
"هل لي أن أسألك عن اسمه؟"
"ديزارين"
"حسناً. إن غيّرت رأيك، يمكنك المجيء إلى منزلنا، أنت تعرف ذلك"

"أجل"

لم تشعر أوديت بالارتياح لترك مارك بمفرده. لم تكن لديها فكرة إطلاقاً إن كان مارك من الأشخاص الميّالين إلى الانتحار. لم تفهم سوى الآن أنّها لم تحاول إطلاقاً التعرّف حقّاً على هذا الرجل. فقد قبِل أن يحيا تحت جناح كلارا، وعاش مثل قمر، أو قمر اصطناعي، للعالم حيث إنه كان كافياً للمرء أن يعرف كلارا وحسب. عاش مارك حياته كأحد ملحقات كلارا، أهمّها على الأرجح. والسلام الذي وجده في حضور زوجته كان واضحاً لجميع أصدقائهما، حيث فاجأهم هذا النوع من الاستسلام. كانت أوديت تفكّر أحياناً بعلاقتهما وتشعر بالغيرة. وكانت تعزّي نفسها بالتفكير في أنّ هذا النوع من الحميمية، الذي لم تعرفه مع زوجها، سببه عدم إنجابهما الأطفال. شعرت بالامتنان لأنّها أنجبت أولاداً، فهي لن تعرف أبداً هذا النوع من الوحدة المطلقة بفضلهم. نظرت إلى مارك مجدّداً، وبدا وكأنّه يواجه صعوبة في ابتلاع الطعام. لو أنّهما أنجبا طفلاً، لتجاوز هذا الألم على نحو أسرع بكثير. إذ كان سيشعر أنّه مجبر على ذلك، لأنّ سعادة الطفل أهمّ بكثير من أيّ شيء آخر. مارك، بالمقابل، سيجد عزاءه في الزواج مجدّداً على الأرجح. غير أنّ أوديت فوجئت بالغضب الذي شعرت به لمجرّد التفكير في ذلك الاحتمال. عرفت أنّه من السخيف التفكير أنّ صديقتها قد تعرّضت للخيانة، لكنّها لم تستطع منع نفسها من النظر بكراهية إلى مارك. كانت واثقة أنّه لن يمضي وقت طويل، خمسة أو ستّة أشهر على الأكثر، قبل أن يأتي مارك ويخبرهم أنّ في حياته امرأة جديدة وأنّه ينوي الزواج. سيكون قمر امرأة أخرى. إنّه من ذلك النوع من الرجال الذين لا يستطيعون العيش من دون امرأة. لم يتمكّن من إطعام نفسه في اليومين الماضيين، فكم سيستمرّ على هذه الحال؟

ابتلع مارك اللقمة الأخيرة من طعامه بصعوبة كبيرة، جاهلاً تماماً الخطط المستقبلية التي تُرسم له. شعر أنّ حزن الساعات الأخيرة يضغط بثقل على كاهله. وبدأ يتوق منذ الآن إلى غرفة الفندق التي سيتوجّه إليها لاحقاً، والساعات التي سيمضيها هناك في النوم. أراد الابتعاد عن هذا المنزل، وعن رائحة كلارا، وعن تلك الوجوه التي تذكّره بها، وعن نفسه. كان أكثر ما يذكّره بها هو نفسه. فقد كانت كلارا البطّانية التي يغطّي بها جسده منذ سنوات. وهو الآن يرتعد برداً في غيابها. في بعض الليالي، وهما متمدّدان وجهاً لوجه تحت الأغطية، كانا يتحدّثان عمّا إذا كانا يستطيعان العيش مع شخص آخر بعد كلّ هذه السنوات. كانا يقولان: "غير ممكن" وكان مارك يقول ذلك دائماً بصوت أعلى بعض الشيء. عندها، كانا يستغرقان في النوم بسعادة لمعرفتهما أنّ حبّهما أبدي. تذكّر مارك الآن تلك الليالي ونظر حوله. نظر إلى النساء الأخريات الموجودات في المنزل، وإلى أصدقائه. قال في سرّه مرّة أخرى: "غير ممكن"، ورأى النظرات القاسية على وجه أوديت.

* * *

راحت فيردا تعتذر من الناس على الإزعاج الذي تسببه أمّها التي كانت تصيح بملء رئتيها في المستشفى، وتحرص على إسماع جميع من فيها. كانت تعرف تماماً مدى الألم الذي تشعر به لأنّها كسرت ذراعيها من قبل في مناسبتين مختلفتين. لكنّها تعرف أيضاً أنّه لا حاجة إلى الصراخ بهذا القدر. كانت السيّدة نسيبة تنوي بالطبع إعطاء هذا النوع من الألم حقّه. لطالما كانت ماهرة في تضخيم أيّ نوع من الانزعاج، أو الانفعال، وكانت ناجحة في جعل الناس يعملون من أجلها من دون كلل أو ملل. عندما تلاشى صوتها أخيراً، عرفت فيردا أنّهم قاموا بتخديرها لإجراء العمليّة.

بعد ساعات، خرج الطبيب من غرفة العمليّات وهو يتصبّب عرقاً.

كانت السيّدة نسيبة واحدة من أصعب المرضى الذين عرفهم وأكثرهم ضعفاً. وعندما أتى للتحدّث مع فيردا، أخذ نفساً عميقاً قبل أن يبدأ. قال: "سارت العمليّة على ما يرام"، ثمّ أضاف: "في الواقع، واجهنا صعوبة في تنويمها... فوركها لم تنكسر لأنها سقطت، بل لقد سقطت لأنّ العظم انكسر من تلقاء نفسه ولم يعد يقوى على حمل وزنها" أصغت فيردا إلى الطبيب، وبدا من تعابير وجهها أنّها تفهمه تماماً. "لقد أجرينا الجراحة، وأهمّ شيء الآن هو بدء العلاج الفيزيائي بعد يومين أو ثلاثة على الأكثر. عليها أن تتحرّك، فهذا هو الأهمّ. لا شكّ أنّ عتبة إحساس السيّدة نسيبة بالألم منخفضة جدّاً..." ضحكت فيردا عن غير قصد عندما قال ذلك، وحاولت الابتسام على نحو أكثر عقلانية. فكرت في سرّها من دون أن تشارك الطبيب أفكارها: "عتبة إحساسها بالألم منخفضة؟! فلنقل إنّ عتبة مبالغتها عالية جدّاً". ولكن، وكأنّه عرف ما تفكّر فيه، تابع مبتسماً: "لذلك، حتّى لو صاحت كما فعلت اليوم، عليك إجبارها على الحركة" هزّت فيردا رأسها موافقة، وكأنّها تقول "بالتأكيد" ولم تبح بالصعوبات التي ستواجهها مع أمّها. كانت تعرف جيّداً أنّهما في بداية الطريق، الذي سيؤدّي إلى نهاية السيّدة نسيبة. أغمضت عينيها لدقيقة، متجاهلة الطبيب الواقف أمامها، وطلبت من الله أن يكون في عونها. ربّما ستحتاج إلى ممارسة المزيد من اليوغا التي بدأت بها مؤخّراً، فمن المستحيل أن تتمكّن من تحمّل عبء كهذا من دون مساعدة. كانت تعرف أنّ معظم العجائز الذين يكسرون أوراكهم يموتون بعد عام. إذ يصابون بانسداد وعاء دموي نتيجة قصور في القلب. لكنّها تعرف أيضاً أنّ بعض الأشخاص يعيشون لسنوات طويلة بعد هذا النوع من الإصابات، وشعرت في أعماقها أنّ أمّها لن تموت نتيجة قصور في القلب. يجب أن يكون السبب أكثر إبهاراً. بالإضافة إلى ذلك، ألم تتمتّع بصحّة جيّدة جدّاً على الرغم من كلّ أمراضها الوهمية؟

بحسب ذاكرة فيردا، كانت أمّها مريضة دائماً. فمن عادة السيّدة نسيبة أن تصاب بالإغماء كثيراً. وإن لم يُغمَ عليها، كانت تنام نوماً عميقاً بفعل مضادّات الاكتئاب. كان باسيفلورا - الدواء وليس زهرة الآلام - صديقها المفضّل، تليه كولونيا الليمون المحتوية على 85 بالمئة من الكحول. وعندما كانت تواجه أقلّ عصيان من ولديها، كانت تهدّدهما بالقفز من النافذة، أو تسقط على أرض المطبخ محدثة ضجّة كبيرة؛ إن أرادت أن تكون أكثر تأثيراً. كلّ ما عاشته كان مبالغاً فيه: سعادتها، حزنها، عصبيّتها، وأمراضها، لا سيّما أوجاعها. وكأنّ العالم بأكمله كان أحد أطرافها. كانت تُظهر معاناتها بهذا القدر. لكن، على الرغم من كلّ ذلك، لم تُظهر الفحوص التي أجرتها على مرّ السنين وجود شيء خطير. في الواقع، كانت بصحّة أفضل بكثير من أقرانها.

غادرت السيّدة نسيبة المستشفى وهي تئنّ وتتلوّى بعنف، بعد يومين من الجراحة، ولكن من دون وجود دموع حقيقية في عينيها. وكما يحصل في كلّ مرّة، راحت تنادي ابنتها كلّ دقيقتين، مولّدة في فيردا اليأس نفسه الذي شعرت به طيلة حياتها. سيكون إدخالها في المصعد الصغير واصطحابها إلى شقّة ابنتها في الأعلى دراما حقيقية. لم تشكّ فيردا إطلاقاً أنّ أمّها ستؤدّي مشهداً درامياً كبيراً. كانت قد أمضت بعض الوقت في المنزل لإعداد غرفة لها قبل إخراجها من المستشفى، كما حاولت تحضير سنان لما ينتظرهما في المستقبل القريب. كان سنان يعرف السيّدة نسيبة قبل مدّة طويلة من زواجه من فيردا منذ خمسة وثلاثين عاماً، منذ أن كان طفلاً، ويعرف كلّ عاداتها كما لو أنّها أمّه. كانت حماته مشهورة بنوبات الإغماء في تلك الأيّام أيضاً. وشأنه شأن جميع الأولاد في الشارع، كان يعرف أنّ عليه الذهاب لإخبار فيردا إن أصيبت العمّة نسيبة بالإغماء في الشارع. ولكن، خلافاً لجميع الأولاد الآخرين، كان كلّما رأى فيردا عند الباب، ينبض قلبه بسرعة ويتلعثم، ويعجز عن إخبارها بما أتى من أجله،

فتفهم الفتاة المسكينة ما حدث من دون مساعدته. وعندما تصل فيردا إلى أمّها التي تكون في حالة إغماء، ترى بائع الفاكهة الموجود عند ناصية الشارع، أو بائع الحلويات، أو المرأة التي تعمل في المتجر المجاور وهي تفرك معصمَي السيّدة نسيبة بعطر الليمون الذي تحمله دائماً في حقيبتها لاستعادة وعيها. وعندما كانت تستعيد وعيها مجدّداً، كانت فيردا تأخذ منها الأكياس، وتسند جسد أمّها على جسدها، وتساعدها على السير إلى البيت. كانت تعرف دائماً أنّ كلّ من في الشارع، بمن فيهم الأشخاص الذين ساعدوا السيّدة نسيبة لتستفيق، يضحكون من وراء ظهريهما، باستثناء سنان.

عندما أعلن سنان لأسرته أنّه يرغب في الزواج من فيردا، عرف تماماً ما ينتظره. سأله إخوته: "هل أنت متأكّد؟" في إشارة إلى السيّدة نسيبة وحسب. لم تكن لديهم أيّ شكوك إزاء فيردا، فكلّ من في الحيّ يحبّها. فقد كانت تلك الفتاة المسكينة مهذّبة جدّاً، أضف إلى أنّها كانت رائعة الجمال. اعتُبرت الزوجة والكنّة التي يحلم بها الجميع. ولكن، لا أحد في الجوار كان يريد مصاهرة السيّدة نسيبة. بذلت السيّدة سنيّة جهدها لحمل ابنها على تغيير رأيه، وقالت له إنّ ذلك سيؤثّر على الأسرة بأكملها، لكنّ سنان لم يصغِ إليها. في النهاية، لم يجدوا مهرباً من طلب يد فيردا للزواج من سنان. لسوء الحظّ، لم يعش والد فيردا لرؤية هذا اليوم السعيد، بل مات في سنّ مبكرة نتيجة نزف دماغي، كان سببه - استناداً إلى الكثير من الناس - زواجه المؤسف من السيّدة نسيبة.

عندما أتت أسرة سنان لرؤية السيّدة نسيبة من أجل طلب يد فيردا، كان ذلك أسعد يوم في حياة السيّدة نسيبة. في الواقع، لم تصب بالإغماء منذ ذلك اليوم إلى أن حان يوم الزفاف. لم تشعر بأيّ تعب، ومع أنّها اهتمّت بكلّ شيء تقريباً، إلاّ أنّها لم تشتكِ من الإرهاق إطلاقاً. سُرّ الجيران بهذا السلوك الجديد، إلاّ أنّهم فوجئوا بعض الشيء أيضاً. يقول

المثل القديم: "حفلات الزفاف تصنع العجائب"، وربّما كان على حقّ. لكن، عاد كلّ شيء إلى ما كان عليه فور زواج فيردا. فقد أدركت السيّدة نسيبة فجأة كم كانت متعبة. لم تعرف على أيّ سرير تستلقي، ولم يكفها الباسيفلورا. تذمّرت للجيران الذين أتوا لتهنئتها لاحقاً من مدى صعوبة تنظيف المنزل بأكمله بمفردها، ومن صعوبة التعامل مع ابنها، وكيف أنّ فيردا نسيت أمرها. هكذا، بدأ زواج سنان الذي اشتمل أيضاً على حماته.

عندما أخبرته فيردا الآن أنّ أمّها ستعيش معهما لمدّة، وأنّ الأمر سيكون صعباً جدّاً على الأرجح، لم يبدِ أيّ ردّ فعل. فمتى كان العيش مع السيّدة نسيبة سهلاً؟ ولماذا سيتوقّع غير ذلك الآن؟ لم يهمّه الأمر. أمّا زوجته فستخسر، كان يعرف ذلك. الميزة الوحيدة التي حصلا عليها حتّى الآن هي أنّ حماته عاشت في شقّة أخرى. بالطبع، ثمّة أوقات مكثت فيها معهما لبضعة أيّام، أو ذهبوا معاً لقضاء عطل الصيف، ولا يذكر سنان أنّها كانت أوقاتاً سعيدة. حينها أصيب كلاهما بانهيارات عصبية، لكنّهما تعاملا معها بسهولة لأنهما عرفا أنّها ستعود إلى منزلها في النهاية. لكنّ هذه المرّة مختلفة، فهي ستلازمهما، إلاّ أنّه متقدّم في السنّ كثيراً ليكترث بذلك. كان قد بلغ الستّين تقريباً، ويمضي معظم وقته عندما لا يكون في العمل بمشاهدة التلفاز أو القراءة. ومع ذلك، شعر بالذعر لفكرة أنّ فيردا ستخصّص الكثير من وقتها للسيّدة نسيبة.

عندما تمّ إحضار السيّدة نسيبة إلى المنزل أخيراً، كانت متعبة جدّاً إلى حدّ أنّها عجزت عن توبيخ سنان لأنّه لم يزرها في المستشفى. بدا وجهها شاحباً حقّاً، وجسدها ضعيفاً للمرّة الأولى في حياتها. لاحظت فيردا ذلك أيضاً، وللمرّة الأولى في حياتها صدّقت أنّ أمّها تعاني من الألم فعلاً. كانت الغرفة التي جهّزتها لها صغيرة، لكنّها نظيفة جدّاً ومرتّبة. لم تنسَ وضع تلفاز صغير على خزانة دروج منخفضة، وطلبت من سنان برمجة كلّ القنوات التي تحبّ أمّها مشاهدتها. كان الحمّام بجوار الغرفة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تماماً، وبالتالي لن يسبّب لها مشكلة كبيرة. قاموا في المستشفى بتعليم السيّدة نسيبة كيفية الجلوس على السرير والتنقل بالاعتماد على الآلة المساعدة على المشي "الواكر"، إذ كان من الضروري لها بذل بعض المجهود في الحركة بمساعدة معالج فيزيائي. لذلك طلبت فيردا من سنان شراء أفضل "واكر" يستطيع إيجادها، ووضعتها في زاوية غرفة أمّها. ستبذل كلّ ما في وسعها لمساعدة السيّدة نسيبة على الشفاء والعودة إلى منزلها بأسرع ما يمكن.

كان ذلك التفكير متفائلاً. فبعد مرور ساعتين وحسب على وصولها إلى المنزل، فهما أنّ الأمر لن يكون بتلك السهولة. فرغم أنّها كانت بحاجة ماسّة إلى دخول الحمام، إلاّ أنّها لم تقتنع بأيّ شكل من الأشكال أنّها تستطيع التنقّل إن أرادت. فقد سبق لها أن أمضت فترة النقاهة في المستشفى، وأخبرها طبيبها أنّها تستطيع النهوض والسير فور وصولها إلى البيت. كما نصحها بألاّ تخاف من المشي. في الواقع، كان عليها القيام ببعض الخطوات على الفور. رغم كلّ ذلك، كانت السيّدة نسيبة تبكي، وتقول إنّها لا تستطيع القيام بأيّ من ذلك. كيف لها أن تقف وتمشي بينما هي عاجزة حتّى عن الجلوس على سريرها؟ توسّلت إليهما للانتظار بضعة أيّام حتّى يزول الألم. بعد برهة، طلبت فيردا من سنان الذهاب إلى غرفة المعيشة وفعل ما يشاء. فمحاولتهما إقناعها ستكون مضيعة للوقت؛ لهما معاً. أضف إلى ذلك أنّها لم تشأ أن يفقدا صوابهما هما الاثنين.

حاول سنان عدم سماع الصراخ الآتي من الغرفة الصغيرة، وجلس على كرسيّه الهزّاز أمام التلفاز. ولكنه مهما رفع صوت البرنامج الذي أراد مشاهدته، ظلّ قادراً على سماع الضجيج الصادر من غرفة حماته. للمرّة الأولى، ندم على موافقته على إلغاء باب غرفة الجلوس. بعد ذلك، خفت صوت الأنين ببطء. فقد أغلقت زوجته باب غرفة أمّها. منذ تلك اللحظة،

ستشنّ فيردا معركتها خلف الباب المغلق، متوسّلة لأمّها كي لا تصرخ.

اعتقدت فيردا أنّه بمساعدة المعالِجة الفيزيائية ستبدّل والدتها رأيها بعض الشيء وتعتاد على السير مجدّداً ببطء. بيد أنّ السيّدة نسيبة نجحت في إثارة غضب المعالِجة الفيزيائية من يومها الأوّل. فهي لم تمتنع عن النهوض من السرير والتنقّل فحسب، بل رفضت أيضاً السماح للمعالِجة بتحريك ساقيها وهي ممدّدة على السرير. وعندما ذهبت فيردا للاعتذار من الجيران بسبب إحراجها من صراخ والدتها المتواصل، أدركت أنّهم سمعوا كلّ ما كان يقال في منزلها. ولم يخفّف عنها أحد بالقول إنّه لم يسمع شيئاً. مرّ أسبوع وما زالت السيّدة نسيبة تئنّ وتنوح قائلة إنّ ألمها لم يخفّ إطلاقاً، وتوسّلت لفيردا بنبرة أعلى بعض الشيء، غير آبهة بالتحذيرات من أنّ كلّ من في المبنى سمعوها. "هل تريدين قتلي؟ سيغمى عليّ من شدة الألم، أرجوك لننتظر قليلاً بعد يا عزيزتي"، قالت ذلك مستخدمة كلمة "عزيزتي" التي لم تستخدمها إطلاقاً بشكل متعمّد. كانت فيردا واثقة أنّه سيغمى عليها. فهي لا تعرف التقنيّة التي تستخدمها أمّها، إلاّ أنّها كانت خبيرة في الإغماء كلّما أرادت ذلك. في النهاية، استسلمت ووافقت على الاستراحة من المحاولات. فكّرت أيضاً أنّ أمّها قد تكون متألّمة فعلاً هذه المرّة. استخدمت المعالِجة كلّ أنواع تعابير الوجه لتُظهر أنّها غير موافقة على القرار الذي اتّخذته فيردا وقالت: "أنا آسفة لما سأقوله، لكن إن لم نستطع تحريكها الآن، فلن تتمكّن من ذلك لاحقاً حتّى لو أرادت. لنأخذ استراحة إن شئت، لكن علينا تحريك تينك الساقين قريباً" فهمت فيردا ما تحاول المعالجة قوله. فقد أرادت إفهامها أنّها إن كانت لا تريد لأمّها أن تبقى طريحة فراشها لبقيّة حياتها، فعليها أن تجبرها على النهوض مهما تطلّب الأمر. مع ذلك، لم تكن المعالجة تعرف أهمّ شيء عن أمّها. فإن لم ترغب نسيبة في النهوض، فلا يمكن

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إجبارها على ذلك. والأهمّ من كلّ شيء، كان يجب عليها أخذ استراحة. فقد تبدّلت ديناميكية المنزل بأكملها خلال الأسبوع الفائت، ووجود أمّها زعزع هدوء حياتهما. وهكذا توقّفا عن المحاولة.

كانت تساعد أمّها في قضاء حاجتها عدّة مرّات في اليوم، وتحاول عدم التقيّؤ وهي تحمل وعاء قضاء الحاجة في السرير إلى الحمّام. وكانت السيّدة نسيبة تناديها أيضاً مرّة أو مرّتين ليلاً بعد خلودهما إلى الفراش، إمّا لأنّها تريد قضاء حاجتها أو بعض المسكّنات. فيقوم سنان بإيقاظها كلّما صاحت "فيردا!"، ولا يتمكّنان من معاودة النوم بعد ذلك. وعندما يستغرق سنان في النوم مجدّداً، يكون وقت ذهابه إلى العمل قد حان. لذلك، بدأت هالتان سوداوان تبدوان حول عينيه. أدّت قلّة النوم أيضاً إلى شعور فيردا بالصداع مجدداً، فأصبحت تعمل والألم يعصف بجمجمتها طوال الوقت. في هذه الأثناء، أتى كثير من الناس للاطمئنان على والدتها، وبما أنّ فيردا تحبّ دائماً أن تقدّم للضيوف أفضل الحلويات التي تصنعها بنفسها، فقد أمضت وقت فراغها في المطبخ وهي تعدّها. وكان طعامها ناجحاً كالعادة.

كانت فيردا تحبّ تجربة الوصفات الجديدة، وتعدّ كلّ شيء في المنزل، وتراقب ردّ فعل الناس وهم يأكلون منذ أن كانت فتاة صغيرة. أعدّت دائماً الحلوى في ذكرى ميلاد زوجها وولديها بنفسها، ولم تقم قطّ بشراء الدجاج المتبّل من السوبرماركت، كما أنّها لم تستخدم قطّ صلصة الطماطم الجاهزة. أعدّت دائماً المربّى بنفسها، فكانت تضع التوت على شرفتها وتعرضه لأشعة الشمس، وتجفّف الباذنجان تماماً كما علّمتها السيّدة ناهدة التي نشأت في عنتاب؛ وهي مدينة شرقية جميلة. في بعض الأحيان، كان سنان يصطحبها في رحلات العمل التي يقوم بها إلى مختلف مدن أنطاليا. وكلّما ذهبا معاً، تتمّ دعوتهما إلى العشاء لدى أبناء المنطقة، فتعود فيردا إلى منزلها بوصفات جديدة. وكان أوّل ما تفعله

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

عند عودتهما هو تجربة الوصفات التي جمعتها بتفان، ولا تتوقّف عن إعداد الوصفة نفسها حتّى تبرع فيها. لذلك، كانت تتقن إعداد الدجاج الجركسي، ولفائف اللحم بالنخيل، والهابينيسك، وهو طبق يرتكز على العدس. رغم ذلك، لم تكن شهيّتها كبيرة. لهذا السبب فقط ما زالت تزن خمسين كيلوغراماً وهي بسنّ الثامنة والخمسين. وللسبب نفسه، لم يكن لديها طبق لتعديل المزاج، بل شراب. فكلّما شعرت بالضعف، أو الاكتئاب، أو الإنهاك كانت تعدّ لنفسها كوباً من السحلب؛ وهو شراب مصنوع من جذور السحلبية، وطعمه شبيه تماماً بطعم الشاي لاتيه(*) بحسب إيلا، وتعتمد على القرفة التي ترشّها على سطحه لتهدئة أعصابها. كان سنان يستغرب أن تتمكّن زوجته من تناول هذا الشراب الساخن دائماً حتّى في فصل الصيف، لكن بما أنّه يعرف الرابط السحري بينها وبين هذا الشراب، لم يعلّق قطّ على ذلك.

الآن بعد أسبوعين من المعارك المتواصلة مع والدتها وكلّ ذلك العمل المتوجّب عليها، وجدت أخيراً بعض الوقت للجلوس والاسترخاء. ولا بدّ أنّ والدتها أُنهكت هي أيضاً بسبب كلّ الزوّار، حيث إنّها ظلّت نائمة. كانت فيردا تتوق إلى كوب من السحلب منذ بعض الوقت، فأعدّت لنفسها كوباً دسماً فعلاً، وكانت الرشفة الأولى رائعة. أزالت القرفة عن شفتها العليا بمهارة، ومزجت طعمها بذاك الموجود أساساً في فمها، فشعرت مجدّداً بالدفء يغمر أعماقها. كانت مسرورة لحلول الشتاء أخيراً بعد صيف شديد الحرارة والرطوبة في إسطنبول. أحبّت سماع الصوت المتصاعد من السخّانات لدى انبعاث البخار، إذ كان يشعرها نوعاً ما بالسعادة. سرّت فيردا بنوم السيّدة نسيبة الطويل لأنّها ستتمكّن من إيجاد الوقت للاتّصال الهاتفي الذي ستتلقّاه من إيلا.

(*) شاي بالحليب.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

تحدّثت مع ابنتها خلال ذلك الأسبوع مرّة واحدة، وأخبرتها بحالة جدّتها، إلاّ أنّها تركت التفاصيل لحديث أطول. عرفت أنّ الهاتف سيرنّ خلال دقائق. وقبل أن يفعل، صبّت لنفسها كوباً آخر من السحلب للاستمتاع بالوقت المحدود الذي ستمضيه مع ابنتها إلى أقصى حدّ. وبما أنّها نسيت إصلاح الهاتف اللاسلكي، كانت مضطرّة إلى استعمال الهاتف الثابت في الممرّ، والذي كان بجوار غرفة أمّها تماماً. وإن لم تشأ لها أن تستيقظ بسبب رنينه، فعليها الإسراع لرفع السمّاعة حالما يرنّ. أخذت معها كرسيّاً، وذهبت إلى الرواق، ثمّ جلست تنتظر حاملة كوبها بيد، وممسكة السمّاعة باليد الأخرى. رفعتها قبل أن يرنّ تماماً.

"ماما؟"

"كيف حالك صغيرتي؟"

"أنا بخير. المهمّ، كيف حالك أنت؟ كيف حال المجنونة؟"

"الحمد لله لأنّها لا تستطيع سماعك. إنّها على حالها. ماذا تفعل جدّتك غير الأنين؟ إنها الآن نائمة، ولهذا السبب أستطيع التحدّث. هل تسمعينني؟ أنا مضطرّة لخفض صوتي، فهي لا تسمح لنا بإغلاق بابها. تقول إنّ الغرفة تخنقها عندما يكون الباب مغلقاً. لم نفكّر بذلك إطلاقاً عندما قرّرنا نزع باب غرفة الجلوس والمطبخ، وها نحن نتحمّل نتيجة ذلك. كلّها آذان صاغية، وهي تسمع كلّ شيء، كما تسأل عن كلّ شيء، لن تصدّقي ذلك. من اتّصل؟ ماذا قالت؟ لماذا قلت ذلك؟"

"إذاً، الساقان معطّلتان، ولكنّ الرأس يعمل"

"بالضبط. حتّى إنّها أثارت جنون المعالِجة الفيزيائية فاضطرّت هذه الأخيرة إلى الصراخ في وجهها في النهاية. وصاحت قائلة لها إنّها تتصرّف كالأطفال. لكنّها لا تعرف شيئاً، لا تدري إلى أيّ حدّ يمكن أن يبلغ بها العناد"

"ألا تنهض إطلاقاً؟"

"هـل تمزحيـن؟ إنّهـا تثيـر جنوني. تقـول إنّهـا تتألّـم، ولا تسـتطيع الاحتمال. لا أعـرف يا حبيبتي، لكنّنـي طلبت من المعالِجـة عدم المجيء لبعـض الوقت. فكّـرت أنّنا نسـتطيع أخـذ اسـتراحة. لا أدري، ربّما كانت تتألّم فعـلاً. لم أعرف مـا إذا كان يجب علـيّ أن أضغط عليها، فهي مسـنّة فعلاً"

"ماما! اضغطي عليها! عليك ذلك. وإلاّ ستضطرّين إلى رعايتها"

"لا تتكلّمي هكذا يا حبيبتي. إنّها أمّي، ماذا أستطيع أن أفعل؟ ولكن، لا تقلقي، سأجعلها تسير. عليها ذلك"

كان يمكن للحديث أن يطول أكثر لو لم تقاطعهما السيّدة نسيبة.

"فيردا! هل تتحدّثين مع إيلا؟"

"أجل ماما. (أترين؟ إنّها تسمع كلّ شيء)"

"أريد أن أتحدّث مع حفيدتي. لماذا لا تتصل بجدّتها؟"

كانت فيردا تكره أن يقاطعهـا أحد، إلاّ أنّها مدّت سـلك الهاتف إلى غرفة أمّهـا وأعطتهـا السـمّاعة. ولـو كان لديها قِـدر كاملة من السـحلب، لشـربته كله. عرفت السـيّدة نسـيبة الرائحـة أيضـاً. فغطّت السـمّاعة بيدها ونادت فيردا وسألتها إن كانت تستطيع الحصول على كوب من السحلب؟ وبينما راحت السـيّدة العجـوز تثرثر علـى الهاتف مع حفيدتهـا، انصرفت فيردا إلى إعداد المزيد من شرابها المفضّل.

3

سجن مارك نفسه في غرفة الفندق؛ تاركاً العالم بما فيه خارج بابها، ولم يستيقظ سوى بضع مرّات في الأيّام العشرة الأخيرة لتناول شيء ما. اختار تلك الغرفة المظلمة المطلّة مباشرة على جدار، ولم تطأ قدماه عتبة الباب منذ أن دخلها. مضت عشرة أيام بالضبط على وجوده في ديزارين، لم يرَ فيها أحداً ما عدا موظّفي الفندق الذين كانوا يحضرون له الطعام. ولم يعرف أنّ أوديت اتّصلت بالفندق بضع مرّات للسؤال عنه. ما كان له أن يعرف.

قيل لأوديت إنّ مارك يأكل مرّة واحدة في اليوم. لم يستطع الموظّفون العاملون في مكتب الاستقبال إخبارها شيئاً آخر لأنّهم لم يروا النزيل منذ أن حجز غرفته. وبما أنّهم فضوليون هم أيضاً، فقد سألوا عنه موظّفي خدمة الغرف، وعرفوا أنّه أمضى كلّ وقته في النوم. إنهم لا يبوحون بمعلومات كهذه عن ضيوفهم عادة، لكنّ أوديت أخبرتهم عن الوضع وقالت إنّهم يخشون أن يؤذي نفسه. عندها، حاول موظّفو الفندق مراقبته عن كثب في أثناء إقامته، وعندما رأوه في الأسفل بنهاية اليوم العاشر مع حقيبته الصغيرة، شعروا بالارتياح. فآخر ما يريدونه هو العثور على رجل ميت في إحدى الغرف.

كانت لحية مارك وشارباه قد نمت، وبدت عيناه متورّمتين من كثرة النوم. وعندما فتح فمه ليتحدّث، فوجئ بصوته الذي صدر كالأزيز. لم يكن بحاجة إلى قول الكثير، بل دفع المال ورحل تحت النظرات المشفقة لموظّفي الفندق، لا سيّما النساء منهم. كان الطقس أبرد ممّا كان عليه منذ

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عشرة أيّام، ومع أنّ الساعة لم تتجاوز الرابعة، إلاّ أنّ الظلام حلّ تقريباً. كان المارّة في شارع مونج يحثّون الخطى عائدين إلى منازلهم من العمل، تحت أضواء المتاجر البرّاقة. نظر حوله، وفهم مجدّداً لماذا لم يرغب بالخروج لعدّة أيّام. فهناك، على الجهة المقابلة، تقع المكتبة التي كانت كلارا تعشقها. كانت تقصدها مرّة كلّ شهر، وتشتري أربعة كتب لقراءتها، وتنتقد مارك لأنّه يذهب إلى المتاجر الكبيرة مثل فناك، وإن كانت معجبة بمبادئها التأسيسية. كان الجوار يعني الأسرة بالنسبة إليها، لا سيّما عندما يعيش المرء في المكان نفسه لمدّة طويلة، مثلما فعلا. بجانب المكتبة، تقع سوق السمك التي تقصدها كلارا دائماً. كلّما رآها بيار، بمريلته المتّسخة التي تغطّي بطنه، يغمزها ويصرّ على إعطائها أفضل ما لديه من الأسماك. فتدخل المتجر في معظم الأوقات راغبة في نوع معيّن من السمك، وتغادر حاملة نوعاً مختلفاً تماماً بين يديها. ومتجر الأزهار المجاور هو الذي تتوقّف كلارا عنده كلّ يوم تقريباً لتحيّة المالكة. كانت مدام بوليت تقدّم لها دائماً الشراب البارد صيفاً، وفي الشتاء، ترتشفان معاً شراباً ساخناً.

كيف سيتمكّن مارك من الاستمرار هنا؟ كيف سيتمكّن من المرور أمام هذه المتاجر؟ وبينما ركّز نظره على حذائه وبدأ سيره نحو المنزل، لم يعلم أنّ أولئك الأشخاص في تلك المتاجر تبعوه بنظراتهم وطرحوا على أنفسهم السؤال نفسه. كيف سيعتادون على غياب كلارا التي أصبحت جزءاً من حياتهم؟ لا بل أكثر من ذلك، كيف سيحتملون بؤس هذا الرجل؟ لم يدرك مارك أنّ فرانسيس رآه من بعيد وهو يدخّن سيجارة خارج فرنه الواقع على بعد عدّة خطوات من منزلهما، وكان بانتظاره. لذلك قفز متفاجئاً عندما شعر بيد تمسك ذراعه. ومن دون قول شيء، أعطاه فرانسيس كيساً، فتابع سيره بعدما أخذه منه من دون التفوّه بكلمة، بل من دون أن يتمكّن من التفوّه بكلمة. طلب رمز المبنى آملاً ألاّ يرى أيّ

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شخص، وهرول إلى الطابق الثاني، وقد سرّ لرؤيته المدخل خالياً. وصل إلى باب منزله وهو يلهث. حاول عدم إحداث ضجّة، لكي لا يسمعه أحد الجيران، وفتح الباب ببطء.

عرف جيّداً أنّه لو كانت كلارا هي التي بقيت بمفردها عوضاً عنه، لوجدت عزاءها في الجيران وفي دفء الحيّ، ولاستمدّت القوّة من حنانهم وعطفهم. أمّا هو، فكان يهرب حتّى من خياله. لكنّه لم يعرف كيف يتعامل مع ما يحدث بشكل آخر. فكّر بمغادرة البلد خلال نومه المضطرب في الفندق؛ أراد الذهاب إلى منطقة يتحدّث فيها الناس لغة أخرى. فكّر بالرحيل عن الحياة التي كانت خلفه، لكنّه عرف أنّه لن يستطيع ذلك. التفت إلى الجهة المقابلة عندما مرّ من أمام المطبخ الذي كان إلى يمين مدخل الشقّة. ترك الكيس الذي أعطاه إيّاه فرانسيس على طاولة غرفة المعيشة، ورمى سترته على أحد المقاعد. وبعدما وقف هناك وسط الغرفة لبرهة، أدرك أنّه يحتاج إلى سماع صوت؛ صوت يساعده على التخلّص من الثقل الذي تحمله كلّ قطعة أثاث في شقّته. لم يكن لديهما تلفاز في غرفة المعيشة، وكان مذياع كلارا الصغير موضوعاً على إطار نافذة المطبخ. فذهب إلى غرفة نومهما وشغّل مذياع المنبّه. فجأة، ضجّت الغرفة بأغنية إيديث بياف، نون جو نو روغريت ريان (كلاّ لست نادماً على شيء)؛ الأمر الذي جعل مارك يفكّر بشيء آخر غير زوجته. كيف ظلّت حياتهما على حالها؟ كان في السابعة من عمره عندما سمع هذه الأغنية للمرّة الأولى. كان يقرأ الكتب الكوميدية نفسها، وبعض المجلاّت الكوميدية لسنوات، ويشاهد البرامج التلفزيونية نفسها مع الضيوف أنفسهم لسنوات. وحتّى إنّ نشرات الأخبار والقضايا التي يناقشها المثقّفون كانت هي نفسها دائماً. وحده الديكور يتغيّر. المجموعة نفسها من الأشخاص تلتقي كلّ أحد في الساحة نفسها من الشارع نفسه، وتؤدّي الرقصة نفسها. إنّها مدينة تنضح بالتاريخ الذي ينسكب من

جدرانها، ولا تسمح لأحد بنسيان الماضي. كيف له أن ينسى كلارا وهو مكبّل إلى مدينة كهذه. كيف له أن يخرجها من حياته في مكان لا يسمح بخروج شيء؟

أضاء المصباح الموضوع على المنضدة وجلس على السرير. وعندما نظر حوله، لاحظ اختفاء آثار كلارا عن طاولة الزينة. رفع غطاء السرير قليلاً ونظر تحته، فوجد أنّ الأغطية بُدّلت. وقف ورفع الغطاء تماماً. كانت الوسائد قد رُتّبت وتمّ كيّ تجاعيد أغطيتها التي تركت آثارها على وجه كلارا كلّ صباح. دخل الحمّام مذعوراً. فتح أبواب الخزائن ونظر داخلها. لم يجد كريمات زوجته، ولا طلاء الأظفار، ولا مزيل الطلاء. اختفت دبابيس شعرها وعطرها. لم يجد سوى فرشاة شعرها. تفحّصها لدقائق محاولاً إيجاد شعرة واحدة، لكن عبثاً. شعر بالاختناق. رفع غطاء سلّة الغسيل الموضوعة بجانب الغسّالة ونظر فوجدها فارغة. أسرع عائداً إلى غرفة نومهما ووقف أمام الخزانة. كان قلبه ينبض بعنف عندما فتح الأبواب. بدأت الدموع تسيل على وجهه عندما رأى الرفوف الخالية. فتح الدروج فوجدها خالية أيضاً. جواربها، مناديلها، ملابسها الداخلية كلّها اختفت. لم يتبقَّ شيء يحمل رائحة زوجته. أراد الاتّصال بأوديت، والصراخ في وجهها، وسؤالها عن كيفية تمكّنها من حرمانه من ذكرى كلارا. كيف أمكنها أن تسرق زوجته؟ كيف محت كلّ شيء من دون أن تسأله؟ لكنّه عاد للجلوس على السرير. اتّكأ على ركبتيه، ودفن رأسه بين يديه، وأخذ ينتحب. خرجت كلّ الأحاسيس من داخله، لكنّها لن تزول. كان يحتاج إلى زوجته، يحتاج إلى شيء تركته خلفها.

رفع رأسه، وجمدت الدموع على خدّيه، ثمّ وقف وسار باتّجاه المطبخ مسرعاً. وبعدما وقف عند بابه في الظلام لبرهة، استجمع شجاعته وأضاء المصباح. بدا المطبخ مرتّباً جدّاً، كما لم يكن من قبل. ومع أنّه بحث عن الروائح المألوفة، إلاّ أنّه لم يجدها. كان إناء الأزهار الموضوع

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

على الطاولـة فارغاً. كمـا أزيلت كتب الطبـخ عن الطاولـة ووُضعت على الرفوف. حتّى إن هوائي المذياع أخفض وأعيد إلى المكان المخصّص له؛ الذي انتظر عودته لسنوات. مشى مارك نحو الدروج بجانب الفرن ووقف أمامها. لم ينتظـر أكثر من دقيقتين قبـل أن يفتح الدرج الثانـي من الأعلى. كان قفّاز الفرن الذي طُـرّزت عليه صورة ديك موجـوداً هناك؛ في المكان الذي تركته فيه كلارا. شعر بالخوف وهو يمدّ يده نحوه ببطء. وبعدما مرّر أنامله على الديك، رفعـه إلى أنفه، وتنشّـق الرائحة المألوفـة لجميع أنواع الأطعمـة التي امتزجـت معاً علـى مرّ السـنوات. ظـلّ يحمل القفّـاز بيديه وهو يجلس على الكرسـي، إلى جانـب الطاولة، وقد نسـي إغلاق الدرج. بعد قليل، دسّ يده اليمنى فيه ببطء وحذر. حاول جاهداً، لكنّه لم يسـتطع الإحسـاس بها. وضع رأسـه على ذراعه الممدودة على الطاولة وبدأ يبكي مجدّداً، إلى أن غفا هناك.

وعندما فتـح عينيه بعد سـاعات وقع نظره على ذراعـه. كان قد غرق في النوم، وشعر بالجوع للمرّة الأولى منذ أيّام. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشـرة ليلاً بقليل. مع شـعور غريـب بالذنب، نـزع القفّاز ووضعه بلطف علـى الطاولـة، وكأنّه يخشـى إيـذاءه. وقف وسـط المطبـخ، ونظر حوله. مـرّت عليه أوقـات اضطرّ فيها إلـى تولّي أموره بنفسـه في السـابق في هـذا المنزل. فقـد بقي بمفـرده بضعة أيّـام عندمـا ذهبـت كلارا لزيارة عمّتها التـي تعيش فـي الجنـوب. لكـنّ كلارا كانت تتـرك له دائمـاً بعض الطعام فـي علب بلاسـتيكية، وتكتب ملاحظة لتشـير له إلى مـا يفترض به أن يتنـاول أوّلاً. حتّـى إنّها كانـت تضع بعض شـرائح الجبن على شـرائح الخبز وتلفّهـا بالنايلـون اللاصق، فلا يحتاج مارك سـوى إلـى وضعها في الفرن لثلاث أو أربع دقائق. الآن، أثبتت له رفوف البرّاد الخالية مجدّداً أنّ كلارا لم تعـد موجودة. عرف أنّه لـن يجد مطعماً مفتوحاً فـي هذا الوقت.

ربّما يستطيع السير إلى مطعم موفتار وتناول الكباب التركي، فهو يبقى مفتوحاً أمام الساهرين. كانا يفعلان ذلك هو وكلارا من وقت إلى آخر. إذ كانا يسمحان لنفسيهما في بعض الأيّام بالأكل بحرّية، رغم معرفتهما أنّهما سينزعجان في آخر الليل. تذكّر مارك تلك الأيّام المرحة مع ابتسامة عكست حزنه في الوقت نفسه. لم يكن هذا اليوم واحداً من تلك الأيّام. ثمّ تذكّر الكيس الذي أعطاه إيّاه فرانسيس في طريقه إلى البيت. لا بدّ أنّه يحتوي على شيء للأكل. ذهب إلى غرفة المعيشة، وتناول الكيس ثمّ عاد إلى المطبخ. سيدرك يوماً ما، لكن ليس اليوم، أنّ هذا المطبخ الذي يخشى دخوله سيكون الملاذ الوحيد الذي سيداوي جروحه ببطء ولكن بلطف. سيُضطرّ إلى الاستسلام له؛ تماماً مثلما يستسلم الناس بين أذرع أحبابهم عندما يشعرون بالكآبة. كلّ ما في هذا المطبخ سيحتويه بحنان، وسينفخ على يديه ليبعث فيهما الدفء.

فتح العلبة وقطع شريحة كيش لورين على نحو أخرق. شغّل التلفاز وهو يجمع الفتات الذي سقط جانباً برأس إصبعه الرطب. كانت نشرة الأنباء الليلية تتحدّث عن مجلّد جان جيرو الذي طال انتظاره. ذكر المذيع كيف تجمّع الناس في صفوف طويلة قبل ليلة لشراء نسخة من المجلد الذي باع مليون نسخة في يومه الأوّل. حدّق مارك إلى التلفاز مذهولاً. لقد انتظر ذلك اليوم منذ سنوات. التفت إلى الروزنامة المعلّقة على الجدار، ورأى الملاحظة التي كتبتها كلارا على ذلك اليوم بقلم أحمر: "اليوم المنتظر لمارك وج ج!" كان الفنّان الفرنسي الأسطوري يعمل على مجلده منذ سنوات، وكان عالم الكتب الهزلية بأكمله يعرف أنّ المجلد سينشر في ذلك اليوم، في منتصف الليل. قالوا في نشرة الأنباء إنّ آلاف الهواة أتوا إلى المكتبات في كلّ فرنسا تقريباً، وانتظروا لساعات طويلة غير آبهين بالطقس البارد لامتلاك نسخة منه، ولم يحظ مجلد آخر بهذا القدر من الاهتمام منذ سنوات. لو سار كلّ شيء كما كان مخطّطاً، لوقف

مارك في ذلك الصفّ هو أيضاً في الليلة الماضية. كانت كلارا ستحضّر له الشطائر، وسيتحوّل ذلك الانتظار إلى نزهة صغيرة بهيجة. كان مارك يحلم بإمساك المجلد بين يديه يوم صدوره، وذلك منذ سنوات. وكان ينوي العودة إلى البيت بعد شرائه، والغرق بين صفحاته وهو يرتشف قهوته. مع ذلك، نسي أمره. نسي تماماً أنّ ذلك اليوم المنتظر كان اليوم السابق. نظر إلى الشاشة من دون أن تطرف عيناه، وعندما ظهر غلاف المجلد في آخر الخبر، أوشك على الاختناق بلقمة الطعام. نظر إلى ساعته، وأدرك أنّ الوقت قارب منتصف الليل، لكنّه لم يستطع مقاومة الاتّصال بآمو. كان واثقاً أنّ آمو وقف في ذلك الصفّ قبل ليلة، وأنّه يحمل الكتاب بين يديه الآن.

مكتبة الرمحي أحمد

"مارك؟"

"مرحباً آمو. أنا آسف، لم أستطع الاتّصال من قبل، لم أتمكّن من ذلك"

"أعرف، لا تقلق. كلّ شيء على ما يرام في الصالة"

لم يستطع آمو إخفاء الإثارة التي ظهرت في صوته. أراد القول إنّ المجلد الذي يحمله بين يديه في تلك اللحظة كان تحفة فنّية، لكنّه لم يعرف إن كان الوقت مناسباً.

"هل ابتعت مجلد جان جيرو؟"

"أجل. انتظرت في الصفّ طوال الليل واشتريته قبل الفجر. مارك، إنّه مجلد جيّد فعلاً. الكلمات ليست كافية لوصفه، إنّه رائع. اصطفّ الناس أمام كلّ مكتبات المدينة، ولم يبيعوا سوى نسخة واحدة لكلّ شخص. لحسن الحظّ، تمكّنت من إقناع صديق لي بالوقوف في الصفّ

من أجلك، واشترينا كتاباً لك أنت أيضاً"

عجز مارك عن التنفّس. ومع أنّه لم يرغب بذلك، إلاّ أنّه بدأ يبكي وهو يضغط السمّاعة على أذنه بقوّة. انتظر آمو بصمت على الطرف الآخر من الخطّ، من دون أن يذكر أنّه دفع المال لصديقه لكي يقف معه في الصفّ. مرّت دقيقة قبل أن يتمكّن مارك من الكلام مجدّداً.

"شكراً لك... شكراً لك. سأراك غداً في العمل. أشكرك على كلّ شيء، كلّ شيء"

واصل البكاء بعد أن أغلق السمّاعة. لم يعرف السبب، ولم يفهم أنّ الألم كان يحاول الخروج من جسده، إلاّ أنّه شعر بتعب فظيع. شعر وكأنّ الطرقات التي مشى عليها لسنوات، والساعات التي أمضاها من دون نوم لاحقته وعثرت عليه الآن، ثمّ سقطت عليه. كانت دموعه تزن طنّاً، وكان جسده ثقيلاً. وضع علبة الكيش لورين في البرّاد، وذهب إلى غرفة النوم. انزلق تحت الأغطية الباردة، وأدار ظهره إلى الفراغ الذي خلّفته كلارا. ومع أنّ قلبه ظلّ ينبض بألم، إلاّ أنّ عينيه أغمضتا. في الثانية الأخيرة التي سبقت نومه، أدرك أنّه يريد الاستيقاظ في اليوم التالي، وأنّ الحياة ستستمرّ.

* * *

أعادت ليليا ترتيب المنزل وفقاً لظروف حياتهما الجديدة في أثناء وجود زوجها في المستشفى. لم يكن آرني قادراً على البقاء في غرفته في الطابق الثاني بعد الآن. فبما أنّه سيعتمد على ليليا في كثير من حاجاته اليومية، اضطرّت إلى نقل أغراضه إلى أقرب غرفة من المكان الذي تمضي فيه أوقاتها؛ وهي غرفة الطعام الصغيرة المجاورة للمطبخ.

تحوّلت غرفة الطعام القديمة إلى مكان أكثر حياة ودفئاً ممّا كانت عليه مع خزائن آرني، وأشيائه الصغيرة، ومكتبه. بالطبع، لم يوافق آرني إطلاقاً عندما أتى إلى البيت. فقد كانت فكرة العيش على هذه المسافة القريبة من المطبخ رهيبة بالنسبة إليه. أوّلاً، لطالما كره رائحة الطعام، وتمنّى سرّاً لو أنّ زوجته من أولئك النساء اللواتي لا يطبخن سوى بالميكرويف. ومع أنّه لم يذكر شيئاً عن ذلك، إلاّ أنّه لم يعتد قطّ على طعام ليليا الذي كان دسماً جدّاً بالنسبة إلى ذوقه. طبخها، الذي كان محطّ إعجاب الجميع، لم يعنِ له شيئاً. صحيح أنّها كانت ماهرة في إعداد الأطباق الإيطالية، إلاّ أنّ ذلك النوع من الطعام لا يناسب سنّهما على أيّ حال. أضف إلى ذلك أنّ شطيرة بسيطة تعتبر أقلّ تعقيداً بكثير، كما أنّها أنظف وأقلّ ثمناً.

لم يكن يهرب من رائحة الطعام فقط عندما ينسحب إلى غرفته باكراً، بل كان يتجنّب أيضاً الإصغاء إلى أحاديث ليليا الهاتفية التي لا ضرورة لها مع إخوتها، وإدراك الصمت المتوتّر بينهما، وإمكانيّة الالتقاء بإيد. صحيح أنّه لا يملك شيئاً ضدّه، إلاّ أنّهما لا يملكان أيضاً قاسماً مشتركاً للتحدّث عنه. في الواقع، لم يكن يملك قواسم مشتركة مع أحد، لذلك كان يفضّل دائماً البقاء بمفرده. وحتّى عندما يأتي أصدقاؤه في العمل لتناول العشاء من وقت إلى آخر، كان ينسحب إلى غرفته لربع ساعة لاستجماع أفكاره، ثمّ يعود لمتابعة الحديث بعد تلك الاستراحة الوجيزة. لكن الآن، وفي ظلّ هذه الظروف، سيفقد خصوصيّته تماماً. كان يعرف أنّه يحتاج إلى ليليا للتنقّل، وحتّى للذهاب إلى الحمّام على الأقلّ، إلاّ أنّه ما زال يفضّل البقاء وحيداً بعد ذلك. لسوء الحظّ، لم يكن استئجار خدمات ممرّض أمراً مطروحاً. فنفقات المستشفى كانت مرتفعة جدّاً، وبما أنّ التأمين لم يغطّ الكثير، فقد أنفقا منذ الآن معظم مدّخراتهما. وعليهما إيجاد حلّ أيضاً لتغطية نفقاتهما منذ الآن فصاعداً. فهو واثق أنّ ما تبقّى لديهما سرعان ما سينفد. صحيح أنّه يستلم معاش التقاعد كلّ

شهر، إلاّ أنّ ذلك المال لن يكفي لتلبية كلّ احتياجاتهما. وكان يدرك أنّ سنّ ليليا لا تسمح لها بالقيام بواجبات ممرّضة بدوام كامل. فمع أنّها تتمتّع بصحّة جيّدة، إلاّ أنّه من غير المنصف لها أن تصعد إلى الطابق الثاني عدّة مرّات في اليوم. في هذه الحالة، عليه البقاء في الطابق الأوّل إلى أن يتحسّن، وكان واثقاً أنّه سيتحسّن.

وبما أنّ ليليا قامت بعمل حسن في هذه الغرفة الصغيرة، فقد انزعجت لعدم تقدير آرني لجهودها. كانت تعرف كم يحبّ الخصوصيّة، إلاّ أنّه لا يستطيع أن يتوقّع منها الصعود والنزول على السلّم طيلة النهار. يكفي أنّها مضطرّة لرعاية رجل شبه مقعد في سنّها تلك، ولم تشعر أنّها قادرة على فعل المزيد. كان الحلّ المثالي هو توظيف شخص ليساعد آرني، إلاّ أنّهما يعرفان أنّ هذا مستحيل. فالتأمين لن يغطّي تماماً نفقات المعالِج الفيزيائي الذي سيأتي ثلاث مرّات في الأسبوع. كانت تفكّر بهذه المسألة منذ أيّام، وتحاول إيجاد حلّ. الفكرة الوحيدة التي خطرت لها هي تأجير تلك الغرف الأربع الخالية منذ سنوات. فمنزلهما قريب جدّاً من إحدى المدارس التي تعلّم الأجانب اللغة الإنكليزية، ممّا يعني أنّه من السهل إيجاد مستأجرين. ويمكنها تضمين الطعام مع الإيجار، كما فعلت مع إيد، لجعل العرض أكثر إغراءً. فهي تطبخ أساساً كلّ يوم، وما عليها سوى زيادة الكمّية. وبهذه الطريقة، يمكنها إبقاء المستأجرين بعيداً عن المطبخ؛ على الأقلّ بالنسبة إلى مسألة إعداد الطعام. يوم وصولهما إلى المنزل، فاتحت ليليا زوجها بالموضوع. ومع أنّها كانت متردّدة بعض الشيء، إلاّ أنّها لم تكن خائفة تماماً لأنّها أدركت أنّها تملك السيطرة الكاملة على المنزل للمرّة الأولى. آخر ما أراده آرني هو وجود المزيد من الأشخاص والضجّة في المنزل، لا سيّما الآن مع هذا الترتيب الجديد. ومع أنّه شرح ذلك لزوجته، إلاّ أنّه أدرك أنّه الحلّ الوحيد. للمرّة الأولى، تمنّى لو أنّهما ادّخرا المال الذي أنفقاه على ولديهما. لم يقم دونغ وجيانغ

بزيارته في المستشفى سوى مرّة واحدة، ورحلا باكراً بحجّة أنّ عليهما إحضار الأولاد من المدرسة. لم يكن يتوقّع منهما البقاء طوال النهار، لكنّ عدم اكتراثهما لأمره كان واضحاً. كان ذلك مؤلماً؛ حتّى بالنسبة إلى شخص قادر على السيطرة على أحاسيسه ويعتقد أنّ عدم إظهار الاستياء فضيلة كبيرة. في النهاية، هو من عليه احتمال وجود غرباء في منزله مقابل تأمينه الرفاهية لولديه.

قِبل العرض بداعي الضرورة. ستذهب ليليا إلى المدرسة في اليوم التالي لوضع الإعلان. وأشارت الابتسامة الصغيرة التي ظهرت على فمها أنّها أحبّت الفكرة. لم تكن ستخبر آرني بذلك، إلاّ أنّها لم تشعر بالأسى بسبب هذا التغيير. فهي ستستمتع بالإحساس ببعض الحركة في هذا المنزل، وبرؤية أشخاص يدخلون ويخرجون، والتمكّن من التحدّث مع شخص ما. فهي تعيش في الوحدة والهدوء منذ وقت طويل.

منذ اليوم الأوّل في المنزل، فهم آرني كم سيحتاج إلى مساعدة ليليا. صحيح أنّه عاجز عن الذهاب إلى الحمّام بمفرده، لكن أن يستغرق ذهابهما إلى هناك عشرين دقيقة - والحمّام يقع على بعد أربعين قدماً وحسب - أمر لم يكن في الحسبان. كانت ليليا صبورة جدّاً كعادتها. ولم تفقد صبرها إطلاقاً، وحاولت مساعدة زوجها قدر الإمكان. ومع أنّ آرني قدّر ذلك، إلاّ أنّه لم يستطع السيطرة على غضبه، ووجد نفسه يصرخ في وجهها عدّة مرّات. لماذا تقف إلى يمينه عوضاً عن الوقوف إلى يساره؟ ألا ترى أنّ جانبه الأيسر هو الأضعف؟ لماذا لم يخطر ببالها فتح باب الحمّام قبل وصولهما إليه، لكي لا يضطرّ إلى الوقوف هناك وهي تكافح لفتحه؟ كان يعرف أنّها المرّة الأولى التي تواجه فيها زوجته مشكلة كهذه، وأنها تبذل ما في وسعها. صحيح أنّها ستتعلّم، لكنّه لم يستطع منع نفسه من إخراج غضبه على الحياة والقدر مستخدماً أقلّ هفوة كعذر. أدرك

أنّه أرهق زوجته خلال النهار. فقد شعرت ليليا بالتعب الشديد عندما انتهيا من تناول العشاء، وذهبت إلى غرفتها باكراً. لكنّها لم تنسَ إعطاء زوجها قبلة حنوناً قبل صعودها إلى غرفتها. وتذكّرت أيضاً تشغيل جهاز المراقبة الخاصّ بالأطفال الذي اشترته لكي تتمكّن من سماع آرني في حال احتاج إلى شيء في الليل. صعدت السلّم وهي تشعر بكلّ صرير يصدر عن السلّم الخشبي تحت قدميها. وبعدما غسلت وجهها بحركة متباطئة، تفحّصته في المرآة. في هذه السنّ - كانت لا تزال تجد نفسها شابّة حتّى عشرة أيّام خلت - كانت عالقة مع رجل مريض وغير سعيد في منزل متداعٍ في هذه الضاحية الكئيبة. وبالإضافة إلى كلّ شيء، لم تكن تعرف كم سيدوم ذلك. ينتظرها مستقبل غامض. أرادت أن تترك كلّ شيء خلفها وترحل. وعوضاً عن الاستغراق في نوم مضطرب، ودّت لو تستقلّ سيّارة أجرة وتذهب بعيداً. أغمضت عينيها وهي ممدّدة على سريرها، ثمّ فتحت ذراعيها إلى جانبيها وبدأت تتلو دعاءً من طفولتها، نسيته منذ وقت طويل. عندما كانت فتاة صغيرة، كانت تقوم مع أصدقائها بتأدية رقصة قَبَلية لبلوغ السعادة. ومع أنّهم كانوا يجهلون ما يفعلونه بالضبط، إلاّ أنّهم كانوا يدخلون نشوة في آخر الرقصة، ويخرجون منها وكأنّهم ولدوا من جديد. وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لا، كانت ليليا مقتنعة أنّها تمنحها قوّة داخلية. عندما انتقلا إلى هنا، أرادت تأدية الرقصة في حديقتهما في إحدى المرات، ولكنّ آرني منعها. وشرح لها أنّ الإنغلو ساكسونيين البيض لا يشربون حتّى الشاي في حدائقهم، فما بالك بالرقص. وظلّ يقول لها إنها إن أرادت أن تكون محترمة في هذا المجتمع، فيستحسن بها ألاّ تمضي وقتاً طويلاً في الخارج. لهذا السبب، توجّب عليها الحصول على رخصة قيادة. لطالما أحبّت المشي، لكنّه لم يكن مستحبّاً في هذا الحيّ، بل يُعتبر أمراً مستنكراً.

لم تتمكّن ليليا من فهم هذا النمط من الحياة سوى مع مرور

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

السنوات. إذ كانا يملكان حديقة جميلة، لكنّهما لا يستطيعان الاستمتاع بها، ويضعان أجمل الأرائك على الشرفات، لكنّهما لا يجلسان عليها. وأصبحت واحدة منهم على الرغم من بشرتها الداكنة. والآن، أصبحت ترى مدى تفاهة كلّ ما أجبرت على عيشه. ربّما كسبت احترام الجِوار بعدم فعل الأمور التي تحبّها. لكن، بعد كلّ تلك السنوات، لم تتعرّف حتّى على أولئك الجيران. بعد كلّ تلك السنوات، ما زالت تكتفي بتحيّتهم من بعيد. استغرقت في النوم وهي تصارع تلك الأفكار مرّة أخرى كما تفعل من وقت إلى آخر. وكرهت نفسها لأنّها كانت ضعيفة وأمضت حياتها مثلما أراد لها بقيّة الناس أن تفعل. لهذا السبب، كان حاجباها معقودين قبل أن تغمض عينيها.

عندما سمعت صوت آرني عبر الجهاز، كانت الساعة السادسةَ والنصف صباحاً. والنبرة التي وصلتها عبر تلك الثقوب الدقيقة، أشارت إلى أنّ زوجها غاضب من شيء ما. قفزت ليليا من سريرها وركضت إلى الأسفل، مع أنّ ركبتيها حاولتا منعها. وجدت آرني عند باب غرفته، متّكئاً على "الواكر وعلى وشك الإغماء. وعلى الرغم من السنوات التي أمضياها معاً، والوضع الذي يعيشانه الآن، أدركت أنّها ما زالت تخشى زوجها بشكل من الأشكال. سألته بتردّد عمّا يفعله واقفاً بمفرده، فصاح في وجهها قائلاً إنّه يريد الذهاب إلى الحمّام. وعندما حاولت ليليا أن تشرح له أنّها لم تسمعه ربّما بسبب التعب، وأنّها آسفة على ذلك، قاطعها آرني بحدّة مجدّداً وقال إنّه ناداها مرّة واحدة ثمّ أراد أن يجرّب بنفسه. لم تقل ليليا شيئاً آخر، بل ساعدت زوجها على العودة إلى غرفته. من الواضح أنّه لم يكن قادراً على الوقوف لمدّة أطول. بعد ذلك، أقنعته بقضاء حاجته في السرير، في الوعاء المخصص لذلك والذي اشترياه في المستشفى، ونظّفته قبل أن تعود إلى غرفتها لتغيير ملابسها. لن تفهم مدى

صعوبة حياتها إلاّ في الأيّام والأشهر القادمة. ستخلد كلّ ليلة إلى فراشها على أمل أن تصحو على يوم أفضل، لكنّها ستجد نفسها أكثر إرهاقاً في الصباح التالي. إذ ستنام لفترات أقصر وأقصر، وسيكون نومها مضطرباً ومليئاً بالكوابيس. وستخفض صوت الجهاز في بعض الأيّام غير آبهة بالشتائم التي سيمطرها بها آرني.

وسط كلّ ذاك الانشغال، قصدت ليليا مدرسة اللغة، وعثرت على أربعة مستأجرين لأربع غرف لديها. وافقوا جميعاً على أن تكون الوجبة من ضمن الإيجار. ومع النزلاء الذين أخذوا يدخلون ويخرجون، أصبح المنزل أكثر صخباً. صحيح أنّ ليليا كانت تحذّرهم من وقت إلى آخر، إلاّ أنّها لم تطلب منهم الهدوء التامّ. فقد غيّرت نمط حياتها من أجل آرني وعاشت كما يريد لسنوات. وربّما حان دوره الآن لتغيير نمط حياته. هكذا، أصغت إلى شكوى زوجها من عدم قدرته على النوم ليلاً بسبب الأصوات الآتية من الأعلى مع ابتسامة على وجهها، ورمت أنينه في زاوية من دماغها، وكأنّه غسيل وسخ لن يُغسل أبداً. أصبحت تمضي ساعات أطول في المطبخ الآن. ومن دون أن تجبر نفسها على خفض صوت التلفاز، راحت تصغي إلى الوصفات التي تُعرض في بعض البرامج وتدوّنها. ومع الوجوه الجديدة التي دخلت منزلها، بدأ مطبخها يزداد تنوّعاً وتلوّناً. فدخلت حياتها بعض التوابل التي لم تستخدمها من قبل قطّ. ومع أنّها كانت سئمة ومتعبة من رعاية آرني، إلاّ أنّها لم تستطع منع نفسها من التفكير في أنّ مرضه أفضل ما حدث معهما منذ وقت طويل. فوجبات العشاء التي كان ضيفها الوحيد فيها هو المذيع التلفزيوني، تحوّلت إلى احتفالات صغيرة كلّ ليلة، وأصبحت ليليا تتشوّق إليها فعلاً خلال النهار. كان المستأجرون يمرّون بالمنزل في ساعات مختلفة من النهار لأنّهم كلّهم طلاّب، وكانوا يتحدّثون مع ليليا من أمام الطاولة في أثناء ذلك، حتّى إنّهم يساعدونها ببعض الأعمال في المطبخ. لكنّ أيّاً منهم لم يحاول

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

التقرّب من آرني، مفترضين أنّ مزاجه العكر ناتج عن وضعه الصحّي. ولم تذكر ليليا أمامهم أنّ آرني كان دائماً شديد العزلة، وهادئاً، لا بل مملاً في الواقع. حتّى إيد بدأ يزور المطبخ أكثر من ذي قبل مع الطاقة الجديدة التي عمّت المنزل. بالطبع، لم يفت ليليا أنّ إحدى النزيلات كان لها دور في هذا التغيير المفاجئ.

كانت أولاّ فتاة رائعة الجمال، من أب أفريقي وأمّ سويسرية. ولدت ونشأت في سويسرا، ودرست في فرنسا، ثمّ عادت إلى بلدها الأمّ وبدأت تعمل هناك. لكنّها أخذت إجازة من عملها وأتت إلى نيويورك لتحسين لغتها الإنكليزية؛ وهو أمر احتاجت إليه من أجل عملها. كانت لغتها الأمّ، الرومانية، أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت الجميع مهتمّاً بها. وقد سرّها هذا الاهتمام كثيراً، ولم تشعر بالخجل من قراءة القصائد بهذا المزيج اللغوي الغريب. عندما تدخل أولاّ المنزل في منتصف النهار وتسأل ليليا "كو فاي؟"، كانت ليليا تفهم أنّ أولاّ تسألها عن حالها.

كذلك، عندما يطلّ المستأجر الياباني، كانو، برأسه من باب المطبخ ويسألها "نانيكا أتا؟" كانت تعرف أنّه يعني "ما أخبارك؟" وكانت راضية بمعرفة الجواب عن هذا السؤال، "جينكي ديزو"، وكان ذلك كافياً ليجعلها تشعر بالكفاءة. كان كانو مصمّماً جرافيكياً في الثامنة والعشرين من عمره. وشأنه شأن جميع اليابانيين، كان رجلاً أنيقاً، ومهذّباً، ومجتهداً. ومع أنّ دروسه تبدأ بعد الظهيرة، إلاّ أنّ ليليا كانت تراه يمارس التأمّل في الحديقة كلّ يوم في الصباح الباكر، وهذا ما كان يمنحها شيئاً من القوّة لبدء معركتها اليومية. لم يكن كانو بوذياً مثل الكثير من اليابانيين، وحتّى الأميركيين، والبريطانيين، والأستراليين، والسويديين، والفرنسيين، بل كان يعتقد بالشينتو. ليس لمعتقده نبيّ أو كتاب مقدّس، بل كان يوجّه تعبّده للأشجار، والشمس، والصخر، وحتّى الأصوات. هكذا، يجلس كانو على العشب المرطّب بالندى، ويتمتم بشيء رافعاً وجهه نحو السماء في

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الصباح الباكر. ثمّ يدخل ويختم طقوسه بكوب من حساء الميزو، قبل أن يعود من القرن الثامن إلى العصر الحديث. طلبت منه ليليا وأولاً التي اعتنقت البوذية منذ أن كانت في السادسة عشرة من عمرها، إخبارهما كلّ شيء عن معتقده، واستغربتا جدّاً أن يتمكّن شابّ في سنّه من الحفاظ على روابطه بتلك الطقوس القديمة.

مع دخول كانو حياتها، أضيف طبق عالمي شهير إلى لائحة ليليا: السوشي. فقد فتّشت في محرّكات البحث على الشبكة لساعات لتتمكّن من إيجاد أفضل الوصفات، وشاهدت الكثير من الأفلام لرؤية كيفيّة إعدادها. لم يفهم آرني قطّ كيف تُدخل زوجته أناساً غرباء إلى حياتها بهذه السرعة، وكأنّها لا تملك حدوداً، ولا مبادئ أو قوانين. لم يمض شهر على انتقال هؤلاء الأشخاص إلى منزلهما، إلاّ أنّها أصبحت تعرف أطباقهم المفضّلة، لا بل وتعِدّها لهم. وأصبحت الأحاديث تطول أكثر كلّ ليلة، وتتناهى إليه من المطبخ أصوات الدهشة، والفرح، والفضول. وأصرّ هو بالمقابل على بقاء بابه مغلقاً على الدوام. وأخبر ليليا أنّه يريد تناول طعامه بصمت، وقبل نزول أيّ شخص إلى المطبخ، إن أمكن، وأراد أن يبقى بابه مغلقاً بعد ذلك. هذا ليس كلّ شيء، فقد سألها إن كان بإمكانهم أن يكونوا أكثر هدوءاً، واقترح أن يتناولوا طعامهم في غرفهم. لم تصغ ليليا إلى طلبيه الأخيرين، إذ ما كانت لتطلب من الناس تناول عشائهم في غرفهم. كما أنّها لن تطلب منهم تناول الطعام بصمت أو السير على رؤوس أصابعهم. يمكنها أن تجلب له سدادتين للأذنين من الصيدلية إن شاء، أو أن تصل سماعتين للأذنين ذواتي سلك طويل بالتلفاز.

رفض آرني الاقتراحين وفضّل إزعاج البشر. كان السبب يرجع إلى حدّ ما إلى رغبته بإزعاج ليليا بقدر ما هو منزعج. لم يكن يريدها أن تستمتع بأيّ شيء. وكان يدرك أنّ الغضب الذي تراكم لديها لسنوات بدأ يطفو على السطح. فقد سبق له أن لاحظ أنّ ليليا كانت تكبت الكثير من

صفاتها لوقت طويل حيث إنها أصبحت غير سعيدة، لا سيّما في السنوات الأخيرة. لكنّه تخيّل أنّه إن تجاهل هذا الأمر، فلن يضطرّ إلى التعامل معه. مع ذلك، يبدو الآن وكأنّ زوجته تنتقم منه في أثناء استلقائه بلا حراك. أدرك أنّه لن يستطيع المقاومة، فيداه مقيّدتان. لا يمكنه القول إنّ ليليا لا تعتني به، لكن من الواضح أنّها لم تعد تأخذه على محمل الجدّ.

بالمقابل، وجدت ليليا أنّ العناية بآرني أسهل مع هذه الروح الجديدة التي سادت المنزل. فقد أصبحت تفتح عينيها بسعادة أكبر في الصباح وهي تفكّر أنّها سترى كانو في الحديقة يتأمّل. وأحبّت تناول فنجان من القهوة التركية مع المستأجرة الجورجية ناتالي، بعد انتهائها من الأعمال الصباحية. كما تتوق بشكل خاص لرؤية فلافيو، وهو آخر من يستيقظ كلّ نهار، إلاّ أنّه يملك طلّة جذّابة، حتّى بعينيه الناعستين. خلافاً لغيره من الإسبانيين الذين تعرّفت عليهم ليليا في حياتها، كان فلافيو أشقر الشعر، وأزرق العينين، مع بعض النمش الذي يبدو وكأنّه نُثر على وجهه. كانت ليليا قد ذكرت ذلك أمامه في المرّة الأولى التي التقيا فيها، وقال لها فلافيو الجملة التي كان من الواضح أنّه يردّدها منذ زمن طويل: "أنا إسباني أمهق" ولم تخبره ليليا أنه لم يعد باستطاعته قول هذه الأشياء، حتّى على سبيل المزاح، بعد أن أصبح في الولايات المتّحدة.

كان فلافيو أستاذ فلسفة في الثانية والأربعين من عمره. أراد الابتعاد عن المكان الذي عاش فيه طوال حياته بعد بلوغه منتصف العمر وقرّر المجيء إلى نيويورك التي سبق له أن زارها وأحبّها. وبما أنّه لا يستطيع تحمّل نفقات شقّة في مانهاتن، وجد عرض ليليا مغرياً. إذ ذكر الإعلان أنّ المنزل يقع على مسافة قصيرة سيراً على الأقدام من محطّة القطار في البلدة، وأنّ رحلة القطار إلى مانهاتن لا تستغرق سوى خمس وعشرين دقيقة. كان قد تطلّق من زوجته للتوّ، ولا يعرف حتّى كيف يقلي بيضة. كما أنّ لديه آلاف الكتب والمقالات لقراءتها والكثير

للتفكير به، والطهي سيلهيه عن ذلك. أحسّت ليليا بالتأثير المغناطيسي الذي يولّده فلافيو لدى من حوله منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها. لا يمكن اعتباره وسيماً أو عادياً، كما أنّه ليس رجلاً اجتماعياً جدّاً، إلاّ أنّ سلوكه المهذّب يجذب النساء. كان يتحدّث عن أمور عادية جدّاً على نحو شاعري، ويفهم كلّ التفاصيل الدقيقة بعمق حيث إنّ من يسمعه لا يستطيع سوى الانجذاب إليه؛ تماماً مثل شابّ بسيط المظهر يتحوّل إلى نجم روك وسيم وكاريزماتي عندما يوضع على المسرح مع الأضواء والموسيقى. عندما يتحدّث فلافيو، يتموّج شعره أكثر، وتصبح عيناه أكثر عمقاً. ومع أنّ المرأتين الأخريين في المنزل تصغيان إليه باهتمام عندما يتكلّم، وتحاولان استراق النظر إليه، لكن يبدو أنّ ليليا هي أكثر من تتأثّر عندما ينظر باتّجاهها. كانت تشعر برابط سرّي بينهما يصعب وصفه، لكنّها تعجز عن تحديد ماهيّة هذا الشعور. فكلّما التقى نظر فلافيو بعينيه الزرقاوين نظرها، تنصرف إلى تحريك الطعام في المقلاة، أو تبحث عن نوع لا ضرورة له من التوابل في الخزائن. وجدت هذه الأحاسيس غير ملائمة، لكنّ إحساسها بكلّ خلية من خلايا جسدها جعلها تشعر بالسرور. تساءلت عمّا إذا كان زوجها قد أحسّ بالطاقة المتغيّرة في المطبخ يوماً تلو الآخر، وكم من هذه المشاعر يتسرّب إلى غرفته من تحت الباب المغلق.

كلّ ذلك ساعد ليليا على عدم التفكير في قلّة اكتراث الولدين بهما. ومع أنّها شعرت بالانزعاج لأنّهما لا يتّصلان أبداً، وفكّرت في الأمر في بعض الليالي، قبل أن تستغرق في النوم، إلاّ أنّها كانت تغمض عينيها المتعبتين قبل أن تسترسل في التفكير أكثر. ويكون اليوم التالي دائماً أكثر انشغالاً بقليل، فلا يترك لها الوقت للتفكير. بدأت المعالِجة الفيزيائية التي تأتي ثلاثة أيام في الأسبوع تتحوّل هي أيضاً إلى جزء من حياة قاطني المنزل. فهي لا تستطيع أبداً مقاومة الكعك الذي تعدّه ليليا، وتقدّمه لها مع بعض القهوة بعد جلساتها مع آرني. فكانت تجلس في المطبخ

وتستعين بالكعك والقهوة لمساعدة جسدها المتشنّج على الاسترخاء، بعد التعاطي مع مريض بهذا التوتّر. كانت تشعر بالفضول لمعرفة كيفيّة تمكّن امرأة مثل ليليا من البقاء متزوّجة من رجل مثل آرني طوال هذه السنوات. سألتها إن كان آرني قد أصبح كذلك بعد مرضه، فأجابت ليليا على سؤالها هامسة، بعدما تأكّدت أنّ باب آرني محكم الإغلاق:

"لطالما كان آرني شخصاً يحبّ العزلة. بالطبع، قضينا أوقاتاً ممتعة في شبابنا، وسافرنا قليلاً، لكنّ آرني أراد دائماً تمضية بعض الوقت بمفرده خلال النهار. وقبل أن نفصل غرفتي نومنا، كان يمضي وقتاً طويلاً في مكتبه"

"لكنّه لم يكن يشعر بالغضب الذي يشعر به الآن..."

"في الواقع، أنا لم أوفّر له البيئة التي تسبّب الغضب، بل نفّذت كلّ ما أراده. لم أكن أُصدر أيّ صوت في المنزل بعدما يذهب إلى غرفته ليلاً. تخيّلي أنّه كان يشتكي من سماع أصوات تصدر من المطبخ من حيث يجلس في غرفته الواقعة في الطابق الثاني، هل هذا ممكن؟ لكنّني لم أعترض قطّ. عشت على رؤوس أصابعي في هذا المنزل لأعوام"

"وما هو وضعه الآن؟ أليس من الصعب عليه أن يعيش في الغرفة المجاورة؟ كما أنّه ليس مستقرّاً جدّاً على الصعيد النفسي

"صحيح، لكنّني لم أعد أتمتّع بصحّة ممتازة أنا أيضاً. أنا في الثانية والستّين من عمري، ولديّ الكثير من الواجبات كلّ يوم. إن حاولت فعل كلّ شيء على هواه بالإضافة إلى كلّ مشاغلي فسأصاب بالجنون. ولا أعرف من سيهتمّ بنا عندها"

"إنه يتذمّر أيضاً من النزلاء، ويقول إنّهم صاخبون جدّاً"

"لا أستطيع فعل شيء حيال ذلك. ربّما أصبح يدرك ذلك للتوّ، لكن هكذا يعيش الناس، مثل الناس العاديين. فهم يتكلّمون، ويصدرون

جلبة وهـم يتنقّلون ويشـربون، ويضحكون بصـوت عـال، ويتحدّثون عن أيّامهـم، ويسـتخدمون مياه المرحـاض مـن دون خـوف. ولا يحاولـون إغلاق بـاب البرّاد بهـدوء. هـذه هـي الحيـاة الطبيعيـة، وليـس أن يعيش الناس خلف الأبـواب المغلقة، محاولين الاختباء من ظلّهم. عشـنا كذلك لسنوات، وماذا حلّ بنا؟ لقد أصيب بسكتة دماغية. ربّما سيتحسّن إن عشنا بصخب"

"ألا تملكان أطفالاً؟"

"بلى، لدينا اثنان، تبنّيناهما"

"أهما اللذان يظهران في الصور في غرفة آرني؟"

"أجل، دونغ وجيانغ"

لفظـت ليليا الاسـمين بقـوّة، حيـث إنّ المعالجـة الفيزيائيـة لم تجد الشجاعة لمتابعة أسئلتها. وعوضاً عن ذلك سألتها عن الطعام الذي تعدّه.

"كاشابوري"

"ماذا؟"

"كاشـابوري، إنّه طبـق جورجي. فإحـدى النزيلات شـابّة جورجية، وهذه هي المرّة الأولى التي أحاول فيها إعداد هذا الطبق. وجدت الوصفة على الإنترنت، وسنرى ما ستُسفر عنه المحاولة"

"وما هي هذه القطع الصغيرة من العجين في يدك؟"

"تصنعيـن أوّلاً قطعاً صغيـرة من العجين، ثـمّ تحوّلينهـا إلى حلقات رقيقة، وتضعين فيها الجبن الممزوج بحبّـات اللوبياء. في الواقع، ثمّة نوع معيّن مـن الجبن لهـذه الوصفة، لكـن بما أنّني لـم أجده، فقد اسـتخدمت الفيتـا. كما أنّنـي أضفت بعض الملـح. بعد قلي هـذه المكوّنـات بالزيت، تقدّمينهـا مـع الدجـاج المسـلوق والمنقوع بالثـوم. أتسـاءل عمّـا إذا كان

الآخرون سيحبّونها"

"من أين هم؟"

"ثمّة فتاة سويسرية، وشابّ ياباني، وآخر إسباني

لاحظت ليليا أنّها حين قالت كلمة إسباني ضغطت بقوّة أكبر على العجينة. كانت تحاول أن تخفي واقع أنّها تفكّر بفلافيو أكثر من أيّ شخص أو أيّ شيء آخر خلال معظم النهار؛ حتّى عن نفسها. هل سيعود باكراً هذه الليلة؟ هل سيكون في المنزل عند العشاء؟ هل سيتحدّث عن الكتاب الذي يقرأه؟ هل سيحبّ الطعام؟ كانت ليليا تتوق إلى حلول المساء. وفي الأيّام التي يعود فيها فلافيو متأخّراً، كانت تضع له طبقه جانباً وتلفّه بورق النايلون، ثمّ تشاهد التلفاز في المطبخ حتّى يرجع. وإن تأخّر فعلاً في العودة، كانت تخلد إلى النوم خائبة الأمل بعض الشيء، وتتمنّى أن تراه في اليوم التالي. لم تستجوب نفسها بعد لترى ما إذا كانت تلك الأفكار تحرجها. يكفيها أن تعرف أنّ هذه الأحاسيس تبعث الدفء في قلبها.

* * *

مضى أكثر من خمسة عشر يوماً منذ أن انتقلت والدة فيردا للعيش معهما، وقد نجحت فيردا في التكيّف مع وتيرة حياتهم الجديدة. فكانت تستيقظ عادة عدّة مرّات خلال الليل للاهتمام باحتياجات والدتها، وتنهض باكراً في الصباح. وبعد تحضير الفطور لسنان وذهابه إلى عمله، كانت تساعد أمّها على قضاء حاجتها. ما زالت السيّدة نسيبة ترفض الذهاب إلى الحمّام، وتقول إنّها لا تملك القوّة حتّى لاستخدام الوعاء المخصص للسرير. وإن تأخّرت فيردا دقيقتين في الصباح، تتذمّر أمّها من ألم كليتيها، وتئنّ بصوت عال. وبينما تساعدها على الجلوس بشدّها من معصميها اللذين سبق أن أصيبا بكسر، تلعن السيّدة نسيبة حظّها السيّئ،

وتقـول إنّ الحياة لم تبتسـم لها قطّ، فقـد ترمّلت في شـبابها، وتخلّى عنها ابنها الوحيد، وخانها جسـدها، وعاشـت كلّ حياتها في العـذاب. وها هي الآن عاجزة. عرفت طـوال حياتها أنّ هذا الأمر سـيحدث عاجلاً أم آجلاً، وأنّها ستحتاج إلى شفقة الآخرين. ولم تفكّر قطّ بما تعانيه ابنتها.

كانـت فيـردا تعاني مـن الألم في جميـع أنحاء جسـدها، حيـث إنها شـعرت بكلّ فقرة في عمودها الفقري. ومع أنّها حاولت إقناع والدتها أنّها ليسـت مضطرّة إلى العيش أسـيرة الفراش، إلاّ أنّها فهمت تماماً أنّ الهدف لم يكـن حلّ المشـكلة، بل تضخيمهـا. كانوا قـد أوقفوا العـلاج الفيزيائي لأنّ السـيّدة نسـيبة لـم تبـذل أيّ مجهـود. وعندمـا حاولت فيـردا تحريك سـاقي والدتها في السـرير، شـعرت أنّ كلّ آنّة صادرة عن المـرأة العجوز تخز جلدها كالإبر. مع ذلك، كان جسد السيّدة نسـيبة القوي يجعلها تبدو بحالة جيّدة. فشـهيّتها ممتازة، وهي تخبر فيردا بما تشـتهيه كلّ يوم تقريباً، وعندما تقدّمه لها، تلتهمه كله. فهي تريد الكوسـا المهروسة يوماً، وأضلع الحمل يوماً آخر. لطالمـا تمتّعت والدة فيردا بشـهيّة جيّدة، لكـنّ ما تطلبه أثار فضول ابنتها. فكانت تتسـاءل في بعض الأيّام عمّـا إذا كانت هذه هي الرغبـات الأخيرة لامـرأة تحتضر. وبمـا أنّها كانـت ماهرة في الإحسـاس بالذنب وتحويل الحالات العادية إلى مآس، فقد كانت تذهب فوراً لإعداد الطعام الذي تشـتهيه والدتهـا. وعندما أرادت السـيّدة نسـيبة تناول حلوى عنق الحمـل، واكتشـفت أنّ ابنتها لا تعـرف كيفيّـة إعدادها، نظـرت إليها خائبة الأمل.

"أتقولين إنّك لم تعدّي قطّ حلوى عنق الحمل؟"

"كلاّ... بلى... أعني لم أحاول قطّ"

"مع أنّها حلوى سنان المفضّلة"

لم يكن سنان يحبّ هذه الحلوى مطلقاً، التي كانت تُصنع من عنق الغنم مع بعض الليمون والقرفة، أضف إلى أنّه لم يفهم قطّ ماهيّتها، لكنّه لم يقل لحماته الحقيقة يوماً بل ادّعى أنّه يحبّها. وكلّما قدّمتها له مع عود القرفة المغروز فيها، كان يخشى أن يصاب بالغثيان. لكنّه كان ينجح دائماً في إبعاد هذا الإحساس بعد تناول اللقمة الأولى. وربّما لأنّه كان يجامل حماته بعبارات مليئة بالإطراء كلّما أعدّت طبقها المفضّل، اعتقدت هذه الأخيرة أنّ هذه حلوى صهرها المفضّلة، ودرجت على صنعها في جميع المناسبات.

فجأة، شعرت فيردا أنّ أمّها ستنهض، وستضع الوِزْرَة، وتذهب إلى المطبخ لتبدأ بإعداد الحلوى، فقط محبّة بصهرها. غير أنّ السيّدة نسيبة أدركت في اللحظة الأخيرة أنّها كانت جالسة تقريباً على السرير، متّكئة على مرفقها الأيسر، وتبدو وكأنّها على وشك الوقوف في أيّ لحظة. لذا، عوضاً عن ذلك استلقت مجدّداً، وأسفت على حظّها مرّة أخرى. "ويلك يا سيّدة نسيبة، كيف حدث لك ذلك؟ كيف ستحتملين هذا الوضع؟ لو كنت أتمتّع بصحّتي، لأعددت الحلوى حالاً، لكنّني عاجزة حتّى عن الحراك" قالت ذلك، وانهمرت الدموع على خدّيها المتورّدين. ومع أنّ فيردا شعرت ببعض التعاطف مع أمّها، إلاّ أنّها لم تستطع إجبار نفسها على الاكتراث لتلك الأمور لأنّها عرفت أنّه مشهد درامي آخر من مسلسل حياة أمّها الطويل. ذهبت إلى المطبخ، وعادت حاملة ورقة وقلماً، ثم جلست على السجّادة قرب سرير أمّها وقالت: "لا بأس يا ماما، أعطيني الوصفة وسأعدّها"

بدأت السيّدة نسيبة تخبرها، ووجهها مبتلّ بالدموع: "تقومين بسلق عنق الغنم حتّى يصبح طرياً جدّاً ويتفتّت إلى أجزاء. وبعد ذلك، تفتّتينه إلى أجزاء هكذا، وتعيدينه إلى القدر مجدّداً. تضيفين إليه بعض الماء، والسكّر، وقليلاً من عصير الليمون، وعصير البرتقال. وبعد ذلك،

تضعين القرفة، وكبش القرنفل، ثمّ تتركينه يغلي على النار إلى أن تتبخّر كلّ السوائل من القِدر. في ما بعد، تضيفين الزبيب، والخوخ المجفّف، والمشمش المجفّف، ومزيداً من القرفة، وتطهين المكونات معاً مجدّداً. ولكن، احرصي على ألاّ تحترق. عندما تطهى كلّها، ضعي اللوز والصنوبر على سطحها وقدّميها ساخنة"

دوّنت فيردا الوصفة على الورق، من دون أن تسأل عن مقادير السكّر، أو القرفة، أو المشمش. فقد عرفت أنّ أمّها تستطيع أن تخبرها بمقادير كلّ من المكوّنات إن أرادت، لأن ذاكرتها ما زالت جيّدة جدّاً. لكنّ فيردا أرادت أن تتحدّى قدرتها على التقاط الطعم الأصلي لكلّ طبق من دون معرفة كلّ التفاصيل. كانت ماهرة في ذلك. في هذا الوقت، هدأت أمّها وتوقّفت دموعها. والطريقة التي حرّكت بها طقم أسنانها الاصطناعية أظهرت لفيردا أنّها بدأت تجوع، ربّما بسبب ذكر حلوى عنق الحمل. سألتها إن كانت ترغب ببعض البازيلاء المقلية مع البصل، والثوم، وصلصة الطماطم، وزيت الزيتون. ردّت السيّدة نسيبة بالإيجاب، وأضافت: "فيردا؟ هل لديك لبن؟ إن كان لديك لبن، صبّي بعضاً منه في طبق جانبي" لا تكتفي السيّدة نسيبة أبداً بما هو موجود، لديها دائماً ما تطلبه. إن أرادت البازيلاء، فهي تريدها مع اللبن. وإن أرادت لبناً، فهي تريده مع السكّر. وإن أرادت سكّراً بحدّ ذاته، فستسأل إن كان لديهم فراولة. هكذا تتواصل اللائحة إلى ما لا نهاية، وهكذا راحت فيردا تتنقّل بين المطبخ وغرفة أمّها ذهاباً وإياباً عدّة مرّات في اليوم من دون توقّف. كانت تتحدّث مع صديقاتها عبر الهاتف من وقت إلى آخر عندما تأخذ أمّها قيلولة لفترات قصيرة جدّاً، فتخبرهن على الأقلّ عن حالها. لكنّها كانت دائماً بالغة الحذر. ففي معظم الأحيان، تستيقظ أمّها في منتصف الحديث وتسألها عن المتكلّم. وتصرّ على التحدّث معه إن كانت تعرفه، ولا تتوقّف عن الكلام إلاّ عندما يقتنع المتكلّم أنّها على وشك الموت

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

ويشعر بالشفقة الحقيقية عليها.

في الظروف العادية، تعيش فيردا حياة اجتماعية ناشطة جداً. إذ تخرج من منزلها أكثر من مرّتين في اليوم تقريباً، وتساعد الجميع في الكثير من الأعمال، وتلتقي مجموعة كبيرة من الأصدقاء كلّ أسبوعين، كما تذهب إلى اجتماع الأهالي في مدارس أحفادها عند الحاجة. أمّا الآن، فقد أصبحت تعيش بعيداً عن كلّ ذلك. وكأنّ تمضية النهار بأكمله مع والدتها ليس كافياً، إذ إنّها لا تستطيع التحدث إلى زوجها ليلاً لأنّ السيّدة نسيبة تقاطعهما دائماً بطلباتها. كانت أمّها تعتذر دائماً عن الإزعاج بفتور، لأنّها قاطعت جلستها مع زوجها، ثمّ تسألها إن كانت تستطيع تدليك ساقيها، فهما تؤلمانها جدّاً رغم شللهما المزعوم. هل ستمطر أم إنّ الثلج سيتساقط في غير موسمه؟ كما أنّهما يضطرّان إلى قطع الأفلام التي يشاهدانها ليلاً، والتي أصبحت عادة لديهما في السنوات الأخيرة. فقد كانت فيردا تدوّن أسماء الأفلام التي تقترحها ابنتها، وتذهب لمشاهدتها مع زوجها مرّة في الأسبوع. وإن لم يرغب سنان في الذهاب، كانت تذهب لمشاهدتها خلال النهار. وقد أصبحت الأفلام من بين الأمور التي تناقشها مع ابنتها خلال أحاديثهما الهاتفية. مع الأسف، هذا أيضاً تغيّر.

لم تكن فيردا تحبّ حديثها المتواصل عن أمّها، مثل الأمّهات اللواتي لا يتحدّثن سوى عن أطفالهنّ. فبينما تتواصل الحياة في الخارج، أصبحت حياتها محصورة بين أربعة جدران. وبما أنّها لم تعد قادرة على الذهاب لرؤية أحفادها، أصبح ابنها يجلبهم لها أحياناً بعد انتهاء اليوم الدراسي. وبينما تمطرهم فيردا بالعناق والقبلات، تسمع والدتها وهي تؤنّب حفيدها لأنّه لا يزور جدّته كثيراً، علماً أنّ كلمة "كثير" غير موجودة في قاموسها. فأيّ شخص لا يمضي معها ساعتين على الأقلّ كلّ يوم، لا تعتبره صالحاً. خلال الساعتين التي تجتمع فيهما فيردا مع أحفادها،

تحـاول أن تسـعدهم، وتضع قالـب الحلوى الـذي خفقته علـى عجل في الفرن. لكنّ السيّدة نسـيبة هي دائماً التي تشـمّ رائحة القالب قبل الجميع. يبدو وكأنّ كلّ شيء يسـير في صالحها. فتتعهّد فيردا لنفسها أنّها لن تصبح مثل أمّهـا عندما تكبـر في السـنّ. وتحاول أن تنكـر واقع أنّ جميع النسـاء يصبحن مثل أمهاتهـنّ عاجلاً أم آجلاً. فجميع النسـاء سـيصبن بالأمراض التي أصيبـت بها أمهاتهـن، وسـيكبرن ليصبحن بالمظهر نفسـه والسـلوك نفسـه. لكنّ هذا لن يحدث معها، لن تصبح السيّدة نسـيبة. ستحرص على قطع أسلاك تلك القنبلة الموقوتة داخلها قبل أن تنفجر.

كان الذهـاب إلـى سـوق الخضـار أمـراً مميّـزاً بالنسـبة إلـى فيردا. فالتنقّل من بسـطة إلى أخرى كان أشـبه بالقيـام برحلات قصيـرة إلى تلك القرى الصغيـرة التي لـم تزرها قـطّ. وكانت تعثـر على ما تبحـث عنه من خلال اللحـاق بالرائحة العالقة على طـرف أنفها، وتلهمها ألـوان الخضار والفاكهة. بالنسـبة إليها، يجب أن يكون الطبق مخطّطاً له بشكل جيّد، مثل لوحة زيتية. إذ يجب أن يلمع ورق العنب المحشوّ وكأنّه مصقول، ويجب أن يبدو البقدونس نضراً. من جهة أخرى، يجـب أن يكون تناغم النكهات شـبيهاً بسـيمفونية فريـدة. لا يجـب إدخـال أيّ عنصـر إلى الطبق بشـكل اتّفاقي، بل ينبغي أن يكون الهدف من اسـتعمال كلّ المكوّنات ذاته. يجب أن تُتمّـم الطماطم طعـم الباذنجان المرّ، وطعـم القرفة فـي اللحم موجود لتهدئة أعصاب شـخص عانى من التوتّـر طيلة النهـار. ولا يوضع الكمّون في كرات اللحم لمجرّد الطعم، بل يوضع منه المقدار المناسـب لمساعدة المعدة علـى هضم الطعام فـي ما بعـد. الكمّيـة الزائدة مـن ربّ الطماطم في الطبـق أشـبه بمسـاحيق التجميـل الزائدة علـى وجه جميـل. يجب أن يبدو شكل الطعام ببساطة كأولئك النسـاء اللواتي يكتفين باستخدام أحمر الشـفاه. كلاّ، لا يوجد شـيء زائد في الخبز الـذي تعدّه فيـردا، فصديقاتها

مخطئات، إذ إن طعمه مستمدّ من دقيق القمح الكامل الذي لم تقم بشرائه من السوبرماركت، بل من الريف. وحساء تارهانا الذي تعدّه يمتاز برائحة مختلفة طبعاً، وذلك لأنّ البهار الذي تضيفه إليه من أورفا، إحدى المدن الشرقية. وما يجعل يخنة اللحم التي تحضّرها شهيّة أكثر هو ورق شجر الليمون الذي تضعه فيها. فكلّ من يتناول هذه اليخنة يسترخي على الفور ويكتشف الحبّ في داخله.

حاولت فيردا أن تنأى بنفسها عن التعاسة التي أدخلتها أمّها إلى منزلها بذهابها إلى سوق الخضار كلّما تسنّى لها ذلك. لم تكن تقصد الأسواق الأخرى في الأحياء المختلفة لشراء أفضل الخضار الطازجة كما اعتادت أن تفعل من قبل، لكنّ نزهة قصيرة إلى السوق المجاورة كانت تساعدها على تصفية ذهنها وتنفيس احتقانها. كانت تعرف أنّها إن أخبرت شخصاً ما أنّ زهرة الكوسا تمنحها إحساساً بالسلام، فسيسخر منها. لذلك، احتفظت بعمق مشاعرها لنفسها. وأكثر ما كان يسرّها هو أن تعدّ لأحبّائها الأطعمة التي يشتهونها. الأرضي شوكي لجيم، أو ورق العنب لإيلا، أو الموساكا لسنان؛ إنها أطباق تملأ قلبها وقلوبهم بالحبّ. وكلّما أخبرتها إيلا أنّها ستأتي إلى المنزل، كانت ترتبك مثل العشّاق قليلي التجربة، حتّى إنّها تحرق الطعام أحياناً.

تذكّرت كيف كانت تحاول إعداد الكعك الذي تحبّه أمّها حين كانت طفلة. كانت العلاقة التي تربطها بالطعام تعكس رغبتها العميقة في إسعاد الناس. لهذا السبب، كانت تنوي بذل ما في وسعها لإعداد حلوى عنق الحمل لأمّها الآن، مهما كانت غاضبة منها. وهكذا، وجدت نفسها تتوسّل إلى الجزّار، بعد رحلتها إلى سوق الخضار. إن لم يكن لديه رقبة حمل طازجة، فهل يمكنها الحصول عليها غداً؟ فأمّها مريضة وهي تشتهي حلوى عنق الحمل. حتّى الجزّار الذي يعيش يومياً مع رائحة اللحم، وجد تلك الحلوى غريبة. فقد التَوَت قسمات وجهه أمام الصورة التي رسمها

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

في ذهنه، والتي حاول نسيانها على الفور. سألها بشيء من الاشمئزاز: "حلوى من لحم الحمل؟" إلاّ أنّه أكّد أنّه سيؤمّن لها لحم الحمل الطازج يوم الجمعة. كانت فيردا زبونة قديمة. ومع أنّها خفضت هي وزوجها استهلاكهما من اللحم بسبب مشاكل القلب التي يعاني منها، إلاّ أنّها ما زالت قيّمة. مع ذلك، لم تكن زبونة سهلة، وهي لا تتردّد بالتأكيد في إعطاء تعليمات محدّدة. أضف إلى ذلك أنّها كانت الوحيدة التي تطلب ضلع العجل عوضاً عن الحمل، وهذا ما كان يثير انزعاجه. إذ كانت لديه مشكلة مع الأشخاص الذين لا يعرفون كيف يأكلون، ولكن ليس بيده حيلة.

عندما عادت فيردا من السوق بعد ساعتين، وجدت مفاجأة بانتظارها، ولم تكن مفاجأة سارّة. فقد حيّت السيّدة نسيبة ابنتها في السرير بعينين حمراوين بسبب البكاء. وفهمت فيردا ما حدث لدى رؤيتها ساقي والدتها الجامدتين في السرير، وكيف كانت ركبتاها متلامستين بعض الشيء. حاولت عدم النظر إلى الوعاء المخصص لقضاء الحاجة والذي وضعته بجانب السرير تماماً، لأنّ الأمر أزعجها جدّاً. كانت تعرف أنّ أمّها، لو أرادت، لتمكّنت من الوصول إليه، وأنّها لو بذلت مجهوداً أكبر بقليل، لما كان عليهما المرور بكلّ ذلك. لكن، رغم كلّ شيء، انكسر قلبها لمعرفتها أنّ أمّها بكت بهذا القدر. وقبل أن تفعل أيّ شيء، اقتربت من أمّها واحتضنتها. أرادت أن تقول: "لا تقلقي، هذه الأشياء تحدث، وسنتغلّب عليها معاً"، لكنّها لم تستطع. ما منعها هو عدم تصديقها لذلك. مع ذلك، أحاطت السيّدة نسيبة بذراعيها بقوّة. وبعد قليل، ذهبت إلى الحمّام، وعادت مع لفافة من الورق الصحّي، ووعاء كبير من الماء والصابون، وفوطة. رفعت ثوب أمّها، وبدأت تزيل البقع السوداء عن ساقيها. لم يخطر لها أن تفتح النوافذ إلاّ عندما أصبحت الرائحة لا تحتمل. في تلك الأثناء، لم يدم إحراج السيّدة نسيبة طويلاً.

فبعدما لزمت الصمت لبضع دقائق، بدأت تخبر فيردا كيف أنّهما تبادلتا الأدوار. ففي الماضي، كانت هي التي نظّفت فيردا، والآن ها هي ابنتها تنظّفها، أليس كذلك؟ نظرت فيردا إلى أمّها مذهولة من تلك الملاحظة. أما من طريقة لإفهامها أنّهما ليستا مجبرتين على العيش هكذا؟ هل من الممكن أن تكون أمّها - التي عُرفت دائماً بذكائها الفائق - قد صدّقت الكذبة التي اخترعها عقلها؟ لكن، هكذا هي. وكما تفعل دائماً، قرّرت ما أرادت، وبدأت تتصرّف على هذا الأساس؛ مهما تكن النتائج خطيرة ومؤذية. ولم تكن تدرك أنّها تدفع نفسها، وابنتها، وأسرتها بأكملها إلى الهاوية.

عندما وقفت فيردا بعد انتهائها من التنظيف، شعرت بأنّ الألم الذي تشعر به في ركبتها اليسرى والذي كان يزعجها منذ أسابيع، قد ازداد بعض الشيء. عرفت أنّ السبب هو توقّفها منذ مدّة عن ممارسة اليوغا. إذ كانت هذه الرياضة على رأس الأشياء التي جعلتها تحافظ على نشاطها في تلك السنّ. فتلك التمارين، التي تأسف لأنّها لم تتعلّمها سوى في سنّ متأخّرة، تصفّي أفكارها، وتثلج قلبها، وتحافظ على لياقة جسدها. في البداية، فكّرت أنّها ستتمكّن من التعامل مع هذه الأيّام الصعبة بواسطة اليوغا، لكنّها أدركت الآن أنّ رعاية أمّها لم تترك لها الوقت للقيام بأيّ شيء آخر. ذهبت فيردا إلى الحمّام حاملة الوعاء بيدها، وهي تحاول تمديد ساقها. وعندما ألقت الماء القذر في المرحاض، وضعت الوعاء في حوض الاستحمام لملئه بالماء الساخن، لتتمكّن من تنظيفه. أصغت إلى صوت المياه الجارية، ثمّ ركعت على الأرض واتّكأت بذراعيها على حافّة حوض الاستحمام الباردة. حاولت عبثاً مقاومة دموعها، وتمنّت لو أنّها مع إيلا الآن؛ تعدّان الكعك.

* * *

استيقظ مارك قبل حلول الفجر وسار بخطوات سريعة مبتعداً عن

شـقّته الخالية بأسـرع ما يمكن. وبمـا أنّ المتاجـر لم تفتح بعـد، ولم تكن في الشـارع وجوه مألوفة فـي تلك السـاعة المبكـرة، تمكّن مـن الوصول إلى صالته بسـلام. ومع أنّ آمو - الـذي اعتاد على فتح الصالـة كلّ صباح - فوجئ لدى رؤيته الأبـواب مفتوحة في اليومين الأوّلين، إلاّ أنّه سـرعان ما اعتاد على ذلـك. فالأبواب التـي يبقيها مـارك مفتوحة لسـاعات طويلة جـدّاً الآن - لمجرّد عـدم العودة إلـى المنزل - كانـت أمراً جديـداً؛ ليس عليه فحسب، بل على الزبائن أيضاً. ففي النهاية، كانوا معتادين على إيجاد الصالة مقفلة في ساعات غير معتادة من النهار.

كان مارك يتناول عشـاءه في الخارج ولا يرجع إلـى البيت إلاّ بعدما يتأكّد من أنّ جميع متاجر الحـيّ قد أُقفلت ولـم يعد ثمّـة أحد في المكان. وبعد تناوله العشـاء فـي أحـد مطاعم أوديـون كلّ ليلـة، كان يشـاهد أحد الأفلام أحيانـاً، أو يقصد أحـد النـوادي. وبما أنّه اعتـاد دائماً علـى إيجاد السـلام في بيتـه أكثر مـن أيّ مـكان آخـر، فقـد أرهقه بقـاؤه فـي الخارج لسـاعات طويلة. فشـعر بعد مـدّة بالإنهـاك مـن همسـات روّاد المطاعم، وموسـيقى النوادي، ومقاعد مسـارح السـينما الباردة. أضف إلـى ذلك أنّه سـئم من طعام المطاعم المنمّق، والـذي كان عموماً عالـي الجودة، وبالغ الإسـراف، ويفتقر إلى النكهـات البسـيطة لمطبخهما. كمـا أن معدته التي ازدادت ثقلاً يوماً بعد يوم، احتجّت على الأرجح على مختلف المكوّنات المسـتخدمة في تلـك الأماكن. عندمـا كان يعـود إلى المنـزل، كان يدخل المطبخ لبضع دقائق فقط، ويمضي معظم وقته في النـوم أو تصفّح الكتب في غرفة المعيشـة. رفض حضور أيّ من حفلات العشـاء التـي دعي إليها حتّـى الآن، ولـم يجـد الشـجاعة بعـد لممارسـة أيّ أنشـطة اجتماعية مع الأصدقاء. وكلّما مرّ أحد منهـم إلى الصالة، حرص علـى إبقاء الأحاديث قصيرة، وتمنّى أن يغادروا سـريعاً. لم يكـن مطلقاً شـخصاً اجتماعياً جدّاً، إلاّ أنّه لم يتصرّف قـطّ بفظاظة أو برودة مـع أصدقائه من قبـل. كما أنّه لم

يكن يوماً شخصاً غير محبّ ليدير ظهره للصداقة التي يعرضونها عليه. قبل وفاة كلارا، كان صدق الأحاديث حول طاولة العشاء يبعث الدفء في قلبه دائماً. أمّا الآن، فلم يعد يستطيع أن يتخيّل نفسه بينهم. وشعر أنّ الكلام نفد من داخله، وأنّه يستحيل عليه النظر إلى عيني أيّ شخص. وجد نفسه ينظر إلى أيّ مكان آخر غير وجه الشخص الذي يتحدّث إليه في معظم الوقت. حتّى إنّه لم يعرف عمّا يتكلّم، بل كان يتمتم شيئاً ما عن فيلم شاهده أو زبون أتى إلى المتجر.

كلّما اقترب الميلاد، ازداد مارك بؤساً. لو أمكنه، لأغمض عينيه وهو يمشي في الشوارع. كان يسلك الطريق الأطول لدى عودته إلى منزله، لمجرّد عدم المرور من أمام المتجر عند الناصية والذي كانا يشتريان منه في مناسبة الميلاد كلّ عام. وأغلق ستائر النوافذ الأمامية لكي لا يرى الأسرة التي تعيش في الطابق الثاني في الجهة المقابلة من الشارع. فقد ظلّوا لسنوات يراقبون استعدادات الميلاد لكلّ منهم، ويرسلون رسائل لبعضهم بواسطة الإشارات الضوئية عبر النوافذ. في الماضي، كلّما دخل مارك شقّتهما خلال تلك الأسابيع الأكثر بهجة من العام، كان يتنشّق رائحة كعك الفانيليا، والزنجبيل، والشوكولاته لكي لا ينساها حتّى العام المقبل. وفي كلّ مرّة، كانت تلك الروائح العطرة تبعث السعادة في نفسه. لم يُخرج الزينة الموضوعة في كيس تحت سريرهما هذا العام. ولم يلصق على النوافذ حبّات الثلج الورقية التي كان يحبّ حكّها بأظفاره القصيرة بعد انتهاء العطلة. جلس وبكى في الأيّام التي اشتاق فيها لشرب الشوكولاته الساخنة مع الكريما المخفوقة. ومع أنّه أراد الذهاب إلى دار العبادة، والتوجّه بعد ذلك إلى أحد المقاهي لتناول الطعام، كما اعتادا أن يفعلا دائماً، إلاّ أنّه لم يجد القوّة للقيام بأيّ من ذلك. كانت المدينة بأكملها سجناً بالنسبة إليه. فأينما ذهب، فهو لا يتخلّص من الثقل الضاغط على قلبه، ويزداد حزنه عمقاً. والألم

المتواصل الذي شعر به على طرف أنفه تحوّل إلى صداع الآن، فلم تعد المسكّنات تفارق جيوبه.

في اليوم الخامس والعشرين من صباح كلّ شهر ديسمبر، كانا يذهبان إلى غرفة المعيشة بملابس النوم، ويفتحان الهدايا الموضوعة هناك مثل الأطفال الصغار. ومع أنّهما كانا يشعران بشيء من الكآبة لانتهاء الميلاد، إلاّ أنّ فكرة اقتراب العام الجديد كانت تجدّد بهجتهما. وفي صباح الميلاد هذا العام، ذهب مارك إلى المطبخ من دون هدية، وجلس. وبما أنّه عرف أنّ المطاعم لن تفتح هذا اليوم، فقد اشترى في اليوم السابق بضعة أشياء لتناولها، واستعدّ للبقاء في المنزل طوال النهار. وبعدما تناول فطوره من كيس بنّي اللون، أخذ قرصي منوّم كان قد بدأ باستخدامه بعد وفاة كلارا. ولم يمض وقت طويل حتّى شعر بالتعب مجدّداً، فأطفأ التلفاز الذي كان يحدّق إليه طوال الوقت، وقفل عائداً إلى غرفة نومه. كان قد نزع سلك الهاتف الأرضي، ولم يشغّل هاتفه الخلوي. وهكذا، لن تصله رسائل أصدقائه. عاد إلى سريره غير المرتّب، وغطّى رأسه باللحاف، ونام معظم النهار، إلى أن أيقظه اهتزاز السرير.

كانت أوديت قد اتّصلت بمارك مراراً وتكراراً، وعندما لم يجبها، استقلّت سيّارة أجرة وأتت إلى شارع مونج، تاركة مسألة إعداد عشاء الميلاد لزوجها وأصدقائها. عندما كبر أولادها وأولاد أصدقائها وصديقاتها، وبدأوا يحتفلون بالمناسبات مع أسرهم الصغيرة، بدأت أوديت وسيلفي وكلارا وسوزان وأزواجهن عادة جديدة، وبدأوا يحتفلون بالميلاد معاً، كمجموعة من الأصدقاء القدامى في شقّة إحداهما. كانت أوديت قد اتّصلت بمارك قبل أيّام، وأخبرته أنّهم سيتناولون العشاء في منزلها هذا العام. كما مرّ زوجها هنري إلى الصالة في أحد الأيّام وأخبر مارك أنّهم يرغبون فعلاً بحضوره. لم يخبرهما مارك أنّه سيأتي، لكنّهم جميعاً أدركوا نوعاً ما أنّه لن يكون بينهم. لهذا السبب، قرّرت أوديت

المجيء لإحضاره في أثناء استعدادهم للعشاء. وعندما فتح مارك عينيه، كانت أوديت لا تزال تمسك بذراعيه وتهزّه بعنف.

"هل تناولت شيئاً؟ أخبرني!"

"أقراصاً منوّمة"

"كم قرصاً؟ أخبرني كم؟"

"تناولت اثنين"

هدأت أوديت عندما سمعت العدد.

"أحاول إيقاظك منذ عشر دقائق. عرفت أنّك تناولت شيئاً ما، ولكنّني شعرت بالقلق لأنّني لم أعرف أيّ جرعة تناولت ومن أيّ دواء. كنت على وشك الاتّصال بسيّارة الإسعاف"

"هذا لا يعني أنّني لم أفكّر بالانتحار أحياناً، لكنّني لا أستطيع فعل ذلك من دون كلارا"

كانت هذه أول جملة كاملة وذات معنى سمعتها أوديت من مارك منذ أشهر. نظرت إليه متفاجئة، وبشيء من الرضى. لقد تمكّن أخيراً من قول شيء مرتبط بمشاعره، وهذا ليس سيّئاً. نظرت حولها؛ كان هذا المنزل مليئاً بالسعادة في الماضي، أمّا الآن فبدا معتماً وكئيباً، بعد أن استقرّت وحدة مارك في كلّ زاوية من زواياه. كان يأس هذا الرجل النائم تحت الأغطية يوم الميلاد منعكساً حتّى على المرايا.

"انهض، لنذهب"

"أنا متعب جدّاً"

"أنت لست متعباً، بل مكتئباً. سأنتظرك في غرفة الجلوس، ارتد ملابسك. لديّ آلاف الأشياء لفعلها في البيت. إن حدث شيء لقالب الحلوى، فسأحمّلك المسؤولية كاملة"

لم يذكر مارك لأوديت كم تألّم حين سمع كلمة الحلوى، وارتدى ملابسه من دون اعتراض. كان من المستحيل بالنسبة إليه عدم تذكر كلارا وتخيل صورتها أمام عينيه صباح يوم الميلاد قبل عامين. تذكّر، وكأنّ الأمر حدث اليوم، كيف راحت تتمايل مع أنغام الموسيقى المتصاعدة من المذياع وهي تُعدّ حلوى الميلاد قبل وصول المدعوّين وتناولهم الشراب. راحت تضرب راحة يدها اليسرى بالمنخل الصغير الذي كانت تحمله بيمناها، وتغنّي وهي تشاهد ذرّات الفانيلا تتساقط على القالب: "ثلج، ثلج، ثلج" بعدما ارتدى ملابسه، سار خلف أوديت رغماً عنه. ودفنت تلك الجملة من الأغنية نفسها في دماغه لبقيّة اليوم.

قبل يومين من سهرة رأس السنة، شعر مارك أنّ جسده مخدّر بالألم، ولم يعد يستطيع الاحتمال أكثر من ذلك. فقبل بضعة أشهر فقط، عندما كانت كلارا معهم، خطّطوا لتمضية سهرة رأس السنة في النورماندي، في منزل كبير تمّ دفع إيجاره مسبقاً، يقع قرب القناة، ومع المجموعة نفسها من الأصدقاء. ومع أنّ وفاة كلارا غيّرت مخطّطات مارك، إلاّ أنّ الآخرين يستعدّون للرحيل خلال يومين. كانوا قد ألحّوا عليه ليرافقهم، إلاّ أنّهم لم يتمكّنوا من إقناعه هذه المرّة. مع ذلك، تفهّم على الأقلّ أنّ أصدقاءه يجب أن يعتادوا على الخسارة وأن يتخلّصوا من حزنهم. بدا له وكأنّ الحادي والثلاثين من ديسمبر سيكون أصعب الأيّام بالنسبة إليه. ستكون ليلة رأس السنة هذه هي الأولى التي يمضيها بمفرده. مع ذلك، كان يتطلّع حقّاً إلى ذلك اليوم. ربّما سيتمكّن من متابعة حياته عند انتهاء

هذه الاحتفالات، وربما سينجح بعدم التفكير بكلارا في كلّ لحظة. ربّما يمكن لحياته أن تستعيد طبيعتها نوعاً ما. فقد كان يلعب الغميضة مع جيرانه لأشهر. إذ يخرج من منزله في أوقات غريبة، ويسلك الطرقات الأطول للذهاب إلى حيث يريد لمجرّد عدم الالتقاء بأيّ شخص. كان قد توقّف عن الذهاب إلى متجر الأغذية القديم عندما يحتاج إلى شيء ما. وعوضاً عن ذلك، صار يقصد متجراً للمسلمين على بعد ثلاثة شوارع. وكان يسمع أصوات الناس - لا سيّما العرب الذين يتّصلون بأقاربهم المقيمين في بلدان بعيدة - من حجرات الهاتف الصغيرة في المتجر. كما أنّه دخل إحدى تلك الحجرات عدّة مرّات، وفكّر أمام الهاتف في إجراء اتّصال خارجي. لم يخطر في باله أحد غير عمّة كلارا، ولكن لم يكن لديه ما يقوله لإيفيت. فهم مدى ضيق حدود حياته في تلك اللحظات. هذا الواقع، الذي لم يدركه قطّ حتّى وفاة كلارا، أصبح يخطر بباله كثيراً الآن. كان يجلس أحياناً على المقعد الموضوع للزبائن ويراقب الشارع. أدرك أنّ الناس الذين يعملون في المتجر عرفوا أنّه يعاني من خطب ما، لذلك عاملوه بلطف زائد. استغلّ ذلك لصالحه، ولم يقدّم أيّ تفسير. ربّما ظنّوه مجنوناً، لكنّه لم يكترث. كان يدفع ثمن مشترياته، ولا يرحل إلاّ عندما يحتاج شخص آخر إلى احتلال ذلك المكان الصغير. كان مالك المتجر العربي يتصرّف عادة وكأنّ مارك لم يمض هناك سوى بضع دقائق، ولا يطرح عليه أيّ أسئلة.

ومع أنّ مارك هرب من العالم بأسره، إلاّ أنّه كان يشعر بالارتياح مع آمو. ربّما لأنّه عرف كلارا أقل بكثير ممّا عرفها الآخرون. لم يشعر أنّ عليه التكلّم عن زوجته معه. ولم يكن بحاجة إلى تذكّر مدى كمالها، ولطفها، وجمالها، وتفهّمها. كانا يستطيعان النظر إلى صفحة أصليّة من رواية رسوم هزلية لدقائق من دون قول شيء، والسير في اتّجاهات مختلفة في المتجر من دون الحاجة إلى أيّ تعليق. لم تكن لدى آمو أيضاً تجربة

كبيرة في هذا العالم، كما أنّه يعيش بمفرده؛ مثله تماماً. وشـأنه شأن مارك، لم يكن يكترث للنساء الجميلات اللواتي يمررن أمام الواجهات الزجاجية للصالة. من الممكن أن يعيش الألم نفسـه في أحد الأيّام، وقد وجد مارك في ذلك عزاءً إلى حدّ ما.

كان عـذاب مـارك يبلـغ ذروته في بعـض الأحيـان إلى حـدّ لا يعود معه واثقاً ممّـا إذا كان يريد التخلّص منـه. وكانت هناك فلسـفة تغذّي هذا الشـعور لديـه. ربّما كانـت رغبة الشـخص الذي عـاش سـعادة مطلقة في البحث عن الحزن اللامتناهي، إذ يعجز عن الاسـتقرار في الوسـط. عندما توقّف فـي أحد الأيّـام أمام لافتة تشـير إلى طريـق الرحلة التـي تنتهي عند دار عبادة سـانتياغو في إسبانيا، شـعر أنّه يستطيع السير مسـافة كيلومترات طويلة مع الحزن الـذي يعتصر قلبه. ربّمـا عندها، مع انتهـاء تلك الطريق، سيسـتطيع بدء حياة جديدة. لكن، عوضاً عن سـلك طريق سـان جايمس، قرّر مارك السـير في طريق آخر ينبع مـن داخله؛ طريق سيشـفيه مع الزمن، ويساعده على رؤية جمال الحياة مجدّداً.

4

قبل أن تأتي أولاّ من سويسرا إلى نيويورك، لم يكن حلمها العيش في منزل تفوح فيه رائحة الأدوية، بل كانت تفكّر في العيش في حيّ عصري في مانهاتن، في شقّة أنيقة كتلك التي رأتها في الأفلام. لكن، بما أنّ استئجار غرفة في هذا المنزل أقلّ كلفة، وهو أقرب إلى المدرسة التي ترتادها، فقد فضّلت الإقامة فيه. بالطبع، لم يذكر الإعلان أنّ رجلاً صعب المراس وشبه مقعد يعيش في المنزل. ومع أنّها فكّرت في أنّها ستنتقل إلى مكان آخر بعد شهر، إلاّ أنّها غيّرت رأيها نظراً إلى الوضع. فالمنزل المكتظّ، الذي يبلغ عدد قاطنيه سبعة مع بقيّة المستأجرين، لم يكن أكثر مرحاً وحسب، بل أكثر إثارة من أسرتها المؤلّفة من ثلاثة أشخاص. أضف إلى ذلك أنّها تعتقد أنّ علاقة غير عادية بدأت تتكوّن بينها وبين صاحبة المنزل. فقد كانت هذه الأخيرة تتمتّع بسحر لم تستطع تحديد ماهيّته تماماً، إلاّ أنّه يجذبها. قد يكون قوّة باطنية. وبما أنّ أولاّ بحثت عن تلك القوّة الباطنية في جسد الإنسان طيلة حياتها، فقد أخذ ولعها بليليا يكبر يوماً بعد يوم. فسماع أجوبة عن أسئلتها عن الحياة من امرأة أكبر سنّاً أكّد اعتقادها بأن هذه المرأة تتمتع بالحكمة. بحثت عن هذه المرأة الحكيمة طوال حياتها، وكانت واثقة أنّها ستجدها يوماً ما. حتّى إنّها اعتقدت مرّة أنّها وجدتها في مصفّفة الشعر التركية التي كانت زبونة لديها في سويسرا. أمّا الآن، فهي واثقة أنّها ليليا. فبمساعدة صاحبة المنزل، بدأت تفهم أهمّية الطعام في حياة المرء. فهمت أنّ كلّ لقمة تعبر حلقها ستتحوّل إلى جزء من هويّتها، وأنّ الإنسان يستطيع بعث رسائل من خلال الطعام وتلقيها.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

ربّما لهذا السبب سافرت كلّ هذه المسافة إلى نيويورك، فالعلم الذي تبحث عنه موجود في هذا المنزل.

كانت ليليا في السوبرماركت عندما عثرت أولاً على آرني مغمياً عليه على الأرض. فمع أنّ ليليا لبّت له كلّ احتياجاته قبل أن تغادر، وطلبت منه عدم مغادرة الفراش، إلاّ أنّه حاول الردّ على الهاتف في المطبخ، ولم يتوقّف عندما شعر بالدوار، فسقط على الأرض ورسالة دونغ الصوتية تملأ أذنيه. اتّصلت الشابّة بالطوارئ حالما رأته على أرض المطبخ. وبينما كانت تساعده على التمدّد على ظهره، حاولت تقديم المساعدة أيضاً إلى الرجل على الخطّ، وأخبرته كلّ ما تعرفه عن المريض.

رنّ هاتف ليليا عندما حان دورها لدفع ثمن المشتريات. وبينما كانت تحاول العثور على هاتفها في حقيبتها الكبيرة، راحت موظّفة الصندوق تقرأ رموز المشتريات وتضعها في كيس. لذلك، اعتذرت ليليا مئات المرّات عندما اضطرّت للخروج من المتجر من دون أخذ أيّ شيء معها. وبما أنّها لم تستطع إخبار الموظّفة كل شيء عن ظروفها خلال دقيقتين، أدارت ظهرها إلى وجه الفتاة العابس وعباراتها المضطربة، ووقفت في الصفّ تنتظر سيّارة أجرة بقلق بالغ. كانت على وشك إخبار السيّدة التي تقف أمامها عن مشكلتها لكي تعطيها دورها عندما رنّ الهاتف مجدّداً. هذه المرّة أخبرتها أولاً أنّ سيّارة الإسعاف أتت وأخذت آرني إلى سان فينسنت. وأجابت على سؤال ليليا بالنفي؛ لم يعرف المسعفون ما هي المشكلة. وحدهم الأطبّاء يستطيعون الإجابة. عندما انتهت المكالمة، رأت ليليا أنّ المرأة التي كانت أمامها وضعت خمسة من أكياسها العديدة في صندوق سيّارة الأجرة، وكانت تكافح مع ما تبقى. لم يكن أمامها سوى الانتظار. وعلى الأرجح، لن يغيّر ذلك شيئاً بما أنّ سيّارة الإسعاف نقلته إلى المستشفى. هل من الممكن أن يحتمل

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

جسـد آرني جلطة أخرى؟ غيـر أنّ ليليا تعلّمـت من خبرتهـا الأولى خطأ التوقّعات وعدم ضرورتها.

وبعدما أعطت سـائق السيّارة اسـم المستشـفى، غرقت على المقعد الكبيـر وأغمضت عينيهـا. أدركت في تلـك اللحظة أنّه مهمـا يكن الظرف أو الزمان، فهي تفكّر بفلافيو كلّما تسـنّى لها ذلـك. حاولت تجاهل كونها تفكر بهذا الشـابّ معظم الوقت، وفسّـرت أحاسيسـها على أنّها بحث عن الإثارة في حياتها الجامدة. لكنّهـا في الواقع، تذكّرت حياتها الجنسـية في الأسـابيع الأخيرة للمـرّة الأولى منذ سـنوات، وفتحـت الباب الـذي كان مغلقاً منـذ وقت طويل، علـى التخيّل أمـام المرآة. ومـع أنّها لـم تفكّر قطّ في خيانـة زوجها، ولـو لمرة واحـدة، إلاّ أنّها لم تسـتطع مقاومة التسـاؤل حول ما إذا كان فلافيو سيجد تهدّل بشـرة ذراعيها منفراً - مثلما تجده هي - لو رآهمـا عن كثب. ارتدت المشـدّ الـذي كان مدفوناً فـي أحد الدروج تحت أحد أثوابها يوماً، وسـرّتها النتيجة. بالطبع، نزعته بعد ساعتين عندما شـعرت أنّها على وشـك الإغماء. لا يمكنهـا أن تنكـر أيضاً أنّهـا وجدت نفسـها واقفة أمـام مسـتحضرات الشـعر أكثر من مـرّة في السـوبرماركت. أغراها اللون الكسـتنائي الداكـن، لن تكذب على نفسـها، فقد بدا مناسـباً لبشـرتها السـمراء. حتّـى إنّهـا حاولت طـلاء شـفتيها باللـون الأحمر قبل النزول إلى الطابق السـفلي بضع مرّات، وفكّرت في الواقـع أنّها أصبحت هي فعلاً. لكنّها مسـحته في كلّ مرّة بمنديل ورقي، خوفاً من أن يؤدّي هذا التغيير المفاجئ إلى إثارة شكوك آرني.

هذا ليس كلّ شيء. فللمرة الأولى منذ وقت طويل، أحضرت إحدى اللوحات الخالية من الرسـوم الموجودة فـي القبو إلى غرفتهـا، ووضعتها علـى المحمل الـذي كان ينتظر هناك لسـنوات. لم تكن قد بدأت بالرسـم بعد، لكنّها وضعـت عليها صوراً بعقلهـا. وعندما كانت تشـعر بالتعب من عجزهـا عن اتّخاذ قـرار حاسـم، كانت تؤجّـل الموضـوع متذرّعة بصوت

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

آرني الآتي من الجهاز. فهل ثمّة ما هو أفضل من عذر شرعي لعدم القيام بشيء مبدع بالنسبة إلى شخص أدرك أنّه يفتقر إلى الموهبة؟ في لحظات نادرة، عندما كانت ليليا تجد الشجاعة لمواجهة نفسها بصدق، كانت تدرك أنّها استخدمت الولدين كذريعة للسبب نفسه تماماً. سيريحها في الواقع أن تعلم أنّها لم تكن الإنسانة الوحيدة التي تميل إلى إلقاء اللوم على الآخرين عوضاً عن نفسها.

عندما وصلت ليليا إلى المستشفى، تغلب فضولها على قلقها. كانت تريد أن تعرف في أيّ اتّجاه ستسير حياتها الآن. وفي طريقها إلى الطابق التاسع، ظلّت تفكّر في أنّ مسار حياتها يعتمد على ما سيحدث لكائن بشري آخر. وقبل أن تغادر المصعد، كانت تشعر بانزعاج كبير من نفسها. توجّهت إلى مكتب الاستعلامات الذي كان يعمل خلفه الكثير من الأشخاص، وأعطتهم اسم زوجها. لم يكن من الممكن معرفة أيّ شيء عنه من ملامح المرأة التي بحثت في الكمبيوتر عن الاسم ورقم الغرفة. انتظرت ليليا بصبر وهي تتساءل عمّا إذا كان العاملون في المستشفى يصبحون كثيري التذمّر مع الزمن، أم إنّ المستشفيات توظّف أساساً أشخاصاً كثيري التذمّر للعمل لديها. بعد دقيقتين، نظرت المرأة إلى ليليا من فوق نظّارة القراءة، وأخبرتها أنّ الطبيب ما زال مع المريض وأنّ عليها الانتظار. جلست ليليا على أحد المقاعد المصفوفة أمام الجدار. وضعت نظّارتها التي كانت معلّقة حول عنقها لتتمكّن من قراءة لائحة الأسماء، ووجدت رقم أولاً. من المريح حقّاً وجود شخص تستطيع الاتّصال به من دون تردّد. انتهى الاتّصال الهاتفي ولم يخرج الطبيب بعد، فاتّكأت برأسها على الجدار وأغمضت عينيها، وسرعان ما غفت.

وعندما رفعت رأسها الذي انخفض نحو الكرسيّ المجاور، وفتحت عينيها بصعوبة، وجدت الطبيب واقفاً أمامها. قال لها إنّ آرني أصيب

بجلطة دماغية خفيفة أخرى، إلاّ أنّه لا داعـي للقلق في الوقت الحاضر، إذ لم يطرأ أيّ تغيير علـى مرضه. وردّ عليهـا بالإيجاب عندما سـألته إن كان الضعف ما زال يقتصر على نصفه الأيسـر. وقـال لها إنّ زوجهـا لن يغادر في اليوم نفسـه، لأنّهم يريـدون مراقبتـه لمدّة أربع وعشـرين سـاعة، لكن ما مـن داع لبقائها معـه. أدركت ليليـا بحزن أنّهـا لم تكن ترغـب في رؤية زوجها، فقد كانت متعبة مـن رؤية وجهه الكئيب. ولكـن، بما أنّه ليس من الملائـم أن ترحل قبـل زيارتـه، قرّرت الدخـول. لم يبـد آرني قـادراً على الكلام. تتبّع حركة ليليـا بعينيه، ومع أنّه لـم يُظهر أيّ عاطفـة، إلاّ أنّه توقّع منها الاقتراب والإمسـاك بيده. فزوجته كانت دائمـاً متعاطفة مع الآخرين؛ وحتّى في الأوقات التي حزنت فيها من سلوك ولديهما، كانت دائماً لطيفة معهما. تماماً كما تخيّل، اقتربت منه ليليا وأمسكت بيده بلطف، وحرصت على عـدم تحريك الأنبوب المعلّق بها. لكنّه لم يشـعر بـأيّ دفء في تلك اللمسـة. كانت حركة بداعي الواجب واللياقة. نظر آرني إلى زوجته بتمعّن للمرة الأولى منذ سـنوات. بدت بحال جيّدة عموماً، وأكثـر جمالاً بقليل، نظراً إلى إهمالها نفسـها في السـنوات الأخيرة. فقد سـرّحت شعرها تماماً كما كانـت تفعل فـي صباهـا، وأظهـرت هـذه التسـريحة خدّيهـا العاليَين والمكتنـزين. في تلك اللحظـة، حاول أن يتذكّر أين ومتـى أغرم بها، لكنّ ذاكرته خانتـه. لم يجـد يوماً شـيئاً يخبرهـا إيّاه. ولكـن، متـى توقّفت هي عن الكلام معه. حتّـى إنّها لم تنظر إلـى وجهه الآن. ظلّـت نظراتها تجول في الغرفة وهـي تتمتم بأشـياء لا معنى لها. قالت: "ستتحسّـن، كلّ شـيء سـيكون على ما يـرام. أنت لا تتألّـم، أليس كذلـك؟" لم يعـرف آرني إن كان سيتحسّـن فعلاً، ولم يعجبه جهله بما سيحلّ بزوجته في المستقبل، لا سـيّما وأنّه دائم الفخر بقدرته علـى توقّع الأحداث؛ مثل أهـداف مباريات كرة المضـرب، ونتائج الانتخابـات الرئاسـية، وبطولات التنـس. حتّى إنّه لا يريد التفكيـر في البقاء على هذه الحـال لبقيّة حياته. كان هذا اسـتعباداً:

لمنزل، وغرفة، وامرأة، ولهذا النوع من الحياة. لهذا السبب ظلّ يحاول الحراك، لكي يستعيد حرّيته.

عرف أنّ ليليا لم تعد قادرة على احتماله، ولا هو قادر على احتمالها. لقد بدأ يكرهها عوضاً عن تقدير كلّ ما فعلته من أجله، وصار يطلب أصعب الأشياء في أصعب الأوقات لمجرّد إغاظتها. من الواضح أنّ زواجهما قد فشل منذ وقت طويل، إلاّ أنّهما كانا بحاجة إلى هذه المأساة ليفهما أنّهما لم يعودا قادرَين على العيش معاً بعد اليوم. تصوّر أنّ زوجته تحاول الحفاظ على توازنها وسط هذا الكابوس الذي تعيشه من خلال الاختباء خلف أناس لم تتعرّف عليهم سوى منذ وقت قصير. أمّا هو، فلا خيار لديه سوى التحسّن. أدرك أنّه يملك حلماً للمرّة الأولى في حياته. فآرني لم يكن قطّ من الأشخاص الحالمين، ولا حتّى في شبابه. فقد عاش حياته على خطى من عاشوا قبله، وصاغها حسب نموذج كان موجوداً دائماً. ولم يُدخل عليها سوى تغييرات بسيطة فرضتها الحقبة التي عاش فيها. فزواجه بأجنبية، ورعايته طفلين فيتناميين ليسا ناتجين عن انفتاحه الذهني، بل إنهما نموذج كان سائداً في تلك السنوات. لكن، أصبح يملك حلماً الآن؛ وهو أن يتحسّن ويعيش بقيّة حياته بمفرده؛ أن يعيش حياته بسلام في غرفته التي تبلغ مساحتها 200 قدم مربّعة.

بعدما جلست ليليا مع آرني لمدّة ربع ساعة، استأذنت للعودة إلى المنزل. لم تعرف إن كان آرني لم يجبها لأنه لا يريد ذلك أم لأنّه لا يستطيع الكلام. غير أنّها لم تعد تكترث. كان من الأسهل بالنسبة إليهما احتمال بعضهما في المنزل. على الأقلّ، ثمّة أشياء هناك تلهيهما، فلا يضطرّان إلى النظر إلى بعضهما في غرفة خالية وصامتة كهذه. حاولت ليليا أن تتذكّر كيف كانت عينا زوجها عندما كان شاباً، فقد ازدادتا صغراً خلف نظّارته على مرّ السنوات. ما الذي جعلها تغرم به؟ لم تستطع أن تتذكّر رغم محاولاتها. وشعرت بالاسترخاء فور خروجها من المستشفى.

كانت سعيدة لأنها ستتمكّن من تمضية ليلة من دون آرني، وستتحرّر من شكواه وتذمّره، ولن تضطرّ إلى الإحساس بوجوده خلف باب المطبخ في كلّ ثانية، أو التفكير في كلّ كلمة تتفوّه بها. يمكنها أن تقيم عشاءً كبيراً مع كلّ المستأجرين في قاعة الطعام الكبيرة. سباغيتي مع كرات اللحم، وطبق سلطة كبير، وبعض الشراب. حتّى إنّهم يستطيعون إشعال المدفأة. تمنّت أن يعود الجميع باكراً إلى المنزل هذه الليلة، لا سيّما فلافيو. وعندما انتبهت إلى أنّها تفكّر بما سترتديه، احمرّ خدّاها. بدأت تراجع في ذهنها أثوابها التي ابتاعتها كلّها من محلاّت رخيصة. كانت كلّها كبيرة جدّاً وغير جذّابة. تخيّلت نفسها في ثوب ضيّق طويل أسود اللون. لم تكن قد ارتدت شيئاً كهذا منذ سنوات، ولم يكن هناك شيء يمنعها من أن تبدو حسنة المظهر إن ارتدت المشدّ. لكن، بعدما ازداد وزنها بعض الشيء وتبدّل شكل جسدها، جمعت كلّ أثوابها، بما في ذلك ثوبٌ أسود اللون، في كيس كبير للنفايات وباعتها إلى متجر تابع لمركز رعاية مرضى السرطان لقاء مبلغ صغير من المال. الآن، كلّ ما تأمله إيجادُ قميص أسود وتنّورة سوداء بين كومة ملابسها.

كانت محظوظة، فبعد عدد من المكالمات الهاتفية، عرفت أنّ الجميع يخطّطون للعودة باكراً تلك الليلة. لا شكّ أنّ الثلج الذي بدأ يتساقط في وقت متأخّر من عصر ذلك اليوم ساعد على ذلك. فجميع المستأجرين يعرفون مدى صعوبة إيجاد سيّارة أجرة أو الانتظار في محطّة قطار عندما يكون الطقس رديئاً. عندما وصلت إلى المنزل ذهبت مباشرة إلى غرفتها؛ عوضاً عن إعداد الطعام. وقبل أن تستحمّ، وضعت بعض الملابس على السرير للاختيار بينها. متى أصبحت عديمة الذوق بهذا الشكل؟ أين وجدت هذه القمصان المزركشة بالأزهار، أو تلك التنانير بلون الخردل؟ كيف جمعت هذه القطع الرهيبة من الملابس وهي تظنّ

أنّها تتسلّى بالتسوّق من محلاّت الملابس الرخيصة؟ كان الدليل على مدى كآبة حياتها ماثلاً أمام عينيها الآن. حتّى إنّها لم تعد تذكر متى ابتاعت لنفسها شيئاً جديداً. لقد تحوّلت إلى شخص متأثر بأذواق أشخاص آخرين. وفي النهاية، أصبحت امرأة أميركية كلاسيكية غير جذّابة، وغير سعيدة، ومكبوتة، لكنّها مزاجية. اختارت الثوب الوحيد الذي يمكن ارتداؤه بين الفوضى البشعة التي تملأ السرير. لم يكن أسود اللون كما تخيّلت، ولم يكن ضيّقاً أيضاً. لكن، على الأقلّ، كان بنّياً وغير مزركش. وضعت الملابس الباقية في إحدى زوايا غرفة النوم للتخلّص منها لاحقاً، وذهبت للاستحمام. أرادت أيضاً التخلّص من الرائحة القوية للفيتامين ب الذي بدأت باستعماله بأمر من الطبيب.

وقبل أن يجلسوا إلى الطاولة، أزالت كلّ الأغطية عن الموقد وجهّزوا الحطب الذي كان مخزّناً في القبو منذ سنوات لإشعاله. وعندما أخذ الجميع أماكنهم، أشعلت ليليا عود الكبريت، وبدأوا يأكلون مع أولى الشرارات وأصوات الطقطقة التي أخذت تتصاعد من الموقد. اتّخذ الحديث منحاه بشكل طبيعي كالعادة. رحّبت ليليا بسرور بالمجاملات التي صدرت عنهم، ولا سيّما بشأن شعرها وتبرّجها، ولم تستطع منع نفسها من النظر نحو فلافيو. لو سئلت، ما كانت تستطيع أن تقول ما الذي توقّعته. فعلى الرغم من السعادة التي ولّدها إحساسها بالطاقة مجدّداً، إلاّ أنّها لم تعرف ما إذا كانت ستمسك بيد فلافيو لو أعطاها إيّاها. فهي ما زالت تشعر بفارق السنّ عندما تقف قرب شخص شابّ، رغم إحساسها أنّها أكثر شباباً جسدياً وعقلياً. مع ذلك، لم تفكّر بهذه الأمور مطوّلاً تلك الليلة. كلّ ما أرادته هو أن تكون سعيدة من دون تحليل أيّ شيء. فقط لو سار كلّ شيء على ما يرام.

كانت ناتالي أوّل من اشتمّ الرائحة التي فاحت في الغرفة. وبينما حاولوا فهم ما يجري، غطّى الدخان الذي لفظته المدخنة الموقد، قبل

أن يجتاح الغرفة. وسرعان ما أصبحوا عاجزين عن رؤية بعضهم. وقفت ليليا جامدة، لا تدري ماذا تفعل. لم تكن ثمّة نار لإطفائها، لكنّ الدخان بدأ يملأ غرفاً أخرى في الطابق الأوّل أيضاً. أمسكها فلافيو من كتفيها، وجذبها إلى الخارج. كان يصيح بلكنته الإسبانية "اخرجوا جميعاً"، وحاول في أثناء ذلك إخبار ليليا أنّ عليهم الاتّصال بالإطفاء. لكنّ ليليا ظلّت تقول إنّهم ليسوا بحاجة إلى ذلك. فالمدخنة لم تُنظّف منذ سنوات، ولا بدّ أنّ هذا هو السبب. كان إيد هو من نزل ووضع حدّاً لذلك الهراء. فقد شمّ رائحة الدخان من غرفته في الطابق الثالث، واتّصل بالإطفاء من دون إضاعة الوقت؛ معتمداً على حدسه بعد خبرته في مجال الأمن. وراح يسأل ليليا بصوت عال عن كيفية إقدامها على إشعال ذلك الموقد. فهم لم يستخدموه منذ سنوات عديدة، ألم تعرف أنّه يحتاج إلى تنظيف؟ وبينما عجزت ليليا عن رفع نظرها عن الأرض لمواجهته - وكأنّها فتاة صغيرة - كانت تفكّر في ما أحرجها أكثر، أهو إيد الذي يصيح في وجهها لارتكابها هذا الخطأ الجسيم؟ أم عدم دعوتها النزيل القديم إلى العشاء؟ في الحقيقة، لم يستعمل ذلك الموقد منذ انتقال الأسرة إلى المنزل. فقد اعتبره آرني دائماً ترفاً وتبذيراً للمال، ولم تعارضه ليليا قطّ.

هذه المرّة، كان صوت سيّارات الإطفاء هو الذي كسر صمت الحيّ. والجيران الذين لم يسبق أن ظهروا بلحمهم ودمهم، أطلّوا الآن من نوافذهم. من المنطقي أن يشعروا أنّهم يستطيعون التدخّل ما دام الأمر يتعلّق بسلامتهم هم أيضاً. أنهى رجال الإطفاء عملهم بسرعة. إذ قاموا بفتح جميع نوافذ الطابق الأوّل، وطلبوا من السكّان تهوئة غرفهم قبل الخلود إلى النوم. في النهاية، عندما عادوا إلى المنزل، نظّفوا أطباقهم بصمت، وصعدوا إلى غرفهم. فتحت ليليا نافذة واحدة فقط في غرفتها، ثم تمدّدت تحت الأغطية من دون أن تغيّر ثوبها، وشغّلت التلفاز الموضوع أمام سريرها. كانت بحاجة إلى سماع صوت آخر يطغى على

صوتها الداخلي، وإلاّ فسيتحطّم قلبها إلى آلاف الأجزاء وستبكي طوال الليل.

* * *

راحت فيردا تراقب حفيدتها الكبرى وهي تعمل بالعجين. لم تكن ناز قد تجاوزت الثامنة من عمرها، لكنّها تحبّ مساعدتها في المطبخ، كما أنّها موهوبة. تساءلت فيردا عن كيفية تذكر حفيدتها هذه الأيّام في المستقبل. فهي لم تكن ترغب بتمضية الوقت مع ناز فقط لأنّها تحبّ ذلك، بل أرادت أيضاً أن تورثها ذكريات طيّبة. أملت على الأقلّ أن تتذكّر حفيدتها أوقاتهما معاً ذات يوم، وهما تخبزان وتطهوان، وأن تستمدّ شيئاً مفيداً من ذلك لتحسين نفسها. ألم تتذكّر هي تلك اللحظات القصيرة مع جدّتها لأبيها في الماضي؟ لقد فقدت جدّتيها في سنّ مبكرة، لكنّها ما زالت تتمسّك بذكرياتها معهما. ما زالت تتذكر الأشكال التي كان الدقيق يخلّفها على وِزْرَة جدّتها وهي تعدّ الكاتمر، أو كيف تبعد شعرها عن جبينها بظاهر يدها. لقد فهمت أهميّة تلك الحركة التي اعتقدت أنّ النساء العجائز وحدهنّ من يقمن بها، في المرّة الأولى التي اتّسخت فيها يداها بالزيوت. أدركت متفاجئة أنّه من بين أعزّ ذكرياتها كانت ذكرى أمّها وهي تشتكي زوجها لعمّة فيردا الحبيبة وهما تجلسان إلى طاولة المطبخ. بالنسبة إلى فيردا، كانت الأحاديث التي تدور في المطبخ هي أكثر الأحاديث بهجة لمجرّد أنّها حدثت هناك. حتّى إنّها تفتقد إلى الشجارات التي تقع قرب دفء الفرن. ألا تشعر أنّ الأيّام التي أمضتها في مطبخ جدّتها منحتها القوّة في أوقات ضعفها؟ ويا له من مطبخ أيضاً! كان يشبه المطابخ القديمة التي تُعرض في مجلاّت الديكور اليوم، مع تلك الطاولة العالية ذات الخزائن في الوسط، والفرن في إحدى الزوايا، والأواني النحاسية المعلّقة على الجدران. اليوم، يكلّف بناء تلك المطابخ ثروة.

كان لتبييض النحاس أهمّية كبيرة في حياتهم في ذلك الوقت. ما

زالت تسمع صوت المبيّض المحلّي الذي يسير في الشوارع وهو يدفع عربته. كانت جدّتها لأمّها تستعمل هذه الكلمة أيضاً لتصف بشكل ساخر سلوكاً سيّئاً قام به شخص ما. فتقول: "لقد بيّضتها حقّاً السيّدة ليلى هذه المرّة"، ثم تروي مطوّلاً ما حدث. ومع أنّ فيردا تحبّ هذه الكلمة، إلاّ أنّها لم تستخدمها قطّ بذلك المعنى في حياتها. وهذا ما دفعها إلى التفكير بالكلمات التي ستنقلها إلى حفيدتها الوحيدة. ما هي الكلمات التي ستذكّر ناز بجدّتها بعد سنوات؟ ما هي بصمتها؟ فكّرت، لكنّها لم تجد شيئاً. لماذا لا تستعير كلمة تبييض وتمرّرها إلى جيل آخر؟ استخدمت الكلمة في المكان المناسب. كانت ناز تخبرها عن صديقة لها في المدرسة قامت بدفعها.

"لقد بيّضتها معك إذاً؟"

"ماذا فعلت يا جدّتي؟"

"بيّضتها، أي أساءت السلوك"

وضعت ناز يديها الصغيرتين على الطاولة، وبدأت تضحك. ابتسمت فيردا مسرورة هي أيضاً. لقد نجحت، كانت واثقة أنّها مرّرت الكلمة.

"أنت مضحكة جدّاً يا جدّتي. بيّضتها أي لوّنتها؟"

"كلا يا عزيزتي. هذه الكلمة تعني شيئاً مختلفاً. ما أعنيه هو أنّها تصرّفت بسكل سيّئ... أثارت غضبك"

"مثلاً، صاحت معلّمتنا في وجه أتيلا منذ يومين. لأنّه... لأنّه... لم يعرف الجواب... إذاً، هل بيّضها أتيلا؟"

"أجل"

"مثلاً، منذ يومين، بابا بيّضها مع ماما"

فكّرت فيردا بالمثل القائل: "الأولاد يحملون أفضل الأنباء" لم تكن واثقة ما إذا كانت راغبة بالتعمّق أكثر في المسألة. فقد كانت تشعر بالفضول حيال ما حدث لعلاقة ابنها بزوجته، لكنّها لم تشأ أخذ المعلومات من حفيدتها ذات السنوات الثماني، فقرّرت التغاضي عن الموضوع. غير أنّ ناز كانت مصرّة على استخدام الكلمة الجديدة في جمل مختلفة.

"ثمّ بيّضتها ماما مع بابا جدّاً. كنّا أنا وألاز جالسَين هناك، فوبّختنا ماما وطلبت منّا الذهاب إلى غرفتنا. واستمرّ بابا وماما بتبييضها مع بعضهما طوال الليل"

"آه"

لم تستطع فيردا قول شيء آخر. هذا يعني أنّه ثمّة خطب ما في زواج ابنها، لكنّها لم تشأ جرّ ناز إلى هذا الحديث. ثم تخيّلت ناز، هذه الفتاة الصغيرة، وهي تسير وتلفظ هذه الكلمة في كلّ مكان، وأدركت أنّ الناس سيجدون هذا الأمر غريباً.

"حسناً، هذه الكلمة للكبار يا حبيبتي. يمكنك استعمالها عندما تكبرين، هل اتّفقنا؟"

"لماذا؟ إنّها تعجبني. منذ الآن فصاعداً سأبيّضها مع الناس الذين يدفعونني في المدرسة"

عندها رأت فيردا أنّ الحلّ الأفضل هو تغيير الموضوع وجعلها تنساه.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

"انظري يا عزيزتي، أظـنّ أنّ هذه العجينة رخوة بعض الشـيء. يبدو أنّها تحتاج إلى المزيد من الدقيق. يجب أن تكون بطراوة حلمة أذنك"

نزعت نـاز العجيـن العالق علـى أصابعها ولمسـت أذنهـا. واصلت تحسّس العجين بيدها الأخرى، ثم هزّت رأسها موافقة.

"ما زالت بحاجة إلى بعض الدقيق يا جدّتي"

عندما بدأتا بدعك العجين، سمعتا صوت السيّدة نسيبة:

"فُسون!"

التفتت فيـردا نحـو غرفـة أمّهـا متفاجئـة، وجفّفـت يديها بالقماشـة المعلّقة في جيب وِزْرَتها. كانت ناز قد اعتادت على صوت السـيّدة نسـيبة وهي تنادي جدّتها طوال الوقت، لكنّها استغربت الاسم هي أيضاً. لم تكن تعرف السـبب، لكنّ الجـدّة الكبرى كانـت تبيّضها مـع جدّتها طوال الوقت.

"لكنّ اسمك ليس فُسون يا جدّتي
"صحيح يا حبيبتي. لكن، أعتقد أنّ الجدّة مربكة قليلاً"

حاولت فيـردا أن تخفي عـن حفيدتها مـدى اضطرابها. فـي الواقع، أخذ جسدها يرتجف. كانت فُسـون أوّل طفلة أنجبتها أمّها. لكنّها مرضت بعد وقت قصير من ولادتها، وتوفيت قبل أن تبلغ عامها الأوّل، مثل الكثير من الأطفال في ذلك الحين. كانت السـيّدة نسـيبة تتحدّث عن فسـون من

وقت إلى آخر، وتذكر مدى صعوبة خسارة طفل، مضيفة في كلّ مرّة: "لا أتمنى ذلك حتّى لألدّ أعدائي" لكنّها لم تناد ابنتها الثانية قطّ بهذا الاسم عن طريق الخطأ من قبل. إذ بقي الاسم في الماضي، ولم يكن يُذكر سوى من حين إلى آخر. ومع أنّ فيردا لم يسبق لها أن رأت أختها، إلاّ أنّها حملت دائماً في قلبها ألم فقدان شقيقة لها. ربّما كان ما يحدث امتداداً لحزن أمّها. ربّما استيقظت من النوم للتوّ وكانت تحلم بفسون، أو حلمت أنّها تحمل طفلتها بين ذراعيها مجدّداً. تركت ناز وحدها في المطبخ وهي تفكّر بالاحتمالات، وذهبت إلى غرفة أمّها.

"فُسون، ألا تسمعينني؟"

"أنا هنا يا ماما"

"جيّد، كنت أناديك. أين كنت؟ هل عاد والدك إلى المنزل؟"

"ماما، هذه أنا، فيردا. أظنّ أنّك كنت تحلمين، ربّما لم تستيقظي تماماً بعد. دعيني أحضر لك بعض الماء"

أثناء عودتها إلى المطبخ، سمعت أمّها تتحدّث عن أبيها. كانت تعرف أنّ المرء قد يفقد إحساسه بالزمان والمكان أحياناً، لا سيّما بعد النوم. ولا بدّ أنّ جسد أمّها المتعب لم يستيقظ تماماً بعد. عادت إلى الغرفة الصغيرة مع كوب من الماء بعد دقيقتين. نظرت السيّدة نسيبة إلى فيردا مباشرة بعينيها الزرقاوين اللتين لم تفقدا شيئاً من بريقهما.

"فسون، ماذا حلّ بي؟ هل أصبت بجلطة؟"

"ماما، أنا فيردا. لقد كسرت وركك، هل تذكرين؟ ثم انتقلت للعيش معنا. لا يمكنك السير لأنّك رفضت ذلك. لكنّك لم تصابي بجلطة"

"إنّه زوجك، ذاك الثعبان كسر رجلي

"ماما، مـاذا تقولين؟ لماذا سيكسـر سـنان رجلك؟ انتظري. اشـربي هذا الماء، وستتحسّنين. هيّا، اجلسي

"هذا الماء مسموم، لا أريد شربه. أين فيردا؟"

"ربّـاه، ماما، أنـا فيردا. فسـون كانت ابنتـك الأخرى، شـقيقتي، وقد ماتت عندما كانت طفلة"

"أمّي قتلتها. كانت تغار من حبّنا"

"هيّا ماما، اشربي بعض الماء. ستكونين بخير

"لا أريد، إنّه مسموم"

وبينما كانت تحاول جعل أمّها تشرب شـيئاً من الماء، لم تلاحظ أنّ ناز تراقبهما عند الباب، بعينين مليئتين بالاسـتغراب. لذلك أجفلت عندما سمعت صوت حفيدتها:

"جدّتي، لماذا تناديك الجدّة باسم فسون؟"

"لا أعـرف يـا حبيبتـي. اذهبـي إلـى المطبـخ. هـل أنهيـت إعـداد الفطائر؟"

"كلا، لم أقم بحشوها بعد. ألن تأتي؟"

"أنا آتية يا حبيبتـي. اذهبي وابدئـي. تعرفين كيفيّة إعدادها. سـأعطي الجدّة بعض الماء ثم أنضمّ إليك"

"لماذا تعتقد الجدّة أنّ الماء مسموم؟"

"إنّها تمزح يـا صغيرتي، لا تكترثي لذلك. هيّـا، اذهبي. انظري ماما، ابنة حفيدك تطهو لك. هـل ترين كم نحن محظوظات؟ سـنعدّ أيضاً بعض الشاي وستتناولين الفطائر

التفتت السيّدة نسيبة إلى ناز، وتفحّصتها جيّداً.

"أهذه ابنة فسون؟ إنّها تشبهها تماماً"

ظنّت فيردا للحظة أنّها ستصاب بالجنون. وضعت كوب الماء على الطاولة بجانب السرير، وغطّت وجهها بيديها. يبدو الأمر وكأنّ شخصاً ما ضغط على زرّ في عقل السيّدة نسيبة وخلط كلّ المعلومات. لم تعرف كيف تتعامل مع الوضع، فعادت إلى المطبخ مع ناز. صبّت لنفسها كوباً من الماء وجلست إلى الطاولة، وجلست ناز أمامها.

"جدّتي، هل أصيبت الجدّة بالجنون؟"

"كلا، بالطبع لا. إنّها مربكة بعض الشيء. فهي سيّدة عجوز كما تعلمين"

"لكنّني لست ابنة فسون، بل ابنة إسرا"

"صحيح يا حبيبتي. أعتقد أنّ الجدّة متعبة وحسب"

"هل ستموت قريباً؟"

"لا أدري يا عزيزتي. لكن، لا تفكّري بهذه الأشياء. إنّها متقدّمة في السنّ جدّاً على أيّ حال. لا تقلقي، اتّفقنا؟"

"اتّفقنا. لن تموتي قريباً، أليس كذلك؟ أنت ما زلت شابّة"

"أجل يا صغيرتي. لكن، لا تفكّري بهذه الأمور الآن. لنقم بحشو العجين، وبعد ذلك سنضع الفطائر في الفرن، لنتمكّن من أكلها في الوقت المناسب"

بينما كانت فيردا تغلق قطع العجين المحشوّة بالتفّاح، والقرفة، والجوز، أخذت تفكّر بما يفترض بها فعله. عليها أوّلاً الاتّصال بسنان. ستطلب منه المجيء إلى المنزل حالاً، لأخذ ناز وإعادتها إلى منزلها، إذ لا ينبغي لطفلة سماع أشياء كهذه، ولا تريد لحفيدتها أن تصاب بمزيد من

القلق. قرّرت أيضاً الاتّصال بالطبيب مباشرة صباح الاثنين. هل يمكن أن تكون هذه بداية الخرف؟ كانت الخالة سيمرا، جارتهم منذ الطفولة، قد مرّت بالحالة نفسها في السنوات الأخيرة. وقالت ابنتها، تولين، لفيردا إنّها واجهت صعوبة كبيرة في التعامل معها. غالباً ما كانت تقول: "لا أستطيع دعوة أحد إلى المنزل، فهي تقول أشياء غريبة جدّاً"

بعدما انتهيا من إعداد الفطائر، تركت ناز تضع الصينية في الفرن الحامي. بدا قفّازا الفرن اللذان يصلان إلى مرفقَي ناز جميلين جدّاً عليها. لقد كانت موهوبة جدّاً، صغيرتها الحبيبة. بحكم الخبرة التي كوّنتها ناز من المرّات السابقة، ضبطت المنبّه على خمس وثلاثين دقيقة قبل أن تقول جدّتها شيئاً.

"خمس وثلاثون دقيقة، صحيح يا جدّتي؟"

"صحيح يا صغيرتي. ممتاز. والآن، هل تريدين مشاهدة الفيلم الذي أحضرته لك؟ فيلم النحل"

"بي موفي!"

"آه، أميرتي الصغيرة تتقن الإنكليزية أيضاً"

عندما بدأت ناز بمشاهدة الفيلم، عادت فيردا إلى غرفة أمّها، وفهمت لماذا لم تسمع صوتها خلال ربع الساعة الأخير. كانت السيّدة نسيبة قد عادت إلى النوم. ذهبت إلى غرفتها واتّصلت بسنان من هاتفها الخلوي ولكنّه لم يجبها، فاتّصلت بابنها. لا يجيب ابنها عادة على كلّ اتّصالاتها، لكنّ الوضع يختلف عندما يكون أحد الأولاد عندها.

"مرحباً ماما"

"مرحباً جيم. اتّصلت بوالدك لكنّه لم يجب. هل يمكنك المجيء

خلال نصف ساعة لأخذ ناز؟"

"ماذا حدث؟ هل أزعجتك؟"

"كلاّ على الإطلاق، إنّها فتاة طيّبة. ولكن، بسبب جدّتك، فهي تقول أشياء غريبة، ولا أريد أن تخاف ناز"

"ماذا تعنين بأشياء غريبة؟"

"نادتني فسون، وقالت إنّ أباك كسر ساقها. وعندما أردت إعطاءها بعض الماء، رفضت شربه، مصرّة على أنّه مسموم"

"ربّاه. إذاً، فقدت عقلها أخيراً"

"لا أعرف يا جيم، لا أعرف شيئاً بعد، فقد حدث كلّ ذلك فجأة. بدأ بعد استيقاظها، وسألت عمّا إذا كانت ناز ابنة فسون. سأتّصل بالطبيب يوم الاثنين. أتمنّى ألاّ تصاب بالخرف، فهذا آخر ما نحتاج إليه. هل تذكر الخالة سيمرا؟"

"أجل، جارتنا في المبنى القديم. حدث معها ذلك، صحيح؟"

"أجل"

"ماما، أنت في ورطة"

"سنرى. ربّما ليس شيئاً خطيراً"

"هل اتّصلت بخالي؟"

"ليس بعد، لكنّني سأكلّمه اليوم. لا أدري كيف سأتمكّن من ذلك. كما تعرف، فهي تصغي إلى كلّ الأحاديث الهاتفية، ولا يمكنني استعمال الهاتف الخلوي طوال الوقت، فهو مكلف جدّاً.على كلّ حال، هل يمكنك المجيء لأخذها؟"

"بالتأكيد، سآتي بأسرع ما يمكن"

"جيّد. اسمع، حضّرت بعض فطائر التفّاح مع ابنتك. هل تريد القليل منها؟"

"بالطبع. إلى اللقاء"

بعدما أنهت المكالمة مع ابنها، دفعت باب الغرفة الصغيرة برؤوس أصابعها ببطء لترى ما إذا كانت أمّها ما زالت نائمة. بدا لها من ظلام الغرفة أنّ السيّدة نسيبة ممدّدة وعينيها مفتوحتان. عندما أمعنت النظر أكثر، رأت أمّها تتمتم بشيء بينها وبين نفسها، والدموع تسيل من عينيها إلى ذقنها. اعتصر قلب فيردا ألماً. شعرت بالحزن وأوشكت على البكاء. وحين همّت بالخروج، سمعت صوت أمّها: "فيردا؟ أهذه أنت؟" أجابتها بفرح: "أجل ماما!". عادت إلى رشدها، حمداً لله.

"رأيت أختك في المنام، ووالدك أيضاً. أظنّ أنّهما يناديانني. لقد حانت ساعتي

"لا تتكلّمي هكذا، الله أعلم بذلك. لقد كان مجرّد حلم، لا تضخّمي الأمور. لا يمكنك الذهاب هكذا. رجاء، فكّري بي"

"الأمر ليس بيدي، ماذا أفعل؟ حتّى إنّني لم أعد قادرة على السير

لم تشأ فيردا مناقشة هذا الموضوع مجدّداً. فكلّما ادّعت والدتها أنّها طريحة الفراش، تقول لها فيردا إنّها هي الملامة على ذلك، ويتحوّل الموضوع إلى نقاش حامٍ. ولم تكن في وضع يسمح لها بفتح هذا الحديث الآن.

"أعددنا بعض فطائر التفّاح أنا وناز، من أجلك"

"آه، أهذه رائحتها؟ أظنّ أنّها نضجت. اذهبي وتحقّقي منها، فهي على وشك أن تحترق"

عندما أتى الطبيب لزيارة السيّدة نسيبة يوم الاثنين، كان ذهنها بأفضل حال. تذكّرت ماذا تناولت على الغداء، ليس في ذلك اليوم فحسب، بل

قبل أسبوع أيضاً. كما ذكرت أسماء كلّ أقاربها واحداً واحداً، فضلاً عن تواريخ ميلادهم ووفاتهم. لم تذكر شيئاً ممّا حدث يوم السبت. بالإضافة إلى ذلك، نجحت في الاختبار القصير الذي أحضره معه الطبيب. فقد أعطاها عشر كلمات لتحفظها في عشر دقائق، وعندما سألها عنها تذكّرتها كلّها بالترتيب. في هذه الحالة، لم يكن ثمّة شيء يستدعي تدخّل الطبيب، سوى أنّه قال لفيردا إنّ ذاكرة أمّها قد تخونها من وقت إلى آخر. بالطبع، قد يتحوّل ذلك إلى خرف في المستقبل، لكن عليهم الانتظار لرؤية ما سيحدث. ربّما من الجيّد تدوين سلوكها اليومي في مفكّرة. فبهذه الطريقة، يمكنهم فهم الحالة على نحو أفضل. فكّرت فيردا بينها وبين نفسها: "بالطبع، هذا ما نحتاج إليه، مفكّرة ذهنية لأمّي مع ذلك، عرفت أنّها على استعداد لفعل كلّ ما يطلبه الطبيب. وكلّما أوكلت إليها مهمّة، تحرص على إتمامها مهما كلّف الثمن. عندما رحل الطبيب، بحثت في الخزانة عن إحدى المفكّرات التي أعطيت لسنان. وبعدما مسحت الغبار عن غلافها الجلدي، فتحتها وكتبت: اليوم الأوّل. ستمتلئ الصفحات الأولى لتلك المفكّرة بحوادث عادية جدّاً. إلاّ أنّ محتواها سيزداد غرابة يوماً بعد يوم، حيث يستحيل على فيردا فهمه. لن تتمكّن من معرفة ما هو صحيح في كلام أمّها، وفي بعض الأحيان ستتشكّك في الحقيقة والوقائع التي تعرفها هي شخصياً. وفي نهاية المطاف، ستتوقّف عن تدوين الملاحظات، عندما تجد أنّها لن تفيد بشيء سوى بإيلامها. سيصدم شقيقها عندما تخبره السيّدة نسيبة للمرّة الأولى أنّ الأب الذي عرفه لم يكن أباه. ومع أنّه لن يصدّق والدته، إلاّ أنّه سيخرج كلّ الصور المحفوظة في علب الأحذية لرؤية الشبه بينه وبين أبيه. ولن يستريح إلاّ عندما يرى في الصور العينين نفسيهما، والأنف نفسه، وحتّى صلع الرأس نفسه. مع ذلك، هذا لا يعني أنّه لن يرى كوابيس يقوم فيها بمناداة رجال آخرين بابا.

لم يكن تدهور حالة الأمّ الذهنية مشكلة فيردا الوحيدة. فقد بذلت

جهداً كبيراً حقّاً لإبقاء جسد أمّها نظيفاً، ومنعها من الإصابة بالقروح الناتجة عن الاستلقاء طوال اليوم. وراحت تقلّب جسد السيّدة نسبة من جهة إلى أخرى كلّ ساعتين تقريباً، وتدلّكه بكلّ أنواع المراهم والمرطّبات. كما تفاقمت مشكلة استخدام الوعاء المخصص لقضاء الحاجة في السرير إلى حدّ أنّها بدأت في النهاية باستخدام الحفاضات ليلاً على الأقلّ. وكلّما أرادت فتح النوافذ لتهوئة الغرفة، تحدث أزمة. كلاّ، بالطبع لا تريد أن تقتلها. من يموت في خمس دقائق بسبب البرد؟ كلاّ، لم تطفئ التدفئة في غرفتها. إن أرادت، يمكنها لمس جهاز التدفئة للتأكّد بنفسها. كلاّ، بالطبع لا تسخر منها، لم تقصد تذكيرها بأنّها مقعدة. أخيراً، كانت تنجح في إقناعها بأنّها لم تطفئ جهاز التدفئة بوضع وشاح الموسلين الذي تلفّ به عنقها طوال الوقت على الجهاز، ثم تعيده إليها بعد خمس دقائق. كان كلّ يوم عبارة عن معركة جديدة بالنسبة إلى فيردا: مع نفسها، ومع أمّها، ومع الأغطية، ومع الحفاضات. كانت حرباً متواصلة. ولم يكن لديها سوى ملجأ واحد في هذا المنزل الذي سُجنت فيه، ألا وهو المطبخ. فكانت تحتمي في كعكة البودينغ، أو أورزو البيلاف، أو شبت الكوسى أو الرائحة الصيفية للخيار. مع ذلك، عندما كانت تنظر إلى العلب الصغيرة المليئة بشتّى أنواع الأطعمة في برّادها، لم تكن تشعر بالرغبة في تناول أيّ منها. فتلك الأطعمة والحلويات التي أصبحت تعرف كيفيّة إعدادها عن ظهر قلب لم تعد ترضيها. متى كانت آخر مرّة أعدّت فيها طعاماً وهي تنظر إلى الوصفة؟ كم مضى عليها منذ أن وضعت السكّر أو الدقيق على الميزان؟ لماذا لا تجرّب أبداً الوصفات الفرنسية التي تعطيها إيّاها إيلا؟ ماذا يأكل الإسبان، أو الكوريون؟ هل صحيح أنّ الناس يأكلون الديدان في نيوزلندا، وأنّ الكمبوديين يحبّون العناكب المقلية؟ عندما فكّرت فيردا بالسؤال الأخير، وضعت يديها على عنقها للتخلّص من الرعشة التي اجتاحت جسدها. قد يكون من الصعب

الانتقال من القرنبيط المقلي إلى الحشرات المقلية، لكن يمكنها إدخال تغيير إلى مطبخها من دون قفزة نوعيّة كهذه. لم تكن تبحث عن التغيير في مطبخها بسبب رغبتها في طعمات مختلفة، إلاّ أنّها لم تجد طريقة أخرى في العالم الذي تعيش فيه.

* * *

كان هذا أوّل صباح سبت لا يستيقظ فيه مارك باكراً منذ وقت طويل. على العكس، انكمش جسده أكثر تحت الأغطية مع صوت المطر الباعث على الاسترخاء. كان يحمل على كاهله تعب أشهر من الزمن. فقد أمضى معظم وقته في الخارج منذ وفاة كلارا. مشى كما لم يفعل من قبل، واكتشف أماكن لم تسبق له رؤيتها في باريس. لم يعرف ماذا تخبّئ هذه المدينة التي ولد وكبر فيها. للمرّة الأولى في حياته، زار الأحياء المجاورة التي كان يخشى دخولها في الماضي. كانت تلك المنطقة سيّئة كما تخيّل. فعندما يهدأ حيّه بعد الساعة التاسعة ليلاً، تبقى تلك الشوارع تعجّ بالحياة مع الناس الجالسين أمام المباني. لم يكن يشعر بالأمان بين الشباب الموجودين هناك. كان يمرّ بهم من دون النظر إلى وجوههم، لكنّه يحاول أيضاً عدم إظهار خوفه منهم. فكّر أنّ الشرطة كانت على حقّ في خوفها من دخول تلك الأحياء. فحرق السيّارات تحوّل إلى تقليد تقريباً بالنسبة إلى أولئك الأشخاص. وعندما نظر مارك عن كثب إلى المكان الذي يعيشون فيه، فَهِمَ ما يثورون عليه. لكن، ألا يعيش كلّ إنسان خياراته الخاصّة به؟ خلال تلك الجولات، أدرك مارك أنّه عاش حياته من دون النظر إلى حياة الآخرين، ولم يتساءل قطّ عمّا يجري. الآن، رأى أنّ للشباب وجهة نظر مختلفة جدّاً إزاء الحياة، لا سيّما الجنس. اعتقد أنّهم يملكون الروح الحرّة التي سادت عام 1968. لم يكن مارك قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره حينذاك، وكان قادراً على اتّباع الفوضى التي ولّدتها الرياح الثورية في العالم عن قرب. لم يكن سبب ذلك اهتمامه

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

بالسياسة العالمية، أو فهمه الكثير عنها، بل لأنّه لم يكن يملك خياراً سوى السير مع الركب عندما وصلت الثورة إليه. بلغت الأحداث أوجها في أيّار 1968 في حيّه، وفي مدرسته. والصدامات، التي انتهت في آخر ذلك الشهر، تركت خلفها حقوق الإنسان، والحرّية الجنسية، والمخدّرات. كان مارك قد جرّبها كلّها قليلاً وحسب. لكن، عندما يرى الشباب الآن، يفهم كم كانوا سذّجاً.

عندما تجوّل في الأحياء المجاورة، اعتقدوه فرنسياً ثرياً أتى لشراء المخدّرات بضع مرّات. وهذا ما أوضح له أنّ الفرنسيين لا يأتون إلى هذه الأحياء لأي سبب آخر. مع ذلك، لم يهرب، بل دخل أحد النوادي وأصغى إلى صوت الكمان الجميل والثاقب. استمع هو وكلارا إلى الموسيقى نفسها، المالوف، في تونس. كانت الأغنية مختلفة تماماً هناك. فهم وهو يسير في شوارع باريس الخلفية أنّهما عوملا كسائحَين ذهبا إلى السيرك في تونس. فأخذ يتجوّل في باريس لرؤية شمال أفريقيا الحقيقي.

أصعب الأمور بالنسبة إلى مارك كان التعامل مع الأحلام. لم يسبق له أن أدرك كم يمكن لواقعيّة الأحلام أن تثير جنون المرء. كان الحلم محاكاة، وكانت التجربة حقيقية إلى حدّ مؤلم. وفي الأيّام التي كان يستيقظ من أحلام رأى فيها زوجته، كان يعجز عن التخلّص من إحساسه ذاك طوال اليوم. لم يحلم أنّه لمس عنقها فحسب، بل أحسّ بنعومة بشرتها تحت أنامله. كان ينظر إلى أصابعه بعدما يفتح عينيه ولا يصدّق لوقت طويل أنّه كان مجرّد حلم.

الآن، صباح هذا السبت، استسلم لأحاسيسه. لم يخرج إلى الشوارع منذ الصباح الباكر، ولم يأبه بالألم الذي تسبّبه الأحلام، بل انكمش ببساطة تحت الأغطية. اليوم هو اليوم الذي سيغيّر فيه عالمه. عليه أن يكون شجاعاً. سيحارب نفسه أوّلاً، ومن ثمّ المدينة، وبعد ذلك كلّ الذكريات. عرف قبل أن ينهض من السرير أنّه سيكون منهكاً في آخر

النهار، لكنّه فهم أيضاً أنّه لـن يتمكّن من الهرب من الحيـاة أكثر من ذلك. فقد تعب من العيـش وكأنّه شـخص آخر. أخيـراً، فتح عينيه قليـلاً حوالى الساعة العاشـرة، ونظر إلى الخارج من المكان الذي كان ممدّداً فيه. بدت سماء باريس الرمادية من بين السـتائر. كان عليه أن يبدأ نهاره بفطور جيّد، ربّما بقطعة كرواسان لذيذة من عند فرانسيس. بعد أن يملأ معدته، عليه أن يعمل على ما قرّره. كان مارك ينوي اليوم تأسيس مطبخ جديد من الصفر. سـيجمع كلّ ما هو موجود في الخزائـن، ويضعه في أكيـاس، ويأخذه إلى متجر لبيـع الأغراض المسـتعملة، ثم سـيذهب إلـى لي برينتان، ويشـتري أشياء جديدة. سـيبني لنفسـه حياة جديدة مع مطبخ جديد، وسيتعلّم كيف يطهو. في الحقيقة، كان مارك جائعاً، لا بل إنه يتضوّر جوعاً منذ أشهر.

على صوت الموسـيقى، راح يضع كلّ شـيء في الأكيـاس: المقالي المحروقة، أكواب من دون مسكات، طناجر من دون أغطية، مقالٍ جديدة، طناجر ضغـط حديثة، كلّ شـيء. كان قد اعتاد على رفقـة الأصوات الآتية من التلفاز في غياب كلارا خلال الأشهر الأخيرة. في الواقع، ما ألهمه كان عرضاً رآه منذ بضعة أيّام، في سـاعة متأخّرة على شاشـة التلفاز. إذ شـاهد رجلين في برنامـج تحت عنـوان إسـكاباد غورماند (فـرار الذوّاقـة). كان البرنامج - الذي يسـافران فيه إلـى بلدان ومدن مختلفـة ويطهوان الأطباق المحلّية - يُبـثّ بعض الظهيرة في الأسـاس، ويعاد بثّه بعـد منتصف الليل أيضاً. شـاهده مارك وهو يتناول الشـطيرة التي ابتاعها مـن محلّ للوجبات السريعة في طريقه إلى المنزل. أدرك أنّه ظلّ يشاهده حتّى النهاية، وفوجئ بنفسـه وهو يشـغّل التلفاز على القناة نفسـها فـي الليلة التاليـة، في الوقت نفسه تقريباً. أدرك أنّه أحبّ البرنامج بعد مشاهدته للمرّة الثالثة.

لم تكـن الوصفات هي التـي جذبت اهتمامـه، بل الطريقـة التي كان هـذان الرجـلان يفهمان بهـا العالم من خـلال الطعـام. لم يكن السلمون

مثلاً مجرّد مصدر للفيتامين ب، أو من المقبّلات الراقية، بل كان وسيلة للنضج. فالسبب الوحيد لإعداد السلمون مع صلصة التوت ليس الحصول على طبق جذّاب. كان السلمون ينضج عند طهوه مع التوت، بحسب الأساطير الأيرلندية، ومع كلّ لقمة، ينضج الإنسان أيضاً. فهذا السمك، الذي يهاجر من البحار المالحة إلى المياه العذبة ليضع بيوضه، يمثّل الرابط بين عالمَين استناداً إلى شعوب الشمال. فوجئ مارك عندما لاحظ مغزى كلّ لقمة تناولها. كان إسكاباد غورماند هو المخرج الذي يبحث عنه مارك، كان اتجاهاً قد يساعده على الهرب من عالمه الداخلي واتّخاذ الخطوات الأولى نحو حياة جديدة.

بعدما انتهى من جمع القطع الكبيرة، بدأ بالأدراج. المبشرة، خفّاقة البيض، ملعقة الآيس كريم، كيس الكريما، قطّاعة الموزاريلا، تخلّص من كلّ ما كان هناك. كلّما أمسك ملعقة لأكثر من دقيقة، كان يجبر نفسه على إفلاتها ووضعها بجانب الأواني الأخرى. كلّما تناول إحدى قطع خفّاقة اليد، فاضت عيناه بالدموع. تذكّر الحلويات التي كانت كلارا تعدّها في ذكرى ميلاده، لكنّه لم يغيّر رأيه. حتّى المناشف، والفوط الصغيرة التي كانت مغسولة، ومكوية، ومثنية على أحسن وجه لم تستطع أن تتجنّب مصيرها أيضاً، وطُردت خارج المطبخ. وقبل أن يربط آخر كيس، وضع قفّاز الفرن الذي ساعده على الإحساس بدفء زوجته في الليلة الأولى. اعتذر من زوجته وهو يفعل ذلك، وتوسّل إليها قائلاً: "أرجوك سامحيني يا حبيبتي، لكن عليّ أن أبدأ من مكان ما" وعندما وقف عند باب المطبخ ونظر إلى الداخل حاملاً الأكياس بيديه، لاحظ أنّ حامل المناديل، الذي كان موجوداً دائماً على الطاولة اختفى أيضاً. تمنّى لو أنّه دوّن اسم كلّ غرض تخلّص منه. فالأغراض التي اعتقد أنّه دوّنها في ذهنه لشرائها، بدأ ينساها منذ الآن. كلّ ما تذكّره هو المقالي والفوط. وعليه أن يرحل قبل أن ينساها أيضاً. استقلّ سيّارة أجرة إلى متجر الأغراض المستعملة عند

تقاطع شارع مونج وشارع الكاردينال لوموان. وبعد أن ترك الأكياس هناك، تابع سيره. حتّى إنّه نسي متى كانت آخر مرّة أتى فيها إلى لي برينتان. كانت كلارا تهتمّ بكلّ احتياجات المنزل. هي من كانت تشتري جوارب مارك، أو المسامير اللازمة لتعليق شيء ما على الجدران. حتّى إنّه لم يقرّر بنفسه لون القميص الذي يرتديه في تلك اللحظة. صحيح أنّه يحبّ اللون الأخضر، لكنّه ليس واثقاً ما إذا كان سيختار هذا اللون إن قام هو بالشراء.

كان يوم سبت كلاسيكياً في باريس. فقد ملأ نصف سكّان المدينة المقاهي، وملأ نصفهم الآخر لي برينتان. بعدما أمضى بضع دقائق أمام مكتب الاستعلامات عند المدخل، وجد أخيراً القسم الذي يبحث عنه، واستقلّ المصعد إلى هناك. لم يكن يعرف أنّ أواني المطبخ تمتاز بهذه الأشكال الفنّية. أدرك أيضاً أنّه، مثل جميع الأشكال الفنّية، يظهر تأثير الماضي على أواني المطبخ أيضاً. فقد تذكّر أنّ كلّ ما يراه هنا سبق أن رآه في طفولته، في مطبخ جدّته. لفت نظره لمعان الأكواب النحاسية. وبينما كان يدفع عربة التسوّق، التي لا تزال خالية، رأى مجموعة من الأشخاص الواقفين في إحدى زوايا المتجر. لم يبدوا مختلفين عن عشّاق الفنّ الذين يتدافعون لرؤية لوحة موناليزا بطول سبعة وسبعين سنتمتراً وعرض ثلاثة وخمسين في متحف اللوفر. انضمّ إلى الحشد بعدما ركن عربته. ما جذب كلّ هذا الاهتمام كان آخر تحفة للشيف الفرنسي الشهير ميشال برا: مجموعة سكاكين من سبع قطع بقيمة 2,000 يورو. كانت كلّ قطعة تمتاز بدرجة مرونة وقبضة مختلفة. أضف إلى أنّها كانت كلّها من صنع يدوي. هذه التحفة التي تشكّل ابتكاراً مشتركاً بين الشركة اليابانية الشهيرة في صناعة السكاكين والشيف الفرنسي، كانت أفضل وسيلة للجمع بين أشهى الأطباق اليابانية والفرنسية. وفهم مارك، وهو يراقب النساء اللواتي كنّ ينظرن إلى المجموعة بشغف، أنّ بعضهنّ يعتبرن تلك السكاكين لا

تقلّ قيمة عن المجوهرات. ابتلع ريقه وهو يتذكّر السكاكين التي تركها في محلّ الأغراض المستعملة في ذلك اليوم. كانت المجموعة تبدو جميلة، لكنّه فهم الآن أنّها قد تكون أعلى قيمة ممّا اعتقد. توجّه نحو الرفوف الأخرى، تاركاً الحشد خلفه. وبينما كان يحاول أن يفهم وجهة استخدام كلّ سكّين، رأى مجموعة للمبتدئين مؤلّفة من ثلاث قطع من صنع فوستوف. كانت المجموعة مرفقة بدليل صغير ويبلغ ثمنها 120 يورو فقط. قال: "رائع!". ولم يدرك أنّه ابتسم للمرة الأولى منذ أشهر من دون أن يجبر نفسه على ذلك. شعر مع أوّل مشترياته بالسرور والثقة، إلاّ أنّه فقد تلك الأخيرة عندما وقف أمام رفّ المقالي. إذ تدلّت أمامه على الأقلّ ثلاثون مقلاة مختلفة، ولم تكن لديه أيّ فكرة عن الفرق بينها. وكلّما وقع اختياره على واحدة، كان ينظر إلى تلك التي بجانبها ويبدّل رأيه.

ولو لم تأت إحدى الموظّفات، سابينا، لنجدته، لرحل على الأرجح من دون شراء أيّ منها. كانت سابينا شابّة رقيقة الصوت، جمعت شعرها إلى الخلف. قرّرت مساعدة هذا الرجل بعد مراقبته من بعيد لبعض الوقت، إذ فهمت أنّه لا يدري ماذا يفعل. عادة، يأتي الزبائن إلى هذا المتجر وهم يعرفون ما يريدونه، ولا يحتاجون إلى أيّ مساعدة. حتّى إنّهم قد يستاؤون أحياناً عندما تُعرض عليهم. أمّا مارك، فقد دمعت عيناه تقريباً عندما سألته سابينا عمّا إذا كان يحتاج إلى المساعدة. أخبرها عمّا يبحث بعدما شكرها مرّات عديدة، وقال إنّه يئس من المحاولة.

"حسناً، لأيّ غرض تحتاج إلى المقلاة؟"

"عفواً؟"

"ماذا تريد أن تطهو فيها؟"

"آه، لا أدري. أومليت؟"

"حسناً، هذا جيّد، إنّه سهل. لو تخبرني ما هي ميزانيّتك، يمكننا أن

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

نختار واحدة بسرعة"

فكّر مارك، "ميزانيّتي؟" يبدو أنّ الاهتمام بالطهو مكلف في النهاية. فقد اعتقد أنّ المقلاة ستكلّفه عشرة أو خمسة عشر يورو، لكنّ الأسعار التي رآها مختلفة جدّاً.

لا أعرف. لا أريدها باهظة الثمن، بل أريد شيئاً يدوم طويلاً"
"حسناً. سؤال واحد بعد. أتريدها من الفولاذ أم التيفال؟"

عندما أدركت سابينا أنّ الزبون كان على وشك الاستسلام في أيّ دقيقة بعد سؤالها الأخير، تولّت الأمر بنفسها. من الواضح أنّ هذا الرجل لا يعرف شيئاً عن الطهو. وعندما نظرت إلى مجموعة السكاكين، أدركت أنّه مبتدئ. هذا يعني أنّه سيحرق الأومليت في مقلاة الفولاذ. عرضت عليه مقلاة تيفال بسيطة، وغير ثمينة جدّاً، لكنّها ذات نوعيّة جيّدة، وقالت: "ها هي لم يكن مارك ينوي معارضتها. في الواقع، إن ساعدته على شراء بقيّة الأواني، فإنّها ستساعده في الوقت نفسه على عدم فقدان عقله. بعد المقالي، انتقلا إلى الطناجر وألواح التقطيع. لم تستطع سابينا منع نفسها من سؤاله:

"هل انتقلت حديثاً إلى باريس؟"
"كلاّ، لماذا؟"
"لأنّك تشتري أواني مطبخ جديدة"
"كلاّ... كلاّ، لكنّني سأبدأ بالطهي للمرّة الأولى

نظرت إلى مارك مبتسمة. أرادت معرفة السبب، إلاّ أنّها لم تسأل. عوضاً عن ذلك، تابعت سيرها معه بين الرفوف. وبعدما اختارا مجموعة

من الأشـياء من قسـم أدوات الطهي، شـعر مارك أنّه لا يسـتطيع الاحتمال أكثر من ذلـك في يوم واحـد. فقد اسـتغرق الأمر وقتـاً أطول ممّـا اعتقد، وكان متعباً. أراد الاحتفاظ ببعض الطاقة لطهي وجبتـه الأولى تلك الليلة، وقد أحضر أهـمّ غرض من أجلـه، ألا وهو المصفـاة. أمّا الباقـي فلم يكن مهمّاً. وبعدما شـكر سـابينا، توجّه إلى الصندوق، بينما راقبته من الخلف. لكـن، عندمـا رأى آلة إسبريسـو فـي طريقـه، توقّف مـرّة أخـرى. لم يجد الشـجاعة لاسـتخدام آلة إعداد القهوة الموجودة في المنزل بعد، ولا يبدو أنّه سـيتمكّن من اسـتخدامها مجدّداً. ربّما انتهت قصّة الحـبّ التي جمعته بالقهـوة الأميركيـة. راقبته سـابينا مسـتغربة مـن قيام هـذا الرجـل الحزين والغريب، الذي سأل عن سـعر كلّ شـيء، بابتياع إحدى أغلى الآلات في المتجر من دون تفكير.

بعدما حصل على إيصـال بقيمة ألف وثلاثمئة يورو، اسـتقلّ سـيّارة أجـرة، ووجد نفسـه أمـام المبنـى الذي تقـع فيه شـقّته مـع عـدد كبير من الأكياس ذات الأحجام المختلفة. فكّر أنّه كان يتعيّـن عليه أن يقبل عرض عامل الصندوق لإيصال الأغراض إلى منزلـه. طلب رمز المبنى، ثم وضع أحد الأكيـاس أمام البـاب، وحمـل الأكياس الأخـرى إلى الداخـل. وفي اللحظة التي كان يأمـل ألاّ يراه أحد فيهـا أو يعرض عليه المسـاعدة، رأى فرانسـيس واقفاً بجانبـه تماماً بمريلتـه الملتفّة حـول بطنه. خلافـاً لما ظنّه مارك، لم يسـأله شـيئاً، بل اكتفى بمسـاعدة جاره على وضـع الأكياس في المصعد، ثـم حملها معه إلـى شـقّته. كان الخبّاز يعرف الكثيـر عن الطهي ليفهم ما يوجد في تلك الأكياس. مع ذلك، لم يقل شـيئاً. وعندما اسـتدار لدخـول المصعد، رأى يد مـارك ممدودة نحـوه. قال له: "شـكراً لك على الكيش لورين، كانت لذيذة جدّاً". قبِل فرانسـيس الشـكر الذي أتى متأخّراً جدّاً، وشدّ على اليد الممدودة بحزم.

5

كانت الشعوذة أمراً مألوفاً لكلّ من ينشأ في الفيليبين. وكلّ شخص يجرّبها مرّة، بطريقة أو بأخرى. كانت ليليا قد أصغت إلى قصص عن مختلف أشكالها التي صنعتها مختلف النساء في طفولتها لأنّها كانت تمضي وقتاً طويلاً في مطابخ الناس. لكن، خلافاً للآخرين، رأت أيضاً كيف كانت النباتات والحشرات والأعشاب تُمزج وتسحق في قدور كبيرة، وتحرق. لم تقم قطّ بالسخرية منها كما كان بعض أبناء جيلها يفعلون. كانت عمّة ليليا الكبرى إحدى مشعوذات سيكويجور. ومع أنّها عاشت في منزل صغير قرب كهف كانتابون، وليس في وسط البلدة، فقد كان الناس يحضرون إلى منزلها أطباق الطعام. وعندما كانت تتلقّى الكثير من الهدايا، كانت ليليا تحصل على حصّتها أيضاً. فالكلّ على علم بأنّها مولعة بابنة أخيها.

فوجئت ليليا لدى تذكرها عمتها بشكل طبيعي الآن فيما كانت تحرّك شيئاً في القدر بشكل آلي. كانت واثقة أنّها في بعض الأيّام تشمّ رائحة الأعشاب التي كانت في مطبخ عمّتها. عمّتها، التي لم تقم قطّ بمشاركة أحد معلوماتها، أو الاكتراث لتحسين حياة الآخرين، والتي نصحتها مرّة واحدة: "استخدمي موهبة الطهو التي مُنحتِ إيّاها" حتّى إنّها لم تكن بحاجة إلى بذل مجهود كبير. فقد تضع حبّة فلفل سوداء صغيرة في القريدس لتحصل على النتيجة المطلوبة. وحدهم الأشخاص الذين ولدوا مع هذه الموهبة قادرون على استخدامها. فمركز العالم إنما هو مطبخ كلّ منزل.

حرّكت ليليا الطعام على النار مرّة أخيرة، ثمّ وضعت الغطاء على القدر. وبينما كانت تمسح الغبار عن نظّارتها بطرف قميصها، دخل فلافيو. لم يكونا قد تقابلا كثيراً منذ تلك الليلة التي ملأ فيها الدخان المنزل. كان فلافيو يرجع متأخّراً في الليل، ولا يتناول الطعام الذي تتركه له ليليا، ويمضي معظم وقته في غرفته عندما يكون في المنزل. كان من المستحيل على ليليا عدم الإحساس بالتوتّر بينهما، لكنّها لم تعرف السبب. رحّبت به بنبرة أعلى بعض الشيء ممّا قصدت، من دون أن تتمكّن من كبح حماستها. فاجأتها نبرة صوتها هي نفسها. وفوجئت أيضاً عندما أدركت كيف نسيت وجود آرني في الغرفة المجاورة بسرعة. وتساءلت ما إذا كان قد لاحظ شيئاً من إحساسها. مع ذلك السؤال، أدركت أيضاً أنّها لم تكن واعية هي نفسها لكثير من أحاسيسها. فما تمرّ به عاطفياً يشبه الحبّ. كيف تفسّر إذاً حماستها هذه، وتفكيرها به طوال اليوم، ومحاولتها إعداد الأطعمة التي يحبّها، والخيبة التي تشعر بها في الأيّام التي لا تراه فيها؟ كان فلافيو أشبه بورم يكبر في داخلها يوماً بعد يوم، وستُضطرّ إلى استئصاله في النهاية.

"هل أنت جائع؟ لدينا بعض الفضلات من يوم أمس، أو يمكنك الانتظار قليلاً، فما أعدّه سينتهي قريباً. يمكنني أيضاً أن أعدّ لك البيض المقلي

لاحظت أنّ يد فلافيو كانت مرفوعة في الهواء وهي تتكلّم، لكنّها أصرّت على إعطائه كلّ الخيارات.

"أنا صائم اليوم"

"صائم؟"

"أجل، فاليوم أول أيام الصيام"

"آه، صحيح لقد نسيت"

"لن أتناول شيئاً حتّى المساء. ولن آكل سوى القليل من الطعام. كما أنني لا أستطيع أكل اللحم. في الواقع، كنت سأسألك عن ذلك. إن كنت تحضّرين اللحم اليوم فسأطلب طعاماً جاهزاً"

نظرت ليليا إلى القدر. كان غليان صلصة الفلفل التي أضيفت إليها قطع اللحم مسموعاً. اختارت هذا الطبق لأنّ فلافيو أحبّه كثيراً من قبل. وكانت تتوقّع أن يكون لذيذ الطعم، لا سيّما وأنّها ستتركه يرتاح حتّى العشاء. وقبل أن تتمكّن من قول شيء، دخلت ناتالي.

"صباح الخير

بدت المفاجأة على وجه ليليا.

"هل أنت صائمة أيضاً؟"

"كلاّ! وأنت؟"

"كلاّ. لكنّ فلافيو صائم"

"أنا لست صائمة، لكنّني ذاهبة إلى دار العبادة. هل أنت ذاهب يا فلافيو؟"

"أجل، سأذهب إلى مانهاتن. سمعت أنّ إحدى أكبر دور العبادة في العالم موجودة في الشارع 113"

"سآتي معك، هذا بالطبع إن لم يكن لديك مانع"

"على الإطلاق، لنذهب معاً"

لاحظت ليليا وجود كيمياء بينهما، مع أنّها اعتقدت أنّ الكيمياء

كانت بين فلافيو وأولاّ. ومع ذلك، كانت واثقة أنّ لدى فلافيو مشاعر نحوها.

"أتعرفان؟ لقد مضى وقت طويل منذ أن ذهبت إلى مانهاتن. لا أعرف إن كنت قد ذكرت ذلك من قبل، لكنّنا كنّا نعيش هناك قبل مجيء الولدين. أجل، في الشارع 28، جنوب جادة بارك أفينيو. وكنت أذهب من هناك إلى الأمم المتّحدة للقيام ببعض أعمال الترجمة. في الواقع، أستطيع الذهاب معكما اليوم. فمعالِجة آرني ستأتي قريباً، وهو لن يحتاج إليّ لبعض الوقت"

نادت آرني لتعرف كم سمع ممّا قالته: "أليس كذلك يا آرني؟" وكما هو الحال في معظم المرّات، لم يأتها جواب من زوجها سوى الصمت.

"بالطبع، لن أرافقكما إلى دار العبادة. سأنفصل عنكما في المحطّة. فأنا أريد شراء بعض الكتب، وسأذهب إلى بارنس ونوبل. كم الساعة الآن؟ العاشرة والنصف. القطار التالي عند الساعة العاشرة وسبع وخمسين دقيقة. سأجهز خلال خمس دقائق"

جلس فلافيو وناتالي على مقعديهما، وانتظرا وهما يراقبان ليليا التي صعدت إلى غرفتها من دون انتظار أيّ جواب منهما. همست ناتالي بعدما تأكّدت أنّ آرني لن يسمعها:

"أعتقد أنّ ليليا تشعر بالاختناق في هذا المكان، وتريد الابتعاد قليلاً. إنّها على حقّ. لا بدّ أنّه من الصعب جدّاً أن تمضي المرأة حياتها مع رجل مريض، لا سيّما مع شخص مثله"

ومع أنّ فلافيو عرف سبب رغبة ليليا في مرافقتهما، إلاّ أنّه لم يقل شيئاً. عوضاً عن ذلك، تمتم موافقاً وتجاهل الموضوع. أصبح من المستحيل عليه الآن عدم رؤية اهتمامها به؛ مع أنّه اعتبره في البداية اهتماماً عادياً من صاحبة المنزل. وكان ذلك واضحاً جدّاً في الليلة التي تناولوا فيها العشاء معاً. لم تكن عاطفتها مزعجة أو مبالغاً فيها، إلاّ أنّها جعلت فلافيو يشعر بعدم الارتياح رغم ذلك. فحاول منذ تلك الليلة تمضية معظم وقته في غرفته أو العودة متأخّراً، آملاً أن تفقد اهتمامها به بتلك الطريقة، أو تفهم أنّه لا يبادلها مشاعرها. إلاّ أنّ خطّته لم تنجح كما هو واضح. فقد نظرت إليه المرأة هذا الصباح بشوق وليس باستياء. لم يعرف بأيّ اتّجاه ينظر لكي لا يلتقي نظره نظرها، لذلك سُرّ جدّاً بوصول ناتالي. والآن، كلّ ما عليه فعله هو تمضية عشرين دقيقة معها في القطار، وبإمكانه ذلك. كانت ليليا امرأة غير عادية، لا شكّ لديه في هذا الأمر. ومن الواضح أنّها كانت امرأة جميلة جدّاً في صباها. إلاّ أنّها أتت إلى هذا العالم باكراً جدّاً. لا يمكنه الاعتراض على كمالها في المطبخ أيضاً. فرائحة ذلك الطعام الموجود على الفرن تبدو شهيّة حقّاً، حتّى عند الساعة العاشرة والنصف صباحاً. كان البخار الذي يتسبّب بتحريك الغطاء من وقت إلى آخر يخرج ويشقّ طريقه إلى خلايا دماغه، مسبّباً له الجوع على الفور. خشي أن يتناول شيئاً منه إن بقي في المطبخ لمدّة أطول. وكانت ناتالي هي التي قامت بالخطوة الأولى مجدّداً.

"إن بقينا هنا أكثر من ذلك، لا أظنّ أنّنا سنتمكّن من الاستمرار حتّى حلول المساء"

"بالضبط. لننتظر في الخارج"

أثناء رحلة القطار، روت ليليا لناتالي وفلافيو أسطورة سليبي هولو. كانا قد شاهدا الفيلم الذي يحمل العنوان نفسه، لكنّهما لم يعرفا أنّها كانت بلدة صغيرة في هذه المنطقة. لم يتخيّلا أيضاً أنّ الكثير من الأشخاص يصدّقون الأسطورة، بمن فيهم ليليا. عندما كانت تريهم المنطقة التي امتطى فيها جوني ديب في الفيلم حصانه، سمعا صوت السائق. كان فلافيو جالساً من جهة الممرّ، فأوقف المرأتين وأعطاه أربعين دولاراً. وبما أنّه لم يكن يتوقّع أن يعيد إليه سوى دولار واحد، اعتقد أنّ السائق ارتكب خطأً عندما ردّ له عشرة دولارات وخمسة وعشرين سنتاً. فقال للسائق بلطف إنّ ثمّة خطأ، ولكن قبل أن تتمكّن ليليا من التدخّل، أشار إليها السائق وقال: "السيّدة متقاعدة، أليس كذلك؟" لم تشعر ليليا بالحاجة إلى القول إنّها في الثانية والستّين وليست في الخامسة والستّين. عوضاً عن ذلك، هزّت رأسها موافقة. فذلك لم يكن سيخفّف من إحراجها على أيّ حال. احمرّ وجه فلافيو. لم يفهم لماذا شعر وكأنّه على علاقة بتلك المرأة، وأخجله ما حدث، لكن هذا ما شعر به بالضبط. أخفض يده التي ظلّت مرتفعة في الهواء لبضع ثوان، ثمّ أعاد المال إلى محفظته مع ابتسامة مصطنعة. هنا، غيّرت ناتالي الموضوع بسرعة.

"إذاً، هل امتطى جوني ديب جواده على هذا الطريق في الفيلم؟"

شعرت ليليا بالامتنان للفتاة الشابّة، وتابعت حكايتها. لكنّها لم تستطع التوقّف عن تكرار كلمات السائق في ذهنها. ماذا كانت تفعل على متن هذا القطار أساساً؟ لماذا قرّرت الذهاب إلى مانهاتن فجأة؟ حتّى إنّها لم تعرف لماذا كذبت على الشابّ والفتاة وأخبرتهما أنّها غالباً ما تزور مانهاتن. لكنّها بالتأكيد لم تشأ إخبارهما أنّها لم تطأ المدينة منذ ثلاث سنوات وأكثر، وأنّها تتجوّل في محلّات السوبرماركت أو متاجر الملابس

المستعملة في أوقات فراغها. ربّما اعتقدت أنّها تستطيع الهرب من واقع حياتها المملّ بالكذب على الآخرين. أهو الملل نفسه الذي ولّد لديها هذا الشعور تجاه الشابّ الجالس على المقعد المقابل؟ ما الذي يجعله يبدو جذّاباً عندما تمعن النظر إليه؟ في الواقع، لم يكن أكثر جاذبيّة من يأس المرأة التي اهتمّت به. كان شخصاً يمكن لفتاة مثل ناتالي مرافقته إلى دار العبادة، لكن ليس أكثر. وماذا بالنسبة إلى أولاّ؟ لا يمكن على الأرجح أن ترافقه إلى أحد النوادي. مع ذلك، عندما أشارت إلى أنّها ستفترق عنهما عند المحطّة، لم يعارضا الفكرة. لم يقولا: "تعالي معنا، سنتناول القهوة بعد ذلك، أو نشاهد فيلماً" وبينما راحت تقلّب تلك الأفكار في رأسها، تابعت رواية القصّة. ثم خيّم عليهم الصمت، وراحوا ينظرون عبر النافذة، آملين لهذا اللقاء الغريب أن ينتهي. وقبل دخول المحطّة، سألت ليليا ناتالي:

"إذاً، لن تتناولي اللحم اليوم أنت أيضاً؟"
"كلاّ، لن أتناول اللحم. لكن، لا تقلقي، سآكل في الخارج"
"كلاّ... كلاّ، سأعدّ شيئاً من دون لحم"
"وهل ستجدين الوقت الكافي؟"
"بالطبع"

أضافت وهي تنظر إلى فلافيو: "تماماً كما ذكرت في الإعلان، الطعام من ضمن الإيجار"

بعدما افترقت عنهما، نظرت حولها في تلك المحطّة الهائلة. متى كانت آخر مرّة رأت فيها هذا العدد الكبير من الناس في مكان واحد؟ وبما أنّها لم تكن تملك خطّة حقيقية، قرّرت أن تتبع خطّتها المزيّفة. فقصدت

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أحد المخـارج الكثيرة في المكان، وسـألت أحد الرجال عمّـا إذا كان ثمّة فرع قريـب لبارنـس ونوبـل. أجـاب: "بالطبع، فـروع سـتاربكس وبارنس ونوبل موجـودة فـي كلّ مـكان. هـل تعرفيـن كيفيّة الذهـاب إلـى الجادة الخامسـة من هنا؟ جيّـد. اذهبي سيراً على الأقـدام إلى الجادة الخامسـة، وستجدين فرعاً بين الشارع الخامس والأربعين والسادس والأربعين"

ما كانت ليليا لتعرف بأيّ اتّجاه تقع الجادة الخامسـة لو لـم يشر إليها الرجل وهو يشـرح لهـا عـن الاتّجاهـات، إلاّ أنّهـا توجّهـت الآن نحوها. كان هذا اليوم يومـاً نموذجياً من أيّام نيويورك المشمسـة، لكنّـه كان بارداً. أدركت أنّها نسيت كم يمكن أن تدنّى درجة الحرارة على الجزيرة. لفحت رئتيها رياح قوية هبّت من الشوارع التي تفصل بين المباني الشاهقة. مشت وقد أحكمت قبضتها على ياقة معطفهـا الأرجواني الذي ابتاعته من "متجر الألبسة الرخيصة للمقعدين" مع ذلك، شعرت بالنسـيم يتسلّل عبر كمّيه، لأنّه كان أكبر بمقاسـين. لم تكـن قد أحضـرت قبّعة أو قفّازيـن، وأدركت أنّ هذا الهواء سيسـبّب لها صداعاً في الليل. عندما رأت المكتبة الضخمة في الجهة المقابلة للشـارع، عرفت أنّها وصلت إلى الجادة الخامسة. على الأقلّ، لم تنس هـذا المكان. كما في الماضي، كانت سـلالم المكتبة مليئة بالنـاس الذين يتناولون غداءهـم. لقد جلسـت على إحـدى تلك الدرجات ذات يوم. في الواقع، التقت آرني على الدرجة السادسـة. اعترفت ليليا في تلك اللحظة أنّها لم تزر المدينة منذ سـتّ سـنوات. كان عدّ الأعوام صعباً عليها، لذلك ظلّت تقول ثلاث أو أربع سنوات. لم يكن ممكناً ألاّ تلاحظ مدى أناقة ملابس الجميع. ولم تسـتطع منع نفسـها من تفحّـص كلّ امرأة تمرّ بها من رأسـها إلى أخمص قدميها. كانت تلمس شـعرها طوال الوقت وتحاول إبعاد خصلة خلف أذنها بإرباك. جعلها معطفها تشعر بعدم ارتياح متعاظـم، ولم تشـأ التفكير بمـدى رداءة مظهر الثـوب الـذي ترتديه تحته. رأت أخيـراً امرأة لا تزيـد عنها أناقة فاسـترخت بعض الشـيء، لتدرك بعد

برهة أنّها ترى انعكاس صورتها على واجهة بارنس ونوبل. دفعت الباب الدوّار بكلّ قوّتها، ودخلت محاولة نسيان الصورة.

عندما تعبت من المشي، ومن الحشود، ومن أحاسيسها، صعدت إلى الطابق الثاني لتناول فنجان من القهوة في المقهى. كان الناس الجالسون إلى الطاولات الأخرى غارقين في المجلاّت والكتب التي كدّسوها أمامهم، وغير واعين لوجود الآخرين. إلاّ أنّ ليليا راحت تتفحّصهم بعناية، وهي تستمتع بفنجان قهوة لذيذ لم تذق مثله منذ وقت طويل. فمنذ أن انكسر وعاء آلة القهوة منذ ثلاث سنوات، أخذا يستعملان قدراً صغيرة عوضاً عنه، ولم يتناولا قهوة ساخنة منذ ذلك الحين. وبما أنّها كانت أقلّ الزبائن خبرة في الصفّ، جعلت الفتاة الواقفة أمام الصندوق تنتظر إلى أن قرّرت ما تريده، متجاهلة تنهّدات الانزعاج الصادرة عن الزبائن خلفها. فقد مضت حوالى عشر سنوات منذ آخر مرّة شربت فيها قهوة من ستاربكس، وأصبح لديهم أنواع كثيرة على اللائحة الآن. وبعدما تفحّصت كلّ نوع منها، من ماكياتو الكاراميل إلى قهوة الموكا، لخمس دقائق وسألت عن ثمن كلّ منها، طلبت في النهاية القهوة العادية. وشكّل فهم أحجام أكواب القهوة صعوبة أخرى. فهي لا تعرف قياس الأحجام التي يسمّونها تول، فينتي، وغراندي. عرفت أنّ فينتي تعني عشرين بالإيطالية، وغراندي تعني كبيراً بالإسبانية، وتول تعني طويلاً بالإنكليزية. لذلك لم تستطع معرفة مقاس كلّ منها. فكانت عاملة الصندوق هي التي استسلمت في النهاية وسألت ليليا ما إذا كانت تريد المقاس الصغير، أو المتوسّط، أو الكبير. فأجابت: "صغير

بعد كلّ ما مرّت به للحصول على فنجان من القهوة، حملته بفخر وفكّرت أنّ كلّ رشفة منه تستحقّ ثمنها. جعلتها القهوة تشعر أنّها أفضل حالاً، كما منحتها إحساساً بأنّها جزء من هذه المدينة، وهكذا بدأت سيرها بين الأروقة. وبينما كانت تتجوّل من دون هدف محدّد، رأت قسماً

جذب اهتمامها: كتب الطبخ. لم يسبق لليليا أن أعدّت شيئاً وهي تنظر إلى كتاب منذ وقت طويل. في الواقع، لا تعرف مكان الكتاب الأوّل والوحيد الذي اشترته. كان من السهل البحث عن بعض الوصفات على الشبكة، لكن بعد أن تقرأها مرّة، كانت تفقد الملاحظات المكتوبة على أوراق صغيرة في المنزل. تذكّرت ليليا كيف كانت تحسد والدتها وهي تراقبها أثناء استخدامها كتاباً للطبخ، وكم كانت تبدو جميلة وهي تتبع الأسطر بسبّابتها. حلمت أن تطهو من كتاب مثلها عندما تكبر وتؤسّس عائلة وأن تغنّي كما كانت تفعل. بعد كلّ هذه السنوات، أدركت أنّ أقلّ أحلامها أهمّية لم يتحقّق.

وقفت أمام الرفوف الخمسة المحتوية على كتب للطهي، ونظرت إليها حالمة. لم تكن تبحث عن شيء محدّد، لكنّها أملت أن يستوقفها أحد الكتب، ويأسر اهتمامها، ويجعلها تقرؤه، ويغيّر حياتها. كان الكتاب الموجود على الرفّ الأعلى هو ما تبحث عنه، وقد وجدها في النهاية. وقفت على رؤوس أصابعها ورفعت رأسها لقراءة العنوان الجانبي على نحو أفضل. من كان سيقول إنّها ستبتسم في يوم صعب كهذا، لكن هذا ما حدث.

* * *

كانت محاولة مارك الأولى لإعداد الباستا أفضل ممّا اعتقد، هذا بغضّ النظر عن بعض الحوادث الصغيرة. فعوضاً عن اتّخاذ القرارات بنفسه، اتّبع الخطوات المكتوبة على العلبة: غلى الماء مضيفاً إليه بعض الملح، ثمّ سلق الباستا لمدّة ثلاث عشرة دقيقة، وصفّاها. لم يحاول أن يكون راديكالياً. فمع أنّه كان يشتهي صلصلة الفطر التي كانت كلارا تعدّها، إلاّ أنه اكتفى بتقليب الباستا مع الزبدة، وأضاف الجبن على سطحها. لكن، عندما حان الوقت لبرش الجبن، لاحظ أنّه تخلّص من المبرشة القديمة، ولم يشتر واحدة أخرى. ولهذا قام بتقطيع الجبن إلى

أجزاء صغيرة بواسطة سكّينه الجديدة. بعد ذلك، فتح صفحة من دفتر الملاحظات الصغير الذي وضعه على الطاولة وكتب فيه: "مبرشة"

كان يجب أن يستغرق وقت إعداد الطبق عشرين دقيقة على الأكثر، إلاّ أنّ مارك احتاج إلى ساعة لإعداده. فقد واجه المشكة الأولى عندما غطّى القدر بعدما وضع الباستا فيها. وعندما بدأ المال يغلي، فار على الغاز وأطفأه، فنقل القدر إلى مكان آخر، وبدأ ينظّف الجزء المتّسخ. ومع أنه تألّم، إلاّ أنّه لن يدرك خطورة الحرق الذي أصاب أصابعه خلال عمليّة التنظيف تلك سوى لاحقاً. وعندما انتهى من التنظيف، أدرك أنّ الباستا نضجت، وربّما أكثر من اللازم، فواجهته المشكلة الثانية. لم تكن تصفيتها مهمّة سهلة. فعندما انزلقت حبال الباستا من ثقوب المصفاة وسدّت مصرف حوض الجلي، ملأ الماء المصفاة مجدّداً. وعندما حاول رفعها بإحدى يديه وتنظيف المصرف بالأخرى، حرق بقيّة أصابعه السليمة بالماء الساخن. وعندما ضغط على دوّاسة سلّة المهملات لإلقاء النودلز التالفة فيها، لاحظ أنّه لم يضع فيها كيساً نظيفاً. وبما أنّ يديه الاثنتين كانتا مشغولتين، لم يتبقّ لديه خيار آخر، فوضع النودلز على حافّة حوض الجلي، وحمل المصفاة تحت المياه الجارية. عندما وضع أخيراً السباغيتي في القدر لمزجها بالزبدة، شعر وكأنّه عاد من يوم عمل شاق.

نظّف جميع الأواني قبل أن يبدأ بالأكل. غسل كلّ الأدوات التي استعملها، ثمّ شغّل التلفاز وجلس. حاول جاهداً ألاّ يفخر بنفسه، إلاّ أنّه ابتسم بطريقة لاشعورية. ففي النهاية لم تكن وجبته الأولى سيّئة. قد لا يكون من أصعب الأطباق، إلاّ أنّه لم يبدُ شخصاً عديم الموهبة تماماً. فهم أنّه ما دام يتبع التعليمات، فلن يرتكب كثيراً من الأخطاء، ما عدا الأخطاء العملية بالطبع. سيحتاج من دون شكّ إلى كتاب طهي. وبعدما تردّد في التخلّي عن كتب كلارا لمدّة، قرّر أنّه لا يستطيع رؤية الملاحظات التي دوّنتها على الصفحات بخطّ يدها. لم يكن يعرف أنّ كلارا دوّنت

ملاحظات عن كلّ وصفة، وأضافت سطوراً تتضمّن تعليماتها الخاصّة. فإن ذكر الكتاب: "يطهى على 180 درجة"، أضافت كلارا أنّ 175 درجة تعطي نتيجة أفضل. كتبت كلّ شيء على مرّ السنوات، كلّ ما اعتبرته ناقصاً أو زائداً، وأنتجت كتاباً خاصّاً بها في النهاية. كان مارك واثقاً أنّ من سيشتري تلك الكتب سيحبّ ملاحظاتها، وسيجدها على الأرجح ممتعة، وسيتساءل عن المرأة التي كتبتها. كان يمكن رؤية صدق كلارا في أحرف اللام، والجيم، والفاء، التي كانت باردة عادة. هذا ما يعجز مارك عن احتماله: دفء كلارا الذي فقده. ربّما ستجعله ذكرى زوجته سعيداً يوماً ما، لكنّ هذا اليوم لا يبدو قريباً.

اشتهى مارك بعض الحلوى في وقت متأخّر من إحدى الليالي، عندما سمع همساً مألوفاً جدّاً على التلفاز. فلمّا بدأ أحد أفلام جاك تاتي، الذي شاهده مرّات عديدة من قبل، رفع عينيه عن الكتاب الهزلي الذي كان يقرؤه، ونظر إلى الشاشة. كان من أكثر الأفلام التي يحبّها: مون أونكل. وعلى الرغم من علمه أنّ البرّاد خال، نهض وفتح بابه، ثمّ نظر إلى الداخل. عندها فقط فهم كم كانت كلارا ناجحة في إبقاء البرّاد ممتلئاً على الدوام. كان يعيش في ترف كبير لأنّه يجد الأشياء التي يشتهيها جاهزة، مع أنّها تحتاج إلى الكثير من العمل. حاول أن يكبت رغبته في تناول الحلوى، وعاد إلى الطاولة. وبينما كان يصغي إلى صوت جاك تاتي الضعيف، فتح صفحة جديدة في دفتر ملاحظاته الصغير، وبدأ بتدوين لائحة موادّ غذائية مع بعض الأشياء التي خطرت على باله. وبما أنّ المحال لا تفتح أبداً أيّام الآحاد في باريس، فسيضطرّ إلى الانتظار لشراء ما يحتاج إليه يوم الاثنين. لكنّه لم يجد يوماً أفضل من آخر أيّام الاسبوع لشراء كتاب الطبخ.

مع كلّ دقيقة تمرّ، كان يدرك أكثر كيف أنّ "لا كويزين" (المطبخ)

يبرمج حياة المرء، وكيف يقسّم أسبوعه إلى أيّام. فقد دفعه المطبخ خلفه ليبدأ حياة جديدة وكأنّه صديق قديم طيّب، ولم يدعه يشفق على نفسه. لم يكن لدى المطبخ وقت للتوقّف، والتفكير، والبكاء. فالناس دائماً يلجأون إلى ذراعيه عندما يحين الوقت، ويطلبون مساعدته، ويتّكئون على صدره، ويغسلون وجوههم بالماء الذي يعطيهم إيّاه. لذلك، عليه أن يكون جاهزاً. عليه أن ينتظر بأمان وسلامة ليعطي أطفاله قطعة من الخبز عندما يصلون. كان المطبخ صدر الأمّ، ويدي المحبوب، ومركز العالم.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، كانت باريس خالية عندما توجّه مارك إلى أوديون، أقرب الأماكن إليه لتناول الطعام. فما من مطعم يفتح أبوابه قبل الساعة الثانية عشرة في حيّه. ستعود شوارع الصباح المقفرة إلى الحياة لاحقاً، وستجعل الناس الذين عاشوا طيلة حياتهم هناك يغرمون مجدّداً بالمدينة. ستتصاعد رائحة الطعام الشهيّ من السوق عند ناصية شارع مونج وسان جيرمان، ومثل الكثير من الناس، سيقف مارك بالصفّ للحصول على شريحتين من الخبز مع الجبن بالثوم والسلامي على سطحه. سيتجمّع أشخاص لا يعرفون بعضهم حول براميل الشراب، وقد يتحدّثون عن ليلتهم السابقة، لكن ليس بعد.

عندما دخل لا كريبري دي بيشور بعدما رنّ الجرس، لم يجد سوى زبون أميركي في الداخل. كان وجه الرجل محمرّاً لأنّه يحاول طلب الطعام بالتركيز على حرف الراء عوضاً عن لفظه كما يفعل الفرنسيون، ومن الواضح أنّه شعر بالإنهاك. بالمقابل، لم تبذل النادلة أيّ جهد لفهم الأميركي، بل ألقت التحيّة على مارك بابتسامة وهزّةٍ من رأسها. عرفت أنّها ليست بحاجة إلى القلق بشأنه. سيجلس مارك في الزاوية البعيدة من المتجر، ويطلب الكريب مع اللحم والجبن، ويدفن وجهه في كتابه الهزلي. لن تلاحظ النادلة أنّ زبونها لم يحضر معه كتاباً هذه المرّة، بل

أمضى الوقت في تأمّل الكريب. وبعدما أنهى فطوره، طلب فنجاناً آخر من القهوة، وانتظـر المكتبات لكي تفتح أبوابها بفـارغ الصبر. عرف أنّ الوقت قد حان للذهاب عندما بدأت أجراس نوتردام تقرع من بعيد عشر مرّات.

من الواضح أنّه كان الزبـون الأوّل في ذلك اليوم لـدى فناك. ما زال النعاس بادياً على الموظّفين. وبما أنّه لم يعـرف بالضبط نوع كتاب الطبخ الذي يبحث عنه، حـاول البحث بين الرفوف. لم يتوقّـف أمام الكتب التي كانـت تثيـر اهتمامه دائمـاً فـي الماضي، بل مـرّ مـن أمامها بسـرعة. وجد كتب الطهي في الطابق الثالـث من المتجر، وذُهل لرؤية المسـاحة الكبيرة المخصّصة لهـا. أبطأ خطاه، وحـاول فهم كلّ مـا يراه. وجد كتبـاً تتحدّث عن نـوع الطعام الذي يطهـى في مختلف الأوانـي. ما كان ليخطـر في باله قطّ أنّ شخصاً ما قد يكتب مئة صفحة عن تاريخ الكسرولة. وبينما تحدّث أحد الكتب عن الأطباق التـي يمكن إعدادها على حرارة محرّك السيّارة، أعطى كتـاب آخر وصفات لأطباق شـهية من الحشـرات. وتحدّث أحدها عن كيفيّة طهي الحيوانات التـي تُقتل في حوادث عرضيّـة على الطرقات. بعدما تاه وسـط هذه العناويـن الغريبة لبعـض الوقت، عثر علـى ما يبحث عنه. هذا كتـاب يعطي وصفـات أساسـيّة جـدّاً: "لا كويزين دو تـا مامان" (أطباق والدتك). كانت الوصفـات التي تصفّحها بالضبط مـا يحتاج إليه. لكنّ الشـيء الوحيد الذي أثار ذعره هو المكوّنات. إذ لـم يدرك مطلقاً كم أنّ بعضها خاصّ جدّاً، ولم يعرف شيئاً عن أبسطها.

جلس في إحدى الزوايا، حامـلاً الكتاب بيده. ربّمـا ينبغي له اختيار وصفة كلّ يـوم وإعدادهـا. عوضاً عن تصفّـح الكتاب مـن بدايته، أغمض عينيـه وفتحـه عشـوائيّاً. لفائف الدجـاج مـع التابينـاد. مكوّنـات الوصفة: أربعة صـدور دجـاج، 200 غرام مـن الزيتون الأسـود المقطّـع، فصّان من الثوم، ملعقتان من براعـم الكبر، 15 ملغ مـن زيت الزيتـون، ملح، وبهار.

الوصفة: قشّر الثوم واسحقه. امزجه مع الزيتون ونبات الكبر المسحوق. أضف ثلثي كمّية الزيت إلى المزيج. أضف البهار... تناول مارك كتاب ملاحظاته، ودوّن المكوّنات، ثم طوى صفحة الكتاب. يمكنه على الأرجح إيجادها في السوق في طريق عودته إلى البيت. وبينما كان يستعدّ للتوجّه إلى الصندوق حاملاً الكتاب تحت إبطه، وقع نظره على الرفوف المخصّصة لكتب الحلويات. تذكّر كيف كانت كلارا تتذمّر طوال الوقت من صعوبة إعداد تحلية ناجحة. ففي كلّ مرّة كانت تخبز فيها قالب حلوى، كانت تراقبه عبر الزجاج لترى إذا كان سينتفخ بما فيه الكفاية، وتبقي آمالها منخفضة. فقد تقبّلت حقيقة أنّه مهما انتفخ القالب، فقد يهبط عند إخراجه من الفرن. وإضافة ملعقة باكينغ باودر كانت أمراً غير مطروح. فإن لم تتمكّن من خبزه بطريقة طبيعية، فستقبل الحلويات التي يحضرها زوجها من المتجر. نظر مارك إلى الكتب المليئة بوصفات الحلوى وهو يبتسم. لن يحاول إعداد أي منها قبل أن يتمكّن من الطهي. إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من تناول أحد الكتب.

* * *

"ماما، هل جرّبت الباستا مع الأرضي شوكي؟"

"أجل يا حبيبتي، ووجدتها لذيذة جدّاً. لكنني لم أستطع أن أتذكّر ما إذا كان يتعيّن عليّ تقطيع الثوم أم سحقه. لم أدوّن ذلك الجزء"

"يجب تقطيعه إلى شرائح رقيقة، ويُفترض بها أن تكرمل. هل تناولت جدّتي منه؟"

"آه إيلا! لا تأتي على ذكرها"

"لماذا، ماذا فعلت الآن؟"

"دعينا لا نتحدّث عنها"

"لماذ؟ أخبريني!"

"لم تعد كما كانت. أحياناً تكون ذاكرتها حادّة كالسكّين، وفي أحيان

أخرى تعيش في عالـم آخر. ابقي على الخـطّ يا صغيرتي، إنّها تقول شيئاً ما"

غطّت السمّاعة بيدها، ومدّت الحبل وأطلّت إلى غرفة السيّدة نسيبة:
"نعم يا أمّي... حسناً، لحظة واحدة، أنا آتية"

"علـيّ الذهاب يـا عزيزتي، فهـي تحتاج إلـيّ، مجـدّداً. أمعاؤها هي المشكلة الدائمة الآن، وكأنّه ليس لدينا شيء آخر نفعله"

ذهبت إلى غرفة أمّها وهي تجرّ قدميها. لم يسـبق لهـا أن فعلت هذا الأمر، ولا حتّى في سنّ المراهقة.

"فيردا، سـاعديني على اسـتخدام الوعاء المخصص لقضاء الحاجة. أريد المحاولة مجدّداً"
"ماما، لسـت مضطرّة لذلـك. أمعـاؤك لا تعمل كما يجـب لأنّك لا تتحرّكين، وهـذا ما قاله الأطبّـاء. دعيني أحرّك سـاقيك قليلا، سيسـاعدك ذلك"
"ألا تفهمين يا ابنتي، لا يمكنني تحريك ساقي، أنا مشلولة"
"أمّي، لقد أتى الطبيب وقال إنّك لست مشلولة، حتّى إنّك تستطيعين السير لو أردت. وليس عليك فعل شيء، دعيني أحرّكهما"
"ذاك الطبيب لا يعرف شـيئاً عن الجزء السفلي من الجسد. ولا شكّ في أنّه متخصّص في أمراض الصدر"
"ربّـاه! ماما، أعتقـد أنّك فقدت عقلـك تماماً. لماذا سـأحضر طبيب أمراض صدرية إلى هنا؟"
"حسناً، حسناً، لا يهمّ. ساعديني على قضاء حاجتي"

"أنت لا ترأفين بحالي، أليس كذلك؟ أنت مشغولة بهذا الموضوع طوال النهار، هل تدركين ذلك؟"

"التقدّم في السنّ أمر سيّئ جدّاً. يوماً ما ستكبرين أنت أيضاً، وأتساءل عمّا ستفعله ابنتك. أتمنّى أن تعاملك بالطريقة نفسها"

"وبماذا أذنبت؟ أتساءل ماذا أستطيع أن أفعل أيضاً من أجلك؟ أتمنّى أن تعاملني ابنتي بالطريقة نفسها"

تركت فيردا أمّها بمفردها في الغرفة بعدما أعطتها الوعاء، وأسرعت إلى المطبخ. شعرت بالدموع تتدافع إلى عينيها قبل أن تسيل على وجهها. لطالما اشتاقت إلى أبيها، لكنّها تفتقده الآن أكثر من أيّ وقت مضى. فقد أُجبرت على توديع طفولتها والنضوج في سنّ مبكرة، بعد وفاته ومرض أمّها المزعوم. ولم تجد من تبكي بين ذراعيه في الأوقات الصعبة. كانت تمسح أنفها بنفسها عندما تمرض، وتداوي جروح ركبتها بنفسها عندما تسقط. لم تشعر قطّ أنّها ابنة أمّها، بل مرافقتها. تعلّمت الأمومة قبل أن تصبح أمّاً.

لم يكن قد تبقّى لديها شيء من مسحوق السحلب في الخزانة، كما نفد ماء الورد وشاي زهر الليمون أيضاً. في النهاية، اضطرّت إلى تناول علبة الشاي المنمّقة من آخر الخزانة، والتي أتتها كهدية من إحدى صديقات ابنتها. كانت تلك المجموعة باهظة الثمن، المؤلّفة من أربعة وعشرين كيساً، موضوعة هناك منذ عام تقريباً من دون أن تُفتح. إذ قرّرت الاحتفاظ بها لتقديمها كهدية عند الضرورة، مثلما تفعل بكلّ الهدايا الثمينة التي تتلقّاها. بعد شيء من التردّد، مزّقت أخيراً غلاف النايلون وفتحت العلبة. لم تكن تملك فكرة عمّا كُتب على أكياس الشاي التي كانت مغلّفة كلّ على حدة على شكل أهرامات صغيرة. لم تفهم سوى أنّ اثنين منها يحتويان على شاي أخضر، ومع أنّ الكلمات المكتوبة في

ملاحظة "خالٍ من الكافيين" مألوفة لديها، إلاّ أنّها لم تدرك معنى العبارة تماماً. هل يحتوي على الكافيين أم لا؟ عندما فتحت ورقة الكيس التي تحمل كتابة أرجوانية، ملأت رائحة أوراق الشاي المحفوظة في كيس حريري المطبخ بأكمله. أمسكت طرف الخيط بلطف، وتوجّهت إلى خزانة الأواني الصينية لاختيار كوب منها. فكيس شاي بهذا التعقيد يحتاج إلى فنجان محترم. اختارت واحداً كان يخصّ جدّتها، ووضعت الكيس فيه. وبينما كانت تنتظر الماء حتّى يغلي، حاولت عدم سماع الأصوات الصادرة من غرفة أمّها. لحسن الحظّ، كان صفير إبريق الشاي على الغاز قوياً للتغطية على كلّ شيء آخر. وعندما وصل الماء إلى درجة الغليان، صبّته على الكيس بعناية وانتظرت البخار ليلامس وجهها الذي كان فوق الفنجان تماماً.

جلست ترتشف الشاي، بينما نامت أمّها متعبة. كانت تلك واحدة من الفرص النادرة للخروج. وكانت محظوظة، لأنّ الشمس سطعت في سماء إسطنبول في ذلك اليوم، بعد أن توقّف المطر المتواصل. بدأت فيردا تسير في الشوارع آسفة على فوات فصل الخريف؛ الفصل المفضّل لديها. لم تبح قطّ لأيّ شخص كم كانت تحبّ السير على الأوراق الجافة منذ طفولتها. لم تكن تلك سوى واحدة من المتع التي أخفتها عن الآخرين. حتّى إنّها لم تدرك أنّ شهر فبراير قد حلّ، وأنّها فقدت الإحساس بالزمن وهي تعتني بأمّها. كما أنّ أحداً لم يذكّرها بذلك أيضاً. فكلّ من يعيش قريباً منها، حاول الابتعاد عنها. اتّبعوا جميعاً المثل القائل: ابتعد عن الشرّ وغنّ له. لم تحاول أيضاً البحث عميقاً في مشاعرها، بل قامت بكلّ شيء كمن يمشي في منامه، من دون أن تدرك ماذا تفعل. كانت تخشى أن تلمس قلبها، خوفاً من أن يتحطّم. لهذا السبب، لم تطلب مساعدة خبير نفسي، على الرغم ممّا اقترحه الأطبّاء وكلّ المقالات المتخصّصة في هذا المجال. فآخر ما تحتاج إليه حالياً هو الذهاب إلى

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

شخص يقوم بتحليل عواطفها. يمكنها أن تتعامل مع الدموع التي تسيل على وجهها من وقت إلى آخر، لكنّ الغوص أكثر من ذلك يعني الحكم على حياة كاملة.

مشت فيردا في الشوارع ببطء، من دون أن تدرك أنّ امرأة أخرى في الطرف الآخر من العالم لم تتعرّف على صورتها التي رأتها على واجهة زجاجية، وأنّ رجلاً في باريس يحاول يائساً الخروج من أعماق حزنه. لم تكن أنانيّة حيث تعتقد أنّها الوحيدة التي تتعذّب، ولكنها لن تجد وقتاً أفضل للشعور بالأسف على حالها. لم تدرك أنّ الهواء القارس يلفح كاحليها إلاّ عندما دخلت مكتبة في طريقها. حيّاها موظّفو دي إند آر بابتسامة، وهم مصطفّون بمحاذاة الواجهة لتدفئة أجسادهم. واصلت السير وهي تنظر حولها، وتتوقّف من وقت إلى آخر لتفحّص أحد الكتب. لطالما شعرت بعدم الارتياح قرب الكتب؛ تماماً كما تشعر في المتاحف. فكلّ ما يتعلّق بالفنّ يؤلمها بقدر ما يمتّعها. إذ يذكّرها بأنّها أهملت حياتها وتخلّت عن إمكانيّاتها الإنتاجية. فرغم علمها أنّها لم تحصل قطّ على فرصة لكي تكون امرأة أخرى، إلاّ أنّها لا تستطيع مقاومة التفكير في أنّها عاشت حياة فارغة. لم يكن من الممكن لها ألاّ تشعر بالغيرة من جاين أوستن التي قرأت لها كتباً عديدة في شبابها، أو من لوحات أديلاييد لابيل - غيار التي رأتها في متحف اللوفر. لقد عاشت تانك المرأتان متقدّمتين على زمانهما، فكيف أمكنها أن تبقى متخلّفة عنه؟ في أواخر الستّينيات، عندما حصل شباب العالم على فرصة كبيرة وغيّروا العالم، كانت تعتني بأمّها، وتعيش حياة سطحية جدّاً.

مع الإحساس بالخيبة الذي سيطر عليها، توجّهت إلى قسم كتب الطبخ. كانت قد قرأت مرّة: "إن لم نخذل أنفسنا، فكيف لنا أن نعرف ما هي توقّعاتنا وآمالنا الحقيقية؟" ومع أنّ هذه الجملة كانت ذات مغزى بالنسبة إليها، إلاّ أنّ اكتشافها توقّعاتها الحقيقية لم يُرحها. فمواجهة نفسها

لم تساعدها، بل حطّمت فؤادها. أبعدت تلك الأفكار عن ذهنها وبدأت تهدأ عندما راحت تتفحّص كتب الطبخ. كانت مجدّداً في مكان تشعر فيه بالأمان. أخرجت أفكارها من بئر عواطفها، وعادت إلى الحياة الحقيقية. وجدت كتاباً أقرب ما يكون إلى ما تبحث عنه، "المطبخ العالمي بأسهل الوصفات" بعدما تصفّحته قليلاً، وتأكّدت أنّها لن تُضطرّ إلى الذهاب إلى أغلى أسواق الأطعمة في إسطنبول لإيجاد المكوّنات، قرّرت شراء الكتاب. وقبل أن تستدير عائدة، لفت انتباهها غلاف كتاب آخر. تناولته من دون تردّد، ولكن من دون أن تدرك أنّ امرأة متعبة ورجلاً حزيناً تناولا الكتاب نفسه، في اليوم نفسه، في مكان آخر. كان عنوان الكتاب سوفليه، وكُتب تحته بأحرف صغيرة "الخيبة الكبرى" نظرت فيردا حولها متفاجئة. فمع أنّها شاهدت الحياة تتقاطع تماماً مع أفكارها من قبل، إلاّ أنّها ما زالت تُدهش لدى رؤيتها حدوث ذلك مجدّداً. تورّد وجهها. أرادت إخبار شخص ما عن هذه الحادثة الغريبة، لكن عوضاً عن ذلك توجّهت إلى الصندوق ودفعت ثمن الكتابين.

6

لـم تتخيّـل ليليـا وجـود كلّ هـذه الأنـواع مـن السـوفليه: سـوفليه القريدس، سـوفليه الجبن، سوفليه سرطان البحر، سـوفليه الجبن واللحم، سوفليه الكراميل، سـوفليه الآيس كريم، سوفليه الكوسـا، سوفليه الدرّاق، سوفليه الموكا، سـوفليه السـبانخ، سـوفليه القهوة، سـوفليه التين. مع كلّ صفحة، كانـت الوصفـات تـزداد صعوبة. ومـع أنّهـا اعتقدت أنّهـا طاهية ماهـرة، إلاّ أنّهـا لـن تجـرؤ علـى البدء مـن منتصـف الكتـاب، فمـا بالك بالصفحـات الأخيـرة. كانـت تعرف مـدى صعوبة إعـداد إحداها، مـع أنّه لم يسـبق لها أن جرّبتها مـن قبل. ولـم يحاول أيّ شـيف إعداد السـوفليه في عرض تلفزيونـي. حتّى إنّ طهـاة أكبر المطاعم يشـعرون بالذعر عندما يطلب أحدهـم هـذا الطبـق الخيالي مـن الطعـام أو الحلـوى. ثمّة سـبب وراء رسـم غريمو - جدّ مؤلّفي كتب الطهي - مع طبق سـوفليه في لوحة ترجع إلى القرن التاسـع عشـر، معلّقـة في متحـف كارنافاليه فـي باريس. فناقد الأطعمة ينتقي دائماً ذلك الطبق سـيّئ السـمعة إن أراد الاختيار بين الثناء على مطعم وتدميره. لم يكن ثمّة حلّ وسـط، لأنّ السوفليه لا يعرف الحلول الوسط.

ومـن لا يعرف شـيئاً عـن سـمعة الطبـق السـيّئة، فلـن يفهم أبـداً أنّ المشكلة الكبرى تكمن في اتّباع الوصفة. فهو سـيظنّ أنّه سيكون بأمان إن اسـتخدم كلّ المكوّنات اللازمة، ومـزج بحذر بياض البيـض وصفاره في أوعية منفصلة، ثـمّ خلطها ببعضها بحذر شـديد. سـيقوم الطاهي الهاوي، الجاهـل والمغـرور علـى السـواء، باتّبـاع الوصفـة حرفيـاً، وخبزهـا على

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الدرجة المناسبة، ومراقبتها من خلال الزجاج وهي تنضج وهو يبتسم بثقة، ويفكر في سرّه: "لم تكن صعبة على الإطلاق" ولكن، عندما يخرجها من الفرن، سيواجه الحقيقة المرّة، ولن يعرف ما الذي استجدّ. في هذه الحالة، سيراجع الوصفة مجدّداً، ويحاول أن يفهم أين أخطأ، ولن يعرف علام يقع اللوم، لأنّه نفّذ جميع الخطوات بدقّة. ربّما سيتحدّث عند ذلك مع شخص أكثر خبرة ويعرف أنّ وسط السوفليه يميل إلى الهبوط مهما حدث، حتّى إن قام بفتح باب الفرن قبل أو بعد خمس دقائق فقط. فالسوفليه أشبه بامرأة جميلة وكثيرة النزوات، لا أحد يعرف كيف سيكون مزاجها. فما من كتاب يحتوي على السرّ. لا أحد يمكن أن يوصي بإخراجه من الفرن عند الثانية الثالثة عشرة من الدقيقة الخامسة والعشرين، وما من فرن يمتاز بالحرارة الدقيقة. وسيكتشف كلّ طاه وصفته الفضلى من خلال التكرار. ولن يعدّ السوفليه بمهارة إلاّ بعد أن يستخدم أكوابه وفرنه عشرات المرّات، وبعدما يكون قد أنهكها وكبح جماحها بعد معركة طويلة.

ربّما لم تكن هذه هي المعركة التي تحتاج إليها ليليا في تلك اللحظة من حياتها. ومن جهة أخرى، قد تكون معركة لذيذة تساعدها على نسيان تلك الأكثر جدّية. فكم يمكن أن تبلغ خيبتها بسبب وصفة فاشلة؟ هل ستشكّل فعلاً أكبر الخيبات؟ كانت حياتها أشبه بكنزة صوفية نُزع منها خيط، وفي كلّ يوم تنسحب منها قطبة. أصبحت عواطفها التي اعتقدت أنّها احتفظت بها في أعماقها تطفو على السطح واحدة تلو الأخرى، مثل حيوانات الخلد. كلّما ضربت أحدها بكلّ قوّتها، يظهر آخر من جحر مختلف. أشفقت على نفسها كثيراً إلى حدّ أنّها لم تجد الوقت للإشفاق على زوجها. وكلّما سمعته يتأفّف في غرفته، كانت تحتضن نفسها بذراعيها عوضاً عن التخفيف عنه. صحيح أنّها تشعر بالأسف عليه، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنّها تكترث فعلاً. فتلك القبلة الصغيرة التي كانا

يتبادلانها كلّ ليلة، اختفت أيضاً، وكان من أحد أسبابها جفاف شفتي آرني الناتج عن الدواء الذي يتناوله. واضطرارها إلى تنظيف زوجها بعد دخوله الحمّام كلّ يوم لم يزدهما قرباً. فالغياب الكامل للخصوصيّة لا يجلب معه بالضرورة حميميّة. في الواقع، لم يسبق لهما أن شعرا بهذه المسافة بينهما من قبل. حتّى إنّهما لم يعودا قادرَين على النظر إلى بعضهما وهما يتحدّثان. كلاهما رأيا جداراً رمادياً سميكاً يفصل بينهما كلّما التقت نظراتهما صدفة.

شعر آرني - شأنه شأن ليليا - بالأسف على نفسه وحسب. ولم يكترث لزوجته ذات الاثنين والستّين عاماً المضطرّة لرعايته، وتنظيفه، والاستيقاظ في منتصف الليل للاهتمام بطلباته المتواصلة. لم يجرؤ على الاعتراف بذلك لنفسه، لكنّه عرف أنّه كان يضغط عليها بشدّة لمجرّد الانتقام. فبينما كان يبذل جهده للتفكير في كيفيّة الخروج من هذه الحالة، وهو سجين هذه الغرفة الصغيرة، لم يستطع احتمال سماعها وهي تتحدّث مع الناس في المطبخ، متجاهلة إيّاه تماماً، وبتلك النبرة المغرية.

وعلى الرغم من علمها أنّ رائحة الطعام تزعجه فعلاً، إلاّ أنّها تطهو منذ الصباح الباكر وحتّى ساعة متأخّرة من بعض الظهيرة، وتعتقد نفسها سيّدة العالم لمجرّد ذلك. لم يكترث للمطبخ الجورجي أو الخبز المصنوع من دقيق الذرة. والآن، ها هو مجبر على اكتشاف المطبخ الإسباني، وكأنّ تناول كلّ ذلك الطعام الفيليبيني طوال حياته لم يكفه. كان مدركاً لانجذاب زوجته إلى ذلك الشابّ، فلافيو. فكلّما سمعت صوته، كانت تركض تقريباً إلى المطبخ. لم يكن آرني يغار منه، بل وجد ذلك مضحكاً، لا بل تراجيكوميدياً. ماذا تظنّ؟ هل تظن أنّ رجلاً ما سيجدها جذّابة على الرغم من شعرها الدهني غير المرتّب، ووِزْرَتها المتّسخة، وملابسها عديمة الذوق؟ هذا العالم الذي تخيّلت أنّها أوجدته لنفسها كان مجرّد فقاعة صغيرة ستنفجر في لحظة غير متوقّعة. سيحلّ

الدمار؛ تماماً مثل تلك الجلطة الدموية التي أصابت دماغه. وبينما كانت الأفكار نفسها تدور في ذهنه مجدّداً، قاطعه كوب سقط على أرض المطبخ. لم يكن يعرف أنّ ليليا تستعدّ لتجربة أوّل سوفليه لها في ذلك اليوم.

بدأت ليليا الوصفة بتطبيق كلّ الخطوات بالترتيب، على الرغم من ميلها المعتاد إلى الابتكار. بعدما شغّلت الفرن، دهنت وعاء السوفليه متوسّط الحجم بالزبدة، ورشّت عليه جبن البارميزان. وعندما حان الوقت لفصل بياض البيض عن الصفار، تذكّرت كم كانت تتوق إلى فعل ذلك في صغرها. لطالما ظنّت أنّها ستصبح طاهية ماهرة عندما تتمكّن من فصل الصفار عن البياض بنقله من نصف القشرة المكسورة إلى النصف الآخر. وبينما كانت تتنقّل ذهاباً وإياباً بين ماضيها وحاضرها مثل صفار البيض، حاولت عدم سماع الأصوات الصادرة من غرفة آرني، والتي تشير بوضوح إلى أنّه مستاء من أمر ما. كانت مشغولة بوصفة لا ترحم، تحتاج إلى اهتمامها الكامل، حيث إنه يستحيل عليها الانصراف عنها ولو لبعض الوقت. فكلّ دقيقة لها أهمّيتها. يجب خفق بياض البيضات الستّ حتّى تحصل على رغوة خفيفة، لا أكثر ولا أقلّ. حاولت استمداد بعض القوّة من الصوت الصادر عن الخفّاقة المعدنية كلّما ارتطمت بالوعاء المعدني، وإغلاق أذنيها على أنين زوجها. يبدو وكأنّ آرني غاضب من شيء ما مجدّداً. لقد أمضى معظم حياته وهو مستاء من أمر ما على أيّ حال؛ من كلّ شيء ومن لا شيء؛ كيس نفايات، قدّاحة مكسورة، شمع ذائب على الأرض، أو زاوية سجّادة مثنيّة. لم يكن آرني يعير انتباهاً للأشياء التي يجب أن تزعجه، إلاّ أنّ تلك التفاهات كانت تثير جنونه. وبحسب ليليا، لم يدرك قطّ كم أنفق من الوقت على التأفّف والتذمّر يوميّاً. كان يلقي عليها مسؤولية كلّ الأخطاء: أكياس النفايات غير جيّدة لأنّها اشترت

أرخص نوعيّة، أو لأنها نسيت رمي القدّاحة التي نفد منها الغاز. لم تفكّر قطّ بتسوية السجّادة، وسكبت الشمع على الأرض لأنّها حملت الشمعة من دون انتباه. أخيراً، سمعته يناديها بصوت متعب.

"آرني، لا أستطيع ترك ما أقوم به الآن. ما الأمر؟ ألا يمكنك الانتظار؟"

"توقّف الكمبيوتر، تعالي وانزعي الشريط من المقبس

"ألا يمكنك الانتظار قليلاً؟"

"هل تقومين بالطهي للعائلة الملكية؟ ألا يمكنك المجيء لدقيقتين؟"

وضعت ليليا الوعاء، وتوجّهت إلى الغرفة المحاذية بخطى سريعة. ومن دون قول شيء أو النظر إليه، نزعت السلك ثمّ أعادت وصله مجدّداً. لم يعد آرني يشكرها على ما تقوم به. لا بدّ أنّه يعتبر أن من واجباتها الاهتمام به.

عندما عادت إلى المطبخ، لم تستطع المتابعة من حيث توقّفت. وضعت راحتيها على الطاولة، وفتحت ذراعيها إلى الجانبين، وثبّتت نظرها على السطح. حاولت التفكير بالمكوّنات التي يمكن أن تنجح؛ الفلفل الأحمر، جوزة الطيب، الملح. مزجت الدقيق مع القليل من الماء، وحوّلتهما إلى عجينة بسيطة على شكل بشري، ثمّ وضعتها على الطاولة وقالت هذه الكلمات وهي ترشّ مزيجاً ما عليها:

"لقد ملّحتُ كلّ ما أرسلته إليّ، وبهّرت كلّ ما أرسلته إليّ، وحميت نفسي من كلّ الشرور التي تضمرها لي... لا يمكنك إيذائي ولن تؤذيني أبداً"

وضعت قطعة صغيرة من العجين في مزيج السوفليه، ثمّ تابعت عملها من حيث توقّفت. وبعد أن تأكّدت من أنّها قامت بكلّ ما هو مطلوب، وضعت الوعاء في الفرن. لم تكن تحلم بتقديم طبق السوفليه الأوّل الذي تعدّه إلى آرني. لكن إن أرادت لما قامت به أن ينجح، فهذا ما عليها فعله. تخيّلت أنّها ستطلب من أصدقائها الجدد تذوّق السوفليه، وأرادت أن تشركهم في هذه التجربة إلى أن تتقن إعداده، محوّلة الأمر إلى لعبة. لم تعتقد فحسب أنّ تجاربها الأولى ستفشل، بل أملت ذلك. فالموضوع لم يكن مجرّد طهي بالنسبة إليها، بل إنها تجربة حياة، ومثل كلّ التجارب الأخرى، لا بدّ من أن تتعثّر حتّى تبرع ببطء. لكن يبدو وكأنّ القدر قرّر إشراك آرني في هذه التجربة أيضاً، ولم يسبق لليليا أن قاومت قدرها. ربّما سيتعلّمان شيئاً من هذه التجربة؛ تماماً مثلما نسيا الكثير من الفضائل معاً.

كانت أُولاّ أوّل العائدين إلى المنزل، قبل عشر دقائق من انطلاق منبّه الفرن. صفقت بحماسة عندما أخبرتها ليليا أنّ الفرن يحتوي على السوفليه. فقد عرفت بأمر الكتاب الذي ابتاعته صاحبة المنزل وبمشروعها الصغير. لهذا السبب، فوجئت عندما أخبرتها ليليا أنّ الطعام سيكون من أجل آرني فقط. وبينما كانت ليليا تفكّر بعذر تقدّمه إليها، دخل كانو. أشار إلى الفرن وسألها: "هل ما أظنّه صحيح؟" وعندما بدأت ليليا تخبر كانو أنّ الطبق لزوجها فقط، دخل فلاڤيو وناتالي. لم يتبقّ لديها الوقت لمزيد من الشرح، لأنّها بحاجة إلى التركيز على السوفليه وإخراجه في اللحظة المناسبة. تقدّمت خطوة إلى الأمام ووقفت أمام الفرن. عندما انطلق جرس المنبّه، مدّت ذراعها إلى الخلف، ولوّحت للمجموعة طالبة الهدوء، من دون أن تعرف ماذا تتوقّع من الصمت التامّ. تراجع الجميع إلى الخلف قليلاً، وراقبوا حركات صاحبة المنزل عن كثب. فتحت ليليا باب الفرن بحذر، وحملت وعاء السيراميك بشكل متوازن، ثمّ تراجعت

خطوتين إلى الخلف مـن دون أن تستدير. وفي اللحظة التي التفتت فيها نحو جمهورها حاملة الوعاء أمامها والدهشـة بادية في عينيها، هبط وسـط القالب. على الفور، ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجهها. من الذي سيشعر بهذا الفخر لدى فشل أولى محاولاته لإعداد السوفليه؟

* * *

عوضـاً عن الذهـاب إلـى الصالـة، حمل مـارك كيـس البقالـة الذي اشتراه للتوّ، وتوجّه إلى سـوق الخضار. ألقى عليه الباعة التحية من خلف أكشاكهم مع هزّة رأس سعيدة مشوبة بشيء من التوتّر. فبعد اختفاء كلارا، فقد أحدهم صبره وتوجّه إلى متجر الحلويات للسؤال عنها. علموا عندئذ أنّها توفيت فجـأة، وأنّ زوجهـا ظلّ منعزلاً عـن الجميع. لـن يعرف مارك أبداً بذلك، إلاّ أنّ أصدقـاء كلارا المزارعين أقاموا احتفالاً صغيراً باسـمها لوداعها، وانتظروا مارك منذ ذلك الحين. وجهه – الذي يسـهل نسيانه في الظروف العادية – أصبح يحمـل لهم معنىً آخر. كان أشـبه بالتذكار الآن. لهذا السـبب، عندما اقتـرب بخجل من كشـك الخضار، أضـاء وجه مدام ديلار بابتسـامة عريضة. كان مارك ينظر إلى اللائحة التي يحملها، ويحاول إيجاد ما يريده بين محتويات الكشـك الخضـراء، والحمـراء، والبرتقالية. وعندما اسـتجمع الشـجاعة الكافية لسـؤالها أيّها جـذور الكرفس، سـألته مدام ديلار إذا كانت تستطيع إلقاء نظرة على اللائحة. وبعدما نظرت إليها، سـارت إلى مقدّمة الكشـك ووقفت بجانبه. يبـدو وكأنّ مارك لـن يتمكّن حتّى من تمييز أنـواع الفلفل عن بعضهـا. الوقت وحده كفيـل بأن يثبت ما إذا كان سـيتمكّن يومـاً ما من معرفة اسـم كلّ نـوع من الخضار. بدا أشـبه برجل أعمى اسـتعاد بصره للتوّ. إذ راح يمسـك بـكلّ شـيء، ويقلّبه بيده، ويشمّه، ويحاول معرفة جوهره.

ومـع أنّه يواجـه وقتـاً عصيبـاً جـدّاً الآن، إلاّ أنّـه سـيتمكّن ذات يوم من معرفة أنـواع الخضار التـي تتلاءم مع بعضهـا من مجرّد شـمّ رائحتها.

سيكتشف أنّ الليمون الحامض يلائم الكرّاث، وأنّ الجزر يمتزج بشكل جيّد مع الكمّون. وحتّى ذلك الحين، ستساعده مدام ديلار والآخرون. بعد شراء الخضار، وجد نفسه أمام كشك الأجبان. لم يكن الفرنسي الذي لا يعرف شيئاً عن الأجبان يقلّ غرابة عن السمكة التي لا تعرف السباحة؛ بحسب الكثير من الفرنسيين. لم يكن يعرف أسماء الأجبان التي يحبّها، ولكنّه يستطيع تمييز شكلها بعض الشيء. لحسن الحظّ، كان بائع الجبن - المعروف في السوق باسم لويس الضخم - يحبّ عمله فعلاً، ولا يمانع تخصيص خمس وأربعين دقيقة لمارك لكي يتذوّق أجزاء صغيرة من مختلف الأجبان بطرف سكّينه. كان لويس، الذي يحمل الاسم الأوّل للويس الرابع عشر بسبب كرشه الكبيرة التي تتّسع لها بالكاد المساحة الضيّقة خلف الصندوق، قد طلب من كلارا مرّات عديدة الهرب معه، مع أنّه متزوّج ويعرف أنّها متزوّجة هي أيضاً. فكانت كلارا ترفض دائماً هذا العرض الملحّ بابتسامة قائلة: "في حياة أخرى"

بعد كلّ هذه المساعدة، شعر مارك بتأنيب الضمير، وطلب من البائع الضخم أن يلفّ له قطعتين من الأجبان التي جرّبها، ثمّ أخبره باسم الجبن الذي يريده في الواقع، بعدما نظر إلى لائحته مجدّداً. فقال له الرجل الضخم. "آه، كونتيه. لماذا لم تقل ذلك منذ البداية؟ كيف تحبّها؟ معتّقة أم لا؟"

"ما الفرق؟"

"تمتاز الطازجة بنكهة الزبدة، وطعمها شبيه بالبندق. وتصبح أكثر حدّة وصلابة كلّما ازدادت قدماً"

وهكذا، اكتشف مارك أنّ الضخم لا يتوقّف عن الكلام بسهولة، لا سيّما أمام شخص لا يعرف شيئاً عن الموضوع مثل مارك، لكنّه راغب في التعلّم. أراد إخبار مارك بتاريخ جبن الكونتيه بكامله، وعن سبب احتوائه

على ثقـوب صغيرة، وعـن أفضل وقت لتناولـه، وخصوصاً بمـاذا يختلف عن جبن الغرويار السويسـري. إن طلب أحدهم منه الغرويـار، فهو يقترح عليه الذهاب إلى سويسـرا بصـوت عال جـدّاً. بعدما فرغ مـن محاضرته، سأله:

"هل ستستخدمه في وصفة؟"

"أجل"

"أيّ وصفة؟"

"فطيرة الجبن"

"إذاً، أنت بحاجة إلى النوع الطازج"

كان مـارك قـد اختـار وصفتين مـن كتابـه الجديـد ليوميـن، وكتب مكوّناتهما في لائحته. لم يكن ينوي تناول ما يجده في الجوار يوم الأحد القادم، أو شـراء الدجاج المشـوي والبطاطس المقلية من موفتار. وبعدما تأكّد مـن شـراء كلّ مـا يحتـاج إليـه، ودّع الجميع بهـزّة من رأسـه، وعبَر الشـارع. لم تكـن تجربته الأولـى في سـوق الخضار سـيّئة بقدر مـا خُيّل إليه. فمع أنّ الجميـع يعرفون من يكـون، إلاّ أنّ أحداً منهـم لم يأت على ذكر كلارا أو يقدّم إليه العـزاء. فمارك ما زال عاجزاً عـن تذكّر زوجته من دون الشعور بالألـم، وما زال عاجزاً عن سماع خطوات قدميه الوحيدة في الشـقّة. وفراغ النصف الآخر من السـرير يحطّم فؤاده كلّ صباح ومسـاء، كما أنّ الشـوكة الواحدة كانت تصـدر ضجيجاً أعلى بكثير من شـوكتين. أحسّ فـي بعض الأحيـان أنّ حزنـه لن ينتهـي أبداً. وشـعر أنّه لـن يعرف السـعادة مجدّداً إلاّ إن نسـي تمامـاً أنّ امـرأة تدعى كلارا كانـت موجودة يوماً.

بقي بعيداً عن أصدقائه لمدّة طويلة، ولم يلبّ أيّـاً من الدعوات التي

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

تلقّاها، وحاول إبقاء أحاديث الهاتف قصيرة. وكلّما مرّوا بالصالة، وجد عذراً للابتعاد. لم يكن غير سعيد في كلّ لحظة عاشها، بل على العكس، كان يجد السلام في وحدته مؤخّراً، وهذا ما جعله يشعر بالفخر. إلاّ أنّ تلك اللحظات كانت قصيرة جدّاً، وتنتهي حالما يتذكّر زوجته. لم يعرف إلى متى سيدوم ذلك، لكنّه أدرك أنّه بحاجة إلى الوقت. فهو لم يكن واحداً من أولئك الأشخاص في هذا العالم الذين يعرفون كلّ المشاعر من دون أن يحتاجوا إلى اختبارها. كان يتعلّم التعامل مع حياته خطوة تلو الأخرى.

بعدما وضع كلّ شيء في البرّاد، أعدّ لنفسه فنجان إسبريسو. شغّل التلفاز وهو يحضّر قلماً وورقة، موجودين دائماً على الطاولة. فقد حاول مشاهدة حلقات إسكاباد غورماند أيّام السبت وحلقات الأسبوع المتأخّرة. لم يأبه كثيراً بالوصفات في الواقع، بل كان يدوّنها إن تمكّن من ذلك، لكنّ ما أعجبه فعلاً هو الحديث الذي يدور بين مضيفَي البرنامج. لم يسبق لمارك أن كان مقرّباً من أيّ من أصدقائه بهذا الشكل. فقد ملأت كلارا كلّ الثغرات الصغيرة المتعلّقة بالصداقة والحميمية. ولم يخطر له يوماً أنّ عيش حياة متمحورة حول شخص واحد قد يخلّف هذا الفراغ الكبير يوماً. أمّا الآن، فقد أصبح هذان الرجلان - اللذان لا يعرفهما، ولن يتعرّف عليهما أبداً على الأرجح - صديقيه المفضّلَين. كان يذهب إلى الأماكن التي يذهبان إليها، ويشعر أنّه يصغي إلى كلّ ما يقولانه. لقد أصبحا يمثّلان مفهوم الصداقة بالنسبة إليه.

أعجبته أيضاً بساطة الوصفات. لكنّ المشكلة الوحيدة تكمن في القدرة على اتّباع كلّ ما يقولانه. ففي بعض الأحيان، كان يعجز عن قراءة الملاحظات التي كتبها لاحقاً ويتخلّص منها. لم تكن أيضاً ثمّة طريقة لفهم المقادير التي تعطى في كلّ وصفة. فملعقة الشاي لا تعني شيئاً

بالنسبة إليه، شأنها شأن ملعقة الطعام. تذكّر أنّه رأى أدوات بين الأشياء التي تخلّص منها، لكنّه لم يعرف حتّى الآن سبب استعمالها. فدوّنها على لائحة الأدوات تحت المبرشة قبل أن ينسى. عليه زيارة سوق تو لو مارشيه المركزية مجدّداً في ذلك اليوم. فقد أدرك أنّ المطبخ الفرنسي لا يستطيع البقاء من دون مبرشة. تساءل عمّا إذا كان سيجد هناك الشابّة التي ساعدته في المرّة الماضية. لو لم تساعده سابينا في زيارته الأولى، فلا بدّ أنّه كان سيستسلم. لقد وجد مارك شيئاً مسالماً في شعر الفتاة الناعم، ووجهها الخالي من مساحيق التجميل، ورموشها الرقيقة. شعر بالأمان وهو يسير بين الأروقة معها. حتّى إن همسات الناس في المتجر وصوت الموسيقى اختفت.

بعد انتهاء البرنامج، غسل فنجان الإسبريسو ووضعه على رفّ الأطباق. ثم أضاء المصباح الذي يعلو الفرن، وترك التلفاز شغّالاً، ثمّ دخل غرفة المعيشة لإضاءة مصباح جانبي، وغادر الشقّة. لم يكن يحتمل دخول منزل مظلم وصامت منذ أن بدأ بالعيش بمفرده. لذلك، كان يترك المذياع شغّالاً في أيام الأسبوع، والتلفاز في العطل الأسبوعية، قبل مغادرة المنزل، وتبقى المصابيح مضاءة في كلّ الأوقات تقريباً. أصبحت الوجوه التي تظهر على القناة الفرنسية التي عرفها دائماً مألوفة أكثر بالنسبة إليه الآن، ولن يفاجأ إن ألقت عليه التحية يوماً عند دخوله المنزل.

لم يكن يعرف أنّ جارته التي تعيش في الشقّة المقابلة كانت تضع أذنها على بابه لسماع الأصوات كلّ يوم. ليس لأنّها تريد التجسّس على حياته، بل لأنّها تعرف تماماً ما يعيشه هذا الرجل. فعندما فقدت زوجها منذ سنوات، كانت كلارا أكثر من ساعدها. كانت تطرق بابها بعد الظهيرة أحياناً، حاملة طبقاً من الكعك، وتحتسيان الشاي معاً. كانت كلارا تصغي إلى كلّ ما تقوله مدام بومون بانتباه، وكأنّها تريد تسجيله في ذهنها. كانت تحاول حقّاً فهم الألم الذي تعاني منه، وتمتلئ عيناها بالدموع في النهاية.

عرفت مدام بومون أنّ تلك المرأة تتخيّل نفسها مكانها، وتحزن وهي تفكّر أنّها قد تعيش المأساة نفسها يوماً ما. وعندما كانت مدام بومون تبعد أذنها عن الباب وتسير إلى شقّتها وهي تهزّ رأسها، كانت تفكّر بمدى عدم استعداد مارك لذلك الحزن. كانت تسمعه وهو يدخل ويخرج معظم الوقت، لكنّها تتجنّب فتح بابها حتّى لو كانت تنوي الخروج، لكي لا تسبّب له الإزعاج، وتتركه عادة يغادر المبنى أوّلاً. من الواضح أنّه لا يريد المواساة. لكنّها أدركت مؤخّراً أنّ مارك بدأ يعود إلى المنزل في أوقات أكثر اعتيادية، ويمكث فيه في عطلة نهاية الأسبوع، ولا يخرج منه مسرعاً من دون النظر خلفه. كما لاحظت أنّه تخلّص من أكياس من الأغراض، وعاد حاملاً أكياساً جديدة. وأصبح صوت الأواني يرافق صوت التلفاز من وقت إلى آخر. كانت مدام بومون على علم بمدى قلّة خبرة مارك في المطبخ. فقد أخبرتها كلارا مرّات عديدة بمرح أنّه لا يعرف الفرق بين البامية واللوبياء. هل يعرف أنّه يستطيع أن يطرق بابها إن احتاج إلى أحد المكوّنات، أو إلى المساعدة؟ هل يدرك أنّها أصبحت هي وكلارا مقرّبتين مثل أمّ وابنتها خلال تلك السنوات، وأنّها هي أيضاً تفتقد إليها كثيراً؟ يبدو أنّ مارك دفع جميع من في حياته بعيداً. إذ لم يعد أحد يأتي إلى منزله الذي كان في ما مضى نابضاً بالحركة ومصدراً للسعادة. لكنّ الزمن سيشفي كلّ شيء. وعندما يحين الوقت المناسب، سيقوم بإخراج كلّ الذكريات وكأنّها صور مخبّأة في صندوق قديم، وينظر إليها مرّة أخيرة، ليصبح حرّاً من جديد.

عرف مارك إلى أين يذهب هذه المرّة وهو يقف على السلّم الكهربائي. ومع أنّه لم يكن بحاجة سوى إلى شيئين يتذكّرهما جيّداً، إلاّ أنّه أخرج الورقة ونظر إليها مرّة أخرى. هل كان يحتاج فعلاً إلى قطع كلّ هذه المسافة لشراء مبرشة وأكواب وملاعق للمقادير؟ كان

يعرف أنّه يستطيع إيجاد أيّ شيء في ذلك المتجر الصيني في حيّه، لكنّه لم يستطع التحليل أكثر من ذلك لأنّ تركيزه كان منصبّاً على آخر درجة في السلّم لتجنّب السقوط. كان المتجر مزدحماً؛ كما في المرّة السابقة. فهناك عشرات الأشخاص يقفون أمام الرفوف، ويتناولون أشياء ويتفحّصونها جيّداً. امتزج صوت الأزرار الصادر عن الصناديق بأصوات الناس. كان ثمّة صفّ طويل في إحدى زوايا المتجر، وقف فيه رجال ونساء حاملين كتاباً بأيديهم. وبينما كان يحاول فهم ما يجري، سمع صوتاً يتحدّث إليه:

"غوردن رامساي"

التفت إلى الخلف ليجد سابينا هناك. أدرك في تلك اللحظة أنّه كان ينتظر رؤيتها هنا مجدّداً. أصبح واثقاً الآن أنّه يشعر بالارتياح لها. وعندما أدركت سابينا أنّ مارك ينظر إليها متسائلاً، بدأت تشرح:

"أنا من ساعدتك عِندما أتيت إلى هنا منذ أسبوعين"

وتابعت مشيرة إلى البطاقة المعلّقة على ياقة قميصها:

"سابينا"
"أتذكّرك. أنا آسف، لكنّني كنت أفكّر بشيء آخر. عرفتك منذ اللحظة التي رأيتك فيها"
"هؤلاء الناس ينتظرون للحصول على توقيع من غوردن رامساي"
"غوردن رامساي؟"
"إنّه الطاهي البريطاني الشهير. في الواقع، أظنّه اسكوتلندياً، لكنّه

بريطاني. لديه برامج مثل المطبخ الجهنّمي، كوابيس مطبخ رامساي. ألم تسمع بها مطلقاً؟"

"كلاّ، على الإطلاق"

"ربّما كان هذا أفضل، فهي رهيبة مثل عناوينها. إنّها أشبه بالكوابيس. فهو يقوم بتغيير لوائح بعض المطاعم زاعماً أنّه يحاول جعلها أماكن أفضل. ولكن، ما الفائدة؟ فهو يصيح في وجه الطاهي في المطعم، أو المالكين، ويهين الجميع. حتّى إنّهم يبكون أحياناً. أضف إلى ذلك أنّها لا تكون مطاعم صغيرة دائماً، بل بعضها جيّد حقاً، ويكسب كثيراً من المال. تمّت ترجمة أحد كتبه إلى الفرنسية للتوّ، لهذا السبب هو هنا"

"يبدو وكأنّ الناس يحبّونه"

"أظنّ أنّ الكثيرين منهم أتوا لكي يروا ما إذا كان دنيئاً بالفعل بقدر ما يبدو على الشاشة"

"وهل هو كذلك؟"

"إنّه سيّد إنكليزي حقيقي. فقد طلبوا منّي أخذ بعض الأوراق إلى طاولته، وعندما ذهبت إلى هناك وقف احتراماً. أعتقد أنّه يؤدّي دور شخصيّة أخرى في برامجه"

لم يسبق لمارك أن شارك في محادثة كهذه مع أيّ شخص منذ زمن. كان يتحدّث مع آمو في الصالة، ولكن فقط حول العمل، ولم تدم محادثاتهما مطلقاً لأكثر من خمس دقائق. كان آمو أيضاً من يهتمّ بالزبائن، ولا يغادر مارك مكتبه الواقع في آخر الصالة إلاّ عند الضرورة. لم يكن الوضع يختلف كثيراً بطبيعة الحال قبل وفاة كلارا. فقد كان يحبّ الذهاب إلى زوجته، والإصغاء بانتباه إلى كلّ التفاصيل التي تعطيها عن أيّ موضوع، حتّى تلك التي لا يهتمّ بها إطلاقاً. ولطالما كان الشخص الأكثر هدوءاً في اجتماعات الأصدقاء والحفلات. فقد عرف دائماً أنّ زوجته

ستملأ الفراغ الذي يخلّفه في الأحاديث. لذلك، لم يظهر قطّ كشخص مزعج، مع أنّه لم يكن اجتماعياً. والآن، تقوم سابينا بتوجيه الحديث. كانت هي من يقرّر إلى أين يجب أن تتّجه المحادثة، وأين تتوقّف.

"على أيّ حال، لا أريد أن آخذ المزيد من وقتك. كيف يمكنني مساعدتك اليوم؟"

"أحتاج إلى مبرشة وأكواب وملاعق للمقادير

"تفضّل، لنلق نظرة أوّلاً على المبرشة. ما هو نوع المبرشة الذي تريده؟"

"ماذا تعنين؟"

وبينما راحت سابينا تخبر مارك عن كلّ أنواع المبارش، تساءل هو للمرّة الأولى عمّا إذا كان هذا هو العمل الأساسي لهذه المرأة الشابّة. هل يمكن أن تكون مجرّد إنسانة تبيع أواني المطبخ؟ أم إنّها تعمل هنا مؤقّتاً، لمجرّد كسب المال؟ لكن، بما أنّها تحدّثت عن المبرشة بهذه الحماسة، فلا بدّ أنّها تحبّ عملها. لم يفهم شيئاً ممّا تقوله، لذلك قرّر اختيار النوع الأبسط، ذاك الذي يبدو تماماً مثل المبرشة التي كان يراها في مطبخ جدّته. ابتسمت سابينا وقالت:

"بالطبع، هذه مبرشة كلاسيكية، لكنّها الفضلى دائماً"

كان اختيار أكواب المقادير والملاعق أسهل. فكلّ ما احتاج إليه هو أن يقرّر حجم المجموعة. كلّما كبرت، كان ذلك أفضل بالنسبة إلى مارك. إذ إنّ ذلك سيتيح له أن يعرف حتّى مقدار الغرام. وعندما سألته سابينا إن كان يحتاج إلى شيء آخر، شكرها:

"أنا واثق أنّني أحتاج إلى أشياء كثيرة، لكنّني لا أعرفها بعد. أظنّ أنّني سآتي لشرائها واحدة تلو الأخرى"

"هذه أفضل طريقة لتجهيز مطبخ على أيّ حال؛ ببطء. إلى اللقاء إذاً، أليس كذلك؟"

"أجل، آمل ذلك. إلى اللقاء"

"مع السلامة، حظّاً سعيداً"

وبينما كان مارك متوجّهاً نحو الصندوق، التفت ورأى أنّ سابينا لا تزال تنظر إليه مبتسمة. فلوّح لها بيده وابتسم. شعر ببعض التعرّق تحت إبطيه، لكنّه لم يشأ التفكير في ما إذا كان ذلك ناتجاً عن الإثارة أم بسبب حرارة المتجر، بل دفع ثمن الأغراض ورحل. لم يدرك أنّه كان يبتسم، لكنّه كان واثقاً أنّه يتوق إلى تناول بعض الحلوى.

* * *

بما أنّها استيقظت على يوم مليء بالأحداث منذ الصباح الباكر، فهي ما زالت تشعر بالثقل في عينيها. كانت قد احتست فنجانين من القهوة التركية حتّى الآن، لكنّها ما زالت تشعر بالتعب.

كانت فيردا قد فتحت عينيها على صراخ أمّها: "الشرطة! الشرطة"، فأيقظت زوجها وهي تهزّه بعنف، ثمّ نزعت السّدادتين من أذنيه. وبعد أن جلسا في السرير مذعورَين لبضع ثوان، تصرّفا معاً. إذ تناول سنان إحدى تعليقات الملابس الخشبية من خزانتهما القديمة المصنوعة من خشب الجوز، وبذل جهده لعدم إصدار أيّ صوت وهو يفتح بابها، بينما قامت فيردا بالاتّصال برقم الطوارئ من هاتفها الخلوي الذي تبقيه شغّالاً على الدوام، وتضعه على المنضدة قرب السرير في حال اتّصلت ابنتها أو ابنها لسبب طارئ في منتصف الليل. تبعت زوجها إلى باب غرفة النوم

وهي تعطيهم العنوان، وقبل أن تخرج، تناولت إحدى زجاجات العطر الموجودة هناك منذ سنوات والتي تلفت لعدم استخدامها، ووضعت سبّابتها على فوهتها استعداداً لإطلاق الرّذاذ. لم تأبه للإشارات التي قام بها زوجها، والتي قصد بها: "ابقي هنا" إذ لم تكن تنوي البقاء في مكانها بينما يقوم لصّ أو مجرم بخنق والدتها. كذلك، ماذا يستطيع سنان أن يفعل بتعليقة واحدة؟ عندما وصلا أخيراً إلى غرفة السيّدة نسيبة من دون أيّ خطّة، وأطلاّ برأسيهما خائفَين، وجدا المرأة العجوز تلوّح بذراعيها وتصرخ في الغرفة الخالية وهي ممدّدة على السرير. كان سنان قد دفع الباب للتأكّد من أنّ أحداً لا يقف خلفه، وعندما تأكّد من أنّهم بمفردهم، دخل الغرفة وأضاء المصباح. وبينما حاولت فيردا أن تهدّئ من روع أمّها، ذهب إلى غرفة المعيشة وأضاء كلّ المصابيح في المنزل. كانت أقفال الباب الرئيس الثلاثة مقفلة، كما كانت جميع النوافذ وأبواب الشرفات مغلقة. من الواضح أنّ المنزل خال من الدخلاء. ظلّ يسمع صوت حماته وهو يشرب الماء لتهدئة أعصابه. كانت تقول الآن: "أرجوك لا تذبحني وكانت زوجته تتوسّل إلى أمّها: "ماما، أنا فيردا. أرجوك كفّي عن الصراخ. انظري، هذه أنا. لا بدّ أنّك رأيت كابوساً. انظري، أنا ابنتك، أنا لا أحاول قتلك. أرجوك افتحي فمك، وتناولي هذا القرص

ومع أنّ سنان أراد الذهاب لمساعدة زوجته، إلاّ أنّ الألم الذي شعر به في صدره لم يسمح له بالحراك. فجلس على أحد الكراسي حول طاولة المطبخ، وانتظر زوال الألم. لا يبدو أنّه يعاني من حالة شبيهة بالأزمات القلبية التي أصيب بها من قبل، قد يكون الأمر مجرّد تشنّج بسيط. في تلك اللحظة، أدركت فيردا أنّ زوجها كان هادئاً على نحو غير اعتيادي، فتركت أمّها وحدها في الغرفة، وأسرعت إلى المطبخ. وعندما رأت وجه زوجها الشاحب، وقطرات العرق التي تسيل على وجهه، هُرعت إلى خزانة الأدوية ويداها ترتجفان. سألته في تلك الأثناء: "سنان، هل تستطيع

التنفّس؟ هل تستطيع التنفّس؟" فأجابها بصعوبة كبيرة: "أجل. ليست أزمة قلبية" وضعت فيردا قرص الدواء الصغير تحت لسان زوجها، وساعدته على مضغه، ثمّ أسرعت نحو الهاتف هذه المرّة واتّصلت بالإسعاف. وعندما انتهت من إخبارهم بما يجري وسط صراخ أمّها، رنّ جرس الباب. قال الصوت الآتي من الخارج: "الشرطة!" كانت قد نسيت تماماً الاتّصال بالشرطة لإخبارهم أنّ الإنذار كاذب. فدخلوا المبنى، ودقّوا على أبواب الجيران، وأصبح كلّ من في المبنى على علم بما يجري. كان بعضهم قد استيقظ بسبب صراخ السيّدة نسيبة وينتظر لمعرفة الأسباب. فتحت فيردا الباب وأدخلت الشرطة، وهي تخبر الجيران بعدم وجود أيّ خطب. إلاّ أنّ صوت صفارة سيّارة الإسعاف أيقظ سكّان المبنى مجدّداً بعد خمس دقائق فقط. وبينما حاول رجال الشرطة فهم ما يجري، دخل المسعفون مع الحمّالة. وقف الجيران عند الباب مجدّداً محاولين معرفة ما حدث. فصرفتهم فيردا بإخبارهم أنّ سنان يعاني من تشنّج، ثمّ أغلقت الباب. كانت تعرف ما سيقوله الجميع خلف الباب المغلق: "ذلك المسكين سيموت بسبب حماته المجنونة، ماذا ستفعل فيردا عندئذٍ؟" عندما دخل المسعفون، كان سنان قد تحسّن. فقد عاد اللون إلى وجهه وتمكّن من الكلام. وبينما أخبر المسعفين أنّه يشعر بالتحسّن، وأنّه سيذهب لرؤية طبيبه على الفور، كان رجال الشرطة ينتظرون، وهم متّكئون على الطاولة بين المطبخ وغرفة المعيشة لمتابعة الاستجواب. رحل المسعفون بعدما قاموا بقياس ضغط سنان، وتمنّوا له الشفاء. الآن حان دور رجال الشرطة. أخبرتهم فيردا أنّها استيقظت هي وزوجها على صراخ أمّها، واعتقدا للوهلة الأولى أنّ شخصاً ما دخل شقّتهما عنوة، فاتّصلت بالشرطة، لتكتشف بعد ذلك أنّه ما من أحد في الشقّة، لكنّها نسيت الاتّصال مجدّداً لأنّ زوجها أصيب في تلك اللحظة بتشنّج. كانت السيّدة نسيبة قد توقّفت عن الصراخ في تلك الأثناء، لكنّها ما زالت تئنّ.

ذكرت فيردا أنّ أمّها لا تستطيع النهوض من الفراش، وأنّها تعاني من الإرباك الذهني من وقت إلى آخر. لم يبد أنّ رجال الشرطة راغبون في الرحيل على الرغم من كلّ ما قيل، بل طلبوا التحدّث مع السيّدة العجوز، ودخلوا غرفتها. كان الظلام ما زال مخيّماً في الخارج، فبدت عينا السيّدة نسبية أصغر حجماً وهي تحدّق إلى مصباح السقف.

"صباح الخير يا سيّدتي. هل يمكنك إخبارنا بما جرى؟"

"هذان الشخصان يعذّبانني. إنّهما يضربانني"

"من؟"

"هذان"

"أتقصدين ابنتك وصهرك؟"

"هذه ليست ابنتي، وهذا ليس زوجها. إنّه رجل يبيع هذه المرأة من أجل المال، ويريد بيعي أنا أيضاً. ولكن عندما رفضت، قاما بضربي"

أوشكت عينا فيردا أن تخرجا من محجريهما، وتورّد وجهها وهي تصغي إلى ما تقوله أمّها. كانت مصدومة إلى حدّ أنّها عوضاً عن البكاء، شعرت بشيء يشتعل في معدتها مثل كرات النار. كان سنان واقفاً خلفها وهو يهزّ رأسه غير مصدّق. فخشيت فيردا أن يصاب زوجها بتشنّج آخر، فالتفتت إليه قائلة: "اذهب إلى السرير يا عزيزي" لكنّ رجال الشرطة لم يوافقوا على إرسال سنان إلى فراشه.

"انتظري لحظة يا سيّدتي. نحتاج إلى التكلّم مع زوجك. يمكنك الذهاب والانتظار في المطبخ"

"ماذا تقول يا حضرة الضابط؟ أمّي لا تعي ما تقوله الآن"

"تقول إنّها ليست أمّك"

"أرجـوك، دعني أحضر لك بطاقـة هويّتها، وهويّتـي، وهويّة زوجي. يمكنـك أيضـاً رؤيـة وثيقـة زواجنـا. لكـن، رجـاء لنذهـب ونتحـدّث في المطبخ، فأنا لا أريدها أن تتوتر أكثر من ذلك. سأعطيها مهدّئاً"

"أرجو منك أن تحضري تلك الوثائـق أوّلاً. لنتأكّد مـن هويّتكم، ثمّ بإمكانك أن تعطيها المهدّئ"

عندما عادت فيـردا مـع بطاقـات الهويّة ووثيقـة الـزواج بعد خمس دقائق، نظر أحـد ضبّاط الشـرطة إلى صورة المـرأة في بطاقـة الهويّة وإلى السـيّدة العجوز مطوّلاً. عرفـت فيردا أنّ صـورة أمّها التي تظهـر في بطاقة الهويّة لم تعد تشـبهها إطلاقاً. لكنّ أمّها أصرّت على إبقـاء صورة من أيّام شـبابها على البطاقة. والآن، مع شـعرها الأشـيب تماماً وخدّيها الغائرَين، تبدو شخصاً آخر. في النهاية، رأى عناصر الشـرطة في الوثائق إثباتاً كافياً، ونقلوا التحقيق إلى المطبخ. التفت أحدهم إلى سنان وابتسم قائلاً:

"السيّدة العجوز مربكة بعض الشيء على ما أظنّ"

"بـدأت حماتي تنسـى مؤخّـراً. تكـون صحّتهـا متقلّبـة، فهـي جيّدة أحياناً، وسيّئة في أحيان أخرى. ولا نستطيع أن نتوقّع ما يمكن أن تقوله"

"لا أعتقد أنّ كلامها يمتّ إلى الحقيقة بصلة"

"بالله عليك يـا حضرة الضابط، هـل هذا ممكن؟ لم تكـن في كامل وعيهـا عندما قالت ذلـك. بالإضافة إلى ذلك، لماذا سـنتّصل بالشـرطة لو كان كلامها حقيقياً؟ عندما سمعنا صراخها، ظننّا أنّ شخصاً ما دخل الشقّة ويحاول إيذاءها"

"إذاً، أنت تعاني من مشكلة في القلب؟"

"أجل، عليّ رؤية طبيبـي اليوم"

"حسناً إذاً، أتمنّى لها التحسّن. نحن آسفون على كلّ تلك الأسئلة"

"شكراً جزيلاً على مجيئكم. أتمنّى لكم يوماً موفّقاً"

أغلقت فيردا الباب خلفهم وأشارت إلى غرفة النوم برأسها: "هيّا، نم قليلاً. سأتّصل بالدكتور كمال لكي تذهب لرؤيته اليوم. لا تذهب إلى العمل، اتّفقنا؟"

"ألن تخلدي إلى النوم؟"

"كلاّ، لا أشعر بالنعاس على الإطلاق"

"هل نامت أمّك؟"

"كلاّ، لكنّني أعطيتها أقراصها. ستنام على الأرجح بعد قليل. لا تعرف من أكون، ولم تقاوم تناول الأقراص لأنّ رجال الشرطة كانوا حاضرين. إنّها مهووسة بك الآن، وتسأل إن كانوا قد اصطحبوك معهم"

"ماذا قلت لها؟"

"قلت لها إنّهم سيزجّون بك في السجن"

"وماذا سيحدث إن رأتني مجدّداً؟"

"ما سيحدث هو أنّها لن تتذكّر ما جرى. أظنّ أنّها ستعود إلى طبيعتها. سأتّصل بطبيبها اليوم أيضاً وأخبره بالوضع"

"لا بدّ من وجود حلّ، أليس كذلك؟ لا يمكن أن نعيش بهذا الشكل. لقد أيقظنا كلّ الجيران"

"ماذا يمكننا أن نفعل يا سنان؟ لا نستطيع التخلّص منها. فهذا الأمر يحدث لأيّ كان"

"كيف يمكن أن يحدث لأيّ كان يا فيردا؟ هل ثمّة من يعاني من الجنون بقدر السيّدة نسيبة؟ كانت هكذا في شبابها أيضاً، أليس كذلك؟"

"رجاءً يا سنان، لم تكن كذلك. رجاءً، أنا متضايقة أساساً"

"حسناً، أنا آسف. هل أنت جائعة؟"

"كلاّ، وأنت؟"

"قليلاً، ربّما عليّ تناول شيء قبل النوم"

"لا أصدّق ذلك، أنت دائماً تفكّر بالطعام. حسناً، اجلس، سأعدّ لك شيئاً ما"

وضعت فيردا شرائح الخبز في آلة التحميص وهي تتمتم لنفسها: "ألهمني الصبر يا الله" بدأت الدموع التي كانت تتوقّعها تسيل من عينيها وهي تقشّر الطماطم. كما بدأت بوادر الصداع الذي يتحيّن الفرص دائماً للظهور تظهر شيئاً فشيئاً. فهو يبدأ بضغط في رأسها من جهة واحدة كلّما شعرت بالسعادة، أو الحزن، أو الإثارة. كانت في الماضي تنتظر إلى أن يسيطر الألم على كلّ رأسها، لا بل على كلّ جسدها تقريباً، ثمّ تحجز نفسها في ظلام غرفتها ولا تقتنع بأخذ حقنة نوفالجين إلاّ في اليوم الثالث؛ عندما لا يتبقّى شيء في معدتها. أمّا الآن، فقد وضعت في فمها حبّتي مسكّن من دون حتّى أن تدرك ما تفعله. لم يعد لديها الوقت الكافي من أجل صداعها، فقد استولت أمّها على تلك الأيام الثلاثة التي تقضيها بمفردها خلف الستائر المغلقة. هذا لا يعني أنّها كانت تستمتع بالألم الذي كان يدفعها أحياناً إلى التفكير بالانتحار، لكنّ ذلك الوقت كان على الأقلّ ملكها. كان الألم ألمها، وكانت تلك مشكلتها ولم تكن مشكلة شخص آخر. كان ثمّة رابط بينها وبين صداعها. فإن مرّ شهر من دون نوبة صداع، كانت تفتقده. ومع أنّها كانت تشعر بالسرور، إلاّ أنّ توازنها يختلّ تماماً.

أعدّت فنجان قهوتها الأوّل بعدما خلد سنان إلى فراشه. وعندما تناولت فنجانها الثاني بعد ساعات، لم تكن قد تخلّصت بعد من الثقل الذي يضغط على عينيها. كان ذهنها مليئاً بالأفكار فعجزت عن النوم،

ولكن بسبب الصداع لم تستطع الاستيقاظ تماماً. جلست إلى طاولة المطبخ بهدوء لكي لا توقظ سنان أو أمّها، وراقبت بزوغ الفجر وهي تتصفّح الكتاب الذي اشترته. فوجئت عندما اكتشفت أنّ الطبعة الأولى من كتاب سوفليه ترجع إلى عام 1841. لم تكن تعرف أنّ هذا الطبق قديم إلى هذا الحدّ. تماماً كما أنّها لم تعرف مدى صعوبة إعداده. كانت قد تناولت السوفليه بضع مرّات من قبل مع إيلا في مقهى في شارع الاستقلال، لكنّها لم تدرك حينذاك أنّه لم يكن ناجحاً لأنّ وسط الطبق هبط قبل أن يصل إلى طاولتهما.

استناداً إلى مقدّمة الكتاب، كان السوفليه يشكّل أكبر خيبة أمل لهذا السبب تحديداً. فبغضّ النظر عن مدى التزامك بالتعليمات، من شأن أقلّ خطأ، ولو لثانية واحدة، أن يقوّض كلّ جهودك. وجدت فيردا وصفة سوفليه الشوكولاته بين صفحات الكتاب، وبدأت بقراءتها. بدت سهلة جدّاً أيضاً. القليل من السكّر، بعض الشوكولاته، صفار ثلاث بيضات، وبياض ستّ بيضات. يصف الكتاب كيفيّة مزجها بتفصيل كبير. أين تكمن الصعوبة إذاً؟ رغبت فيردا في معرفة الجواب بنفسها. ولهذا، طوت زاوية الصفحة، وأغلقت الكتاب عندما نادتها والدتها. وقفت بعدما أخذت نفساً عميقاً، وتوجّهت إلى الغرفة؛ من دون أن تعرف أيّ بعد من أبعاد أمّها ستواجه الآن.

"فيردا، كم الساعة؟"

"الثامنة والنصف"

"ما الأمر؟ ماذا حدث لك؟ هل تعانين من الصداع؟"

"قليلاً"

"لماذا؟"

"ألا تذكرين شيئاً ممّا حدث هذا الصباح؟"

"ماذا تعنين؟ الآن هو الصباح. هل جننتِ؟"
"ألا تذكرين أنّك استيقظت اليوم قبل الفجر؟"
"أظنّ أنّك كنت تحلمين. لقد استيقظت الآن"
"كنت تصرخين في وقت باكر جدّاً، واعتقدنا أنّ شخصاً ما في المنزل يهاجمك، فاتّصلنا بالشرطة، وحضرت إلى هنا. فاتّهمت سنان أنّه يبيعنا إلى الرجال، وقامت الشرطة باستجوابه"
"معاذ الله! هل جننتِ؟ لا بدّ أنّه كان كابوساً. فهذا ما يحدث عندما تنامين من دون أكل شيء"

علمت فيردا أنّه لا جدوى من محاولة شرح المزيد، فأمّها لن تتذكّر شيئاً ممّا فعلته. إنّها لا تدرك حجم الضرر الذي تسبّبه عندما تكون واعية تماماً، فما بالك بما يحدث حين تجهل من تكون.

"فيردا؟ لقد سرحت مجدّداً. هكذا كنتِ في صغرك. كنت معتادة على النوم وأنت واقفة. هل يمكنك أن تغيّري لي من فضلك؟ أنت تعرفين... الحفاض. ربّاه، كم أنا محرجة! انظري كيف أصبحت. لا أتمنّى هذا المرض لأحد، فالعجز أسوأ شيء في الدنيا"
"أمّي، أنت لست عاجزة. أنت تعتقدين أنّك كذلك، ولهذا السبب لا تستطيعين الحراك. لكنّ الأسوأ هو أنّك لم تعودي قادرة على الحراك فعلاً. لم تتبقّ أيّ عضلة في ساقيك. هل أنت مسرورة الآن؟ أنا لا أفهم فعلاً لماذا تختارين العيش هكذا. فأنت تعذّبين نفسك وتعذّبينني"
"أعرف أنّني أشكّل عبئاً عليك، لكن لا تقلقي، لن أمكث طويلاً. فوالدك ينتظرني في العالم الآخر. أنا أراه في أحلامي طوال الوقت، وقد قال لي إنّ الوقت قد حان. كما تعلمين، ستكبرين يوماً ما، ولا تعرفين ما يخبئه لك القدر"

"حسناً ماما، حسناً، أنا لم أقل شيئاً. أرجوك لا تبدئي مجدّداً. أمسكي بكتفي، وارفعي نفسك قليلاً. سأضع وسادة أخرى خلفك. ماما ليس بعنقي رجاء، بل بكتفي

عندما استغرقت أمّها في النوم مجدّداً عصر ذلك اليوم، وذهب سنان لرؤية الطبيب، جرّبت فيردا إعداد السوفليه للمرة الأولى. استخدمت الشوكولاته التي تحتفظ بها لأحفادها، فوضعتها في وعاء معدني فوق الماء المغلي، وحرّكتها بلطف إلى أن ذوّبها البخار. خفقت صفار البيض في وعاء آخر ومزجته مع الشوكولاته. ثمّ خفقت بياض البيض مع القليل من الملح إلى أن تحوّل إلى رغوة خفيفة. واصلت المزج وهي تضيف السكّر ببطء. ثمّ سرّعت الخفق واستمرّت به إلى أن أصبح المزيج جامداً فعلاً. أخذت منه كوباً تقريباً وأضافته إلى الشوكولاته وصفار البيض. وبعدما مزجتها معاً جيّداً، أضافت ما تبقّى من بياض البيض. كانت قد أشعلت الفرن مسبقاً. وذلك لأنّه ينبغي تحمية الفرن مسبقاً دائماً للحصول على نتائج جيّدة. بعدما دهنت القوالب بالزبدة ورشّت عليها السكّر، صبّت المزيج فيها ونظّفت حواف القوالب بإبهامها. ثم وضعتها في الفرن وبدأت بالانتظار لمدّة أربع وعشرين إلى ستّ وعشرين دقيقة. في هذا الوقت، أعدّت لنفسها شاي الزيزفون، وتناولت رشفة كبيرة وهي تحدّق إلى الفرن. حرقت لسانها بسبب شرودها؛ ممّا أثار استياءها فعلاً. فهي لن تتمكّن من تذوّق أوّل سوفليه لها كما ينبغي.

جلست أمام الفرن وراقبت السوفليه تحت ضوء الفرن الخافت من خلال الباب الزجاجي. وعندما بدأ المزيج بالانتفاخ في القوالب، حبست أنفاسها. تناولت الكتاب من حيث تجلس، ونظرت إلى الصورة لترى كيف يجب أن يبدو شكله. سمعت أنّة أمّها الأولى عند الدقيقة الرابعة والعشرين. كانت السيّدة نسيبة مثل الأطفال، تستيقظ على مراحل، وهي

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تحبّ حقّاً إصدار أصوات وهي تستيقظ. لم تأبه فيردا بصوت أمّها وظلّت تنتظر. بدا السوفليه تماماً كما في الصورة عند الدقيقة السادسة والعشرين. فارتدت قفّازي الفرن، وفتحت باب الفرن بحذر غير مصغية إلى صوت أمّها: "فُسون! فسون!". إلاّ أنّ وسط القالب هبط قبل أن تخرجه من الفرن. فوضعت الصينية على الطاولة وذهبت إلى أمّها.

7

استيقظت ليليا على حياتها المعتادة في ذكرى ميلادها. وبينما حاولت أن تمحو الرقم 63 من ذهنها، نزلت إلى الطابق السفلي، وامتزج صوت صرير ركبتيها مع صوت صرير السلالم. رافقت آرني إلى الحمّام، وفكّرت في أنّها ستحرم من الأزهار التي يحضرها لها كلّ عام. لم يتّصل ولداهما منذ سنوات للاحتفال معهما، ولن يفعلا ذلك هذا العام أيضاً. كانت تعرف أنّ إخوتها سيتّصلون، فهم لا ينسون أبداً. سترمي خلفها عاماً آخر خلال اتّصال لا يتجاوز خمس دقائق. تصرّفت ليليا وكأنّها لا تأبه، لكنّها مهما كبرت، كانت تهتمّ لليوم الذي ولدت فيه. ماذا لديها غير ذلك لتهتمّ به؟ فهي لا تفهم أبداً الناس الذين ينسون ذكرى ميلادهم. ولا تفهم الأشخاص الذين يقولون: "آه، اليوم ذكرى ميلادي؟!" عندما يتّصل بهم أحد. تمنّت لو تستطيع أن تكون واحدة منهم، وهكذا فإنّ الاتّصالات التي لا تتمّ، والقبلات التي لا تعطى، والكلمات التي لا تقال لن تؤذيها.

بدا آرني أكثر ضعفاً اليوم. فوجهه الشاحب أصبح شفّافاً تقريباً، وازدادت الخطوط حول عينيه عمقاً. لم يكن يملك القوّة الكافية للتمسّك بعصاه، كما أنّه فقد تصميمه أيضاً. بدا وكأنّه خسر عشرة باوندات في ليلة واحدة. وبعدما انتهيا من الحمّام، أعادت زوجها إلى السرير، وذهبت إلى المطبخ. راقبت كانو من النافذة وهي تعدّ القهوة. كان على وشك الانتهاء من تأمّلاته. سيدخل خلال خمس دقائق ويسألها: "نانيكا آتا؟"، وستجيبه ليليا: "لا بأس"، محاولة عدم إظهار أنّها فقدت طاقتها، وأنّها ليست سعيدة. كانت تجيب دائماً "بخير عندما تُسأل عن حالها. "بخير"، "جيّدة

جدّاً"، "جيّـدة" لكنّهـا تعلّمت على مـرّ السـنوات أخيـراً، أن تجيب: "لا بأس"، مثل بقيّة الناس. في الواقع، لم تكن تشعر أنّها بخير على الإطلاق؛ تماماً كما ظنّ كانو وهو يدخل.

"نانيكا آتا؟"

"لا بأس. نانيكا آتا؟"

"أنا بخير. لديّ امتحان اليوم، للانتقال إلى الصفّ التالي"

"أنا واثقة أنّك ستنجح"

"شكراً. ما هي مخطّطاتك اليوم؟"

"مثل كلّ يوم؟"

"هل ستكونين في المنزل إذاً؟"

"أجل"

وجدت ليليا السؤال الأخير رهيباً، وفكّرت في ما إذا كان كانو يعرف أنّ هذا اليوم يصـادف ذكرى ميلادهـا. ربّما ذكرت الأمر مـن قبل في أحد الأحاديث. قرّرت عدم السـؤال أو قول أيّ شـيء. فهي لم تكن من أولئك الأشـخاص الذين يرغبون في كشـف المفاجآت. كانت تحبّ المفاجآت، وقد بدأت تشعر أساساً بالتحسّن، فحاولت تغيير الموضوع.

"سأجرّب اليوم سوفليه الكوسا"

"وكيف كانت المحاولات الأخرى؟"

"سـتكون هذه المحاولة الرابعـة. السـوفليه الثاني هبط مثـل الأوّل. وصمد الثالث لمدّة اثنتين وعشـرين ثانية أكثر. سـنرى ما الذي سـيحدث اليوم"

"ما رأيك بتجربة الوصفة نفسها إلى أن تتقنيها؟"

"في الواقع، كلّها تشبه بعضها، ولا أظنّ أنّ المكوّنات الإضافيّة مهمّة، بل المشكلة تكمن في إتقان الخطوات الأساسيّة، لا سيّما البيض. تعتاد عليها كلّما جرّبتها أكثر. أظنّ أنّ سرعة الخفق مهمّة، وكذلك كيفيّة استعمالك رسغك"

"نانا كوروبي يا أوكي"

"المعنى؟"

"لا تستسلمي إن لم تنجحي من المرّة الأولى. إنّه مثل ياباني قديم"

"لا يبدو وكأنّه مثل، فهو لا يحتوي على استعارة، بل إنّه أقرب إلى اقتراح"

"هذا صحيح. بالمناسبة، كيف حال آرني؟ فهو لا يبدو بخير هذه الأيام"

"هذا ما ظننته اليوم. يبدو وكأنّه يستسلم، كما أنّه يشعر بالتعب سريعاً"

"هل كان دائماً هكذا؟"

"كيف؟"

"متوتّر جدّاً ولكنه مهذّب"

"أنغ تاونغ والانغ كيبو، ناسا لوب أنغ كولو. إنّه مثل فيليبيني قديم"

"المعنى؟"

"الغضب يتراكم داخل الشخص الذي يبدو دائماً هادئ الأعصاب"

"هذا المثل أيضاً لا يحتوي على أيّ استعارة"

"مع الأسف"

وبينما كانت ترتدي ملابسها في غرفتها في وقت لاحق من ذلك الصباح، ظنّت أنّ الجميع رحلوا واحداً تلو الآخر وذلك بعد سماعها صوت خطواتهم. مشية أولاّ الهادئة، وخطوات فلافيو الثقيلة والثابتة، ومشية ناتالي المسرعة. لم تكن ترى إيد مؤخّراً؛ ربّما وجد لنفسه صديقة.

فقد بدأ مؤخّراً يستاء من المستأجرين الجدد بعدما فقد اهتمامه بأولاً. على مرّ السنوات، أصبح طفلهما المدلّل. كان قد اعتاد على الاستئثار بالطابق كلّه، إلاّ أنّه مضطرّ الآن لتقاسمه مع فلافيو وناتالي. وشكواه من الحمّام لا تتوقّف أبداً.

شكّت ليليا بوجود شيء ما بين فلافيو وناتالي بسبب مجيئهما وذهابهما في الأوقات نفسها، وكيف ينهي كلّ منهما جملة الآخر، والأصوات الصادرة من الطابق الأعلى في ساعة متأخّرة من الليل. حاولت أن تعرف من ناتالي صحّة شكوكها بضع مرّات، إلاّ أنّها لم تتمكّن. فراحت الغيرة تتآكلها. فمع أنّها مدركة لفرق السنّ بينها وبين فلافيو، وعلى الرغم من عدم اكتراث الشابّ بها، إلاّ أنّ ذلك لم يغيّر مشاعرها. كان الورم يكبر في جسدها، وكأنّها تريده أن يكبر. كانت تحاول التمسّك بإحساس ساعدها على الصمود. ربّما تزول هذه المشاعر إن سمحت لها بذلك، لكنّها لم تشأ السماح لها بالزوال. وهكذا، واصلت العيش في فوضى من الأفكار التي لم تنسجم مع بعضها.

تلقّت الاتّصال الأوّل من شقيقتها الصغرى قبل أن تخرج من غرفتها، وتبعها الباقون. كانت واثقة أنّ أحدهم يقوم بتذكير الآخر، ولهذا السبب على الأرجح يتّصلون الواحد تلو الآخر كلّ عام. دخلت غرفة آرني قبل أن تغلق الخطّ مع آخر متّصل، وضحكت بصوت أعلى بعض الشيء لكي يسمعها زوجها، وتصرّفت على نحو بدت معه أكثر سروراً ممّا هي عليه في الواقع. غير أنّها فهمت من نظرات آرني أنّه لم يكن يتابع الحديث. بدا وكأنّه يجد صعوبة في إبقاء عينيه مفتوحتين، وكان على وشك الاستغراق في النوم مجدّداً.

"آرني... آرني..."

أجابها زوجها بصعوبة:

"ماذا؟"

"هل أنت بخير؟"

"أنا متعب، أريد النوم"

"لقد استيقظت للتوّ. لا تبدو بخير، هل أستدعي الطبيب؟"

"كلاّ، أنا بخير. أنا متعب قليلاً وحسب"

"هل أنت واثق من ذلك؟"

"أجل، سأنام قليلاً بعد. اخفضي الستائر من فضلك"

أخفضتها ليليا وغادرت الغرفة. ومع أنّها أحسّت أنّه لم يكن على ما يرام، إلاّ أنّها قرّرت انتظار تاميا التي ستأتي بعد الظهيرة. قد يكون متعباً وحسب، وربّما أجهده العلاج الفيزيائي، والجهد الذي يبذله. لم يكن يصغر ليليا سوى بعامين، وربّما كان من الطبيعي أن يشعر بالإجهاد وهو يحاول التكيّف مع مرضه. ثمّ خطرت لها فكرة أخرى مفاجئة. ربّما كان يفعل ذلك متعمّداً، ويتظاهر بأنّه أكثر تعباً لأنّه يعرف أنّ اليوم ذكرى ميلادها. فقد رأت الكره بادياً في نظراته في معظم الأحيان. كان من المستحيل عدم رؤية الكره في عينيه وملاحظة الغضب في صوته. ربّما كان غاضباً لأنّه عاجز عن فرض سيطرته على زوجته كما فعل لسنوات عديدة. وربّما استاء منها لأنّها لم تعد تكترث له، أو لأنّها تتناول عشاءها وهي تتحدّث مع الآخرين عوضاً عن إغلاق فمها. هل من الممكن أن يكون قد أدرك مشاعرها تجاه فلافيو؟ لكنّها فكّرت أنّ الأمر مستحيل، فهما لا يتحدّثان أبداً أمامه. أضف إلى ذلك أنّ آرني لم ير فلافيو سوى مرّة واحدة، عندما انتقل إلى المنزل منذ أشهر. لا بدّ أنّ هذا هو السبب. فآرني يفضّل كتمان حاجاته عند وجود أحد في المطبخ، وينتظر ذهاب

الموجودين لمغادرة غرفته. ربّما كان يعاقبها لأنّها تحاول عيش حياة سعيدة نسبيّاً، بعدم تذكّره تاريخ ميلادها، والادّعاء أنّه لم يسمع أحاديثها على الهاتف، وعدم قول عبارات جميلة لها، وبتذكيرها بما عليها فعله له، وبوجوده، وبمنعها من الفرار. حاولت التخلّص من هذه الأفكار ملوّحة بيدها في الهواء وكأنّها تبعد الذباب. لن تفسد بقيّة يومها بتحليل الأمور نفسها مجدّداً. فما من سبب لذلك. في الواقع، وعلى الرغم من التعب الذي تشعر به، والفوضى التي تعصف بأفكارها، ما زالت تشعر بقوّة روحية من وقت إلى آخر. فالتغيير كان أشبه بنسيم رقيق، لا يدرك أحد أنّه استنشقه. وهو يستمرّ بملء رئات الناس وتغيير خارطة أدمغتهم، ولا يتمّ إدراكه إلاّ لحظة النهضة. كانت تعرف أنّ كلّ التجارب التي مرّت بها، وما حدث معها وما لم يحدث، وتوقّعاتها وخيباتها؛ كلّها حملتها إلى مكان آخر. ويوماً ما، ستدرك أنّها وصلت إلى آخر درجة في السلّم الطويل، وستجلس على العرش المخصّص لها. فما من دقيقة واحدة تضيع هباء، بل كلّ ما يعيشه المرء مرتبط ببعضه. ولو أنّ ليليا تخلّت عن أملها في المستقبل، لتخلّصت من حياتها منذ سنوات عديدة، لأنّ خيباتها بدأت في سنّ مبكرة جدّاً.

وضعت نظّارة القراءة، وفتحت غلاف الكتاب الموضوع على الطاولة. كرّرت اسم الوصفة عدّة مرّات محاولة قراءتها بشكل صحيح. لم تحبّ قطّ الطريقة التي يمدّ بها الأميركيون بعض الكلمات الفرنسية. كانت تكره سماعهم وهم يقولون كليشاي عوضاً عن كليشيه وسوفلاي عوضاً عن سوفليه. لا يجب أبداً أن تصبح أميركية إلى حدّ تدمير الكلمات الفرنسية. وقبل أن تبدأ بالعمل على الطبق، صبّت لنفسها فنجاناً من القهوة، وأدارت ظهرها لشمس الشتاء المتسلّلة من النافذة. لولا هذه اللحظات، ما كانت لتعرف السعادة في هذه الحياة. من دون أن تتحرّك وتنظر إلى الساعة، وقفت هناك ترتشف قهوتها، وانتظرت أن يتسلّل

الدفء إلى ظهرها، وينتقل من ظهرها إلى قلبها. وبعدما أنهت قهوتها، وضعت مجدّداً نظّارة القراءة التي بقيت على رأسها.

بما أنّ الوصفات كانت دائماً معدّة لأربعة أشخاص، استخدمت ربع المقادير. فمع أنّها بدأت هذا الأمر كمشروع يشمل النزلاء، إلاّ أنّه تحوّل إلى احتفال يخصّها وحدها. ظلّت تتعلّم أنّ قدرتها تتطوّر في كلّ مرّة تعدّ فيها الوصفة، وأدركت أنّها تكون مخطئة كلّما اعتقدت أنّها أتقنتها. تصالحت مع واقع أنّها ستقول، "إذاً، هذا ما كان يجب عليّ فعله في المرّة السابقة"، كلّما نوت إعداد هذا الطبق. وفهمت الآن لماذا يقال إنّ السوفليه من أصعب الوصفات، لأنّ كلّ تجربة تحمل معها نتائج أفضل. وربّما لا وجود للسوفليه الكامل. فمن شأن بياض البيض المخفوق أن يكون أفضل في كلّ مرّة. كما أنّ كثافة المزيج تزداد تحسناً مع الوقت، وتشجّع الناس لإتقانها أكثر.

أعدّت السوفليه من دون أن تدرك أنّ أهمّ درس في حياتها ينتقل من صفحات الكتاب إلى عقلها. تركت نفسها تخفق البيض لمدّة طويلة، تاركة كلّ الأفكار تدور في رأسها من دون مقاطعة. ثمّ مزجت الصفار بالبياض بعناية. وعندما أنهت، وضعت طبق البورسلين المليء بالسوفليه في الفرن، لتخرجه بعد أربع وعشرين دقيقة بالضبط، ليس قبل ذلك ولا بعده. وفي تلك الثانية، من يقف عند الباب عليه أن ينتظر، وعلى الاتّصالات الهاتفية أن تحوّل إلى البريد الصوتي، ولا يجب أن يحتاج آرني إلى شيء، وعلى ليليا أن تركّز على ما تحضّره. بعض الأمور في هذه الحياة يجب فعلها في وقتها، وفتح باب ذلك الفرن من الأولويّات. تجوّلت في المنزل خلال الدقائق الخمس عشرة الأولى ونظّفت المكان قليلاً. وضعت المظلّة في مكانها، ورتّبت كومة المغلّفات فوق بعضها. تناولت إحدى الوسائد الموضوعة على الأرض منذ مدّة طويلة، ونفضتها. ثمّ عادت إلى المطبخ محاولة عدم رؤية الغبار الذي غطّى المنزل. بدأت

تنتظر أمام الفرن وقد ارتـدت قفّازيها؛ بعدما تعلّمت من المرّات السـابقة. فتحت باب الفـرن في الوقت المناسـب، وحاولت إخـراج الطبق من دون أن تهزّه كثيراً. وما إن وضعته على الطاولة، حتّى سـمعت جرس الباب. لا بدّ أنّها تاميا. لم يكن وسط السـوفليه قد هبط بعد عند الثانية الثالثة عشرة. إن لم يهبط بعد ثلاث وعشـرين ثانية أخرى فسـتحطّم رقمها القياسي. رنّ جـرس الباب مـرّة أخـرى. فصاحت ليليـا على أمـل أن يسـمعها الطارق: "أنا آتيـة!" لكنّها لم تفاجأ عندمـا رأت تاميا تدخل من بـاب المطبخ، لأنّ الحرارة في الخارج كانت تبلغ 18 درجة. وعندما صعدت السـلّم وهي لا تزال ترتجف برداً، وجدت ليليا تحدّق إلى السـوفليه وإلى الساعة القديمة في رسغها.

"ليليا؟"

أشـارت لها طالبة الصمت. نظرت إليها تاميا وهي تعتقد أنّها فقدت عقلها أخيراً، بينما راحت ليليا تصرخ: "ثلاث وخمسون، أربع وخمسون، خمس وخمسـون، ستّ وخمسـون، سـبع وخمسـون، ثمان وخمسون... آآآه!"

"أهلاً، أنا آسفة لكنّني لم أستطع الذهاب لفتح الباب"

"لا بأس... ما هذا؟"

"سوفليه. ذكرت ذلك من قبل على ما أظنّ"

"صحيح. لماذا هبط هكذا؟"

"هذه هي الفكرة، لهذا السـبب لم أسـتطع المجيء لفتح الباب. فقد أردت أن أعرف كم سيصمد اليوم"

"إذاً، صمد لمدّة ثمان وخمسين ثانية؟"

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

"أجل"

"وكم يجب أن يصمد عادة؟"

"عادة يجب أن يبرد من دون أن يهبط"

"إذاً؟"

"النتيجة ليست سيّئة. فقد هبط فوراً في المرّة الأولى، وكان رقمي القياسي اثنتين وخمسين ثانية حتّى الآن. ربّما سأنجح يوماً ما"

"حظّاً موفّقاً. كيف حال آرني؟"

"إنّه نائم منذ الصباح. لم يستطع الاستيقاظ إطلاقاً. لم أتحقّق منه منذ ساعة. ولكن، بما أنّه لم يناديني فلا بدّ أنّه لا يزال نائماً"

هُرعت تاميا إلى غرفة آرني حالما سمعت ذلك. كان مريضها نائماً ورأسه مائل إلى اليمين، بينما سال لعابه مكوّناً دائرة رطبة كبيرة على وسادته. أمسكت رأسه بيديها ونظرت إليه. فتح آرني عينيه قليلاً ونظر إلى معالجته الفيزيائية. كان يجد صعوبة في فتح عينيه تماماً، ويشعر كما لو أنّه يحمل على كاهله سنوات من النعاس. لم يسبق له أن شعر بهذا التعب. لكنّ عقله لا يريد الاستيقاظ، ولم يشأ أن يضغط عليه. فعندما حاول البقاء مستيقظاً لبضع دقائق، شعر أنّ دماغه يسبح في الماء. تجاهلت تاميا قوله: "أشعر بالنعاس"، وحاولت جعله يتكلّم.

"آرني... آرني... هل يمكنك فتح عينيك؟"

"أريد النوم"

"حاول قليلاً، حاول النظر إليّ"

"أنا متعب جدّاً"

التفتت تاميا إلى ليليا وطلبت منها الاتّصال بالمستشفى.

"هل كان هكذا طوال اليوم؟"

"أجل"

"كان عليك الاتّصال بالمستشفى منذ ساعات"

"لكنّه بدا متعباً وحسب. أليس هذا طبيعيّاً؟"

"لا يمكنه الكلام حتّى، هل تعتقدين أنّ هذا طبيعي؟"

فعلت ليليا ما طُلب منها من دون أن تتكلّم أو تسأل عن أيّ شيء، وحاولت عدم سماع النبرة الحادّة في صوت المعالجة الفيزيائية. ستمضي يوماً آخر، يوم ذكرى ميلادها، في أروقة المستشفى. وبالإضافة إلى ذلك، إن حدث شيء لآرني، فسيلومها الجميع، وسيعتقدون أنّها غير مسؤولة، وأنّها لم تفعل شيئاً على الرغم من معرفتها بوجود خطب ما. لم تشأ حتّى التفكير بردّ فعل دونغ في هذه الحالة. ستجد في ذلك سبباً لعدم رؤيتها مجدّداً لبقيّة حياتها. في الواقع، لا يجب أن تقول شيئاً لأنّها هي نفسها لم تزر والدها سوى ثلاث مرّات خلال الأشهر الأربعة الأخيرة، ولكنها كالعادة ستلوم الجميع ما عدا نفسها. لم تكن هي التي تأخذ آرني إلى الحمّام خمس مرّات في اليوم. ولم تقم قطّ بتنظيف جسده من الرائحة الكريهة الناتجة عن كلّ تلك الأدوية، ولم تطه له، ولم تلبِّ كلّ صغيرة وكبيرة من احتياجاته، وتتعامل مع مزاجه السيّئ يوميّاً. إن لم تكن ستجد وقتاً لنفسها في ذكرى ميلادها، فمتى ستفعل ذلك؟ دوّنت في ذهنها كلّ هذه الأشياء التي ستقولها لابنتها، وكأنّ شيئاً ما حدث، وهما تواجهان بعضهما. ولولا صوت تاميا لواصلت مناجاتها، لكنّها كانت تناديها طالبة المساعدة. يبدو أنّ آرني لم يدرك أنّ عليه الذهاب إلى الحمّام خلال نومه العميق، فبلّل نفسه. عليهما تنظيفه وتغيير ملابسه قبل وصول سيّارة الإسعاف. أحضرت ليليا ملابس داخلية وملابس خارجية نظيفة من

الطابق العلوي، وغيّرت ملابس آرني بمساعدة تاميا. كان آرني يحاول فتح عينيه قليلاً لمساعدة المرأة، لكنّ النوم كان أقوى من إرادته؛ كان أثقل من أيّ شيء عرفه، حتّى من إحراجه. رفعتاه بصعوبة، وأجلستاه على كرسيّ بذراعين. وقبل أن تتمكّن ليليا من تغيير الأغطية، سمعت صوت سيارة الإسعاف. وقبل أن تغادر الغرفة لفتح الباب، التفتت إلى تاميا وقالت: "اليوم ذكرى ميلادي"، من دون أن تعرف السبب. ولم تنتظر تعليقاً من تاميا، بل ذهبت إلى المدخل.

قال الطبيب لليليا إنّ هناك جلطتين دمويتين أخريَين في دماغ آرني، ولهذا السبب كان يشعر بالنعاس طوال اليوم. ومع أنّ ليليا حاولت فهم ما يشرحه لها الطبيب، إلاّ أنّها لم تسمع سوى كلمات متلاحقة لا غير. ذكر أنّ بعض أجزاء دماغه تحوّلت إلى حالة النوم. لم يستطيعوا تحديد مواقع الخثر الدموية. من الممكن أن يعود إلى طبيعته في الوقت المناسب أو لا، وبما أنّه عانى من أكثر من ثلاث جلطات في الأشهر الخمسة الأخيرة، فهم يتوقّعون أن يصاب بالمزيد. وهم لا يعرفون متى يتوقّف ذلك، إلاّ أنّ تلك الجلطات ستؤثّر حتماً على حياته بحسب حجمها، وحدّتها، وموقعها. لم يكن أمامهم ما يفعلونه سوى الانتظار. ولم يكن ثمّة سبب يستدعي بقاءه في المستشفى لأنّهم لا يستطيعون فعل شيء له في جميع الأحوال. واكتفوا بوصف جرعات أكبر من الأدوية المُسيّلة للدم.

لم تعرف ليليا كيف تعيد آرني إلى المنزل. ستساعدها الممرضات على إجلاسه على كرسيّ متحرّك، وإخراجه من المستشفى، لكنّهما سيكونان بمفردهما لاحقاً. لم تعرف ليليا كيف ستضعه في سيّارة الأجرة، ثمّ تخرجه منها، وترافقه إلى المنزل، وتمدّده على الفراش. فكّرت في مناداة أحد النزلاء، لكنّها صرفت تلك الفكرة. فهي لم تشأ إفزاعهم أو إدخال المرض إلى حياتهم. توجّهت إلى مكتب الاستعلامات عند

المدخل، وسألت عن رقم السيّارة التي استخدماها سابقاً. ربّما قبلوا بمساعدتها إن عرضت دفع المزيد من المال. طلبت الرقم وحاولت إخبار أوّل شخص تحدّث معها عمّا تحتاج إليه. لكنّ المتحدّث لم يكن يتقن الإنكليزية، ولم يحاول فعل شيء. وعوضاً عن ذلك، أصرّ على نصح ليليا بلكنته الباكستانية الثقيلة. إن لم يكن المريض واعياً فيجب أن يبقى في المستشفى على حدّ قوله، لماذا تحاول أخذه إلى البيت؟ كلاّ، لا أحد في الشركة يتحمّل مسؤوليّة نقل رجل مريض. فلو سقط منهم خطأً، على سبيل المثال، لا قدّر الله، فستتمّ ملاحقتهم، أليس كذلك؟ أقفلت ليليا الخطّ وهي تستشيط غضباً، من دون أن تفهم كيف تحوّل الموضوع إلى دعوى قانونية. كيف يمكن للمرء أن يجد نفسه وحيداً إلى هذا الحدّ في بلد مليء بالناس؟ كانت تذكر أنّ الناس يساعدون بعضهم في الفيليبين. فأولئك الأشخاص يقدّمون المساعدة لبعضهم من دون الخوف من التعرّض للملاحقة. حاولت مجدّداً أن تتذكّر سبب مجيئها إلى الولايات المتّحدة. لماذا بقيت هنا مع أنّها فهمت أنّها لن تتمكّن من تحقيق شيء ممّا حلمت به؟ لم تتّصل بسيّارة أجرة أخرى، لأنّها علمت أنّ الجواب سيكون مشابهاً. وبعد أن نظرت إلى الهاتف الذي تحمله بيدها لبضع دقائق، اتّصلت بجيانغ كارهة. بدا ابنها متردّداً، وكأنّه لم يرغب في الردّ على تلك المكالمة.

"هل كلّ شيء على ما يرام يا ليليا؟"

"كلاّ، نحن في المستشفى مجدّداً. فقد أصيب آرني بجلطة جديدة. يبدو بخير عموماً، غير أنّه عاجز عن البقاء مستيقظاً لسبب ما. لكنّهم لا يريدونه أن يبقى في المستشفى، ويقولون إنّهم لا يستطيعون فعل شيء له. ولا أستطيع أخذه إلى البيت بمفردي"

"هل اتّصلت بسيّارة أجرة؟ قد يساعدونك إن دفعت لهم بقشيشاً

جيّداً"

لم تستطع ليليا منع الدموع التي تزاحمت في عينيها. لم تعرف علام تحزن أكثر: هل لأنها اضطرّت للاتّصال بابنها الذي لا يتذكّر حتّى تاريخ ميلادها، أم لأنّها مضطرّة إلى توسّل المساعدة، أم لأنّه حاول التخلّص منها ومن زوجها؟

سبق لليليا أن غاصت في أعماق قلبها مرّات عديدة، وبحثت عن جواب عن تساؤلاتها حول ما إذا كانت قد فعلت يوماً الأشياء التي يلومها عليها ولداها، أو ما إذا كانت قد فكّرت يوماً في فعل شيء منها. وكان الجواب دائماً هو لا. لم تقم ليليا بتبنّي دونغ وجيانغ إلاّ لأنها أرادت ذلك؛ فقد أرادت إحداث فرق في حياة شخص آخر عبر إعطائه من نفسها. كانت نواياها خالصة، ولم تفكّر قطّ في المساعدة التي تقدّمها الحكومة أو في أيّ شكل آخر من المنفعة. ولو أنّها شكّت يوماً في أنّ نواياها كانت سيّئة، لما تحطّم فؤادها كما هو الآن، ولقالت لنفسها إنّها حصدت ما زرعت. ولكن، حتّى في أحلك اللحظات، وفي أكثر الأوقات التي شعرت فيها بالإهانة، لم تجد نفسها مذنبة. ومع ذلك، لم تعرف لماذا ظلّت تتقبّل الإهانات والكره منهما. فهل إنقاذ حياة شخص يفرض حمايته من دون قيد أو شرط طيلة حياته؟ هل عليها أن تشعر أنّها مسؤولة عنهما لبقيّة حياتها مهما حدث؟ كانت تجد صعوبة في الوقوف عند باب المستشفى، لأنّ ساقيها ترتجفان. فكلّ المشاعر جاشت في ذهنها في وقت واحد، وضغطت على كلّ شريان يمتدّ إلى قلبها. شعرت بأنّ نفسها ينقطع. ذاك الغريب الذي اعتبرته ابنها كان ينتظر صامتاً على الهاتف، وكأنّه يستمتع بكلّ دقيقة من توتّرها. أخيراً، استجمعت ليليا قوّتها وقالت:

"اسمع جيانغ، انس الأمر. انس ما قلته. لن أتّصل بك مجدّداً،

ولا أريد منك الاتّصال بـي. لا أريد رؤيتكما مجدداً، يمكنك قول ذلك لأختك"

أقفلت الخطّ. ستقوم بالاتّصال بمحاميها في صباح اليوم التالي، وستطلب حرمانهما من وصيّتها. فهذه الصفحة من حياتها يجب أن تطوى، عليها على الأقلّ أن تملك السيطرة على تلك الناحية من حياتها. لن تتركهما عالقَين في إحدى زوايا أفكارها، ليمنعاها من النوم ليلاً وينفثا السمّ في قلبها يوماً بعد يوم. فكما كان الناس قديماً يخرجون الدم الفاسد من أجسادهم للتخلّص من أمراضهم، عليها أن تمدّ ذراعها لتصريف دمها الفاسد.

عندما وصلا إلى المنزل في نهاية ذلك اليوم بمساعدة تاميا، كان الليل قد حلّ. لن تكذب على نفسها، كانت تأمل أن تجد النزلاء في المطبخ، حول قالب من الحلوى مضاء بالشموع. لا تستطيع أن تنكر أنّها اعتقدت أنّ أضواء المنزل مطفأة لأنّهم سيصرخون "ذكرى ميلاد سعيدة" عندما تدخل. ولم تفقد الأمل إلاّ عندما دخلت المطبخ. لكنّ المنزل كان مظلماً لأنّ أحداً لم يكن فيه. ولم يكن هناك قالب حلوى بانتظارها على الطاولة، أو في البرّاد. مهما انتظرت، فلن يتحوّل هذا اليوم إلى يوم أجمل. وكأنّ تاميا لا تستطيع القيام بأكثر من معروف واحد في اليوم، فهي لم تتمنّ لها ذكرى ميلاد سعيدة وهي تغادر؛ بعدما قبضت أجرها على مساعدتها ليليا في إحضار آرني إلى المنزل. في الواقع، اعتقدت ليليا أنّهما أصبحتا مقرّبتين أكثر بسبب تناولهما القهوة والبراوني معاً أمام تلك الطاولة معظم أيّام الأسبوع. ظنّت أنّ رابطاً ما نشأ بينهما، ومن الممكن أن يتحوّل إلى صداقة. عادت إلى المطبخ بعدما راقبت تاميا وهي ترحل، فرأت قالب السوفليه الذي تركته هناك في الصباح. كان ينتظر عودتها

إلى المنزل في المكان نفسه. ذهبت إلى الخزانة، وفتحت أحد الأبواب، لتجد الشموع التي وضعتها هناك منذ سنوات، وكأنّها لم تتركها في ذلك المكان سوى منذ يوم واحد. تناولت إحداها وعادت. وضعتها في وسط قالب السوفليه الهابط، وأضاءتها. أغمضت عينيها، وأمسكت بطرف الطاولة بقوّة، ثمّ تمنّت أمنية ونفخت على الشمعة. وبعدما أتت على السوفليه بأكملها، كتبت ملاحظة على ورقة كبيرة ذكرت فيها كلّ الطعام الموجود في البرّاد، وتركتها في المكان نفسه كما تفعل دائماً، ثمّ صعدت إلى غرفتها. ستفكّر بملاءة آرني المتّسخة غداً، ثاني أيّام عامها الثالث والستّين.

* * *

وضع إصبعه النازفة تحت الماء البارد وانتظر. لقد تغيّر شكل يديه تقريباً منذ أن بدأ بالطهي. إن لم يجرح إحدى أصابعه مرّتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، فهو يحرقها بالزيت الحامي. لقد بدأ يفهم مدى أهمّية ارتداء الوِزْرَة، ولماذا لا يستطيع العمل وهو يرتدي ثياباً ذات أكمام طويلة وواسعة. اعتقد في البداية أنّه يستطيع الاكتفاء بتنظيف الفرن مرّة في الأسبوع، لكنّه أدرك أنّ إزالة البقع تصبح أصعب لاحقاً، فبدأ يحفّ سطحه كلّ يوم بعد غسل الأطباق.

وبعدما تأكّد من توقّف النزيف، أغلق حنفية الماء، ووضع على جرحه الجديد شريطاً لاصقاً من الأشرطة اللاصقة التي يحتفظ فيها في سلّة على الطاولة. تابع الطهي، وهو يصغي إلى التلفاز. بدأ يغادر الصالة باكراً. فهو يحتاج إلى الوقت لشراء البقول، وطهي ما يحضره. صار يمضي معظم وقته في المطبخ، كما في الأيّام الخوالي. لكنّه أصبح يملك عادات خاصّة به الآن؛ مختلفة عن تلك التي كانت لديه أيّام كلارا. وبينما تابع تقطيع الطماطم، أعار انتباهاً أكبر إلى ما يقوم به. كان ثمّة ستّة أشخاص في برنامج يحمل عنوان جرّبنا كلّ شيء يتحدّثون عن كتب،

وأقراص مدمجة، وأفلام جديدة، تماماً كما يفعلون كلّ يوم. أخذ يدرك أنّه في الماضي، لم يكن يتابع قطّ ما يجري عن كثب. كانت كلارا هي التي تخبره بالأشياء الجديدة. عاش في قوقعته لسنوات، وفضّل ألاّ يعرف سوى الأمور التي يهتمّ بها. كان الطهي يغيّر نمط حياته بهدوء، من دون ضغط ولا إكراه. كان يتّخذ طوعاً شكلاً جديداً في هذه الحياة الجديدة. أصبح يتساءل الآن عن المغنّين الجدد. وأدرك أنّه يتعرّف على بعض الأغاني الجديدة، حتّى إنّه يدندن بها وهو يصفر. وقد بدأ في الأشهر الأخيرة يفكّر في أيّ نوع من الأزواج كان. ما كان رأي كلارا بانعزاله عن الحياة؟ لم يكن الأمر يزعجها لأنّها لم تشتك قطّ، لكن هل تمنّت يوماً لو كان مختلفاً؟

في اللحظة التي أوشك فيها على جرح إصبعه مجدّداً، أنقذ نفسه. لا بدّ أنّ السبب عائد أيضاً إلى حدّة السكّين. ستخفّ حدّتها مع الوقت، وربّما سيتوقّف عندها عن سفك دمه. أضاف الطماطم المقطّعة إلى البصل والثوم المقلّى جيّداً، ومزجها ببعضها. حان الآن دور الفطر، والقرع، والباذنجان، والفلفل. نظر إلى صفحة الكتاب المفتوح أمامه ليرى كيف يجب فرمها. ينبغي أن تكون على شكل مكعّبات؛ مكعّبات صغيرة. عندما أدرك أنّ الأمر سيستغرق وقتاً أطول ممّا اعتقد، خفّض درجة حرارة الفرن. فهو لن يتمكّن من فرمها كلّها في هذا الوقت القصير. ربّما يستطيع شخص آخر فعل ذلك، ولكن ليس هو. أتى الراتاتوي من الجنوب، وكان في الأساس طبقاً معدّاً من بقايا الخضار، لا سيّما الخضار الصيفيّة منها. لم يكن يمتاز بشيء خاصّ، وحتّى الاسم يعني أشياء ممزوجة معاً. لكنّه أصبح طبقاً شهيراً في جميع أنحاء العالم بعد ذلك الفيلم خصوصاً، وصار أكثر شعبيّة بكثير. وتمّت إضافة الفطر إلى الطبق في أساليب إعداده الجديدة.

تذكّر مارك أنّ الفطر لم يكن شائع الاستعمال في صغره. فقد

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

كان الناس يتساءلون دوماً عمّا إذا كان سامّاً أم لا. واعتادوا على سماع إعلانات عنه دائماً في المذياع، كما كانت هناك لائحات بأسماء الأنواع السامّة وصورها تعلّق على جدران مبنى البلدية. في تلك الفترة، كان مارك يشعر بالذعر كلّما رأى فطراً في طبقه، ويتساءل إن كان سيموت مسموماً به. لكنّ أمّه كانت تتفهّم خوفه، وتخبره من أين ابتاعته لطمأنته. أمّا الآن، فلم يعد أحد يفكّر بذلك. فمثل كلّ شيء آخر أصبح الفطر موحّداً.

عندما أنهى تقطيع كلّ المكوّنات، لاحظ أنّ الصلصة الموجودة في القدر لم تحترق، فشعر بالفخر. يبدو وكأنّه سيتمكّن من طهي طعامه من دون حوادث، هذا إن لم يأخذ ما حصل لإصبعه بالحسبان. فقد تسبّب بانطلاق جهاز الإنذار قرب الغاز، وجرح أطرافه من قبل. كيف له أن يعلم أنّ الزيت سيحترق بتلك السرعة؟ كان يتعلّم شيئاً جديداً كلّ يوم. حاول مزج كلّ المكوّنات بحسب الوصفة؛ من دون دفعها خارج القدر. سيُخرج الباذنجان ماءً بعد دقيقتين، بحسب الكتاب، وينبغي أن تستفيد الخضار الأخرى من ذلك. واصل خلطها وهو يخشى من سحق القرع الذي أصبح أساساً أكثر ليونة. قام بذلك وهو يصغي إلى الأغنية المتصاعدة من التلفاز، ويتذكّر طفولته.

لم يسبق له أن فكّر بطفولته كثيراً قبل وفاة كلارا. ربّما لأنّ تلك السنوات لم تنته. أمّا الآن، فقد أصبح يفاجأ بنفسه وهو يفكّر بأمّه وأبيه في أوقات غريبة، من دون حتّى أن يدرك ذلك. تذكّر الطاولة المستديرة التي كانوا يتناولون العشاء حولها، والأريكة التي كانوا يستلقون عليها جميعاً، والكتب الهزلية التي كانوا يشترونها من الأكشاك المنتشرة على ضفتي نهر السين. لم يستطع أن يفهم كيف لم يفتقد والديه، ولم يتذكّر تلك الأيّام أكثر في الماضي، مع أنّه يحمل ذكريات رائعة لهما. أمّا الآن، وهو يصغي إلى هذه الأغنية في المطبخ، محاولاً عدم سحق قطع القرع، شعر بالشوق إليهما. شعر بالشوق إليهم جميعاً. لقد كان يتعلّم كيف يشتاق إلى من

يحبّ. تجمّعت الدموع في عينيه علـى الرغم من بخار الطعام الذي يرتطم بجبينه، والأغنيـة الجميلة التي تملأ المـكان؛ وفي اللحظة التـي اقتنع فيها أنّه نجح في بدء حياة جديدة. فكّـر مجدّداً أنّه لن يسـتطيع الاحتمال، ولن يتمكّن من الاسـتمرار. لم يتردّد فـي التكلّم مع نفسـه، فتحـدّث مع نوافذ المطبخ المكسـوّة بالبخـار: "لن أتمكّن أبداً من نسـيان كلارا. لن أتحسّـن أبداً. لن أكون سعيداً من جديد"

جرّب إعداد طبق السـوفليه الأوّل في تلك الليلـة أيضاً. عرف أنّه لن يتمكّن من النوم إلاّ في سـاعة متأخّرة. فقد كان هذا اليـوم واحداً من تلك الأيّام التي لـم يتمكّـن فيها من التوقّف عن التفكير فـي الماضي، وتعلّم أنه لن يتمكّن من نوم لياليها. كان يرغب كثيراً في تجربة سـوفليه الشـوكولاته منذ اليوم الأوّل الذي اشـترى فيه الكتاب. فتح الكتـاب على تلك الوصفة وألقى عليها نظـرة أخرى. أخـرج كلّ المكوّنات، ووضعها علـى الطاولة. للوهلـة الأولى، بـدت وصفة السـوفليه أسـهل مـن الكثير مـن الوصفات الأخرى. إذاً، لِـمَ يقال عنها إنّها صعبة؟ سيسـتغرق أشـهراً لفهم السـبب. وخلال تلك الأشـهر، سـيجرّب سـوفليه الشـوكولاته مـراراً وتكـراراً مع وصفاته اليومية، وسيشـعر بفراغ في صدره في كلّ مـرّة يهبط فيها القالب، لكنّه لن يستسـلم؛ تماماً مثلما واصل حياته رغم كلّ شـيء. في تلك الأيّام التي عمـل فيها مارك ليـلاً، وتصاعـدت فيها صلصلـة الأوانـي والمقالي، لـم يسـتطع سـكّان الشـقق التي تتشـارك معه المنور نفسـه منع أنفسهم من اختلاس النظر. لـم يكن بإمكانهـم تجاهل الأصـوات المنبعثة مـن نافذته التي كان يبقيها شبه مفتوحة للتهوئة. شاهدوا، من خلال الستائر المفتوحة جزئياً، كيف تعلّم ببطء وضع الوِزْرَة حول خصره، وكيف رقص في بعض الأحيان على أنغام أغنية وهو يطهو، وكيـف بكى أحياناً وهو يحرّك الطعام في القدر، وكيف ثار غضبـه على وعاء الملح عندما نثر كمّية زائدة بسبب

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

ثقب وُجد خطأً. ورأوا كيف بدأ هذا الرجل الهادئ، الذي عاش في ظلّ زوجته معظم سنوات حياته، يبني حياة لنفسه. وبينما ظنّ الرجال أنّ الوقت قد حان لكي يُحضر مارك امرأة جديدة إلى الشقّة، وقفت النساء قرب نوافذهن خائفات من رؤية امرأة جديدة هناك. لطالما فكّرن أنّ كلارا كانت امرأة محظوظة، لكنهنّ لم يتخيّلن مطلقاً أن يفكّرن على هذا النحو بعد وفاتها. فمن يحزن على امرأة على هذا النحو الجميل؟ ومن يذرف عليها كلّ تلك الدموع؟

ومع أنّ مارك لم يكن يملك خفّاقة كهربائية أو يدوية، إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من تجربة الوصفة. تذكّر الآن كيف كانت أمّه تخفق معظم وصفات قوالب الحلوى بشوكة واحدة. لا يعرف أين كانت هذه الصور كلّ تلك السنوات، وأين كانت تختبئ كلّ تلك الذكريات. لكن، كلّما كان في المطبخ، تذكّر شيئاً جديداً من الماضي. فكلّ الأشياء الجيّدة والسيّئة المرتبطة بحياته حدثت هناك، منذ نعومة أظفاره. تذكّر أنّ والديه تشاجرا في المطبخ، ثمّ أتى والده واحتضن أمّه من خلف ظهرها، فواصلت تحريك الطعام ببرودة، لكنّها ابتسمت، ما يعني أنّها سامحته.

أدرك الآن أنّه عاش كلّ حياته في المكان نفسه، وحول الأحداث التي وقعت هناك، ولم يدرك ذلك من قبل قطّ. ربّما لم يسبق له أن قام بالطهي من قبل، ولكن يبدو وكأنّه سجّل حركات أمّه وكلارا في مكان ما في عقله. توقّف لبضع ثوان، وأضاف الخلاّط والخفّاقة اليدوية إلى لائحة مشترياته التي تزداد طولاً، ثمّ تابع خفق البيض بالشوكة. في هذه الحالة، لن يحصل قالب السوفليه على فرصة الارتفاع لكي يهبط. ولو كان لذلك البيض فم يتكلّم، لأخبره أنّه لا يستطيع التوقّف عن الخفق هكذا ومن ثمّ يستأنف مجدّداً، كما ينبغي أن تكون سرعة وحدّة ضربات الشوكة مستمرتين بالطريقة نفسها.

رأى مارك أنّ الوقت قد حان للتوقّف عن الخفق عندما عانى من تشنّج في ذراعه. ولم يعرف أنّه سيستمرّ في الشعور بألم في ذراعه في اليوم التالي. صحيح أنّه حاول استخدام يده اليسرى قليلاً، إلاّ أنّه سرعان ما استسلم عندما تسبّب بفوضى كبيرة حوله. وبينما كان يصبّ المزيج في قالب السوفليه الوحيد الذي اشتراه، لم يأمل بتحقيق إنجاز كبير، إلاّ أنّه لم يتوقّع أيضاً أن تكون النتيجة بهذا السوء. انطلق جرس الفرن عندما كان في الحمّام، وبما أنّه قرأ عن أهمّية إخراج القالب في اللحظة المناسبة، فقد هُرع إلى المطبخ وهو يزرّر زرّ سرواله. في نهاية المطاف، لم ينجح في إغلاق زرّه ولا في إخراج السوفليه في الوقت المناسب. سيعتقد أنّ هذا هو الخطأ الوحيد الذي ارتكبه حتّى المحاولة الثانية. ولكن، عندما سيفتح باب الفرن في المرّة التالية في اللحظة المناسبة التي أشار إليها الكتاب، سيفهم أنّ إعداد السوفليه أصعب ممّا اعتقد.

ومع أنّها كانت محاولة فاشلة، إلاّ أنّها هدّأت مارك، وأخرجت الحزن من عقله، واستنفدت قواه. وبعدما انتظر بما فيه الكفاية لتذوّق لقمة من التحلية التي أعدّها، اكتشف أنّ طعمها لم يكن أفضل من شكلها. إلاّ أنّه لم يكن ليكترث بذلك في تلك الساعة المتأخّرة من الليل. علّق وِزْرَته على ظهر الكرسيّ، وذهب إلى غرفة النوم. تذوّق بقايا الشوكولاته العالقة في باطن فمه واستغرق في النوم سريعاً.

كانت سابينا تساعد امرأة ترغب في شراء مطحنة لحم جديدة بعد تعطّل مطحنتها القديمة. ويبدو أنّ المرأة أقامت علاقة شخصيّة مع الآلة، ولم تستطع نسيان أيّامهما معاً. لم تنجح سابينا في إقناعها، مع أنّها حاولت أن تشرح لها أنّ الشركة لم تعد تبيع ذلك الطراز، بل تملك نسخة جديدة من العلامة التجارية نفسها، تمتاز بأداء أفضل بثلاث مرّات من الطراز القديم. هذا لا يعني أنّها لم تتفهّم مشاعر المرأة. فقد تعلّقت هي

نفسها بأثاث بيتها والأجهزة التي تملكها كما لو كانت حيّة. بالإضافة إلى ذلك، لم تفهم لماذا شعرت الشركات بأنّ عليها التوقّف عن إنتاج سلعة تعمل بشكل ممتاز واستبدالها بنسخة معدّلة لا تمتاز بجودة الأداء نفسها. كانت تتّبع المقاربة نفسها مع كلّ شيء تقريباً. لهذا السبب، إن أعجبها مرطّب لليدين، فهي تخزّن منه أطناناً، وتشتري صناديق من مزيل الرائحة الذي يعجبها لأنّها تعرف أنّهم سيلغونه يوماً ما، وكانت تعتني جيّداً بكلّ طبق من أطباقها. كما كانت تملك مطحنة في الماضي تعلّقت بها كثيراً، وشعرت وكأنّها خسرت قطّة عندما تعطّلت. كان ذلك قبل أن تنتقل من ليون إلى باريس. بدا لها وكأنّ كلّ مقتنياتها تعطّلت عندما شعرت أنّها ستتركها وترحل. فقد بدأ البرّاد يهتزّ بعنف في أحد الأيام، ثمّ توقّف عن العمل تماماً. كما توقّف الميكرويف عن تسخين الطعام لأكثر من خمس ثوان، وتعطّلت مسكة آلة تحميص الخبز. من الواضح أنّ أجهزة المنزل قرّرت التخلّص من سابينا قبل أن تتخلّص هي منها. لهذا السبب علمت كم يصعب إقناع زبونتها. رأت مارك بطرفي عينيها فيما كانت تحاول إخبار المرأة أيّ الآلات بجودة آلتها القديمة. شاهدته وهو يقف في مكانه لبضع دقائق، ويفرك يديه ببعضهما، ثمّ يتوقّف أمام أحد الرفوف ويمكث هناك من دون حراك، وهي ما زالت تتحدّث مع المرأة. شعرت الزبونة أنّ انتباه الموظّفة تشتّت، فتبعت نظرات سابينا، والتفتت بالاتّجاه الذي تنظر إليه. عرفت كم يصعب إيجاد شخص للمساعدة في هذا المكان الشاسع، لا سيّما شخص بلطف هذه الشابّة. وخوفاً من أن تخسرها، استقرّ رأيها على إحدى المطاحن أخيراً. هل من الممكن التحقّق ممّا إذا كانت تعمل جيّداً؟ فهي لا تريد العودة مجدداً، لأنّها لا تعيش على مقربة من هنا. وافقت سابينا بسرور، لكنّها واصلت تتبّع مارك في الوقت نفسه. كانت تخشى أن يرحل.

لم يكن مارك ينوي الذهاب إلى أيّ مكان. وقف أمام الخلّاطات،

وحاول أن يفهم بماذا تختلف عن بعضها. كان ينوي انتظار سابينا بصبر إلى أن تنتهي من التعامل مع الزبونة الأخرى. فاختيار إحدى تلك الآلات كان بالنسبة إليه بصعوبة فهم الفيزياء الكمّية. وبينما أخذت سابينا وقتها مع المرأة، واصل سيره بين الرفوف. رأى الكثير من الأشياء التي لم يستطع فهم وجهة استخدامها؛ كانت آلات لا يعرف شيئاً عنها. فتّاحة علب بيضاوية الشكل، مزيتة ظنّها سكّرية، ومملحة لم يفهم كيف تعمل، وشوكة على شكل ملعقة لم يعرف ماذا يفعل بها، وملعقة طعام ذات مسكة ملتوية، وحمّالة بيض ما كان مارك ليعرف أنّها كذلك لو لا أنّ اسمها كُتب على بطاقة السعر. وبينما كان يتفحّص سكّيناً ذات فجوات كبيرة، سمع صوت سابينا:

"هذه سكّين للجبن"

"ولماذا زُوّدت بثقوب؟"

"للأجبان الطرية. فكما تعرف، الأجبان الطرية تلتصق بالسكّين عندما تقطعها، فتُضطرّ إلى نزعها... ومع هذه السكّين، يخرج الجبن من الثقوب"

"فهمت. لا أدري كيف فات كلارا هذا التفصيل"

ومع أنّ مارك تمتم بالجملة الأخيرة لنفسه، إلاّ أنّها بلغت مسمعي سابينا. نظرت الشابّة إلى زبونها الذي كان يقلّب السكّين بيده بحذر. تردّدت في البداية، ثمّ سألته ببساطة:

"هل كلارا زوجتك؟"

كانت هذه هي المرّة الأولى التي يسمع فيها مارك اسم زوجته على

لسان شخص آخر منذ أشهر. لم يعرف كيف يجيب عن السؤال. كان يعرف بالطبع، لكنّه لم يستطع حمل نفسه على الإجابة. لم يتكلّم مع أحد عن كلارا منذ وفاتها. ولم يُضطرّ بعد إلى الإشارة إليها بعبارة "زوجتي السابقة"، أو "زوجتي الراحلة" أمام أحد. فكلّما تكوّنت تلك الكلمات في ذهنه، حاول التخلّص منها. لم يحاول أن ينكر أنّ كلارا قد ماتت، بل حاول أن ينسى أنّ امرأة اسمها كلارا كانت موجودة ذات يوم وأنّها كانت زوجته. لم يتخيّل أنّه سيضطرّ إلى لفظ تلك الكلمات التي كان يهرب منها وسط مركز تجاري كبير، حاملاً سكّيناً ذات ثقوب، ومحاطاً بأجهزة مطبخ كهربائية. أدركت سابينا من صمته الطويل أنّها طرحت سؤالاً خاطئاً. ومع أنّها كانت تشعر بالفضول، إلاّ أنّها اعتذرت وقالت له إنّه ليس مضطرّاً للإجابة.

"كلاّ... لا بأس... كلارا... كانت زوجتي. خسرتها منذ خمسة أشهر"

"أنا أعتذر، ما كان ينبغي لي أن أسأل. أنا آسفة على خسارتك"

"شكراً لك"

وقفا في مكانهما من دون أن يتمكّنا من قول شيء آخر، ونظرا إلى بعضهما. كانت سابينا تفرك يديها ببعضهما، بينما ظلّ مارك يلعب بالسكّين. كان ينتظر أن تحلّ عقدة لسانه لكي يتمكّن من التكلّم مجدّداً. وعندما شعر باليأس، تكلّمت سابينا مرّة أخرى:

"ماذا أردت أن تشتري اليوم؟"

"أريد خلاّطاً"

"ثمّة أنواع عديدة، أليس كذلك؟"

"الكثير منها. إن لم تساعديني، فلن أتمكّن من شراء شيء"
"يسرّني تقديم المساعدة"

وبينما أخبرت سابينا مارك بالأنواع التي تناسبه، راحت تفكّر في ما إذا كان من المبالغ فيه دعوته إلى فنجان قهوة. لم تكن ترغب في الوقوع في الحبّ ولا في أن يقع أحد في حبّها، لكن ربّما يمكنها أن تلجأ إلى صداقة مارك في باريس التي تشعر فيها بالوحدة الشديدة. ستأخذ استراحتها بعد قليل، وستتوجّه إلى المقهى الموجود عند ناصية الشارع لتتصفّح الجرائد التي تركها زائر سابق على الطاولة، كالعادة. كان ما تودّ عرضه بسيطاً جدّاً، وعفوياً تماماً، لكنّها مع ذلك لم تجد الشجاعة لتقديمه. فهي لم ترغب بأن يخيّم عليهما ذلك الصمت الغريب مجدّداً. كانت واثقة أنّ مارك سيّد مهذّب لا يمكن أن يرفض عرض امرأة، لكنّها لم تشأ أن يقبل به لهذا السبب وحسب. فكّرت في القيام بذلك لاحقاً، ربّما في المرّة القادمة. حملت الخلاّط الذي يناسب حاجاته وأعطته إيّاه. لاحظ مارك قلق سابينا. ربّما كانت لا تزال محرجة من السؤال الذي طرحته. أراد أن يقول "هذا ليس مهمّاً"، مع أنّه مهمّ. غير أنّه فكّر أنّ هذه الشابّة التي تجعل الناس يشعرون بالراحة لمجرّد وجودها لا يجب أن تنزعج من أيّ شيء. أراد أن يخبرها بمدى امتنانه، لكنّه لم يستطع. أخيراً، تناول الخلاّط وبدأ يتّجه نحو الصندوق ليتمكّن من وضع حدّ لتلك اللحظة البطولية التي ما فتئت تطول على حساب بقيّة الأغراض التي ينوي شراءها. وقبل أن يدير لها ظهره قال:

"شكراً على مساعدتك. هذا كلّ ما أحتاج إليه اليوم، إلى اللقاء"
"إلى اللقاء"

ومع أنّها كانت ترغب في قول المزيد، إلاّ أنّها اكتفت بالتلويح له. وبدأت تتساءل منذ تلك اللحظة عن موعد عودته مجدّداً.

* * *

في الأوقات التي تعجز فيها فيردا عن احتمال جنون أمّها، تقوم بإعطائها المزيد من الأقراص المنوّمة، وتستغلّ الوقت للاستراحة. تغلّبت على إحساسها بالذنب بعد المرّتين الأوليين. لا تعرف السيّدة نسيبة عادة في أيّ عام هم، ولا تتعرّف على ابنتها أو صهرها، وتشتكي منهما أمام زوّارها، كما تزعج الجيران بصراخها وصياحها. وبعد رؤية الجدّة الكبرى بتلك الحالة، أصبحت ناز تخاف منها، وامتنعت عن زيارة جدّتها الحبيبة. ومن أكثر الأشياء التي لا تحتملها فيردا عدم مجيء حفيدتها إلى منزلها. لم يكن حفيدها يفقه شيئاً ممّا يجري، لكنّ حفيدتها تفهم الأحداث جيّداً. ففي إحدى المرّات التي فقدت فيها الجدّة الكبرى تركيزها، سألتها ناز عن معنى كلمة مومس.

"إنّها كلمة سيّئة جدّاً يا حبيبتي. لا تستخدميها أبداً"

"لكنّ الجدّة قالتها. قالت إنّك كذلك. ما معناها؟"

"لا تتعلّمي تلك الكلمة يا صغيرتي، إنّها كلمة سيّئة"

"هل أنت مومس؟"

"ماذا قلت للتوّ؟ ألم أطلب منك ألاّ تستخدمي تلك الكلمة؟ لا أريد سماعها مجدّداً"

"لكن، ماذا تعني؟"

"تعني امرأة سيّئة"

"كيف؟"

استاءت فيردا جدّاً لأنّها هي التي ستضطرّ إلى شرح معنى هذه

الكلمة لحفيدتها. وهذا ليس من الأمور التي ترغب أي جدّة في شرحه لحفيدتها.

"حسناً... ثمّة نساء. أولئك النساء... أولئك النساء يمضين وقتاً مع الرجال مقابل المال"

"أتقصدين أنهم يمشين معهم؟"

"في الواقع... يمشين معهم و... ويقمن... أنت تعرفين كيف ينجب الرجل والمرأة الأطفال، تعرفين ذلك، صحيح؟"

"نعم، ماما أخبرتني. فهما لا يقبّلان بعضهما فقط، بل يستلقيان -"

"أجل حبيبتي، أعرف الباقي، لا حاجة لإخباري. حسناً، بعض النساء يفعلن ذلك مع بعض الرجال الذين لا يعرفنهم مقابل المال"

"أهذا سيّئ؟"

"أجل، هذا سيّئ، ولا يجدر بهنّ فعله. أرجوك انسي الأمر الآن، اتّفقنا؟"

"إذاً، هل فعلتِ ذلك؟"

"بالطبع لا يا حبيبتي

"إذاً لماذا تنعتك الجدّة بتلك الكلمة؟"

"هل يمكنك أن تنسي تلك الكلمة من فضلك يا أميرتي الصغيرة؟ فالجدّة مشوّشة التفكير، وتخلط الأمور. في بعض الأحيان لا تعرف من نحن"

"ألا تعرف من أكون أنا أيضاً؟"

"كلاّ"

"لكنّها كانت تحبّني حقّاً. وكانت تعطيني الشوكولاته"

"لكنّها مريضة جدّاً الآن"

"هل ستمرضين مثلها؟ أنت عجوز أيضاً"

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

"كلاّ، أنا لست عجوزاً إلى هذا الحدّ. أتمنّى ألاّ أصبح هكذا"

"سأعتني بك يا جدّتي"

"أنا واثقة من ذلك يا حبيبتي. لكن، أعدك أنّني لن أمرض مثلها"

الله يعلم السبب، ولكنْ كلّما فقدت السيّدة نسيبة إدراكها للواقع، تتّهم ابنتها بأنّها امرأة ليل، وأنّ صهرها يبيع فيردا. ولا تنادي ابنتها باسمها إطلاقاً، بل تعتقد أنّها فسون. وفي معظم الأحيان، تلومها لأنّها قتلت فسون التي ماتت قبل ولادة فيردا. معرفة فيردا بالحقيقة لم تجنّبها الكوابيس. ففي الليالي التي لا تستيقظ فيها على صراخ أمّها، تستفيق وهي عاجزة عن التنفّس بسبب الكوابيس المرعبة.

في الكثير من كوابيسها، كانت تنام مع رجال لا تعرفهم، وتخنق طفلة صغيرة. يبدو أنّ أمّها ستقودها إلى الجنون كما فعلت بنفسها. بدا وجهها متعباً جدّاً، وقد خطّته تجاعيد عميقة لم تكن موجودة حتّى قبل شهرين. كانت في الماضي تنظر إلى التجاعيد المحيطة بعينيها وشفتيها في المرآة وترى فيها دليلاً على نموّها الشخصي، كما كانت تعتقد أنّها تجعلها تبدو أكثر جمالاً. لكنّ الخطوط العمودية العميقة التي ظهرت على وجهها الآن جعلتها تبدو منفرة. كلّما نظرت إلى المرآة، تدرك أنّها أخطأت عندما قصّت شعرها وجعلته قصيراً جدّاً. فكّرت حينذاك أنّه من الأسهل العناية به لأنّها لا تملك الوقت للاهتمام بشكلها. فشعرها المجعّد لا يقاوم رطوبة إسطنبول، ويتشعّث على نحو غير مرتّب.

لم تستطع البوح بأحاسيسها لزوجها. فقد بدا سنان على وشك أن يفقد صبره. والسبب وراء عدم قوله الكثير هو أنّه يمضي معظم وقته خارج المنزل. أمّا ابنها، فلديه حياته الخاصّة. ومع أنّها أرادت التكلّم معه والاسترخاء قليلاً، إلاّ أنّها لم تشأ إزعاجه. بالإضافة إلى ذلك، ألا يقول المثل "ابنك هو ابنك حتّى يتزوّج، أمّا ابنتك فتبقى ابنتك حتّى يفرّق

بينكما الموت" عرفت أنّ حياتها ستكون أسعد إن تقبّلت هذا الواقع. فمن أحد أسباب الانهيار العاطفي الذي أصاب أمّها هو هذا الأمر حتماً؛ ألم تعتقد أنّ ابنها الغالي قد هجرها؟ كان شقيق فيردا يأتي لزيارة أمّه من وقت إلى آخر، لكنّه دائم الانشغال، ولديه دائماً مسؤوليّات أخرى. حتّى إنّه قال في أحد الأيام: "لم تعد تتعرّف علينا، فما الفرق" لم تصدّق فيردا أذنيها، وأجابته يومذاك: "عليك المجيء من أجلك أنت. عليك رؤية أمّك؛ المرأة التي أنجبتك، قدر الإمكان قبل وفاتها. لا يهمّ ما إذا كانت تعرفك، يكفي أنّك تعرفها" لكنّ فيردا علمت أنّها تتكلّم عبثاً، وأنّ لا شيء ممّا تقوله سيؤثّر بأخيها. فقد كان رجلاً براغماتياً، عاش مهنته، وجعل من عادته مقاربة كلّ المسائل رياضياً. ألم تكن أمّها سعيدة جدّاً عندما أصبح أستاذ رياضيات في جامعة إسطنبول التقنية؟ ها هي تعيش الآن نتائج ذلك.

ومع أنّ فيردا أرادت حقّاً متابعة دراستها، إلاّ أنّها اضطرّت إلى التخلّي عن أحلامها بعدما أنهت الدراسة الثانوية. فقد تولّت رعاية أمّها في فترة شبابها، وأصبحت أمّاً لأخيها الأصغر في الفترات التي قضتها أمّها في السرير. لهذا السبب لم تكن قطّ تلميذة مجتهدة في المدرسة، وفهمت في سنّ مبكرة أنّها لا تملك فرصة لدخول الجامعة. كان الزواج من سنان أفضل ما يمكنها فعله. على الأقلّ، تزوّجت من رجل مغرم بها في زمن لم تكن الفتيات فيه يتزوّجن بسبب الحبّ، بل لأنّ أهلهنّ أرادوا ذلك. واصلت رعاية أمّها بعد زواجها، حتّى إنّها دعمت السيّدة نسيبة وشقيقها مالياً. فعلت كلّ ما في وسعها لمساعدة أخيها على دخول الجامعة، وساندته للحصول على ما حُرمت منه. ومع أنّها تمنّت في بعض الأحيان لو أنّها صمّمت على متابعة تعليمها كما فعل شقيقها، إلاّ أنّها ما زالت تفخر بأنّها اختارت أفضل طريق لنفسها.

لهذا السبب، لم تقف قطّ في وجه ابنتها. وكانت على قناعة أنّ إيلا

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يجب أن تفعل ما تريده في هذه الحياة، وهذا ما كان. وعلى الرغم من الحزن الذي شعرت به عندما أخبرتها ابنتها أنّها تنوي السفر إلى الخارج، إلاّ أنّها لم تعارض أو تحاول تغيير رأيها. وربّما عاشت وقتاً عصيباً في الأشهر التالية، إلاّ أنّ ابنتها كانت سعيدة، وهذا هو المهمّ. أخبرتها إيلا أنّها تنوي زيارتهم قريباً جدّاً في اتّصالها الأخير. ومع أنّ فيردا أرادت رؤية ابنتها، وكانت بحاجة إلى دعمها، إلاّ أنّها لم ترغب أن ترى جدّتها على هذه الحال. ولا يجب أن تستيقظ ليلاً على الصراخ، وترى بشاعة هذا المنزل. لكنّها لا تستطيع فعل شيء لمنعها من المجيء. ولهذا فضّلت التركيز على الناحية الإيجابية، وعلى فرحتها لدى رؤية ابنتها عوضاً عن التفكير في الأمور السيّئة التي قد تحدث.

بدأت منذ الآن تجهّز لائحة الطعام الذي ستعدّه. كانت تحرص دائماً على إعداد كلّ ما تحبّه إيلا يوم وصولها. فتمضي ساعات في المطبخ قبل أيّام من مجيئها، وتجّهز كلّ شيء: من البرك إلى غريبة الفراولة، ومن الأرضي شوكي إلى ورق العنب. فمشاهدة ولديها وهما يأكلان الطعام الذي تعدّه بشهيّة كبيرة كانت إحدى المتع في حياتها. وهي تشكر الله لأنّ ولديها يحبّان الطعام، حيث إنّهما لا يتركان شيئاً منه يذهب هدراً، حتّى لو كان أرزّ بيلاف محروقاً.

تناولت زجاجة الشراب الكريستالية الموضوعة دائماً على المنضدة، وصبّت القليل منه في إحدى الكؤوس الصغيرة. مضى زمن طويل منذ أن تناولت رشفة منه. في الواقع، حرمت نفسها من الكثير من ملذّات الحياة. فقد مضى وقت طويل منذ أن تناولت قطعة شوكولاته، أو القليل من جبن الفيتا التركي القشدي، أو كأساً من الشراب الفرنسي. حملت الكأس، وجلست إلى طاولة المطبخ. فتحت دفتر ملاحظاتها على صفحة بيضاء، وبدأت تكتب: فاصولياء متبّلة، ورق عنب، أرضي شوكي، لبّ الكوسا، يخنة اللحم بالقرفة، فلفل محشوّ، برك الباذنجان، غريبة الفراولة. ثمّ قالت

لنفسها: "أو ربّما سوفليه الشوكولاته" كانت تعرف كم تحبّه إيلا. فكّرت أوّلاً بشطب غريبة الفراولة، ثمّ غيّرت رأيها. إذ إنّ ابنتها تقول دائماً إنّها لم تتذوّق قطّ غريبة لذيذة كتلك التي تعدّها أمّها، وإنّها تناولت مرّة واحدة غريبة بجودتها تقريباً في نيويورك، في أحد أشهر مقاهي المدينة. ولم تستطع فيردا تجاهل تلك المجاملة. لذلك، ستقوم بإعداد الطبقين. وبينما أدارت ظهرها لآخر أشعة الشمس، فكّرت كم تفتقد إلى هدوء حياتها. في الواقع، لطالما تاقت إلى السلام. فهي لم تشعر قطّ بالحرّية المطلقة، ولم تعرف ما الذي يعنيه العيش من دون مسؤوليات. كانت تعتقد دائماً أنّها ستحصل على وقت أكثر لنفسها عندما يكبر ولداها. تخيّلت أنّ أمّها ستموت وهي نائمة بعد تقدّمها في السنّ، وستبكي عليها قليلاً ولكنّها ستتابع حياتها بعد ذلك. لكن، كالعادة، كان لدى أمّها مشاريع أخرى. تخيّلت لبضع ثوان اليوم الذي ستموت فيه السيّدة نسيبة. ومع أنّها شعرت بذنب رهيب بسبب ذلك، إلاّ أنّها أصبحت تفاجأ بنفسها وهي تحلم بذلك اليوم أكثر في الآونة الأخيرة. إنها الآن في الثامنة والخمسين من عمرها، وتفكّر أنّها قد تتمكّن من الاستمتاع بمفردها بسنواتها الستّين وما يليها.

عرفت أنّ أمّها ستستيقظ قريباً. ستكون جائعة على الأرجح، وستتّهمها بأنّها تحاول قتلها بتجويعها. وقبل حدوث ذلك، وضعت بعض الماء في قدر لإعداد المعكرونة. فالمعكرونة بالجبن تهدّئ أعصاب السيّدة نسيبة دائماً.

تمكّنت فيردا من إعداد كلّ الأطباق الموجودة على اللائحة، على الرغم من كلّ الصعوبات التي سبّبتها لها أمّها. ظلّت تروح وتجيء إلى المطبخ كلّ خمس دقائق لتتأكّد من أنّها لم تنس شيئاً. كانت صينية البرك في الفرن، وستكون حرارتها ممتازة عند وصول إيلا إلى المنزل. وكانت غريبة الفراولة في البرّاد منذ مساء أمس؛ تماماً كما خطّطت. وامتّصت

أوراق العنب زيت الزيتون كما يجب، وأخـذت مكانها على الطاولة. وفي آخر لحظة تقريباً، قرّرت حشـو الأرضي شـوكي أيضاً؛ مع أنّ ذلك جعلها تمضي سـاعة إضافيّة واقفة على قدميهـا. كانت واثقة أنّ جيم سـيفرح بها كثيـراً. وبما أنّ حفيديهـا يحبّان هذا الطبـق إلى هذا الحدّ، فقـد تركت لبّ الكوسـا يقلى لوقت أطول، وطلبت من الجزّار ترك القليل من الدهن على لحم الحمل كما يحبّه سنان. تابعت السـيّدة نسيبة الاستعدادات المحمومة في المنزل في الأوقات التي لـم تقطع فيها روابطها مـع الواقع، وواصلت إطلاق الملاحظات السـاخرة طوال الوقت. "آه، اسـتعدّي لمجيء ابنتك، سـيعطونك ميداليّة" وجـدت فيردا سـلوكها مؤذيـاً جـدّاً، لأنّ أمّها كانت تعني فـي الواقع أنّها لم تحصـل على ميداليّـة لقاء ما فعلتـه. "هل أعددت أيضـاً الأرضـي شـوكي لابنـك؟ أجـل، أجـل أحسـنت فعـلاً. سـيردّ لك المعروف يوماً مـا" لم تحبّ فيـردا تلك الحركـة المميّزة التـي قامت بها أمّها. فقد أمسـكت معصمها الأيمن بيدها اليسرى ووجّهت مرفقها الأيمن إلى الأمام. كانت السيّدة نسـيبة تعتقد أنّ كلّ إنسان سيتعرّض للخيانة يوماً ما، وهذا ما يسمّى "لكمة مرفق" كان سـنان هو الشخص الوحيد الذي لا تزعجه عندما تكون فـي وعيها. كان بطلها؛ أفضل اسـتثمار، وأفضل قرار. لم يقـم صهرها بلكمهـا بمرفقه قـطّ. لكـن، إن واصلت فيـردا التجوّل في المنزل بذلك الشـعر، فسـتحصل على لكمة مـن زوجها. ظلّـت تنصحها: "اعتني بنفسـك قليـلاً، كوني جميلـة من أجل زوجـك"، لكنّها نسـيت أنّ فيردا تمضي معظم وقتها في تغيير الحفاضات.

كانت السـيّدة نسـيبة بكامل وعيها يوم وصـول إيلا، علـى نحو مثير للاسـتغراب. ربّما أجبرت نفسـها على أن تكون بحال أفضل لأنّ حفيدتها ستأتي من مكان بعيد لرؤيتها. لطالما حسـدتهما على العلاقة المميّزة التي كانت تربطهما. فقـد كانت أمّها وابنتها تجلسـان معاً في الغرفة لسـاعات، وهما تتحدّثان بهدوء وتضحـكان من دون توقّف. وكانت دائماً تسـتغرب

وتتساءل: أين وجدت إيلا حسّ المرح ذاك لدى جدّتها، والذي لم تتمكّن فيردا من اكتشافه مطلقاً؟ أرادت أن تعرف من أيّ ناحية كانت أمّها مرحة. كانت إيلا تسمّي جدّتها "حريراً هندياً نادراً". وعندما سمعت فيردا ذلك، أرادت أن تقول لها: "لا شكّ في ذلك. إنّها فريدة من نوعها" كانت السيّدة نسيبة تنادي فيردا كلّ عشر دقائق من غرفتها، وتسألها:

"فيردا، ألم تصل بعد؟"

"كلاّ ماما، ستسمعينها عندما تصل"

"إذاً، ألم تحطّ الطائرة بعد؟ اتّصلي بها"

"اتّصلت بها منذ دقيقة، وما زال هاتفها مغلقاً. ربّما طرأ تأخير ما"

"أتمنّى أن تصل بسلام. ألم تتحطّم طائرة منذ أسبوعين في ديار بكر؟"

"حبّاً بالله يا ماما! لا تكوني نذير شؤم. كيف يمكنك قول شيء كهذا في هذا الوقت؟"

اعتادتا على التحدّث بصوت عال من غرفة إلى أخرى على هذا النحو. وعندما لا تفهمان بعضهما بسبب أصوات أخرى، كانتا تواصلان الكلام بصوت أعلى، إلاّ أنّ هذا الأمر يضايقهما، إذ إنهما تبدآن بالصياح فعلاً على بعضهما. وعندما يعود سنان إلى المنزل، كان يتسمّر عادة أمام التلفاز في غرفة المعيشة في الجزء الخلفي من الشقّة، ويضع سمّاعة "بوز" الكبيرة على رأسه - والتي اشتراها له جيم كهديّة خلال رحلته الأخيرة إلى الولايات المتّحدة - وبذلك لا يسمع شيئاً.

"ماذا حضّرت؟"

"أنت تعرفين، كلّ ما تحبّه إيلا، والأرضي شوكي لجيم"

"وماذا أعددت من أجلي؟"

"ماما، أنت تأكلين كلّ ما نأكله، أليس كذلك؟ لكنّني طهوت لك اللحم بالقرفة، مثلما تحبّينه"

"أتمنّى ألاّ تكوني قد طلبت من الجزّار تجريده من الدهن"

"كلاّ، لم أفعل"

"جيّد. كيف أعددته، أخبريني"

"مثلما أعدّه في كلّ مرّة"

"إذاً، قلّيت اللحم مع البصل أوّلاً..."

"أجل"

"ثمّ أضفت القرفة"

"كلاّ، وضعت البطاطس أوّلاً، ثمّ أضفت القرفة"

"طهوته بطريقة خاطئة إذاً"

ثار غضب فيردا فجأة، ووجدت نفسها تقف قرب باب غرفة أمّها. كانت السيّدة نسيبة تجد دائماً خطأً ما في طهي ابنتها، إمّا في المكوّنات، أو المدّة، أو الكمّية. فعندما يطلب أحدهم وصفة من السيّدة نسيبة، تعمد دائماً إلى إغفال أحد المكوّنات، حتّى لو كانت ابنتها من تطلب منها ذلك. فهي لا تريد أبداً أن يتمكّن أحد آخر من مجاراتها في الطهي.

"ماما، ألا نعدّ هذا الطبق بهذا الشكل منذ سنوات؟"

"أنا لا. أظنّ أنّك كنت تطهينه طوال الوقت بطريقة خاطئة"

"حقّاً؟! لكنّك كنت تأكلينه دائماً وأنت راضية"

"أنا لم أقل إنّه لم يكن لذيذاً، بل إنّ الطريقة خاطئة وحسب. هل حضّرت أرزّ بيلاف؟"

"كلاّ، سأحضّره لاحقاً. لكنّني نقعت الأرزّ بالماء"

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

"برأيي، أعدّيه منذ الآن، لكي يرتاح قليلاً قبل أن نأكل. فهذه الطريقة تجعله ألذّ طعماً"

"يبدو أنّك بكامل وعيك اليوم"

"وما معنى ذلك؟"

"لا شيء، أنا مسرورة من أجلك"

كانت تعليقات أمّها تزعجها دائماً. ومهما حاولت عدم الإصغاء أو الاكتراث، فهي لا تنجح في ذلك. ومع أنّها كانت تعرف أنّ أمّها مجنونة، إلاّ أنّها ما زالت تحبّ الحصول على موافقتها. وكانت ملاحظة بسيطة منها تزعجها لساعات، لا بل لأيّام أحياناً. اتّصلت بجيم وانتظرت حتّى يجيب.

"نعم ماما"

"جيم، هل يمكنك التحقّق على الإنترنت ممّا إذا كانت طائرة إيلا قد وصلت؟ هل طرأ تأخير؟ واتّصل بي

"ابقي على الخطّ، فأنا أمام المكتب، سأتحقّق على الفور. متى تصل الرحلة؟"

"عند الساعة 1:30 ظهراً بتوقيتهم"

"لا تأخير. لكن، لا أستطيع أن أعرف إن كانت قد وصلت بعد أم لا"

"يجب أن تكون الطائرة قد وصلت"

"هذا صحيح، ربّما وصلت"

"أنا أتّصل بها ولكنّها لا تجيب"

"ربّما حدث تأخير في المطار

"حسناً، سأتّصل بالمطار"

"لمَ القلق؟ ستصل قريباً. سأغادر المكتب قريباً أنا أيضاً. سأذهب إلى المنزل لإحضار الجميع، ثمّ سنأتي إليك. سنكون عندك في غضون ساعتين"

"حسناً حبيبي، إلى اللقاء"

"ماذا طهوت؟"

"ستعرف عندما تصل"

"هل حضّرت الأرضي شوكي؟"

"لا أعرف"

اتّصلت فيردا بالمطار حالما أنهت مكالمتها مع ابنها. وعندما تمكّنت من التحدّث مع قسم الوصول والمغادرة عبر الضغط على الأرقام التي أشار إليها المجيب الآلي، لم تستطع معرفة المزيد. فقد قال الصوت إنّ الوصول كان مقرّراً عند الساعة الخامسة عصراً، إلاّ أنّه لم يحدِّد ما إذا كانت الطائرة قد هبطت أم لا. كانت الساعة قد أصبحت 5:45، ولا بدّ أنّ إيلا قد غادرت المطار. انتظرت حتّى انتهاء التسجيل، وبدأت بطلب الرقم مجدّداً للاتّصال بخدمة الزبائن. ذكّرتها الموسيقى التي سمعتها وهي تنتظر بأيّام التلفزيون القديمة. كانت النغمة نفسها التي تُعرض بين البرامج مع صورة تزيّن الشاشة. لا بدّ أنّ سنان قلق أيضاً، لأنّه رفع السمّاعة أخيراً واقترب من فيردا. "بمن تتّصلين؟"

"بالمطار"

"هل وصلت الطائرة؟"

"لا أعرف. أنا بانتظار التكلّم مع خدمة الزبائن. اتّصل بإيلا مجدّداً"

اتّصل سنان برقم ابنته من هاتفه الخلوي وانتظر. بعد الرسالة

الصوتية بالفرنسية والتركية، ترك رسالة لابنته: "اتّصلي بنا حالما تتمكّنين من ذلك" كان يحاول إخفاء قلقه لكي لا يزيد من توتّر زوجته. وضع يديه في جيبيه، وهو ينظر إلى فيردا، ووقف بجانبها. لم يكن من الممكن عدم سماع القرقرة الصادرة من أمعائها. فأمعاؤها تتأثر بالقلق بسرعة. وبعد أن انتظرت لبضع دقائق أخرى، أعطت سنان الهاتف وأسرعت إلى الحمّام. مرّ وقت أطول من مدّة الانتظار المتوقّعة، ومع ذلك لم يجب أحد. كانت السيّدة نسيبة تتابع الاتّصالات الجارية بجانب غرفتها من فراشها.

"ألم تصل الطائرة بعد؟"

"لا أدري، لم يجب أحد على الهاتف حتّى الآن"

"متى يُفترض بها أن تصل؟"

"عند الساعة الخامسة"

"إنّها 5:50"

"سنرى"

"أين فيردا؟"

"في الحمّام"

"أمعاؤها مجدّداً؟"

"أجل"

"أنا واثقة أنّها ستصاب بنوبة صداع أيضاً"

وقبل أن يتمكّن من إجابة حماته، سمع صوت امرأة عند الطرف الآخر من الخطّ. لم تصل الرحلة الآتية من باريس بعد. كلاّ، لم يطرأ تأخير، لكنّهم لا يعرفون السبب. يمكنهم مساعدته إن اتّصل مجدّداً بعد قليل. لم يستطع سنان منع نفسه من التحدّث بصوت أعلى، وقال إنّه لا

يريد الانتظار كلّ ذلك الوقت عندما يتّصل بعد عشـر دقائق. لكنّ الصوت قـال إنهـم لا يسـتطيعون فعـل شـيء. اعتـذروا علـى الإزعـاج، لكنّهم لا يستطيعون المسـاعدة بعد. أغلق سـنان الهاتف غاضباً، من دون أن يعرف كيـف يشـرح ذلـك لزوجته. عـادت فيـردا مـن الحمّـام راكضـة، ونظرت بفضول إلى سـنان ويدها مـا زالت على زرّ سـروالها. بـدأت أمّها تتحدّث قبل أن تتمكّن هي من السؤال.

"ماذا قالوا؟"
"لا يعرفون شيئاً"
"إذاً، ألم تصل الطائرة بعد؟"

نظر سـنان إلى زوجتـه بعصبية آمـلاً أن تتوقّـف حماته عـن الكلام. وهزّت زوجته رأسها بانتظار الجواب.

"كلاّ، لم تصل"
"هل حدث تأخير في الانطلاق؟"
"كلاّ، انطلقت في الوقت المحدّد"

تمسّـكت فيـردا بإطـار البـاب كـي لا تسـقط، وكأنّهـا علـى وشـك الإغماء. تصرّف سـنان بسرعة، وأسند جسـد زوجته بجسـده، ممسكاً بها قبل أن تقع. حاول أن يشـرح الوضع لنفسـه وللمرأتين قائـلاً: "ربّما كانت الطائرة تحوم في الهواء بسـبب الازدحـام" لكنّه لم يفهم لمـاذا لم تخبره العاملـة المسـؤولة عن خدمـة الزبائن بهـذه المعلومـة. أوشـكت فيردا أن تصاب بنوبـة قلبية عندما قالت السـيّدة نسـيبة وهـي تنتحب: "مـاذا لو قام إرهابيون بخطف الطائرة؟ أرجوك يا الله ارحمِ ابنتنا" عرف سنان ماذا عليه

أن يفعل. أسرع إلى المطبخ، ومزج بعض اللبن، والماء، والملح معاً، ثمّ تناول زجاجة شراب وعاد إلى الرواق حيث كانت زوجته. ساعدها على شرب اللبن أوّلاً، ومن ثمّ الشراب. وبينما كان ينتظرها لكي تستعيد قواها وهو جاثٍ على ركبتيه، حاول أن يتجاهل الألم في قلبه.

لن يحلّ لغز رحلة إيلا إلاّ عندما يذهب فريق التلفزيون إلى المطار ويبدأ بمتابعة الرحلة ت ك 4، التي ظلّت تحوم في الجوّ. كانت فيردا جالسة على أريكة أمام التلفاز وهي تنظر إلى الطائرة التي تقلّ ابنتها غير مصدّقة، وقد وضعت إحدى يديها على فمها، فيما الدموع تسيل على وجهها. عدّل زوجها ضغط دمها بتدخّله السريع، إلاّ أنّها بدت منهارة. ولم يكن سنان في وضع أفضل. إذ قام سرّاً بوضع قرص دواء تحت لسانه وحاول أن يبدو هادئاً. تابعت السيّدة نسيبة الأخبار من التلفزيون الموجود في غرفتها. وكان جيم مسمّراً أمام الشاشة مع زوجته وولديه في بيته وهو يشاهد التقرير ويتحدّث مع أمّه على الهاتف. ظلّ يكرّر أنّه ما من شيء يدعو إلى الخوف، وأنّهم في أسوأ الأحوال سيقفزون بالمناطيد. قال: "لا أعرف شيئاً عن الركّاب الآخرين، لكنّني واثق من أنّ إيلا ستتمكّن من فعل ذلك" لكن عندما أدرك أنّ كلامه أخاف أمّه أكثر ممّا أراحها، أسرع يقول: "لكن، لا تقلقي، لن يضطرّ أحد إلى القفز، سيتمكّن الطيّارون من إنزال هذه الطائرة بسلام" سمعوا السيّدة نسيبة تردّد بلا توقّف: "يا الله! يا الله!". وعندما لم تعد فيردا قادرة على الاحتمال، صاحت بها: "ماما توقّفي! توقّفي عن النحيب، حبّاً بالله!"

"ربّاه... ربّاه... هل عليّ رؤية ذلك قبل أن أموت؟ حفيدتي الوحيدة. أعدها إليّ قطعة واحدة، أرجوك يا الله"

غـرزت فيـردا أظفارهـا فـي وجههـا مـن شـدّة توتّرهـا. كان حزنها يضاهي غضبهـا. لكنّها لم تشـأ الابتعاد عن الشاشـة ولـو لثانيتين للذهاب إلى غرفة أمّها. لـم تسـتطع إبعاد نظرها عن تلك الطائـرة ولو لثانية واحدة. وفي تلك اللحظة، انقسـمت الشاشة إلى قسـمين، وظهر المذيع في الجزء الأيمن. أخيـراً، تمكّنوا من الحصول على معلومات من السـلطات الجوّية التركية. استناداً إلى المعطيات السـابقة، لم تفتح العجلات الأمامية لطائرة البوينـغ 737، والمطار يحـاول تأمين مدرج مـن أجل هبوط طـارئ. لكنّ المعلومات الجديدة أفادت أنّ اثنتين من عجلات الطائرة، العجلة الأمامية والعجلة اليمنى قد فُتحتا، وأنّ الطيّارين سـيهبطون بالاعتماد عليهما، وقد اتُّخـذت الاحتياطات اللازمـة وتمّ تجهيز الإسـعافات الأوّلية. كان سـبب دوران الطائـرة في الجو لمدّة سـاعة هـو تأميـن المنطقة وترتيـب الحركة الجوّية بأكملها على هذا الأسـاس. كان ثمّة خبير جوّي، وطيّار سـابق في القوّات الجويـة، يتكلّم عن مدى صعوبـة هذا الهبوط. فـإن أرادوا الهبوط على العجلات الخلفية فقط، فسـيكون هذا صعباً جدّاً. لكنّ الهبوط الذي يعتمد فقـط على عجلـة أمامية وأخرى جانبية من شـأنه أن يسـبّب أيّ نوع من الحوادث لأنّه قد يـؤدّي إلى اختلال توازن الطائـرة. وللرياح دور كبير أيضاً.

بدأت فيـردا تنتحـب. كان جيم قـد غرق فـي الصمت، ولم يسـتطع إيجـاد شـيء يقوله. بـذل جهده للسـيطرة علـى أحاسيسـه إلى حـدّ أنّه لم يعرف كيف يهدّئ من روع أمّه. فيما ذهـب سنان إلى المطبخ لوضع قرص دواء آخر تحت لسـانه محاولاً أن يخفي شـحوب وجهه الذي يزداد شـيئاً فشيئاً. وفي أثناء عودته إلى غرفة الجلوس حاملاً كوب مياه بيده، مرّ لرؤية حماته. حاولت السـيّدة نسـيبة أن تمسـح الدموع التي تسـيل على خدّيها. تابع سنان طريقه وأعطى فيردا الماء. قال: "لا تقلقي، سيتمكّنون من إنزال هذه الطائرة. تماسكي. أظنّ أنّ علينا الذهاب إلى المطار"

ومـع أنّ فيـردا فكّرت أنّـه كان يجـدر بهم الذهـاب إلى المطـار منذ البدايـة، إلاّ أنّهـا لـم تسـتطع الابتعـاد عـن التلفاز. كانـت تريد رؤيـة ابنتها بعينيهـا علـى الأرض سـالمة ومعافـاة. قالت عبـر الهاتف: "جيـم، اذهب لإحضار أختك. لا أسـتطيع الذهـاب إلى أيّ مـكان، ولا يمكنني إرسـال أبيك أيضاً" كان جيم قد تناول مفاتيح سـيّارته، ثم أغلق الهاتف طالباً من أمّه مرّة أخرى أن تبقى هادئة.

انتقلت فيردا مـن المكان الـذي كانت تجلس فيـه وذهبت للجلوس علـى الأرض أمـام التلفـاز. شـعرت أنّهـا كلّمـا اقتربت مـن الشاشـة كان لدعواتهـا مفعول أكبر. أظهرت الكاميرات سـيّارات الإسـعاف وسـيّارات الإطفاء المنتظـرة جانبـاً. وعندما سُـلّطت الأضواء علـى الطائـرة مجدّداً، رأوا أنّهـا تركت الدائـرة التي كانت تـدور فيها وبـدأت تطير بعيـداً. قرّبت الكاميـرات الصورة لفهم مـا يجري. قامـت الطائرة بدورة على شـكل U، وجنحـت إلى اليسـار ثـمّ بـدأت تتّجه نحـو الكاميـرات، وأصبحـت الآن مواجهة لها. ومع اقترابها من الشاشـة، تولّت كاميرا أخرى تصوير المشهد جانبيّاً. تحـدّث المذيـع عن هذه الحـركات الصغيـرة، ثمّ التـزم الصمت، وشـاهد ما يجري مـع ملايين الناس الجالسـين أمـام شاشـات التلفاز. مع بدء الطائـرة بالهبوط، أعطى طيّـار القـوّات الجوّية السـابق تعليقه الأخير: "ما من شـيء آخر يمكن فعله الآن. لنصلِّ جميعاً". فُتحت عجلتا الهبوط؛ واحدة فـي المقدّمـة، وأخـرى إلـى اليميـن. وعندمـا اقتربت الطائـرة من المدرج كثيراً، حبست فيردا أنفاسها. لمسـت الطائرةَ على الشاشة للحظة، ثمّ أبعدت يدها. عندما لامسـت العجلتان الأرض، أوشـك الجناح الأيسر على الارتطـام بالأرض هـو أيضاً. لا بـدّ أنّ هذه هي مسـألة التـوازن التي تحدّث عنها الخبير. وفي اللحظـة التي فهم فيها القبطـان أنّه لن ينجح في ذلك، رفع مقدّمة الطائرة مجـدّداً، فقفزت على العجلتيـن بضع مرّات قبل أن تنطلق. شعرت فيردا بالرعب لأنّها كانت تتأمّل حتّى تلك اللحظة، ولم

تعرف مدى خطورة الوضع. استأنف الخبير كلامه، وقال للمشاهدين إنّ الطيّار سيقوم بدورة أخرى ثمّ سيحاول مجدّداً. قال: "هذه هي الصعوبة التي كنت أتحدّث عنها. فإن حدث احتكاك للجناح الأيسر بالأرض، من شأن ذلك أن يؤدّي إلى اندلاع حريق ويسبّب ضرراً كبيراً، وقد يُفقِد الطائرة توازنها، ويؤدّي إلى انقلابها" أخيراً أدرك المذيع في تلك اللحظة أنّ أُسر الركّاب تشاهد ما يجري على الأرجح، وحذّر الخبير من التسبّب بأيّ ذعر. كانت فيردا أساساً على وشك أن تفقد عقلها. أمّا سنان، فأخذ يروح ويجيء بين النافذة وباب الشرفة. كان كلّ منهم قد نسي الآخرين حوله. بدأت الكاميرات تتابع الطائرة عن كثب وهي تتوجّه نحو المدرج من جديد. أخذت فيردا تتأرجح إلى الأمام والخلف وهي جالسة، متعلّقة بآخر حبال الأمل. لامست العجلتان الأرض. وبما أنّ الطيّار أمال الطائرة هذه المرّة إلى اليمين قليلاً قبل الهبوط، لم يقترب الجناح الأيسر من الأرض كما حصل في المرّة السابقة، إلاّ أنّ الطائرة تمايلت بعنف. ولكن، عوضاً عن الانطلاق مجدّداً، خفض الطيّار السرعة وحاول إيقاف الطائرة على الرغم من الشرارات التي سبّبها الاحتكاك. تراجعت سيّارات الإطفاء التي تبعت الطائرة على خطّ متواز عندما بدأت هذه الأخيرة اندفاعها. لكن، عندما توقّفت أخيراً على خطّ منحرف على المدرج، انطلقت نحوها أربع سيّارات إطفاء، وبدأت ترشّ المنطقة بالرغوة. وبعد دقيقتين، فُتحت أبواب الطائرة، وخرج جميع الركّاب عبر سلالم الإخلاء. كانت إيلا واحدة منهم. لكن، عوضاً عن الركض مثل الآخرين، التفتت نحو الكاميرات وبدأت تلوّح. لم تكن تعرف ما إذا كانوا سيتعرّفون عليها من هذه المسافة، لكنّها لوّحت لهم مع ذلك والدموع تسيل على خدّيها بينما أضاءت وجهها ابتسامة كبيرة. لم تفوّت الكاميرات بالطبع هذه اللحظات. عرفت فيردا ابنتها على الرغم من اللقطة غير الواضحة. وبينما أخذت تبكي وتضحك في آن واحد، سمعت صوت أمّها:

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

"فيردا! أليست تلك التي تلوّح إيلا؟"
"بلى يا ماما"
"مجنونة"

في رحلة العودة بسيّارة شقيقها، أخذت إيلا تفكّر في الطريقة التي ستزفّ بها الخبر إلى أسرتها. كانت قد نسيت الخطاب الذي أعدّته خلال الرحلة في خضمّ كلّ تلك الأحداث. وكان مستوى تركيزها منخفضاً جدّاً في تلك اللحظة. ومع أنّها لم تكن تشعر بخوف كبير، إلاّ أنّها لم تستطع منع جسدها من الارتجاف. شعرت بالسرور لأنّ شقيقها أتى وحده لإيصالها، فهذا يمنحها بعض الوقت. من جهته، اعتقد جيم أنّ الصدمة هي التي جعلت أخته تغرق في الصمت على نحو غير اعتيادي، ولم يستطع أن يعرف بماذا تفكّر.

"دخّني سيجارة إن أردت"
"لماذا؟"
"لا أدري، يفترض بها أن تهدّئ أعصابك"
"أنا هادئة، كما أنّها تسبّب لي الغثيان"

شعرت أنّها تسترخي وهي تتكلّم. في كلّ مرّة تأتي فيها إلى تركيا، تدرك الضغط الذي يسبّبه لها عدم التحدّث بلغتها الأمّ. فالناس لا يستطيعون الجدال كثيراً بلغات أخرى إن لم تكن لغتهم الأصلية. ولا يمكنهم معارضة الأشياء التي يعارضونها عادة، ولا يمكنهم أن يحبّوا أو يظهروا التعاطف بما فيه الكفاية، حتّى إنّهم لا يستطيعون أن يشتموا من قلبهم. اعتادت مؤخّراً على التحدّث من دون استخدام صفات التحبّب. فمجرّد إضافة الأحرف cim – أو cum إلى الأسماء بالتركية يُظهر للناس

كم هـم محبوبـون. وكان عجزها عـن مناداة الرجـل الذي تحبّـه على هذا النحو يسـبّب لهـا الألم. ومـن الكلمـات الأخرى التـي تحبّها كثيـراً كلمة "أخـي" ففـي بلدهـا لا ينـادي النـاس أشـقّاءهم وشـقيقاتهم الأكبر سـنّاً بأسـمائهم بل بكلمتَي "أخي" و"أختي" أشـفقت على الفرنسيين الذين لا يعرفون مدى حميميّة ذلك الإحساس. هل يمكنهم حقّاً أن يكونوا مقرّبين بما فيه الكفاية من دون وجود تلك الكلمات في حياتهم؟

"كيف حال جدّتي؟"

"ليست بخير. أتمنّى ألاّ تُفقد أمّي عقلها قبل أن تموت"

"هل الأمر بهذا السوء؟"

"منـذ يومين أتت إحـدى جارات أمّـي لزيارتهـا. قالت إنّهـا تريد أن تسـلّم على جدّتـي. فبـدأت العجـوز المجنونة تصـرخ. وقالت لهـا: أيّتها الفاسـقة، ألا تخجلين من أن تكوني عشـيقة رجل متزوّج؟ كانـت تظنّ أنّ جدّي يخونها مع الجارة. ثـمّ راحت تعطي تفاصيل أيضـاً. فوصفت كيف رأتهما بالجرم المشـهود في السـرير، وكيف تتكلّم بلطـف زائد مع جدّي، وتبعث له الرسـائل لإغرائـه. قالت إنّه يدفع لهـا المال، لا بل اسـتأجر لها الشقّة أيضاً. فرحلت الجارة بسـرعة؛ حتّى إنّ أمّي لم ترها. لكنّ هذا الأمر أراح أمّي بعض الشيء. فبرأيها، سيفهمون على الأقلّ أنّ الجدّة تختلق كلّ تلك القصص. فكما تعلمين، لقـد أخبرت الجميع أنّ أبـي يجبر أمّي على ارتكاب الفاحشة"

"لطالما كانت مجنونة. لكن، هل تلاحظ أنّ كلّ تخيّلاتها قذرة؟"

"أجل، يبـدو أنّ عقلهـا حافل بهذه الأمـور؛ دعارة، سـرقة، قتل، كلّ شـيء. إنّها نسـختنا عن أغاتا كريسـتي. طلبـت من أمّـي ألاّ تكتـرث وألاّ تصغي إليها"

"أجل، الكلام سـهل. لقد رمت بقدر كاملة من الأشوري لأنّ جدّتي

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

قالت إنّه ليس جيّداً. أتعرف؟ انس ما قلته. كلّ امرأة تصبح مثل أمّها في النهاية"

"أنت لست مثل ماما"

"الأمّهات قنابل موقوتة داخل بناتهنّ. سينفجرن عاجلاً أم آجلاً"

"ها ها ها"

"ربّاه، هذا الحيّ يبدو مريعاً"

"حسناً، أنت لست في باريس

عندما رأت فيردا ابنتها عند الباب، انفجرت باكية من جديد. لم تستطع إيلا أن تتفاعل معها كثيراً لأنّها لن تفهم مدى خطورة الحادثة إلاّ عندما تشاهد الهبوط عدّة مرّات على التلفاز. الشيء الوحيد الذي عرفته هو أنّها لن تجد وقتاً أفضل لقول ما أتت من أجله. فالجميع سعداء برؤيتها حيّة، حيث إنّهم لن يأبهوا بشيء آخر. كانت طاولة العشاء في غرفة الجلوس والطاولة التي تفصل بين المطبخ وغرفة الجلوس مليئتين بكلّ ألوان الأطعمة. وقبل أن تخلع معطفها، وضعت إحدى أوراق العنب في فمها، تبعتها قطعة برك. كانت فيردا سعيدة لأنّ ابنتها لم تفقد شهيّتها. في الواقع، بدت أكثر حبّاً للطعام من ذي قبل، لأنّها قضت على قطعة أخرى من البرك قبل أن تنهي الأولى. بدأت السيّدة نسيبة تنتحب حالما ظهرت حفيدتها عند باب غرفتها. قالت لها إنّها خافت جدّاً، وحزنت جدّاً، وإنّها لا تريدها أن تعود إلى فرنسا. أرادت منها أن تبقى معهم، وأن تعتني بجدّتها. ألم تعدها وهي صغيرة أنّها ستعتني بها. جلست إيلا على الأرض، بجانب سرير جدّتها، وأصغت إلى كلّ تفصيل عن كلّ الأوجاع التي ألمت بجسدها بصبر، وهي تأكل الطعام من طبق أعطتها إيّاه أمّها. كلّ أفراد الأسرة الآخرين أتوا إلى الغرفة الصغيرة أيضاً، ومن لم يجد مكاناً وقف أمام باب الغرفة. كانت ناز هي التي لم تستطع الانتظار،

وسـألتها في النهاية: "أخبرينـا يا عمّتي، مـاذا حدث في الطائـرة؟" بدأت إيلا تروي لهم ما جـرى منذ البدايـة. وعندما أخبرتهم عـن التصفيق الذي علا لحظـة توقّف الطائـرة أخيـراً، أخذ الولـدان يصفّقـان بحماسـة أيضاً. انتقلوا إلى غرفة الجلوس ليبدأوا بتناول العشـاء، فشـعرت إيـلا أنّ الوقت قد حـان. كانـت تسـتطيع الانتظار حتّـى اليـوم التالـي، لكن مـن الأفضل التكلّم بوجود الجميع وفي جوّ من البهجة. عندما أوشك والدها على ملء الكوب الموضوع أمامها بالشـراب، وضعت إيلا يدها عليه. نظر سنان إلى ابنته متفاجئاً، إذ لم يسبق لها أن رفضت الشراب من قبل. تكلّمت إيلا بنبرة أعلى بعض الشـيء للفت انتباه الجميع: "أفضّل عدم تناول الشراب، بابا" ثمّ تابعت بتـردّد: "لأنّني..." عرفت فيردا السـبب. عرفـت ذلك منذ لحظة دخول ابنتهـا، وتناولها أوّل حبة مـن ورق العنب. عرفت مـن تألّق وجهها على الرغـم ممّا مـرّت بـه. كانت واثقـة. ومـع أنّهـا تمنّت عدم سـماع ما توقّعته، إلاّ أنّها كانت واثقة ممّا ستكون جملتها التالية. دعت لكي يتحمّل قلب سـنان ضربة أخرى بعد الإثارة التي مرّ بها في ذلـك النهار، وانتظرت حتّى تتمّ ابنتها الجملة.

قحّت إيـلا، ثـمّ تابعت: "لأنّنـي حامـل" وعندمـا أدركـت أنّ أباها وحده الذي تفاجـأ، التفتت إليه وقالت: "إنّني على علاقة بشـابّ منذ عام. اسـمه دوفال، وكنّا نفكّـر بعلاقة جدّيـة. في الواقـع، كنت أنـوي إحضاره لتتعرّفوا عليه، لكنّني اكتشـفت أنّني حامل. نريد الزواج على الفور، بالطبع بعد أن تتعرّفـوا عليه" عندما لم يبـد أحد أيّ ردّ فعل، تابعـت بقلق: "كان ينوي المجيء معي، لكنّني رأيت أنّه يتوجـب عليّ إخباركم بمفردي. لهذا السـبب لم يأت هذه المرّة" هذا الخبر، الذي كان ينبغي أن يتلقّاه الجميع بسـرور في ظروف عاديـة، أغـرق طاولة العشـاء بالصمت. انتظـر الجميع لرؤية ما سيكون عليه ردّ فعل سنان. عرف سنان أنّ ابنته ستتزوّج من رجل فرنسـي، ولم يكن يعارض ذلك. لكـنّ ذلك لا يعنـي أنّه لم يفكّـر قطّ في

ما سيفعله مع صهر لا يستطيع أن يتكلّم معه، أو يلعب معه الطاولة، أو يجلس معه لساعات. أمّا بشأن الحمل، فليس بيده حيلة، أليس كذلك؟ لا يهمّ إذا كان غاضباً أم لا، فابنته حامل. من الجيّد أنّ ابنته تعيش في فرنسا في ظلّ هذه الظروف، لأنهم لن يحتاجوا إلى شرح شيء لأيّ كان. هذا بالطبع إن تزوّجا على الفور. وبعدما استجمع هذه الأفكار، سألها: "متى ستتزوّجان بالضبط؟" هدوء صوته فاجأ الجميع. ومع أنّ إيلا صُدمت لأنّ أحداً لم يهنّئها بعد، إلاّ أنّها قرّرت التفكير بخيبتها في وقت آخر نظراً إلى أنّ الأمور تجري على نحو أفضل ممّا توقّعت.

"على الفور"

"أين؟"

"حسناً، أظنّ أنّه لا يهمّ إذا تزوّجنا هنا أو هناك. سنتزوّج في البلدية. لا نريد إقامة احتفال كبير

قاطعتها فيردا وهي تصرخ تقريباً: "هذا غير ممكن! ليس لديّ سوى ابنة واحدة، وأريد رؤيتها في فستان الزفاف. لماذا يجب أن نشعر بالإحراج؟" لم تستطع إيلا مقاومة الابتسامة الكبيرة التي ارتسمت على وجهها. وعندما رأت فيردا ابنتها تبتسم هكذا، لم تستطع مقاومة دموعها مجدّداً، ووقفت لاحتضانها. كسر جيم الصمت الذي طال كثيراً، ومدّ يده حاملاً كأس الشراب إلى وسط الطاولة: "بصحّة أخي الجديد دوفال والحفيد الجديد إذاً". وبينما شربوا جميعاً الأنخاب، سمعوا صوت السيّدة نسيبة الآتي من الداخل: "ماذا يجري هناك؟ من الأخ الجديد والحفيد الجديد؟"

8

في كلّ مرّة يهبط فيها وسط السوفليه، تشبّهه ليليا بحياتها. فمهما حاولت، تهبط معنوياتها فجأة وتنهار حياتها. لم تكن أفراحها وأتراحها تختلف كثيراً عن هذه التحلية الأسطورية. فكلّما شعرت بشيء من السعادة، يطرق الحزن بابها. وكلّما أحسّت أنّها لم تعد قادرة على الاستمرار، تستمدّ قوّة جديدة لا تعرف مصدرها. فحدث واحد قد يولّد لديها الكثير من الأحاسيس المختلفة في اليوم نفسه. كانت تشفق على آرني حيناً، وتكرهه حيناً آخر. وتلهمها نظرة من فلافيو، ثمّ تسقط في يأس تامّ. تفكّر حيناً أنّ حياتها لا تختلف عن حياة الآخرين، ثمّ تجدها في أحيان أخرى الحياةَ الأكثر مأساوية.

ومع أنّها أصبحت تتقن تقريباً عدم الوفاء بوعودها لنفسها، إلاّ أنّها اتّصلت بمحاميهما في اليوم التالي لإحضار آرني إلى المنزل، وحدّدت معه موعداً للتحدّث في مسألة بالغة الأهمّية. وعندما ذهبت إلى مانهاتن بعد يومين، كانت بحال أفضل من زيارتها السابقة. فقد سرّحت شعرها بعناية، وكوت ملابسها، ولم تنس وضع قرطي اللؤلؤ. نظرت إلى نفسها في واجهة رايت آيد في غران سنترال عندما ترجّلت من القطار، وتابعت طريقها عندما اقتنعت أنّه لا بأس بمظهرها. كان مكتب المحامي يقع في الطابق الثاني والعشرين من مبنى شاهق عند تقاطع الشارع الثامن والعشرين وجادة بارك أفينيو ساوث. بدا كلّ شيء صناعيّاً جدّاً، وكانت ملابس الموظّفين رسمية للغاية، كما تحدّثت موظّفة الاستقبال بشيء من الفظاظة. لم تكن قد أتت إلى هذا المكان منذ الأيّام التي كانت تأتي فيها

بصحبة آرني قبل سنوات. وكانت تكتفي بتوقيع الأوراق التي يحضرها آرني إلى المنزل كلّما احتاج الأمر إلى توقيعها، وتسَرّ لأنّها ليست مضطرّة إلى الذهاب إلى المدينة. فالوكالة التي منحت آرني إياها سهّلت حياتها من دون الحاجة إلى الاهتمام بالتفاصيل. في الواقع، عرفت ليليا أنّها لم تكن ستذهب لرؤية المحامي لو لم يعطوها موعداً قريباً، فقد كان غضبها سيتلاشى مع الوقت. لهذا السبب، أخذت تصارع مشاعرها وهي تنتظر على الهاتف حتّى أعطتها السكرتيرة موعداً. فقد كانت، من جهة، تأمل الحصول على موعد قريب، بينما تمنّت من جهة أخرى أن يكون الموعد أبعد.

فكّرت أنّها أحسنت صنعاً فعلاً وهي تتصفّح إحدى المجلاّت التي تناولتها من بين المجلاّت المصفوفة على شكل مروحة على الطاولة المنخفضة. لا بدّ أنّه أفضل قرار اتخذته، لأنّ ابنها وابنتها لم يتّصلا للاعتذار في ما بعد. وسبب امتناعهما عن الاتّصال هو معرفتهما الجيّدة بليليا. فقد اتّصل جيانغ بشقيقته على الفور بعدما أنهى المكالمة مع ليليا، وأخبرها عن الحديث الذي دار بينهما مستخدماً كلماتها، ثمّ استشار دونغ التي كانت تتمتّع ببرودة أعصاب أكثر منه وتعالج المواضيع دائماً من مسافة مناسبة. ابتسمت دونغ وسألت أخاها: "هل تصدّق حقّاً أنّ ليليا لن تتحدّث إلينا بعد الآن؟ ستنسى ما حدث وما جعلها تغضب بعد يومين. بالإضافة إلى ذلك، ليس لديها شيء آخر في حياتها. من لديها غيرنا؟ يجب أن تكون مسرورة لأنّنا نزورها مرّة في العام" لكنّ ما شغل بال جيانغ كان أمراً مختلفاً. لم يكن يعرف ما إذا كانت أخته تحتاج إلى المال الذي يرسله آرني وليليا كثيراً، إلاّ أنّه كان دائماً يجد شيكاً في صندوق بريده كلّما احتاج إلى المساعدة. وكان قلقاً من أن يتوقّف ذلك مع مرض آرني. فكلّما شعر بالضغط وهو يفكّر في مسؤوليّاته، وفي المنزل، وفي السيّارتين، وفي القروض التي أخذها ليعيش الحياة التي أسّسها لأسرته،

تريحه فكرة أنه سيرث في المستقبل بعض المال من ليليا وآرني. طرح هذه المسألة بشيء من التردّد: "ماذا لو قاما بحرماننا من الميراث؟" ضحكت دونغ من هذه الفكرة أيضاً: "جيانغ، أنت تأخذ ليليا على محمل الجدّ كثيراً. أوّلاً، ليليا كسولة جدّاً إلى حدّ أنّها لا تستطيع الاهتمام بهذه الأمور. وثانياً، آرني لن يسمح لها أبداً بذلك" فكّر جيانغ أنّ شقيقته محقّة كالعادة. فمن المستحيل أن تتصرّف ليليا على أساس حديثهما القصير. بالإضافة إلى ذلك، إنها لا تستطيع فعل شيء ما لم يعطها آرني الإذن. وعندما يموت، سيقسّم كلّ شيء إلى ثلاث حصص. ومع أنّ جيانغ لم يكن يعتقد أنّ آرني وليليا قاما بتبنّيهما للحصول على مال من الحكومة كما تظنّ دونغ، إلاّ أنّ هذا الموضوع بُحث مرّات عديدة وبقناعة كبيرة إلى حدّ أنّه صدّقه هو نفسه في النهاية. لهذا السبب، كان يشحذ غضبه نحو الزوجين في كلّ مرّة تقول فيها دونغ: "لقد احتفظا بالمال الذي كسباه من ورائنا في حسابهما المصرفي بالإضافة إلى ذلك، لو لم تكن تلك المزاعم صحيحة، هل كانا سيبديان مثل هذا التسامح؟ وهل كانا سيواصلان إرسال المال إليهما؟

كانت ليليا قد انتهت للتوّ من قراءة خبر طلاق زوجين شهيرَين في مجلّة يو إس ويكلي، عندما أتى المحامي لتحيّتها. فوجئت كم حافظ هذا الرجل على شبابه على الرغم من كلّ تلك السنوات. لم يكن أثر الأعوام العشرين الماضية يظهر على وجه بينجامين. وحده الشعر الذي يعلو أذنيه أصبح رمادياً بعض الشيء، كما اتّسع جبينه. بخلاف ذلك، من الواضح أنّه اتّبع غذاءً صحّياً، ومارس الرياضة بانتظام. أمّا بينجامين من جهته، فقد صُدم لدى رؤيته آثار الشيخوخة واضحة على هذه المرأة التي أسرت الجميع بجمالها الغريب في الماضي. فقد بدت مثل أولئك النساء اللواتي يتركن أنفسهنّ لمجرى الحياة خارج المدينة. كان واثقاً أنّها رتّبت هندامها

قبل مجيئها إلى مانهاتن، لكنّها فقدت الثقة التي كانت تمتاز بها في شبابها.

لم يكن المحامي يعرف شيئاً عن الأشهر الخمسة الفائتة. ولم يعرف أنّ آرنـي عانى من عدّة حـالات نزيف، ونُقل إلى المستشـفى عـدّة مرّات، ويعيش حياة محدودة جدّاً، وأنّ ليليا ترعاه. أصغى بينجامين إلى كلّ ذلك بحزن صادق. ومع أنّه لم يؤيّد دائماً القرار الذي اتّخذه آرني وليليا، إلاّ أنّه احترم شـجاعتهما دائماً. فقد كانا أوّل من اتّبعا حمّى التبنّي. واسـتناداً إلى سـجلاّته، يملك الزوجان منزلين، تبلـغ قيمتهما الإجمالية خمسـمئة ألف دولار. وقد حافظا علـى مدّخراتهما البالغة اثني عشـر ألـف دولار بفضل راتب آرني الشـهري البالغ سـتّة آلاف. كبر ولداهما ولم يعودا بحاجة إلى دعمهما. لكن بالطبـع، لم يعد الوضـع كذلك اسـتناداً إلى ما ترويـه ليليا. فقد أُنفقـت المدّخرات بالكامـل لتغطية نفقات المستشـفى. وراتب تقاعد آرني لا يتجاوز نصف ما كان يتقاضاه من قبـل، ومعظمه يُنفق على العلاج الفيزيائي الذي يتلقّاه ثلاث مرّات في الأسـبوع. وكان موعد تسديد ضريبة الأملاك وشـيكاً، ولا تعـرف ليليا كيف سـيتدبّران أمرها بعد. كانـا قد قاما بتأجير خمس غرف في منزلهمـا، وهما يحصلان علـى أربعمئة دولار من كلّ منها، وهي معفيّة مـن الضرائب. يؤمّن لهما تأجيـر الغرف ألفي دولار في الشـهر، لكـنّ معظم ذلـك المال يُنفـق على لـوازم الطهـي وغيرها من الحاجات. وقبل أن يذكر بينجامين أنّهما يحتاجان إلى محاسب عوضاً عن خدماته، شرحت له ليليا سـبب وجودها هناك. فقد أرادت حرمان الولدين اللذين قاما بتبنّيهما من وصيّتهما. فهي لا تريد أن يحصلا على قرش واحد بعد وفاتهما.

اسـتند بينجامين على ظهر كرسـيّه وشبك سـاقيه. جمع سـبّابتيه معاً وقرّبهما من شـفتيه. لـم يعرف مـا إذا كان ينبغـي أن يكون مسـروراً لرؤية توقّعاته تتحقّق. لكن قبل كلّ شـيء، كان يفكّر في كيفيّة شرح الوضع لهذه المرأة من دون أن يتسبّب في إيذائها أكثر.

"ليليا، أنا أتفهّم قلقك جدّاً، لكنّنا بحاجة إلى معرفة رأي آرني بذلك أوّلاً وقبل كلّ شيء. فما رأيه؟"

"أعتقد أنّك تعرف آرني إلى حدّ ما، فهو لا يرى المشكلة. ويعتقد أنّه من الطبيعي أن يأتيا لزيارتنا مرّة في العام، وألاّ يتّصلا أبداً، وأن يؤذياني ويلوماني كلّما سنحت لهما الفرصة، لكنه لا يدري ما يجري منذ أن مرض. نحن لا نحصل على أيّ دعم من هذين الولدَين اللذين اعتبرناهما بمثابة ولدينا. لا تخطئ في فهمي، أنا لا أتحدّث عن الدعم المالي"

شعرت ليليا أنّ عليها إخباره بآخر حديث جرى مع ابنها.

"آرني لا يعرف بهذا الحديث، كما أنّه ليس في وضع يسمح له بالإصغاء إليه أو بفهمه في الوقت الحالي على أيّ حال. لكنّني واثقة أنّ ردّ فعله سيكون مختلفاً عن ردّ فعلي لو عرف. فهو يعتقد أنّ الناس يملك كل منهم حياة منفصلة، وأنّه لا ينبغي لأحد فعل معروف مع الآخرين. لكنّه يتجاهل نقطة هامّة. فأنا في الثالثة والستّين من عمري، وأنا من تقوم بكلّ شيء. أعرف أنّ آرني لن يوافق على حرمانهما من وصيّتنا، لكنّني لا أرغب في إعطائهما حصّتي على الأقلّ"

"ماذا تعنين بحصّتك؟"

"حصّتي. بما أنّنا نتشارك في الأملاك، فأنا لا أريدهما أن يحصلا على حصّتي منها"

"ليليا، أنت لا تشاركين في الأملاك"

"ماذا تعني؟"

"إنّ منزليكما والمال الموجود في المصرف - والذي أنفقتماه أساساً - يخصّ آرني. وإستناداً إلى العقد الموقّع من قبلك، أنت لا تحصلين على شيء مثلاً في حالة الطلاق. وفي حالة وفاة آرني،

ستتشاركون أنتم الثلاثة كلّ شيء"

"استناداً إلى العقد الذي وقّعتُه؟"

"أجل"

"متى؟"

دقيقة واحدة"

قلّب بينجامين بعض الصفحات الموجودة في ملفّ أمامه، ثمّ قال:

"منذ ثلاثة عشر عاماً"

"أيّ عقد؟ أنا لا أذكر شيئاً كهذا. كنت أوقّع بعض الأوراق من وقت إلى آخر، لكنّني لا أذكر شيئاً كهذا"

نظر بينجامين إلى ليليا بحزن، وفوجئ مرّة أخرى كم بدت كبيرة في السنّ.

واجهت ليليا وقتاً عصيباً في طريق عودتها إلى محطّة القطار. فقد أعمتها أشعّة الشمس وشوّشت تفكيرها. مرّ زمن طويل منذ أن رأت وجه مانهاتن المشرق آخر مرّة. فكلّما سطعت الشمس هكذا، بدت عيوب المدينة أكثر وضوحاً.

عندما وصلت إلى غران سنترال، اشترت فنجان قهوة من ستار بكس، وغرقت في أحد المقاعد الجلدية في الطابق السفلي عوضاً عن أن تستقلّ أوّل قطار للعودة إلى البيت. عرفت أنّ عليها العودة بأسرع ما يمكن، إذ لا ينبغي ترك آرني بمفرده مدّة أطول. آرني الذي لم يتورّع عن سلبها كلّ ما كانت تملكه. لماذا وضع خطّة كهذه ومتى؟ قال المحامي إنّ كلّ ما كان آرني سيرثه من أمّه موجود في ذلك الاتّفاق أيضاً. كانت دانييلا

نايد البالغة من العمـر ثمانية وثمانيـن عاماً تعيش في فلوريـدا، ولم تعرف شـيئاً عن حالة ابنها. كلّم آرني أمّه بضع مرّات، واشـتكى من كثرة انشغاله في العمل. لم تكن نايد الأمّ تختلف كثيـراً عن ابنها. فهي لا تعتقد أنّ على آرني الذهـاب لزيارتها. وفـي الأوقـات التي يتقابـلان فيها مرّة فـي العام، أو ربّما مـرّة كلّ عامين، كانـا يحتضنان بعضهمـا من دون لهفـة، ويطبعان قبلات في الهواء عـادة من فوق أكتافهمـا، عوضاً عن خدودهمـا. ومع أنّ ليليا وجدت هذه العاطفـة غريبة، إلاّ أنّها اعتادت عليهـا مع الوقت. كانت دانييلا نايد ستترك لابنها منزلاً وبعض المال في المصرف، وأصبحت ليليا تعـرف الآن أنّها لن تملك حصّـة فيهما. فكّـرت بكلّ تلـك البطاقات التي أرسـلتها إلى حماتها في المناسـبات كلّ عام. فقد ظنّت أنّ آرني كان يقدّر ذلك الجهـد. لا بدّ أنّها كانـت مخطئة فـي كلّ ما عرفته عـن زوجها. ومع أنّها أدركت أنّ الأمر مستحيل، إلاّ أنّها حاولت أن تتذكّر اليوم الذي وقّعت فيه على تلك الأوراق قبل ثلاثة عشـر عاماً. فقد أعطاهـا المحامي التاريخ بدقّة؛ التاسـع من أيلـول. كانت دونغ في السادسـة والعشـرين وجيانغ في السـابعة والعشـرين منذ ثلاثة عشـر عاماً. وكانا قد غادرا المنزل منذ وقت طويل بعد أن أنهيا الدراسـة الجامعية وبدآ بالعمل. وعندما أجبرت نفسـها أكثـر علـى التذكّـر، أدركـت أنّ ذلك حـدث فـي الفتـرة التي سـاءت فيها علاقتهمـا بدونـغ، ولامتهمـا دونغ علـى ما جرى معهـا. هل مـن الممكن أن يكـون ذلك قد حـدث بعد يـوم الشـكر ذاك؟ أخذت رشـفة أخرى من قهوتها، وضاقت عيناها وكأنّ ذلك يساعدها على التركيز أكثر. هل وقّعت الأوراق فـي ذلـك العـام؟ كان جيانـغ قد التقـى زوجتـه بعد يوم الشـكر، وتزوّجا في الصيف التالي. فبعدما حرّرت ليليا شـيكاً سخياً للمساهمة في حفل الزفاف الكبيـر، تذكّرت ما قاله الولدان، وأخبرت آرني أنّها لا تشـعر برغبة حقيقية في إعطائه أيّ مال. تذكّرت ذلك النهار جيّداً لأنّ ألـم الأشهر السابقة لم يكن قد فارقها بعد.

جعلها آرني توقّع على الأوراق في أيلول من عام 1995. لا تذكر ليليا النهار الذي وقّعت فيه، ولا ما قاله آرني، ولا سبب عدم قراءتها الأوراق، لكنّها تفهم الآن سبب ما فعله آرني. لا بدّ أنّه فكّر في أنّ هذا هو الشيء الأخلاقي. فقد افترض على الأرجح أنّ زوجته لن تعطي الأولاد شيئاً إن مات أوّلاً، وأراد أن يضمن تقسيم كلّ أملاكه بين الثلاثة في تلك الحالة. ومع أنّها حاولت جاهدة، إلاّ أنّها لم تستطع أن تتذكّر كيف منعها من قراءة الأوراق. في الواقع، لم تكن ليليا مولعة بقراءة الأوراق التي توضع أمامها. والثقة بزوجها كانت أمراً طبيعياً بالنسبة إليها. فذلك يلائم على الأقلّ فكرتها عن الزواج.

هل يدرك آرني الموقف الذي وضعها فيه؟ إن مات الآن فسيرث الأخوان ثلثي المنزلين. وفي حال أرادا بيعهما، لن تجد ليليا مكاناً تعيش فيه. سيكون لديها بعض المال، ولكن إلى متى؟ لن تتجاوز حصّتها مئة ألف دولار بعد حسم الضرائب، هذا في أحسن الأحوال. وسيترتّب عليها ضمان كلّ حياتها بذلك المال. عليها إيجاد مكان تعيش فيه، وتغطية نفقاتها، ومتابعة حياتها بذلك المبلغ. من الأفضل لها أن تتخلّى عن مخطّطات السفر في الأعوام القادمة. وستكون محظوظة إن لم تمت في الشارع.

تناولت رشفة أخيرة من قهوتها التي بردت، ثمّ نهضت. صعدت إلى الطابق العلوي، واشترت تذكرة في القطار المنطلق بعد عشر دقائق. وجدت لنفسها مقعداً بجانب النافذة، وعادت لتغرق في أفكارها. كانت تحتاج إلى اتّخاذ قرار حيال ما ستفعله بسرعة. هل سترعى آرني وتُترك مع مبلغ صغير من المال لن يعوّض عند وفاته الجهد الذي بذلته حتّى الآن؟ أم ستوقف العلاج الفيزيائي وتحتفظ بذلك المال لنفسها. فكّرت للمرّة الأولى في الطلاق، وتمنّت لو أنّها تستطيع تركه ببساطة. إن تمكّن من التخلّي عنها بعد كلّ هذه السنوات من الزواج، فلماذا لا تعامله بالمثل؟

لم تحتج إلى وقت طويل لإيجاد الجواب: لأنّها لا تستطيع. لقد وقّعت بيدها على ذلك العقد الذي ينصّ على أن تخرج خالية الوفاض في حال حدوث طلاق.

فكّرت بالعودة إلى الفيليبين للمرّة الأولى منذ سنوات. ربّما كان أفضل ما في الهجرة هو القدرة على العودة إلى الوطن عندما لا تسير الأمور على ما يرام. عرفت أنّ المال الذي ستحصل عليه في حال وفاة آرني سيكفيها هناك. يمكنها شراء منزل صغير وجميل مع حديقة في القرية التي ولدت فيها، والعيش بسعادة واستخدام شخص لمساعدتها حتّى وفاتها. ولن يقول أحد إنّها فشلت في أميركا. ولن يقولوا إنّها لم تستطع البقاء، وعادت. لقد تجاوزت أساساً تلك النقطة. حتّى إنّها قد لا تجد الأشخاص الذين عرفتهم في الماضي عندما تعود. في هذه الحالة، يمكنها أن تبدأ حياة جديدة. تذكّرت جملة من كتاب قرأته مرّة: "يستطيع المرء أن يبدأ أشياء كثيرة مع شخص جديد؛ وأن يبدأ كشخص أفضل"

عندما عادت ليليا إلى المنزل وجدت آرني نائماً مجدّداً. ربّما لم يدرك أنّها غادرت المنزل أيضاً. ومع أنّه حاول التركيز خلال الوقت المحدود الذي صحا فيه، إلاّ أنّه لم يستطع. أدرك أنّه كان في المستشفى، وأنّهما واجها صعوبة في العودة إلى المنزل، كما لاحظ أنّ زوجته بدّلت شراشفه وملابسه أكثر من مرّة، لكنّه لا يعرف متى بالضبط حدث ذلك ولأيّ مدّة. لاحظ أنّ زوجته صارت أكثر عدوانية. إذ أصبحت تقلبه على جانبه من دون انتباه، وإن سقط رأسه فهي لا تعيده إلى مكانه، وتتمتم بغضب. كان يستطيع نعت ليليا بالكثير من الصفات: كسولة، فوضوية، خرقاء، لكنّه لم يعتقد قطّ أنّها سيّئة. لطالما كانت لطيفة ومتعاطفة مع الناس. فهي تتحاشى المشاكل دائماً، وتعرف كيف تهدّئ شجاراً بين الناس. بقيت مهذّبة معه أيضاً رغم السنوات العديدة التي أمضياها في

المنزل نفسه. أمّا الآن، أصبحت تقلب جسده - الذي يشعر وكأنّه كيس فارغ - من دون اهتمام، ولا تمرّر يدها على خدّه بلطف كما كانت تفعل في الماضي عندما يمرض.

عندما رأته ليليا نائماً تركته بمفرده وهربت إلى غرفتها. لقد امتحنت تلك الإبرة غير المرئية صبرها مجدّداً. ربّما لم تواجه من قبل هذا القدر من الأبواب المغلقة لأنّها لم تبحث قطّ في حياتها عن مخرج في وقت قصير في السابق. لا بدّ أنّها كانت مستسلمة لتيّار الحياة لمدّة طويلة، وتجد الآن صعوبة في تغيير مجرى النهر.

عرفت من الصمت المخيّم على المنزل أنّ لا أحد فيه. ظنّت أنّها وجدت العائلة التي كانت تبحث عنها منذ سنوات عندما انتقل النزلاء إلى منزلهما. كانوا يأكلون معاً، ويتحدّثون عن أيّامهم؛ الأمر الذي مكّن ليليا من نسيان بؤسها. إلاّ أنّ حياتهم تحوّلت إلى روتين، وأصبحت ليليا طاهية موجودة في المنزل دائماً عندما يأتي الآخرون، وتساعد الناس على الدوام. بالطبع، إنهم لا يعرفون كم تمضي من الساعات في المطبخ لكي يأكلوا الطعام الذي يحبّونه واعتادوا عليه. بالنسبة إليهم، كان الطعام جزءاً من الإيجار الذي يدفعونه، وليس وليمة ينتظرونها بفارغ الصبر. وما عادوا يأتون إلى المنزل في وقت العشاء، وكانوا يكتفون بتناوله بسرعة وهم واقفون، حتّى من دون تسخينه. لقد عرفوا المدينة جيّداً وكيفيّة العيش فيها. وأصبحوا يفضّلون الخروج لرؤيتها بأنفسهم عوضاً عن التعرّف إليها من خلال ليليا. في الواقع، ذهبت تخيّلات ليليا إلى حرمان الولدين من وصيّتها وترك بعض المال لأولاً، مع أنّها لا تحتاج إليه، تعبيراً عن تقديرها.

تلاشى اهتمامها بفلافيو ببطء، واختفى أخيراً. بالطبع، لو أنّ الشابّ نظر نحوها بقدر ما ينظر إلى ناتالي، لكان حبّها له قد كبر وازدهر. لكن، ما عليها سوى الإصغاء إلى الأصوات الصادرة من الطابق الثالث لتفهم ما

يجري بينهما. ومع أنّ ليليا أحسّت ببعض الغيرة في البداية، إلاّ أنّ جرح قلبها سرعان ما اندمل.

فهمت أنّ أحد أسباب عدم رغبة النزلاء في البقاء في المنزل كان آرني. كانوا لا يرونه كثيراً، لكنْ لا بدّ أنّ وجود شخص يصارع الموت في منزلهم قد أشعرهم بالكآبة. لم يذكر أحد منهم شيئاً عن ذلك، لكنّ ليليا كانت محقّة في افتراضها. فقد تحدّث فلافيو وناتالي عن ذلك أكثر من مرّة مثلاً. كانا سعيدَين لوجودهما في الطابق الثالث، أبعد ما يكون عن المرض. وقالت ناتالي مرّة إنّها تشمّ رائحة الدواء كلّما دخلت المطبخ. ومع أنّ فلافيو أصرّ على أنّ سبب ذلك نفسيّ، إلاّ أنّه أقرّ هو أيضاً أنّه لا يحبّ المكوث في المطبخ. من جهة أخرى، لم تفهم أولاً لماذا تختار امرأة مثل ليليا البقاء مع رجل فظّ وغير محبّ، بينما شعر كانو بالأسف لأنّ صاحبة المنزل مضطرّة إلى القيام بكلّ شيء بنفسها. لكن، مهما تعاطفوا مع ليليا وتمنّوا لها السعادة، لم يدفعهم ذلك إلى ملازمة المنزل.

مع كلّ ذلك، تمنّت ليليا أن يمكثوا لفترة أطول في الولايات المتّحدة. لم تكن تراهم كثيراً، لكنّها اعتادت على وجودهم. فوقع الخطوات على السلالم أو الأحاديث القصيرة في المطبخ تضفي حياة على منزلها. حتّى إنّها كانت سعيدة لأنّها تستطيع أن تقول "صباح الخير مرّة في اليوم.

بدّلت ملابسها وذهبت إلى المطبخ. شغّلت التلفاز ووضعته على إحدى قنوات الأخبار لكسر الصمت. مع أنّ ستّة أشهر ما زالت تفصلهم عن موعد الانتخابات، إلاّ أنّ جميع المذيعين والمعلّقين كانوا يتحدّثون عنها بحماسة كبيرة. لا يبدو أنّ المنافسة بين باراك أوباما وهيلاري كلينتون ستنتهي، والحماسة الحقيقية ستبدأ بعدما يصبح أحدهما مرشّح الحزب الديمقراطي. وبما أنّ ليليا عرفت أنّهم سيتحدّثون عن الأمور

نفسها غيّرت القناة. كانت إحداهنّ تتّهم شخصاً آخر بخيانتها في أحد تلك المسلسلات الطويلة التي لا تنتهي. يبدو أنّ أولئك الأشخاص لن يتوقّفوا عن البكاء أبداً. وبينما هي تتساءل عمّا إذا كان ثمّة أناس يعيشون مثلها، ضغطت على زرّ جهاز التحكّم مجدّداً. كانت مارتا ستيوارت تتحدّث عن وصفة في مطبخها الأخضر والأصفر، وقد رفعت خصلة من شعرها خلف أذنها كالعادة. لم تخبر ليليا أحداً بذلك قطّ، إلاّ أنّها صمّمت ستائر مطبخها على غرار ستائر مارتا في أحد برامجها. وضعت جهاز التحكّم على الطاولة ودخلت غرفة المؤونة. تحقّقت ممّا لديها وهي تحدّق إلى الثلاّجة. كانت الثلاّجة أثمن الأجهزة الكهربائية في المنزل بالنسبة إليها. وكانت فخورة بملئها بمختلف المنتجات دائماً. تناولت قطعة لحم كبيرة، ثمّ عادت إلى المطبخ ووضعتها على طبق كبير. أدخلتها في الميكرويف بصعوبة، ثمّ اختارت المدّة المخصّصة لإذابة الجليد، وقبل أن تتمكّن من العودة لمتابعة البرنامج التلفزيوني، سمعت صوت آرني. لم يكن قد تحدّث منذ أيّام. كان ينام معظم الوقت، وحين لا يكون نائماً، فهو يعجز عن الاستيقاظ تماماً. في الواقع، كانت ليليا أكثر سعادة هكذا. ففي النهاية، لم يعد لديهما شيء يقولانه لبعضهما حتّى لو كانا يستطيعان. لقد مضى زمن طويل منذ أن تبادلا حديثاً ذا معنى. وبما أنّه يناديها الآن مستخدماً اسمها، فلا بدّ أنّه يشعر بتحسّن. ظلّت في مكانها لبضع دقائق وانتظرت. وعندما تحدّث مجدّداً، بدا صوته غاضباً وملحّاً. قالت لنفسها: "مهما نجا من الموت... فهو لا يتعلّم شيئاً"

كان آرني يناديها بإلحاح لأنّه شعر بصفاء الذهن للمرّة الأولى منذ أيّام. كان يشعر بالعطش، وأحسّ أنّه إن لم يشرب كوباً من الماء فوراً فسيموت. لم يعرف كم يوماً مضى عليه وهو على هذه الحالة. قال لنفسه: "يبدو أنّ ليليا لم تسقني شربة ماء منذ أيّام" لا بدّ أنّها تركته لمصيره. لم يكن يذكر كيف حاولت ليليا إطعامه خلال اللحظات التي كان فيها واعياً.

عرف أنّ زوجته كانت في المطبخ، إذ سمع للتوّ صوت باب الميكرويف، لكنّها لم تأت إلى غرفته. قال: "إنها تريد تعذيبي" حسناً، سيتحسّن يوماً ما وستدفع ثمن أفعالها. سيتمكّن من طلاقها بسهولة عندما يخبر القاضي كيف أساءت معاملته في أثناء مرضه. ماذا ستفعل عندئذ؟ لم تكن تدري أنّها لا تملك المال. قد تعود إلى الفيليبين وتعيش على قمّة شجرة. ألم تكن معتادة على ذلك أساساً؟ ألم تكن معتادة على العيش في الطبيعة حافية مع العفاريت والمخلوقات الخارقة؟

على الرغم من تعبه، إلاّ أنّه شعر أنّ ذهنه أصفى من ذي قبل. يبدو وكأنّ دماغه تجدّد في ساعات نومه. صاح منادياً ليليا للمرّة الثالثة. عندما أتت أخيراً، وقفت بجانب الباب ونظرت إليه ببرودة. كانت تضع وِزْرَتها كالعادة، لا بدّ أنّها تطهو أحد أطباقها الشهيرة. سيقلّدها نزلاؤها وساماً. وبعدما قحّ لاستعادة صوته، حاول ألاّ يبدو شديد الفظاظة وقال: "هل لي بكوب من الماء؟" لم يكن ينوي استجوابها وإعطاءها الفرصة للتحدّث عن عواطفها، أضف إلى أنّه يحتاج إلى مساعدتها في النهاية. عادت ليليا حاملة كوباً من الماء بعد دقيقتين. لم يتغيّر تعبير وجهها. فكّر آرني: "لا بدّ أنّها درست هذا التعبير النكد أمام المرآة" لم يستطع حتّى أن يتخيّل حجم الخيبة التي ألمّت بزوجته. لم يتغيّر صوته أيضاً، بل بدا فاتراً. قال "شكراً" من دون أن ينظر إلى وجهها.

"عفواً. كيف حالك؟"

"بخير، شكراً"

"ألم تعد تشعر بالنعاس؟"

"كلاّ"

"هل تريد تناول شيء؟"

"لست جائعاً. هل يمكنك إضاءة المصباح؟"

"طبعاً"

"هل لديك جريدة؟"

"كلاّ. هل تريد جهاز التحكّم عن بعد لمشاهدة التلفاز؟"

"نعم من فضلك. بالمناسبة، ماذا قال الأطبّاء؟ لا أذكر

"أصبت بعدّة جلطات في دماغك. لهذا السبب كنت تشعر بالنعاس. قالوا إنّ بقاءك في المستشفى ليس ضروريّاً، وإنّك قد تشفى أو لا"

"إذاً، كان من الممكن أن أواصل النوم هكذا؟"

"أجل

بعدما انتظرت لبضع دقائق أخرى، فهمت أنّ حديثهما قد انتهى، فاستدارت نحو الباب للخروج. وفي أثناء مغادرتها الغرفة، قال آرني: "هلاّ أغلقت الباب من فضلك"

لم ير آرني داعياً لشكر ليليا. وربّما لم يشأ أن يعرف كيف تمكّنت من إحضاره من المستشفى إلى المنزل. لم تفهم ليليا كيف استيقظ زوجها فجأة، ولم تعرف ما الذي سيجري الآن. ربّما سيعيشان على هذه الحال لسنوات، ولا تعرف كم سيتمكّنان من اصطناع اللطف تجاه بعضهما. أرادت ليليا إخبار زوجها بما اكتشفته منذ لحظة استيقاظه. أرادت إخباره أنّها عرفت كيف خانها. لهذا السبب لم تذهب إلى غرفته حالما ناداها، بل انتظرت حتّى تسيطر على أعصابها. لو أخبرت آرني بما قاله جيانغ على الهاتف، فهل كان شيء سيتغيّر؟ أم كان سيقول "ليس عليه المجيء لإيصالي"؟

فهمت ليليا الآن أنّها لعبت بالأوراق الخاطئة لسنوات. كانت دائماً أكثر انفتاحاً ممّا ينبغي، وندمت لأنّها وثقت بالناس إلى هذا الحدّ. لم تكن تنوي إخبار آرني بشيء هذه المرّة حتّى تعرف ماذا ستفعل. لم تفهم أيّ

نوع من الأشخاص كان زوجها كلّ تلك السنوات بقدر ما فهمته خلال الأشهر الخمس الأخيرة. ورأت الآن أنّ علاقتهما لم تكن تختلف عن علاقة زوجين في مسرحية. يبدو أنّ الأوقات التي فتحت فيها قلبها لآرني لم تعن له شيئاً. أصغى إليها بهدوء ليس لأنّه رجل هادئ، بل لأنّه لم يكترث. لم تشارك ذلك الرجل سوى السقف نفسه، ولم تشاركه حياته كما اعتقدت.

عادت إلى المطبخ مسرورة لأنّها لم تقل شيئاً. وبعدما مرّرت يدها على قطعة اللحم التي وضعتها على لوح التقطيع، تناولت السكّين وعرفت أنّها تستطيع تقطيع الشريحة إلى ستّ قطع بحكم التجربة. ستصنع شقوقاً صغيرة في كلّ منها بطرف سكّين حادّ، وتملؤها بالثوم المدقوق، وإكليل الجبل، والملح، والتوابل، ثمّ تدهنها بزيت الزيتون والمزيد من الثوم. ستفوح رائحة اللحم في المنزل بأكمله، ولا سيّما في غرفة آرني المحاذية للمطبخ. وكانت تعرف تماماً أنّه سيكره حياته. هل سيرتاح إن علم أنّ هذا الشعور لا يقتصر عليه وحده؟

* * *

مع أنّ مارك تابع حياته، إلاّ أنّه لا يستطيع القول إنّه كان سعيداً أو إنّه يستيقظ مبتسماً في الصباح. كلّ ما في الأمر أنّه لم يعد يشعر بالاختناق كما كان يحصل في الأسابيع الأولى، ولم يعد يفكّر بالموت، ولم يعد يخاف من زيارة سوق الخضار ثلاث مرّات في الأسبوع أو الأماكن التي كان يتسوّق فيها مع كلارا. أصبح يعرف أين يجد احتياجاته في السوق، ويميّز الفرق بين البقدونس والكزبرة. مع ذلك، ما زال يحتاج إلى الوقت للتمييز بين الزنجبيل وخرشوف القدس. فهم الآن لماذا كانت زوجته معتادة على الذهاب إلى السوق حاملة الهدايا في المناسبات والعودة محمّلة بالهدايا. فقد كانت سوق الخضار بأكملها أسرة كبيرة، أسرة يهتمّ أفرادها الواحد بالآخر.

يبدو تقريباً أنّه بدأ يفهم المدينة على نحو أفضل عندما أخذ يطهو. فأصبح يذهب إلى أماكن لم يكن يملك سبباً للذهاب إليها من قبل من أجل شراء أحد المكوّنات، ويجد نفسه في حيّ مختلف تماماً، وبالتالي في عالم مختلف تماماً. لم يكتشف إلاّ الآن أنّ المدينة بأكملها تتكلّم عن الطعام. لم يستطع أن يقاوم سماع وصفة لحساء الكرّات وهو ينتظر في الصفّ خلف امرأتين في السوبرماركت. كان يبدأ يومه برحلة إلى سوق سان جرمان كلّ أحد، ويتابع سيره في شارع موفتار، متوقّفاً عند كلّ متجر تقريباً، وكان يمرّ لتناول كأس أو اثنين من الشراب قبل أن ينعطف في أحد الشوارع الجانبية لكي لا يراه راقصو الفالز في آخر شارع موفتار، وذلك لأنّ معظمهم كانوا يعرفون كلارا. كان يلتقي بعض الوجوه المألوفة في الأشهر الأخيرة، لكنّه يتجاهل أصحابها إن تمكّن، أو يسأل عن حالهم بسرعة ويفرّ هارباً قبل أن يُذكر اسم زوجته، قائلاً إنّه على عجلة من أمره. صحيح أنّه وجد هذا السلوك صبيانياً جدّاً، لكنّه ما زال عاجزاً عن العودة إلى الأصدقاء القدامى.

لهذا السبب كان من المؤسف بالنسبة إليه رؤية أوديت في الصالة فجأة. كانت قد فهمت أنّها لن تتمكّن من الاتّصال بمارك بعد بضع محاولات وقرّرت تركه وشأنه. ولم يكن من السهل بالنسبة إليها أن تراه أيضاً. ربّما لأنّها اعتبرت نفسها أكثر ولاء لصديقتها من مارك. فقد عرفت أنّه سيجد امرأة أخرى عاجلاً أم آجلاً وسينسى أمر كلارا. أمّا هي، فلن تتمكّن أبداً من ملء الفراغ الذي خلّفته صديقتها. وعلى الرغم من كلّ تلك القصص وكلّ ذلك الغضب، لم تشعر أنّ عليها التخلّي عن مارك، بل أحسّت أنّها أهملت طفلاً محتاجاً. كانت قد رأت كلارا عدّة مرّات في منامها، وسألتها صديقتها الحميمة عن زوجها. وعندما أخذت تفكّر فيه طوال اليوم، قرّرت الذهاب لرؤيته. لم يكن من المجدي الاتّصال به أو دعوته إلى العشاء، فهو لن يستجيب. أفضل طريقة هي الذهاب بكلّ

ببساطة لرؤيته.

وقفت أمامه، ولاحظت أنّه لا يعرف ماذا يقول أو أين يضع يديه. فوضعت يديها على كتفيه وقبّلته على خدّيه. بدا أفضل حالاً بكثير من ذي قبل. استعاد شيئاً من الوزن الذي خسره، وتخلّص من الهالتين السوداوين حول عينيه. بدأت مشاعر الغيرة تملأ قلبها مجدّداً؛ يبدو وكأنّه تعرّف على امرأة أخرى. بعدما وقفا وجهاً لوجه لبعض الوقت، فهم مارك أنّ أوديت شردت للحظات. أكثر ما لا يطيقه سيحدث الآن: سيتكلّمان. لم يكن يريد أن يتكلّم عن حاله. فهو لم يعد يعرف كيف أصبح، ويشعر وكأنّ جسده خلا من روحه، ولم يواصل سوى التنفّس. لم يكن قطّ من الأشخاص الذين يستطيعون التعبير عمّا يجيش في عقولهم وقلوبهم. في الواقع، كلّما أراد التعبير عن أفكاره قبل أن تموت كلارا، كان يعجز عن ذلك، وكانت هي دائماً التي تعبّر عمّا يريد قوله. كان مارك يكتفي بالقول "تماماً، هذا ما أشعر به" أوديت لم تكن كلارا، لا أحد كلارا، ولا أحد يعرف أنّه لا يستطيع التعبير عن مشاعره حتّى لو أراد ذلك.

كانت أوديت هي التي كسرت الصمت: "فلنذهب لتناول فنجان قهوة" كيف يمكنه أن يرفض؟ ماذا يستطيع أن يقول؟ نظر إلى الساعة ووجد أنّ وقت إقفال الصالة قد حان. فارتدى سترته وقال لآمو: "أنا راحل الآن. حان وقت الإقفال على أيّ حال، أراك غداً". نظرت أوديت إلى مارك بمزيد من الريبة الآن. كانت قد سمعت من أصدقائهما أنّ مارك يفتح الصالة في ساعة أبكر في الصباح ويغلقها في ساعة متأخّرة منذ وفاة كلارا. وبما أنّه يغلقها الآن قبل الساعة الخامسة، فهذا يعني أنّه استعاد جدوله الطبيعي. إلى أين يذهب بعد ذلك؟ وفي هذا الوقت المبكر أيضاً. ماذا يفعل؟ لا بدّ أنّه يلتقي صديقته ويتناولان الطعام في مكان ما. وربّما يذهبان لمشاهدة الأفلام في ما بعد، ومن ثمّ إلى شقّة أحدهما. شعرت أوديت بغصّة في قلبها. ربّما كان مارك يغادر الصالة، ويذهب مباشرة إلى

منزلـه، وهناك تنتظـره صديقته الجديـدة. من يعـرف؟ ربّما تطبـخ له هناك مسـتخدمة أوانـي كلارا. فكّـرت أنّ الأمر مسـتحيل، "المـرأة الثانية تكون دائماً أكثر كسـلاً. أنا واثقـة أنّ الجديدة سـتنفق كلّ قـرش ادّخرته كلارا" التفتـت إلى مـارك ونظرت إليه من رأسـه إلـى أخمص قدميـه. بحثت عن شـيء في سـرواله، وشـعره، وسـترته يحاول فيه أن يلفت نظر امرأة شابّة، لكنّها لم تجد. كان مارك هو مارك نفسه. والقميص الذي يرتديه كان على الأرجح أحد تلك القمصان التي اختارتها له كلارا.

جلسا في أحد المقاهي الموزّعة في شارع سـان أندريه ديزار، وطلبا كأسـين من الشـراب الفرنسـي. ومع أنّهما معـاً منذ ربـع سـاعة، إلاّ أنّهما لم يتبادلا سـوى بضع كلمات. وفي اللحظـة التي كانت فيهـا أوديت على وشك أن تبدأ مناجاتها، أخذ مارك يتحدّث، وكان هذا غير اعتيادي بالنسبة إليه على الإطلاق.

"كيف حال هنري؟"

"بخير... بخير. كالعادة، يعمل كثيراً"

"والولدان؟"

"بخير أيضاً. كما تعـرف، لم نعد نراهمـا كثيراً. يتصرّفـان معنا تماماً كما تصرّفنا مع أهلنا. لكن، أظنّك لم تعلم أنّ سيلين حامل"

"تهانينا! وهل عرفتم إن كان الجنين ذكراً أم أنثى؟"

"كلاّ، ليس بعد. لا يريدان معرفة ذلك. يفضّـلان إبقاء الأمر مفاجأة. هل تصدّق أنّني سأصبح جدّة؟ متى تقدّمنا في السنّ؟"

لم تجد الصمت غريباً، فقد كانت تعرف أنّ مارك لم يكن من أولئك الأشخاص الذين يقولون أشـياء مثل: "أنت لسـت عجوزاً على الإطلاق" أو "لقـد تزوّجتِ شـابّة، وهذا هو السـبب" إن لـم يكن الشـخص جاهزاً

لتقبّل الحقيقة، فـلا يجب عليـه قولها لمارك، لأنّـه لن يعترض أبـداً ما لم يكن الأمر غير صحيح. حان دورها الآن لطرح الأسئلة:

"كيف حالك؟"

"أنا بخير

"سمعت أنّك تمضي ساعات طويلة في الصالة"

"هذا ما فعلته لمدّة"

"والآن؟"

"عدت لدوامي المعتاد"

عرفت أوديـت أنّ عليهـا أن تسـأل الآن إن أرادت معرفة شـيء منه، لكنّها لم تعرف كيف ستطرح السؤال.

"بالطبع عليك العـودة إلى حياتك المعتـادة. إذاً، هل تتنـاول الطعام في الخارج؟"

"نادراً"

رفعـت أوديت حاجبيهـا عن غير قصـد، وثبّتـت عينيها المتسـائلتين على مـارك بينما أمالت رأسـها جانبـاً. وعندما أدركـت أنّ مارك لـن يتابع كلامه، غيّرت طريقة طرح السؤال:

"إذاً، هل تطلب الطعام إلى المنزل؟"

"كلاّ، أحضّر بعض الأطباق بنفسي"

لـم تكـن أوديـت تصـدّق مـا تسـمعه. ومـع أنّهـا أرادت أن تنفجـر

ضاحكة، إلاّ أنّ غضبها غلب على حسّ الفكاهة. لا بدّ أنّ صديقته الجديدة تولّت مهمّة الطهي. فهي تعرف - شأنها شأن الجميع - أنّ مارك لا يميّز بين الملح والسكّر. حتّى إنّه لا يستطيع إعداد شطيرة، فما بالك بالطهي. لكن، كيف يمكنها قول ذلك؟ كانت عصبيّة بعض الشيء في البداية، لكنّ غضبها تحوّل الآن إلى كرة نار تستعر داخلها. كبحت جماح غضبها بشدّة لكي لا تمطره بالإهانات. كان لسانها جاهزاً ليكيل له الشتائم. استعدّت لتتكلّم بعدما تناولت رشفة من شرابها، وفي تلك اللحظة، أعطاها مارك ورقة مطويّة أخرجها من جيبه. أبعدتها أوديت عن عينيها قدر الإمكان لتقرأ ما كُتب عليها، فوجدت لائحة من المكوّنات. بلح البحر، البصل الأحمر، الكريما. نظرت إلى مارك بفضول.

"هذه مكوّنات الوصفة التي سأعدّها اليوم"

"مول ألا كريم؟".

"أجل!"

"هل ستعدّها بنفسك؟"

"أجل..."

"مارك، أنت لا تعرف الفرق بين بلح البحر والمحار"

"في الواقع، أنا لا أعرف الفرق، لكنّ البائع في سوق السمك قادر على ذلك. كما أنّني بدأت أتعلّم أيضاً. قمت بشراء كتابين للطهي، وأجرّب شيئاً منهما كلّ يوم. إنّها وصفات بسيطة جدّاً، وصفات أمّهاتنا. عادة لا تكون النتيجة جيّدة، ولكن لا بأس بي في بعض الأحيان"

شعرت أوديت أنّ قلبها يذوب. ولم تستطع منع الدموع من التجمّع في عينيها. قاومت النهوض لاحتضان الرجل الجالس أمامها. تخيّلت مارك في المطبخ، أمام الفرن. ربّما كان يضع وِزْرَة أيضاً. في تلك اللحظة،

رأت للمرّة الأولى الشريط اللاصق حول إبهامه الأيسر. وضعت يدها عليه وربتت عليها بلطف. ابتسم مارك قائلاً: "غالباً ما أواجه الحوادث" انفجرت أوديت باكية. بكت بحرقة، ويدها على يد مارك، وجبينها على الطاولة.

وعندما سيطرت على نفسها بما فيه الكفاية بعد دقائق للتكلّم مجدّداً، لم تقل شيئاً آخر على الرغم من كلّ الأسئلة التي راودت ذهنها، ولم يقل مارك شيئاً آخر أيضاً. لم يكن الرجل الجالس أمامها مختلفاً عن صبيّ صغير فضّل التعامل مع ألمه بمفرده. أساءت أوديت الحكم عليه عندما اعتقدت أنّه سيذهب للبحث عن العزاء بين ذراعي امرأة أخرى. وعوضاً عن ذلك، فضّل مارك البقاء في الفراغ الذي تركته كلارا خلفها. وهذا شيء آخر مرتبط بكلارا. كانت ثمّة وحدة شاعرية في الحياة التي اختارها مارك، وحدة يجب احترامها وتقديرها. الآن، بعدما أدركتها أوديت، سألته بحياء: "هل يمكنني تذوّق طعامك يوماً ما؟" ابتسم مارك محرجاً. لم يكن طعامه يليق بتقديمه إلى أشخاص آخرين. حتّى إنّه في بعض الأحيان لم يكن يستطيع أكل الطعام الذي أعدّه، وكان يتخلّص ممّا تبقّى منه بعدما يملأ معدته. فكسرولة القريدس التي أعدّها في الأسبوع الماضي كانت كارثة مثلاً.

بدا كلّ شيء على ما يرام قبل أن يضع الكسرولة في الفرن. فقد اتّبع كلّ خطوات الوصفة بحذر، ثمّ أدخلها إلى الفرن لخبزها، بكلّ ثقة. أصبح الآن يفهم سبب تدوين كلارا ملاحظات على كتب الطهي الخاصّة بها. فقد كانت تجد دائماً شيئاً ناقصاً أو زائداً في تلك الوصفات. وربّما يمكنه أن يبدأ بإضافة ملاحظاته على كتابه هو أيضاً؛ هذا ما فكّر به. لا يجب خبز الكعك اثنتين وعشرين دقيقة فقط، بل اثنتين وثلاثين دقيقة. ولم يكن يجب أن يضيف كوباً ونصف الكوب من الماء إلى قدر القريدس، بل

نصف كوب فقط، كي لا يُضطرّ إلى تنظيف كلّ تلك الفوضى مجدّداً.

جلس على كرسيّه بعدما شغّل منبّه الفرن، وبدأ يقرأ أحد الكتب الهزلية الجديدة التي ابتاعها. كان المؤلّف هو غيبي؛ فنّان إيطالي. اكتشفه في السنوات الأخيرة، وأصبح ينتظر مؤلّفاته الجديدة دائماً. كان أحد الفنّانين الذين يرغب في إضافتهم إلى لائحة زبائنه. وبينما كان مستغرقاً في الرسوم تماماً، انطلق منبّه الحريق بصوت عال. وعندما التفت، رأى الدخان يتصاعد من جوانب باب الفرن. كان قد مرّ بتجربة مشابهة من قبل وأصبح يعرف ما عليه فعله. فأسرع إلى الرواق، ووجّه رأس المروحة الموجودة هناك دائماً نحو جهاز الإنذار. يجب أن يتوقّف خلال خمس عشرة ثانية على الأكثر. ثمّ أسرع عائداً نحو الفرن، وفتح الباب، فاكتسح الدخان المطبخ. كان الماء الموجود في القدر يغلي، وفي أثناء غليانه، تناثرت نقط منه داخل الفرن واحترقت على حرارة 400 درجة. أصبح الفرن بأكمله مغطّى بالدهون. استناداً إلى الوصفة، ما زال الطعام بحاجة إلى خمس عشرة دقيقة إضافيّة. وكان ينوي إضافة الجبن الذي برشه مسبقاً بعد ثماني دقائق، ثمّ ينتظر سبع دقائق أخرى حتّى يحمرّ الجبن. ولكن، بما أنّه لا يريد أن يتّسخ الفرن أكثر من ذلك، وبما أنّه أدرك أنّ الجبن لن ينقذ ذلك الطبق، أخرج الكسرولة ورماها تقريباً على الطاولة.

كانت المكوّنات تسبح في الماء. الفلفل الأخضر لم ينضج، والقريدس لم يتلوّن كما هو في الصورة. وبعدما نفخ لتبريد ملعقة مليئة بالفلفل، والطماطم، والقريدس، وضعها في فمه. كان يحرق لسانه كثيراً في الأيّام الأخيرة لتذوّق الطعام، حيث إنه لم يعد واثقاً ما إذا كان قادراً على تذوّق النكهة أم لا. لكنّ سبب عدم قدرته على تذوّق أيّ طعم لم يكن لسانه المحروق، بل الفشل الذريع الذي لحق بطبق القريدس. وبعد أن رمى كلّ شيء في سلّة المهملات، وضع قدراً من الماء على الغاز

لإعـداد المعكرونـة، التي أصبـح ماهـراً فيها. فتح بـاب الفرن مـرّة أخرى لرؤية حجـم الضـرر. كانت بقـع الدهون منتشـرة فـي كلّ مـكان. وعندما حاول مسـحها بإسـفنجة مبلّلـة، تصاعـد الدخـان مجـدّداً. يبـدو أنّ عليه تنظيفها عندما تبرد. سيُضطرّ للانتظار حتّى اليوم التالي ليكتشف أنّ تنظيف الدهون بعد جفافها صعب ومضجر. هكذا تعرّف على مسيو بروبر.

لم يشعر مارك بالرغبة في إخبار أوديت بأيّ من ذلك. فهذه تفاصيل تافهة في حياته البسـيطة تُظهر مدى فراغ حياته. كان قلبـه ينفطر كلّما تذكّر تلك الأيّـام وأدرك مـدى وحدتـه وبؤسـه حينـذاك. كان يفتقد إلـى كلارا أكثر عندما يتخيّل نفسـه في المطبخ، يحـاول أن يطهو. لم يكـن من عادته الإشـفاق على نفسـه من قبل، لأنّه عاش حياة جميلة. أمّا الآن، فكلّما نظر إلى نفسـه من الخارج، يشـعر بالرغبة في البكاء. أمل ألاّ تدرك أوديت من ملامح وجهه أنّه مشفق على نفسه، فابتسـم بضعف وقال: "صدّقيني، أنت لا تريدين تذوّق طعامي" لكن، كان من المسـتحيل على أوديت ألاّ تشعر بضعف صوته. كانت تتخيّل فـي الواقع هذا الرجل الجالـس أمامها وحده في مطبخه، وهذه الصورة فطـرت قلبها. ومع أنّها وعدت نفسـها ألاّ تذكر اسم كلارا في الحديث، إلاّ أنّها لم تستطع منع نفسها من القول: "أنا واثقة أنّ كلارا سـتكون فخورة بك" وعندما لـم يجب مـارك، حاولت ترطيب الجوّ بمزحة: "ربّما ليس بطعامك، بل بمجهودك" قرّرت الدمعة المتوقّفة في زاوية عين مارك ألاّ تسـقط. وعندما تأكّـد أنّ عينيه لم تعـودا دامعتين، رفع رأسه وابتسم لأوديت:

"لن تكون حتماً فخورة بطعامي

"دعني أقرّر ذلك، ما رأيك؟"

"ليس الآن. لكن، أعدك أنّني سأدعك تتذوّقينه عندما أصبح جاهزاً"

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

"حسناً. ما نوع الكريما الذي ستستخدمه اليوم؟ لا تنس أنّ نوعها مهمّ جدّاً"

قبل أن يدفعا الفاتورة ويغادرا المقهى، دوّن مارك اقتراح أوديت على لائحته: مدام إلواز. ربّما يجدر به تعريف المدام على مسيو بروبر. ففي اليوم التالي لكارثة كسرولة القريدس، توقّف مارك في السوبرماركت في طريق عودته إلى البيت ووجد مسيو بروبر الذي سيصبح واحداً من أفضل أصدقائه لبقيّة حياته. لم يكن من الصعب عليه اختيار هذه العبوة التي تحمل صورة رجل أصلع ذي ذراعين قويتين، يرتدي قميصاً أبيض، ويضع قرطاً واحداً في أذنه، ويملك حاجبين كبيرَين أبيضَي اللون. لا بدّ أنّ هذه الصورة محفورة في ذاكرته البصرية لكثرة ما رآها على شاشة التلفاز، وفي المترو، وعلى ألواح الإعلانات على مرّ السنوات. نظر إلى الصورة الموجودة على العبوة التي يحملها بيده. ما سبب ضخامة هذا الرجل؟ لماذا لا يملك سوى قرط واحد؟ لماذا يملك حاجبين أبيضين؟ لم يعرف مارك أنّ هذه الأسئلة طرحها الكثير من الناس، وثمّة تخمينات كثيرة حولها. بعضهم يقول إنّ المسيو مارد العبوة. فهو يخرج منها عندما تحتاج إليه النساء ويحلّ مشاكلهنّ. ويقول آخرون إنّه بحّار أميركي أسطوري. ولو أنّه تابع الأخبار بعناية، لعرف أنّه في العام الماضي، وجد البرلمان الأوروبي أنّ مسيو بروبر ليس ملائماً لأنّه يوحي بأنّ الرجال الأقوياء وأصحاب الأجساد الضخمة وحدهم قادرون على التنظيف. ولو أنّه أعار انتباهاً أكثر إلى محيطه في البلدان الأخرى التي سافر إليها، لوجد أنّ المسيو يتمتّع بشعبيّة هائلة. فهو يملك اسماً مختلفاً في كلّ بلد. دون ليمبيو في إسبانيا، مايسترو ليمبيو في مكسيكو، مايستر بروبِر في ألمانيا، ماسترو ليندو في إيطاليا، ومستر كلين في الولايات المتّحدة. كان مستحضر التنظيف هذا هو الأكثر استعمالاً في جميع أنحاء العام

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

منذ عام 1958، ويُعتبر حتماً شخصيّة ثورية نظراً للتحسينات التي أُدخلت عليه. لكنّ مارك اشترى تلك العبوة من دون أن يعرف أيّاً من هذه الأمور المتعلّقة بالمستحضر، بل لمجرّد أنّ الوجه بدا مألوفاً. وعندما رأى مدى فاعليّته في تنظيف الفرن، أصبح يكنّ للمسيو احتراماً كبيراً.

منذ ذلك الاكتشاف في الأسبوع الماضي، أصبح مارك مهووساً بالتنظيف، ويقوم بمسح كلّ زاوية في المطبخ متّسخة بالدهون. كما قام بشراء منتجات أخرى للمسيو لأغراض مختلفة، وتخلّص من كلّ الأوساخ في الشقّة بأكملها. كان يكتسب طموحاً غير صحي تجاه مواد التنظيف. أمّا الخطوة التالية فسوف تتمثّل في اكتشاف مدى جودة مماسح فيليدا.

سار باتّجاه شارع مونج ببطء بعدما ترك أوديت. كان الفصل الجديد يختلف لوناً ورائحة. في أيّام أخرى، كان سيذهب إلى المنزل وهو يفكّر بكلارا مع هذه الرائحة في أنفه. أمّا الآن، فراح يتساءل عمّا سيطهوه عندما يدعو أوديت والآخرين إلى العشاء. ليس لأنّه سيقيم حفل عشاء قريباً، ولكن لمجرّد أنّ الفكرة أعجبته. فكّر بالأطباق التي أعدّها حتّى الآن، وحاول أن يتخيّل ما نجح منها، وما يستطيع تقديمه. توقّف وسط الرصيف، واضعاً يديه في جيبيه، وهزّ رأسه إلى الجانبين: لا شيء منها. كان مشغولاً جدّاً بتلك الفكرة إلى حدّ أنّه لم يلاحظ الرجل الذي مرّ بجانبه وألقى عليه نظرة استياء، لأنّه أوشك على الارتطام بظهره عندما توقّف فجأة. ربّما عليه مراجعة كتاب الطهي من البداية مجدّداً لاختيار بضعة أطباق يستطيع إعدادها، والعمل عليها لمدّة من الزمن. لم يكن سبب حماسته المفاجئة لحفل العشاء هو الصداقة التي تجمعه بأوديت أو الآخرين، بل إحساس التحدّي. كان يرغب في إثبات نفسه للآخرين ولنفسه أيضاً. بالطبع، كان للاوَعيه دور في ذلك. فإيجاد شيء مختلف

يفكّر فيه في كلّ مرّة يوشك فيها على تذكّر كلارا لم يكن يعني سوى محاولة نسيانها. عندما وصل إلى سوق السمك، قرّر أنّه ليس جاهزاً بعد لإقامة حفل عشاء. حيّا بيار زبونه بصخب كالعادة. كان بارعاً جدّاً في التحدّث مع الجميع في وقت واحد. فبينما سأل مارك عن حاله، واصل كلامه مع بقيّة الزبائن الذين كانوا في المحلّ. وعندما حان دور مارك، أوشك بيار على إقناعه بشراء السمك عوضاً عن بلح البحر. لكن بعد ربع ساعة من الكفاح، غادر مارك حاملاً كيساً من بلح البحر بفخر. أمّا بيار فظلّ يصيح خلفه: "إن غيّرت رأيك، فعد إلى هنا، سأستعيد بلح البحر الآن، حان وقت شراء مدام إلواز. في طريقه إلى السوبرماركت، ألقى تحيّة برأسه على كلّ من أصبح يعرفهم في المتاجر الأخرى، ثمّ اشترى الكريما أخيراً وعاد إلى البيت.مكتبة الرمحي أحمد

وفور وصوله إلى منزله، أطفأ المذياع، وشغّل التلفاز، ثمّ وضع وِزْرَته وبدأ العمل. فتح الصفحة على وصفة اليوم. في البداية، وضع بلح البحر في قدر لغليه على النار. وفي تلك الأثناء، قام بتقطيع بصلة حمراء متوسّطة الحجم، وضعها في مقلاة مع القليل من زيت الزيتون والزبدة، وقام بتقليتها قبل أن يضيف بعض الشراب الفرنسي. وعندما بدأ المزيج يغلي، أضاف بعض الكريما، وخفّف الحرارة قدر الإمكان. كان بلح البحر قد بدأ ينفتح، ممّا يعني أنّ الوقت قد حان لوضعه في الصلصة وتحريكه بواسطة الملعقة. وقبل أن يضيف بلح البحر، تذكّر وضع شيء من الملح. بحسب الكتاب، عليه إضافة رشّة واحدة، لكنّه تعلّم من تجاربه السابقة أنّ رشّة واحدة ليست كافية مطلقاً. كما عرف أيضاً أنّ الملح الذي يضيفه على الطاولة ليس لذيذ الطعم على الإطلاق.

لم يمض وقت طويل، بل مجرّد ربع ساعة، حتى أصبح طبقه جاهزاً. لم يجرح أو يحرق أيّ جزء من جسده هذه المرّة. أخذ قطعة خبز

وغمسـها في الصلصة أوّلاً. لم يشـعر بالخيبة. نزع بلحة بحـر من صدفتها ووضعها في فمه، ثمّ ابتسـم لنفسه. رفع كأسـه لضيوف برنامج "جرّبنا كلّ شيء" لقد وجد طبقاً يستطيع وضعه على لائحة حفل العشاء.

* * *

كانت إيلا وفيردا بحاجـة إلى تمضية بعض الوقت معاً لكي تسـتمتع فيـردا بحمـل ابنتها. فـي بدايـة الأسـبوع، عندما ذهب سـنان إلـى العمل، وأخذت السـيّدة نسـيبة غفوة أعمـق بقليل بسـبب جرعـة المنـوّم الزائدة، جلسـت الأمّ وابنتها أمـام بعضهما إلى طاولـة المطبخ، واسـتمتعتا بلحظة عاطفية من دون إخفاء مشاعرهما. عرفت فيردا من تألّق وجه ابنتها أنّ إيلا سـتكون أمّاً سـعيدة. كانت في الشـهر الثاني وحسـب، ومع ذلك اكتسبت بعض الوزن. كانـت تتمتّع بشـهيّة جيّدة، ولا تشـعر بالغثيـان ولا بالتعب. كلّ ما في الأمر أنّها تحتاج إلـى أخذ قيلولة عدّة مرّات، وهـو أمر لم تحبّه في حياتها قطّ. أعدّت فيردا السـوفليه في أثناء نوم إيلا، ووضعته في الفرن قبل اسـتيقاظها بقليل، وتركت رائحته تفوح في المنـزل بأكمله. عرفت أنّ ابنتها سـتأتي إلى المطبخ وهي تشـمّ الرائحة بأنفها المرفـوع. وبينما كانت إيلا تحاول التخلّص من نعاسها، أخرجت فيردا قوالب السوفليه من الفرن ووضعتها علـى الطاولة، واحد لـكلّ منهم. وعندما رأتا أنّ وسـط القوالب لم يهبـط بعد خمـس دقائـق، أصيبتا بالصدمـة تقريبـاً. راحت إيـلا تصفّق بيديهـا وهي تهتـف: "برافـو! برافو سـيّدة فيـردا!" كانـت هـذه محاولتها الثانية وحسـب. إلاّ أنّهـا راجعت الوصفة فـي ذهنها وتمرّنت عليهـا ذهنيّاً مرّات عديدة حيث إنها شعرت أنّها مرتاحة تماماً وهي تذيب الشوكولاته، وتخفق بيـاض البيض، وتضيـف إليـه الصفـار. كان الطعم رائعاً، ولمسـة الكريما في الوسط جعلته أشهى.

اضطرّت فيردا بالطبع إلى وضع تحليتهـا جانباً بعدما تناولت لقمتين منهـا. كان عليهـا عيش حياتها على هذا الشـكل، شـيئاً فشـيئاً، إن لم تشـأ

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

أن تخسر معركتها مع الصداع. لكن، ما من مشكلة، فبعدما أنهت إيلا حصّتها، أتت على حصّة أمّها. أمام هذا الطبق الشهي، تحدّثت الأمّ وابنتها عن مستقبل إيلا للمرّة الأولى. فتحت فيردا الموضوع بإخبارها عن فترتي حملها. كانت الأولى صعبة. فقد عانت من كلّ صعوبات كونها شابّة وغير مجهّزة بأيّ خبرة. ولم تتمكّن من إرضاع جيم مهما حاولت، وما زالت تشعر بالذنب حيال ذلك. أمّا في حملها الثاني فكانت أكثر خبرة، لكنّها عانت من الغثيان والتعب كثيراً. لحسن الحظ، تمكّنت من إرضاعها. فالرضاعة مهمّة جدّاً، أهمّ من أيّ شيء، ولا يجب أن تنسى ذلك.

بينما أصغت إيلا إلى أمّها بانتباه، راحت تمرّر سبّابتها على قعر قالب السوفليه. لطالما قامت بقحط الأكواب، والطناجر، والمقالي، إلى حدّ أنّ فيردا كانت واثقة أنّ ابنتها ستتزوّج في يوم ممطر جدّاً. فهذا ما يقوله المثل. وعندما لم يتبقّ شيء في قعر قالب السوفليه، نهضت إيلا وذهبت إلى البرّاد. نظرت إلى الداخل مطوّلاً وهي متكئة على الباب. كان مليئاً بالكثير من الأشياء كالعادة، لكنّها لم تعرف ماذا تشتهي. الشيء الوحيد الذي منعها من مدّ يدها إلى ورق العنب كان قطعتي الحلوى اللتين التهمتهما للتوّ. وبعدما نظرت إلى الرفوف للحظات أخرى، أغلقت البرّاد والتفتت نحو أمّها:

"هل ما زال لدينا بعض البرك؟"

"نعم يا حبيبتي، في الفرن الصغير

جلست إيلا أمام أمّها مجدّداً وبدأت بأكل البرك. كانت تعرف أنّها ستصبح بحجم مجموعة طبول في آخر حملها. وتظنّ أنّ طبيبها سيفرض عليها حمية غذائية بعد شهرين، ويحدّد كمّية أكلها. لذا، قرّرت أكل كلّ ما ترغب به حتّى ذلك اليوم. لم تأبه كم سيزداد وزنها، إذ لم يسبق لها

أن شـعرت بهذا الجوع في حياتها، ولـم تسـتمتع قطّ بكلّ ما تأكله إلى هذا الحدّ. لطالما تمتّعت بشـهيّة جيّدة، لكنّ هذا مختلف تماماً. شعرت وكأنّ دماغها يحتوي على زرّ يجعلها تشـعر بالسـعادة كلّما ضغطـت عليه، ويتمّ تشغيله مع كلّ لقمة. وبالإضافة إلى كلّ ذلك، لم تكن تنوي حرمان نفسها من طعام أمّها الشهيّ الذي لن تستطيع الاسـتمتاع به سوى لمدّة محدودة. فمن أكثـر الأمور التـي تحبّها في هـذه الحياة تنـاول كلّ ما يطهـى في هذا المطبخ.

لم تعارض فيـردا أن تـأكل ابنتها بهذا الشـكل، بل كانت سـعيدة في الواقع لأنّ طعامها نال إعجاب إيلا. لكن، عليها أن توضح لها مسـألة قبل أن يـزداد وزنها أكثـر. كانت فيـردا تعلم أنّ كلّ النسـاء اللواتي سـيحضرن الزفاف سـيفهمن أنّ إيـلا حامل بمجـرّد رؤيتها، ثمّ سـيذهبن إلـى بيوتهنّ ويقلـن لأزواجهنّ: "هـذه الفتاة حامـل، ولذلـك تزوّجت بهذه السـرعة" وسـيجيب الأزواج: "كلاّ، من أين أتيت بذلك؟ ألا ترين كم هي نحيلة؟" لكنّ النسـاء سـيعترضن قائلات: "بلى... ألـم ترى كيف كان وجهها متألّقاً كالوردة؟" لذلك، لم تشأ فيردا أن تكتسـب ابنتها المزيد من الوزن كي لا يبدو الأمر أكثـر وضوحاً. لو تزوّجـت حالاً، وهي بهذا الـوزن، فلن يكون الناس متأكّدين على الأقلّ.

"أخبريني يا عزيزتي، ما هي العادات الفرنسـية؟ كيف سـيكون حفل الزفاف؟"

"ماما، عن أيّ حفل زفاف تتكلّمين؟"

"عفواً؟ مـاذا قلت؟ أريـد رؤية ابنتي في فسـتان الزفاف والاسـتمتاع بذلك اليوم"

"حسناً، يمكنني ارتداء فستان، لكنّنا سنتزوّج في البلدية"

"البلدية؟"

"أجل"

"كلاّ، لـديّ ابنـة واحـدة. كيـف سأسـتمتع بذلـك اليـوم إن ارتديت فستان الزفاف لمدة عشر دقائق فقط؟"

"حسناً، ماذا علينا أن نفعل؟"

"لا أدري. أيّ نـوع مـن الزفـاف تريديـن؟ لهذا السـبب سـألت عن عاداتهم؟ هل تتولّى أسرة العريس الزفاف كما يحدث هنا؟ وكذلك، كيف هي أسرته؟ هل هو مقرّب منها؟ هل يملكون المال؟"

"ستتحمّل النفقات أنا ودوفال. سيكون الطقس أفضل بعد أسبوعين، ويمكننـا إقامـة الحفـل فـي حديقـة صغيـرة، مـع مجموعـة صغيـرة مـن المدعوّين، أربعين أو خمسين شخصاً"

"40-50 غير ممكن! أنا أقول لك منـذ الآن، علينا دعوة ثمانين على الأقـلّ. وأظـنّ أنّ العريس سـيدعو بعض أقربائـه للمجـيء. لا أدري، هل سيأتون؟"

"لنقل ستّين ماما"

"حسـناً. إذاً عليـنـا أن نهتـمّ بفسـتان زفافـك، وهـم سـيهتمّون ببذلة دوفال. صحيح أنّنا لم نسمع عن ذلك في عاداتنا، لكن لا بأس"

"حسناً"

"متى سنقيم الحفل؟ 6 أبريل؟"

"بعد ثلاثة أسابيع؟"

"أجل... خير البرّ عاجله"

أشـارت فيردا إلـى بطـن إيـلا بعينيها عندمـا قالـت ذلك. ومـع أنّها تخيّلت دائماً أنّ فسـتان زفاف ابنتها سيتمّ صنعه حسـب ذوقهما، إلاّ أنّهما مضطرّتان لشـراء فسـتان جاهز. سـبق لهـا أن خطّطت لكلّ شـيء. قرّرت في سـريرها، وهي ممدّدة في أثناء نـوم الجميع، أين سـيقام حفل الزفاف،

ومن أين ستقومان بشراء الفستان، وحتّى نوع الطعام الذي سيُقدّم. كانت زوجة أخيها عضواً في مجلس البلدية، وستتمكّن من تحديد موعد قريب في هذه المدّة القصيرة. تجاوز عدد الضيوف الستّين، حتّى عندما فكّرت بالأسماء من دون كتابتها. إن بلغ العدد سبعين أو خمساً وسبعين، فستضحّي بجزء من مدّخراتها.

إن واصلت إيلا تناول الطعام بهذا الشكل، فلا شكّ في أنّها ستكسب على الأقلّ أربعة عشر أو خمسة عشر باونداً بعد ثلاثة أسابيع. كانت نحيلة الجسم، لذلك قد لا تبدو سمينة، لكنْ لا أحد في لائحة المدعوّين بعيد بما فيه الكفاية كي لا يلاحظ الفرق. تناولت رشفة أخرى من ماء الزهر الذي أعدّته لنفسها، وقالت:

"احرصي على عدم الإفراط في الأكل خلال هذه الأسابيع، هل اتّفقنا يا عزيزتي؟ لم أقل لا تأكلي، ولكن كوني حذرة"

هزّت إيلا رأسها إلى الأمام والخلف وقد تدلّت قطعة برك من فمها. لم تكن تعرف كيف ستقاوم الطعام، لكنّها ستبذل جهدها. سترجع إلى باريس خلال يومين، وسيكون من الصعب أن تمنع نفسها من تناول طعام دوفال الشهيّ ومختلف الأطايب الباريسية. ستعاني أيضاً من صعوبة أخرى: الذهاب إلى الحمّام وهي ترتدي ثوب الزفاف. فهي تُضطرّ إلى دخول الحمّام كلّ ربع ساعة منذ بداية حملها. لم تتحرّك من مكانها خلال الساعة الأخيرة لكي لا تقاطع كلام أمّها، ولكي تملأ آخر زاوية خالية في معدتها، إلاّ أنّها لم تعد تستطيع الاحتمال. لذا، أسرعت عبر الممرّ، بينما بدأت فيردا تفكّر بطراز الفستان. لن تكون الطرحة الطويلة أمراً ممكناً على الإطلاق.

فهمت السيّدة نسيبة ما كان يجري في المنزل في الأوقات التي كانت فيها بوعيها، لكنّها كتبت روايتها الخاصّة التي تناسب الوقائع في الأيّام التي لم تكن فيها كذلك. استناداً إلى تلك الروايات، كانت فيردا في بعض الأحيان مدبّرة المنزل التي تسرق المقتنيات الثمينة. لهذا السبب أصبحت السيّدة نسيبة فقيرة، فقد خسرت بسببها كلّ مقتنياتها. ليس هذا فحسب، بل إنّ تلك المرأة أغرت زوجها أيضاً، كانت تعرف ذلك. وغالباً ما تردّد: "اللعنة على كلّ قرش أعطيتك إيّاه. اشتريتِ الهدايا، والدفاتر، والأقلام لأولادك كلّ عام، واشتريت فستان الزفاف لابنتك، اللعنة عليك. ألا تخجلين من العبث مع رجل بسنّ أبيك؟" وكانت في أحيان أخرى والدة السيّدة نسيبة. في تلك الأيّام، تظنّ السيّدة نسيبة أنّها ممدّدة على الفراش لأنّها حامل، وتشكر أمّها كثيراً لأنّها تأتي لرعايتها. ماذا كانت ستفعل من دونها؟ ذاك الرجل، زوجها، بدأ منذ الآن بالخروج كلّ ليلة منذ أن أصبحت حاملاً. كان يتركها بمفردها في منزل كهذا. أساساً، ماتت فُسون بسببه. فهو لم يعطها المال لتتمكّن من شراء الغذاء لطفلتهما، فماتت في النهاية. لكنّها لن تسمح له بقتل هذا الطفل أيضاً. توسّلت لأمّها قائلة: "لن تسمحي له بفعل ذلك مجدّداً، أليس كذلك؟ سنعتني بهذا الطفل معاً، هل اتّفقنا؟" ثمّ يثور غضبها على أمّها وتتّهمها بأمور كثيرة. لطالما أحبّت ذلك العفريت أكثر منها، صحيح؟ كانت فيردا تعرف أنّ العفريت هو خالها الذي اعتادوا على مناداته بهذا الاسم. وبما أنّها كانت تناديه هي أيضاً خالي العفريت طوال حياتها مثل الجميع، لم تكن تعرف اسمه الحقيقي. كان خالها العفريت معروفاً بكونه رجلاً ذكياً جدّاً. فقد كان يتقن الاهتمام بكلّ شيء، ويبرع في الخدع. واستناداً إلى القصص، خدع شقيقته السيّدة نسيبة مرّات عديدة. فقد اختفى مدّة طويلة بعد وفاة أبيهما ولم يرجع إلى المنزل إلاّ بعدما نفد منه المال، فاستولى على كلّ ما ادّخرته الأمّ، لا بل وضع يده أيضاً على مبلغ كانت قد احتفظت به لمهر

السيّدة نسيبة. لكن، على الرغم من كلّ ذلك، كانت أمّهما تمدحه دائماً، ولا تسمح لأحد أبداً بذكره بالسوء. لهذا السبب، سألتها السيّدة نسيبة الآن: "لطالما أحببت العفريت أكثر منّي، أليس كذلك؟" فمع أنّها كانت فتاة طيّبة، إلاّ أنّها لم تتلقّ العاطفة نفسها من أمّها.

أكثر ما كان يصدم فيردا هو عندما تخلط أمّها بينها وبين نفسها. حتّى إنّ نظراتها تتغيّر في تلك اللحظات. فتصيح: "نسيييبة! كانت البنات يقفن في الصفّ للزواج من ابني، لماذا اختارك أنت؟ إنّك كبيرة جدّاً عليه. أعرف أنّك خدعته، وإلاّ لماذا أرادك؟ أنت أكبر منه، كما أنّك كاذبة. تقولين إنّك في الثانية والعشرين. لتحلّ عليّ اللعنة إن كنت في الثانية والعشرين. سأقطع يدي إن لم تكوني على الأقلّ في الثامنة والعشرين. حتّى إنّ صدرك متهدّل. لماذا لا تقولين شيئاً؟ هل أكلت القطّة لسانك؟ أنا واثقة أنّ ضغط دمك سينخفض الآن، وسيغمى عليك، أليس كذلك؟" كانت فيردا تتمتم، من دون أن تعرف بماذا تجيبها في تلك الحالة. هل كانت أمّها تفقد وعيها حتّى في شبابها؟ في بعض الأحيان أيضاً، تصبح السيّدة نسيبة جدّة فيردا، وتنصح نسيبة الشابّة قائلة: "اسمعي يا نسيبة، أصغي إليّ جيّداً. بعض الأمور تحدث، وليس عليك إخبارها لأحد. ماذا يمكننا أن نفعل؟ هكذا هي. لا ترتكبي الأخطاء نفسها في المرّة التالية. إن حاولت حماتك أن تجبرك على الكلام، لا تقولي شيئاً. لا تعطيها سبباً. إنّها ماكرة، وسترين كيف ستحاول خداعك لكي تتكلّمي. أبقي فمك مقفلاً"

كان من المستحيل ألاّ تتساءل فيردا عن معنى ما تقوله أمّها. ومع أنّها تعبت من كثرة الشخصيّات التي تملكها أمّها، إلاّ أنّها تشوّقت لاكتشاف سرّ حُفظ لسنوات، أو سرّ عائلي لم تعرف به. ما هو الشيء الذي لا يجب قوله لأحد؟ ما هي الغلطة التي لا يجب أن تتكرّر؟ هل كانت أمّ أبيها تهين أمّها هكذا؟ هل اتّهمتها فعلاً بأنّها خدعت ابنها؟ كانت

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

تظنّ أيضاً أنّ أمّها أكبر سنّاً ممّا قالت. كانت هذه المرأة الممدّدة أمامها تبدو أكبر بكثير من خمسة وثمانين عاماً. بدت أقرب إلى الثامنة والثمانين أو التاسعة والثمانين.

من يعرف مدى صحّة القصّة عن أبيها الذي لم يعطها المال لشراء الطعام للطفلة. كان والدها دائماً بالغ اللطف معها ومع أخيها. في الواقع، لطالما كان أقرب إليها من أمّها. وكانت تعتقد - شأنها شأن جيرانهم - أنّ أمّها كانت السبب في وفاة أبيها في سنّ مبكرة. ففي معظم ذكرياتها عن طفولتها، تتذكّر أمّها طريحة الفراش، ووالدها يجهّز لهم العشاء. كان هذا أساساً أحد الأسباب التي دفعت فيردا إلى بدء العمل في المطبخ في سنّ مبكرة جدّاً. كان لديها سبب أكثر أهمّية من إطعام نفسها وأخيها، ألا وهو منع أبيها من الهرب. كلّما رآها والدها في المطبخ والوِزْرَة حول خصرها، كان يمرّر يده على شعرها بلطف، ويثني دائماً على طعامها. لهذا السبب، لم تستطع فيردا أن تتخيّل أنّ رجلاً مثله عذّب طفلته التي ولدت قبلها. من جهة أخرى، كانت تعرف أنّ قصّة قيام أبيها بخيانة أمّها مع الخادمة مختلقة. فهي لا تذكر أبداً أنّهم كانوا يملكون خادمة في منزلهم. لا بدّ أنّ هذه الحادثة من نسج خيال السيّدة نسيبة.

الآن، كانت أمّها تتبعها بنظراتها من حيث تستلقي على فراشها، وهي تتنقّل وتتدخّل في كلّ المسائل عندما تكون بوعيها. أوّلاً، ألن يأتي دوفال هذا لطلب يد إيلا؟ لم تكن تأبه لكونه فرنسياً، فهذه عاداتهم وعليه أن يحترمها. ومع أنّ فيردا كانت تقوم بملايين الأشياء في وقت واحد، إلاّ أنّها شعرت أنّ عليها الإجابة على أسئلة أمّها. دوفال سيأتي. سيصل قبل أسبوع من الزفاف مع إيلا، وسيقابلهم. لكنّ السيّدة نسيبة ظلّت تقول: "لم أسمع بهذا من قبل. كيف ستعرفون شخصاً خلال أسبوع؟ من هي عائلته؟ أيّ نوع من الأشخاص هم؟ عليهما أن يبقيا مخطوبَين لمدّة من

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الزمن. أيـن هدية العـروس؟" ومـع أنّ فيـردا طرحت على نفسـها بعض هذه الأسـئلة، إلاّ أنّها لم تسـتطع مقاومة الضحك عندما ذكرت أمّها هدية العروس. فهي لا تعتقد أنّ الفرنسـيين يعرفون شـيئاً عن الشـوكولاته التي يتـمّ إحضارها فـي صينية فضّيـة إلى العـروس عندمـا تأتي أسـرة العريس لطلب يدها.

وبما أنّ إيلا لم تخف أيّ أسرار عن جدّتها يوماً، أرادت إخبارها عن حملها. لكـنّ فيردا تدخّلـت وأقنعتها بالعكـس. إذ قالت لابنتهـا إنّ تفكير السـيّدة نسـيبة أصبح مشوّشـاً، ومن الممكن أن تقول أيّ شـيء لأيّ كان. فقبلت إيلا مكرهة. غير أنّ السـيّدة نسـيبة لم تقطع روابطهـا بالعالم تماماً. فعندما تحدّثـت فيردا مع زوجة أخيهـا على الهاتف وعلمت أنّ كلّ شـيء أصبح جاهزاً مع مأمور الزواج، فتحت السيّدة نسيبة الموضوع من دون أن تسمح لابنتها بالتهرّب: "لا شكّ أنّ تلك الفتاة في ورطة، لهذا السبب أنتم مسـتعجلون" بعدما وقفت فيردا مصدومة للحظات قرب الهاتف، دخلت غرفة أمّها.

"من أين أتيت بتلك الفكرة؟"

"لأنّها ستتزوّج بسرعة"

"ألا تعرفين حفيدتك؟ فهي لا تقوم بشيء بطريقة طبيعية"

"كفاك تهرّبـاً، فهمت منذ ليلـة وصولها على أيّ حـال. كلّكم صمتّم فجأة، ثـمّ تمتم سـنان شـيئاً، وتصـرّف الجميـع بغرابـة. ووجههـا مضيء كالقمر، حتّى إنّها أكثر جمالاً الآن. الحمل يلائمها، ستنجب صبيّاً"

"كيف عرفت ذلك؟"

"لو كانت فتاة، لأصبحت أكثر بشـاعة. عندما حملت بفُسـون تعبت بشرتي كثيراً. ثمّ حملت بك، فأصبحت أسوأ شـكلاً. كان هذا قبل أن يبدأ والدك بخيانتي"

"ربّاه، ماما! كيف نصل دائماً إلى هذا الموضوع؟"
"حسناً، حسناً. لكنّكم جرحتموني. لماذا أخفيتم الأمر عنّي؟"

أجابتها فيردا: "فكّرنا أنّك ستستهجنين الأمر متجنّبة مسألة فقدان الذاكرة. كانت قد حاولت إخبارها كيف أنّها تفقد إحساسها بالواقع أحياناً ولا تعرف ما تقوله، لكنّها لم تستطع إقناعها. لم تكن السيّدة نسيبة تعرف شيئاً عن تلك الفترات. في الواقع، إن أكلت شيئاً وهي غير واعية لما حولها، ثمّ استعادت تركيزها، فهي لا تتذكّر عادة أنّها أكلت، وتسأل فيردا عن سبب عدم تقديمها بعض الطعام لها؟ هكذا، كانت تتناول عادة وجبتين متتابعتين.

وبما أنّ ذلك الجواب أرضاها، لم تلحّ على الموضوع. لكنّ أسئلتها لم تنته بعد. متى سيقيمون الحفل؟ وما هو عدد المدعوّين؟ وما الطعام الذي سيُقدَّم؟ وما شكل قالب الحلوى؟ هل ستقومان بخياطة فستان الزفاف أم ستشتريان فستاناً جاهزاً؟ قالت: "اسمعي نصيحتي، واشتري فستاناً أكبر بمقاس واحد. ماذا لو لم يعد يناسب مقاسها في الدقيقة الأخيرة؟"

بالطبع، وصلت إلى الموضوع الرئيس في النهاية. ماذا سيفعلون بها يوم الزفاف؟ يجب أن تكون حاضرة لأنها جدّة العروس. آه كم حلمت لسنوات بالرقص في ذلك النهار، لكن للأسف لن يحدث ذلك. كيف ستذهب إلى الزفاف وهي طريحة الفراش هكذا؟ كانت فيردا تحاول إقناع أمّها بالجلوس على كرسيّ متحرّك منذ أشهر. فعندما بدأت مشكلة دخول الحمّام، عرضت السيّدة حنيفة، جارة فيردا، إعطاءها كرسيّ أبيها الراحل، لكنّهم لم يستطيعوا إقناع السيّدة نسيبة بالجلوس عليه. فهي مشلولة، لذا كيف ستتمكّن من البقاء متوازنة على الكرسيّ؟! وكيف ستجلس عليه كلّ يوم؟ كلاّ، لا تستطيع رفع نفسها بذراعيها. هل تملك أساساً قوّة في

ذراعيها؟ ولـن تتمكّن فيردا من رفعهـا وإنزالها بنفسـها، أليس كذلك؟ من سيفعل ذلك إذاً؟ كانت الحفاضات مناسبة تماماً. هل هي تشمئزّ من أمّها؟ ألم تغيّر أمّها حفاضاتها عندما كانت طفلة؟

أمّا الآن فبـدت أكثر إيجابية حيال اسـتخدام الكرسـيّ المتحرّك ليوم واحد. سـتتحمّل أيّ شـيء من أجل حفيدتهـا العزيزة. أمرت فيـردا قائلة: "أخرجي فسـاتيني" يجب إرسـال ما سـترتديه إلى المصبغـة. أين بروش الأزهـار الخاصّ بها؟ من سـرق البـروش الوردي؟ هل سـرقته هـي؟ إنّها تسـرق كلّ شـيء على أيّ حال. ألـم تقبـض عليها وهي تحاول أن تسـرق المال من تحت وسادتها منذ يومين؟ فجأة، أصبحت فيردا مجدّداً الخادمة التي لم يملكوها قطّ.

9

تحـوّل الربيـع إلى صيـف رطب، وعلـى الرغم مـن الخضّـات التي تعرّضت لها ليليا، إلاّ أنّ كلّ شـيء بقي على حاله. دخل آرني المستشـفى مرّتين إضافيّتيـن خلال الأشـهر الثلاثة الماضيـة، إلاّ أنّه أعيد مجـدّداً إلى المنزل لعدم إمكانيّة فعل شـيء من أجله. فالجلطات الدموية التي أصابت أجزاء عدّة مـن دماغه أثّرت علـى أجزاء مختلفة من جسـده، وفيما شـفي بعضها، ظـلّ بعضها الآخـر موجـوداً. كان قد تعب مـن هذا الشـكّ الذي يسـيطر على حياتـه. فأكثر ما كان يخشـاه هـو أن يصاب بالشـلل ويواصل حياته وكأنّه قطعة أثاث في المنزل. كان هـذا الأمر يخيفه أكثر من الموت. لم تتخلّف زوجته عن تلبية كلّ احتياجاته، لكنّها لم تبد له أيّ تعاطف على الإطلاق. كانـت نظراتها جليديـة تقريباً. عـرف آرني أنّه لم يسـبق لهما أن كانا مقرّبين إلى هذا الحدّ، لكنّ المسـافة التي تفصـل بينهما الآن أصبحت أكبر من أيّ وقت مضى. لم يتحدّثا منذ وقت طويـل إلى حدّ أنّهما أصبحا عاجزَين عـن إيجاد مـا يقولانـه عندمـا يتواجدان فـي غرفة واحـدة. على أيّ حال، لم تكن ليليـا تمضي معه وقتـاً أطول ممّا هو ضـروريّ لإحضار الطعام، وتنظيف الغرفة، والاهتمام بحاجاته الجسـدية. وقـد أصبح معتاداً حقّاً على أصوات الأواني الصادرة مـن المطبخ. كان يحزر أيّ خزانة تفتح ليليا، وأيّ قدر أو مقلاة تستخدم، لا بل وأيّ طعام تطهو من حيث يستلقي على فراشـه. مـا زال يكـره رائحـة الطعام التـي تجتـاح غرفته وتسـتوطن بيجامتـه، وملاءاته، ووسـادته، لكنّه لـم يعد يجـرؤ على الاعتـراض. فقد أدرك أخيراً أنّ الرائحة تصبح أكثر حدّة في الأيّام التي يزعج فيها ليليا.

لم يعد النزلاء يجتمعون في المطبخ بقدر ما كانوا يفعلون من قبل، وهذا ما أضفى على المكان شيئاً من الهدوء أيضاً. على حدّ علمه، غادر اثنان منهم وأتى نزيلان جديدان. لم يكترثا للتعرّف عليه، ولم يشأ التعرّف عليهما أيضاً. واللذان رحلا منهم لم يكلّفا نفسيهما عناء وداعه. في تلك الأيام التي حدث فيها التغيير أصبحت ليليا أدكن لوناً، ولم تحاول إخفاء احمرار عينيها. فكّر كم أنّها غبيّة. هل ظنّت أنّهم سيعيشون معها لبقيّة حياتهم؟

علمت ليليا بالطبع أنّ نزلاءها لن يعيشوا معها إلى الأبد، إلاّ أنّها وجدت صعوبة مع ذلك في منع دموعها من الانهمار عندما أخبرها فلافيو أنّه سينتقل. فقد وجد شقّة في مانهاتن مع ناتالي، وهما يريدان المكوث هناك حتّى انتهاء إقامتهما. كانا يخطّطان للذهاب إلى إسبانيا بعد ذلك والزواج هناك. حاولت ليليا أن تبتسم وقالت: "بالطبع، هذه خطّة رائعة" ومع أنّه مضى وقت منذ أن توقّفت تخيّلاتها حول فلافيو، إلاّ أنّ ما تبقّى من تلك الأحلام فطر قلبها على الرغم من ذلك.

ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي لوضع إعلان جديد، ووجدت نزيلَين جديديْن للغرفتين. رحل فلافيو وناتالي ووعدا بزيارتها مجدّداً في المستقبل. فأين سيتذوّقان مثل الطعام الشهيّ الذي تعدّه؟ لن يجدا مثل طعامها في أيّ مكان آخر. بالطبع، سيفتقدان إلى كعكها اللذيذ أيضاً، لكنّهم سيرون بعضهم قريباً جدّاً، أليس كذلك؟ لن يقوم فلافيو وناتالي بزيارة ليليا أبداً. سيتحدّثان عنها ويقولان إنها امرأة طيّبة ولطيفة، ولكنْ مهما شعرا بالذنب حيال ذلك، فإنّهما لن يجدا الوقت لزيارتها. فقط بعد مرور سنوات، عندما سيأتيان من إسبانيا إلى نيويورك في ذكرى زواجهما، سيرغبان في رؤية المنزل الذي التقيا فيه. وعندما سيقفان أمام 102 طريق كلينتون، سيدركان أنّ شخصاً آخر يعيش في المنزل الآن، ولن يطرقا الباب. وسيتساءلان عمّا حلّ بها وهما يحتسيان القهوة في أحد المقاهي.

"هل تعتقد أنّها ماتت؟"

"لا أدري"

"كانت مغرمة بك حقّاً، المسكينة"

"لا تذكّريني

لم تستغرق ليليا وقتاً طويلاً لتعتاد على النزيلَين الجديدَين. وكما فعل الآخرون في الماضي، حاولا تمضية معظم وقتهما في المطبخ خلال الأسابيع الأولى، وفهما كيفيّة الحياة في هذا المنزل. عرّفتهما ليليا على الثقافة الأميركية؛ تماماً كما فعلت مع الآخرين. لا يجب عليهما الذهاب إلى منزل أيّ شخص قبل الاتّصال به، ولا يجب عليهما أبداً التحديق إلى الناس، ولا العراك مع أحد في الشارع. وإن دعاهما أحد إلى العشاء، فعليهما إرسال رسالة إلكترونية في اليوم التالي لشكره على العشاء اللطيف. بالإضافة إلى ذلك، إنّ أفراد الأسرة التي تعيش على بعد منزلين ليسوا سوداً، بل إنهم أفريقيون أميركيون. لقد تعلّمت من خبرتها السابقة. سيبدأ إيال من إسرائيل، وأليكس من صربيا حياتهما الخاصّة بعد مرحلة معيّنة. وهكذا، استمتعت بوجودهما، لكنّها لم تتوقّع دوام ذلك.

عليها أن تدخل بعض التغييرات إلى مطبخها مع مجيء إيال وأليكس.

جلست ليليا أمام شاشة الكمبيوتر وقرأت عن أطباق مختلفة من تينك الثقافتين. إذ إن ليليا لا تنوي ترك ضيفيها يتضوّران جوعاً. وبالإضافة إلى كلّ ذلك، واصلت تجاربها مع السوفليه، وحاولت تطبيق وصفة واحدة من الكتاب في كلّ مرّة. أصبحت تعرف الوصفة الأساسيّة عن ظهر قلب، ولا تنظر إلى الكتب سوى للاطّلاع على مكوّنات النوع الذي تعدّه. في بعض الأحيان، كان وسط السوفليه يهبط بسرعة، وفي أحيان أخرى يبقى صامداً لمدّة أطول. أصبحت متعلّقة فعلاً بالطعم

وبالتجربة على السواء. قرأت على أحد مواقع الإنترنت أنّ النشاء يساعد على انتفاخ القالب أكثر، لكنّها لم ترغب في استخدامه. فالحماسة التي تشعر بها لدى انتظار تلك اللحظة، والخيبة والسعادة ولّدت أحلى اللحظات في أيّامها التي أصبحت بلا هدف. ومثلما يضيء إيال شمعة قبل ثماني عشرة دقيقة من غروب الشمس، ومثلما يتأمّل كانو في أثناء الشروق، ومثلما تمارس أولاّ اليوغا واضعة يديها على ركبتيها، وجدت ليليا العزاء في تلك اللحظات.

قرّرت ألاّ تسأل آرني شيئاً عن الوصيّة. فقد عرفت أنّه لن يبدّل رأيه مهما قالت، وأنّه لن يحترم شيئاً ممّا ستقوله على الإطلاق. وبدأت تدّخر المال الذي توفّره من ميزانيّة البقالة والمنزل، وحاولت أن تؤمّن مستقبلها ببضعة آلاف من الدولارات. لم يتّصل جيانغ ودونغ بآرني سوى مرّة واحدة خلال أشهر، ولم يشعرا أنّ عليهما زيارته. لم تسأل ليليا عمّا قالاه له، أو عن سبب عدم مجيئهما كما كانت تفعل من قبل. ولم ترغب في أن تعرف ما تحدّثوا عنه، ولا رأي آرني به. كانت تشعر بالتعب إلى حدّ أنّها لا تقوى على قول كلمة أو طرح سؤال. ومهما كانت متفائلة عندما تستيقظ في الصباح، كانت تعود إلى فراشها كلّ مساء لتحتضنها الأفكار السوداء. يجب أن تنتهي حياة آرني لكي تبدأ بعيش حياتها، وتتمكّن من امتلاك حياة خاصّة بها. راودتها في معظم الليالي أحلام عن موت آرني، وكانت تستيقظ وهي تشعر بسعادة تامّة. حتّى إنّ أفكارها لم تعد تُشعرها بالخجل. إن كانت هذه هي خشبة خلاصها الوحيدة، فستتعلّق بها. في صباح تلك الليالي، كانت تنزل إلى الطابق السفلي ببطء، وتدخل غرفة آرني وهي تشعر بالأمل. وإن وجدت زوجها نائماً، راقبته بعناية لترى إن كان يتنفّس، وإن لم تتأكّد، كانت تدنو منه وتقرّب وجهها من وجهه. عدّة مرّات، فتح آرني عينيه في تلك اللحظة بالذات، وكانت على وشك أن تصاب بذبحة قلبية. لم يكن يستطيع منع نفسه من الابتسام. كان يقول

"صباح الخير" وكأنّه يريد الانتقام في كلّ مرّة، ويضيف: "هل كلّ شيء على ما يرام؟"

أدركت ليليا الآن أيّ طريق رسمته لنفسها طوال حياتها. لقد عاشت حياة الآخرين عندما ظنّت أنّها تعيش حياتها، وأسّست حياتها حولهم. لم تستطع لوم أحد على ذلك. فكلّ القرارات اتّخذتها بنفسها. في الواقع، تجاهلت تحذيرات بعض أصدقائها قبل زواجها بآرني، ولم تصدّق سوى ما كانت تراه. لم ترغب أيضاً في الإصغاء إلى إخوتها قبل أن يتبنّيا دونغ وجيانغ. تذكّرت الآن حديثاً جرى بينها وبين إحدى صديقاتها في مترو الأنفاق في مانهاتن. كانت قد توقّفت عن العمل مؤخّراً، وقرّرت تكريس نفسها بالكامل للطفلين اللذين سيتبنّيانهما. يوم ذاك قالت صديقتها: "أتمنّى ألاّ تندمي على هذا اليوم، فعلى المرأة أن تكسب مالها" إلاّ أنّ ليليا كانت دائماً مفعمة بالأمل لتتمكّن من رؤية الخطوة التالية.

وما زالت الآن تفعل الشيء نفسه. ما زالت تؤسّس حياتها على حياة الآخرين. فاستمرار حياتها المتواضعة يعتمد على كيفيّة عيش الأشخاص الآخرين الموجودين في حياتها كما يرغبون. عليهم أن يأكلوا لكي تجد ليليا سبباً تعيش من أجله خلال النهار. وعلى آرني أن يدخل الحمّام تحت إشرافها لكي تجد سبباً للاستيقاظ صباحاً. أدركت هذه الحقيقة المؤلمة يوماً وهي تحرّك الطعام في القدر مرّة أخيرة قبل أن تخفّف الحرارة. شعرت بالدوار في تلك اللحظة. لم يسبق لها قطّ أن اضطربت إلى هذا الحدّ في لحظة وعي مفاجئة. فجرّت نحوها أحد المقاعد وجلست عليه. كانت واثقة أنّها كانت ترغب في تحقيق شيء ما عندما أتت للمرّة الأولى إلى هذه القارّة من بلدها الواقع على بعد أميال. لكنّها في الحقيقة فشلت حتّى في حبّ شخص ما، فما بالك في أن يحبّها شخص آخر في النهاية. في هذه الحالة، بلغت مرحلة أنّ كلّ يوم كان إطاراً زمنياً تتنفّس فيه. ولم تكن للأيّام أهمّية، أو سبب، أو نتيجة. لم تكن تحتاج إلى الذهاب إلى

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

السوبرماركت لشراء البقالة لو لم تكن مضطرّة للطهي لنزلائها، ولم تكن تملك فكرة كيف تمضي تلك الساعات الفارغة.

كلّ العواطف التي احتفظت بها لسنوات تجلّت بوضوح في عقلها وهي جالسة على ذلك المقعد. كان من المستحيل بالنسبة إليها ألاّ تشعر بالعجز. لم تكن تعرف كيف لها أن تغيّر حياتها، ولا من أين تبدأ، وما إذا كانت تملك الوقت للقيام بذلك. فأسوأ شيء هو أن يدرك المرء أنّه أضاع حياة كاملة. حاولت أن تتخيّل كم من ملايين الأشخاص لم يملأوا سوى البقعة التي ولدوا فيها، وكم من ملايين الناس يواصلون العيش لمجرّد أنّهم ولدوا، ويسرقون السعادة والنجاح والصحّة من الآخرين. تذكّرت رجلاً كندياً قال منذ بضعة أيّام على التلفاز إنّه يحقّ لكلّ كائن بشري استخدام ثلاثة عشر غالوناً من المياه كلّ يوم، ونظرت إلى الموضوع الآن من زاوية مختلفة تماماً. فأشخاص مثلها لا يعرفون لماذا يعيشون، لم يفعلوا سوى امتصاص الطاقة من الأرض، والسرقة من أولئك الذين وجدوا لحياتهم سبباً.

مع كلّ دقيقة تمرّ، كان عقل ليليا يزداد صفاءً، بينما يزداد قلبها اسوداداً. لا تذكر وقتاً آخر شعرت فيه أنّها بلا قيمة إلى هذا الحد. لم تتخيّل منذ سنوات، وهي جالسة على مقعد في مطبخ أمّها في الفيليبين تشاهدها وهي تطبخ، أنّها ستفكّر بعد سنوات بالتخلّي عن وجودها. كانت أمّها تطهو وتذكر الخطوات لابنتها في الوقت نفسه؛ تماماً كما تفعل النساء اللواتي يعطين وصفات على التلفاز اليوم. "نضيف الآن كوباً من الدقيق، وكوباً من نشاء الذرة" وعندما كانت تدرك أنّها تفتقد إلى أحد المكوّنات، لم تكن تغضب، بل تلتفت بهدوء إلى ليليا وتقول: "لا تنسي، لكلّ مكوّن بديل. أهمّ شيء هو عدم الإصابة بالهلع" احتفظت ليليا دائماً بتلك النصيحة في ذهنها وهي تطهو. وربّما عليها الآن تطبيقها على حياتها أيضاً.

عندما كانت فتاة صغيرة، اعتقدت ليليا، شأنها شأن جميع الفيليبينيين تقريباً، بوجود أشـخاص يعيشـون على كوكب آخر، ويأتـون لزيارتهم من وقت إلـى آخـر، ويزوّدونهم بأنبـاء عن كوكبهـم. كانت تحبّ فعـلاً إخبار العجائز عن الأحلام التي تراودها ليفسّروها لها.

أتت ليليا إلى الولايات المتّحدة في أواسـط الستّينيات. كانت مطّلعة على الثقافة الأميركية لأنّ حضارة الغرب الأقصى تلك أمضت وقتاً طويلاً في بلادها. لكن، عندما وجدت نفسـها في نيويورك وسـط أهمّ التغييرات السياسـية والثقافيـة فـي العالـم، تبـدّل كلّ ما عرفتـه. إذ بـدا نمـط الحياة الأميركـي الذي رأتـه في بلادها أشـبه بتقليد رخيـص للواقع. فقـد تعلّموا كيف يلبسـون ويأكلون مثل الأميركيين، لكنّ امتلاك العقلية الأميركية كان شيئاً مختلفاً تماماً. وتلك الشابّة الجميلة الآتية من بعيد حملت آثار الكثير من الثقافات. كانـت تتكلّم الإنكليزيـة، والإسـبانية، والفيليبينية، وتمكّنت من إيجاد مكان لنفسـها في عالـم الفنّ، والموضـة، والفكر فـي نيويورك. وبقدر ما حاول أولئك الأشـخاص الذين أتوا من قـرى الولايات المتّحدة النائيـة وأصبحوا نيويوركيين التشـديدَ على صفـات ليليـا الغريبة، حاولت ليليـا تجريد نفسـها منهـا. كان ذلـك هـو السـبب الأساسـي وراء تغييرها اسـمها بطبيعة الحال، وليس لأنّه يلفظ بطريقة غير صحيحة. وكلّما حاول الأميركيون جعلها فيليبينية أكثر، أصبحت أميركية أكثر.

لهـذا السـبب كانـت تقبّـل أصدقاءهـا علـى خـدّ واحـد، ولا تقـف لمرافقتهـم إلـى الخارج عندمـا يأتـون لزيارتها فـي منزلها. ولهذا السـبب تسـأل عن وظائف الناس مع أنّها لا تهتمّ بها. في البداية، كانت تقاوم فعلاً قلب طبقها رأساً على عقب عندما يترك أحدهم الطاولة باكراً، لأنّه بحسب الثقافة الفيليبينية، إنّ هذا يمنع المجاعة من دخول المنزل. لكنّها تخلّصت من كلّ تلك الخرافات فـي النهاية. ومـع أنّها رغبت في تحذيـر أصدقائها الذين يلقون بقايا الأرزّ في سـلّة المهملات بالقول إنّ ذلك سـيجرّ عليهم

الفقر، إلاّ أنّها لم تفعل. فمع مرور الزمن، لاحظت أنّ لا أحد يصبح فقيراً في أميركا بسبب رمي الأرزّ، وأنّ العذراوات لسنَ مضطرّات للزواج من رجال عجائز لمجرّد أنّهن قمن بالغناء في أثناء طهي الطعام، وأنّ النساء لا ينجبن التوائم لأنهنّ أكلن موزاً أثناء الحمل...

ما كانت لتعرف أنّ تلك المعتقدات، والشعوذات التي عرفتها لسنوات عديدة سيتجمّع عليها الغبار، وستُنسى. لهذا السبب، عندما مزجت بعض الدقيق والماء وحوّلتهما إلى عجينة رشّت عليها الملح والفلفل لم ينجح الأمر. جرّبت الأشياء التي تعلّمتها من الماضي بضع مرّات لاحقاً، ومع ذلك، لم ينفع شيء، ولم تتحقّق أمنياتها. لا بدّ أنّ معتقداتها أدارت لها ظهرها؛ تماماً كما فعلت هي في الماضي. ومهما أغمضت عينيها بشدّة، فلن تتمكّن من شفاء حزنها؛ فالسنوات العشرون الأولى من حياتها مسحتها السنوات الأربعون الأخيرة. توقّفت عن المحاولة بعد مدّة. لا بدّ أنّ أمّها كانت مخطئة. لا يمكنها إنقاذ حياة بأكملها مثلما تنقذ طبقاً. لم يكن ثمّة بديل للمكوّنات المفقودة في الحياة، ولم تتمكّن من بلوغ السعادة التي تمنّتها مهما أضافت من النشاء. لا يمكن لبياض البيض جمع الأشياء التي تبعثرت في الحياة الواقعية. ولم تمتزج الطعمات لإنتاج نكهة واحدة شهيّة. كانت توابل الحياة إمّا زائدة أو ناقصة. فالكون لا يعرف كم يساوي مقدار رشّة من شيء ما.

عادت إلى الواقع مع رائحة طعام يحترق. التفتت وهي جالسة على المقعد، ونظرت إلى القدر الموضوعة على الغاز. احتاجت إلى بعض الوقت لتتذكّر أين هي، وفي أيّ عام، وفي أيّ حياة. ثمّ استجمعت أفكارها بعد دقيقتين وتذكّرت الطعام الذي تعدّه. ومن دون أن ترفع الغطاء، عرفت مدى احتراق الطعام. فوقفت، وخفّفت الحرارة، ثمّ رفعت الغطاء وأضافت كأساً من الماء الساخن. سيساعد هذا في إنقاذ الطعام.

* * *

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

نظر مارك إلى نفسه في المرآة وأدرك كم تغيّر خلال الأشهر التسعة الأخيرة. فشعره الذي حرص دائماً على قصّه أصبح أطول، ولحيته وشاربه اللذان قرّر الحفاظ عليهما غطّيا آثار السنّ على وجهه ببراعة، كما كانت عيناه محاطتين بهالتين صغيرتين أظهرتاه كشخص مغرم حديثاً، وليس كشخص متعب. ذلك الغرام كان غرام مارك بالحياة. لطالما اعتقد أنّه كان سعيداً جدّاً قبل وفاة زوجته. ولكن، بعد وفاتها، عندما بدأ يصارع الحياة، أدرك كم فاته منها، وكم كان من الممكن أن يكون أكثر سعادة. أصبح الطهي شغفاً بالنسبة إليه، وأخذ يقارن كلّ ما يتناوله في المطاعم بما يعدّه في البيت ويصحّح الأخطاء. كان يحضّر الطبق الذي يُجيد إعداده عدّة مرّات متتالية؛ حتّى تتركّز المعرفة والعادة في ذهنه.

كان المطبخ بالنسبة إليه الباب المفتوح على الحياة. أصبح يميّز الكثير من الروائح التي لم يكن يعرفها من قبل، وكأنّه بدأ يستخدم كلّ حواسّه منذ أن بدأ يطهو، بعد أن كان استخدامه مقتصراً على عدد منها. لم تعد رائحة الفاكهة والخضار ومذاقها يجذبانه فحسب، بل أصبح يتحسّس ملمسها أيضاً. وعندما رأى أنّ تغيّر الفصول ينعكس بوضوح على سوق الخضار، فهم للمرّة الأولى أنّ العالم بأسره كان تحفة فنّية كاملة. لم يفهم سوى الآن أنّ تقدير الفنّ بالنظر إلى الكتب أو اللوحات في المتاحف ليس سوى جزء صغير جدّاً من صورة أكبر بكثير. كان عليه أن يتعلّم من أيّ جزء من العجل يؤخذ اللحم الأطرى ليفهم أنّ أنيبال كاراتشي لم يستلهم من لوحات أخرى بل من عجل معلّق في محلّ جزّار. لم يفهم عمق كلارا إلاّ عندما تُرك من دونها. ولا يعني ذلك أنّ مارك نسي زوجته، إلاّ أنّه قَبِل غيابها واعتاد على حياته الجديدة. وهو ما زال يفكّر فيها كلّ يوم، ويتخيّل تعابيرها أو حركاتها، لكنّه تعلّم أخيراً أنّ عليه مواصلة الحياة هكذا: العيش مشتاقاً على الدوام.

ما زال يذهب إلى سوق تو لو مارشيه مرّة تقريباً كلّ أسبوع. لم

يكن يعرف كم سيستغرقه تجهيز مطبخ جديد عندما تخلّص من كلّ محتوياته القديمة. وربّما كان هذا سبب تعلّق كلارا بكلّ ما فيه. لا شكّ أنّها اعتبرته امتداداً لأسرتهما على مرّ السنوات. حاول مارك الذهاب إلى المتجر في الأيّام التي تعمل فيها سابينا، واعتاد على رؤية الوجه نفسه لأشهر متالية. بالطبع، سهّلت الشابّة تكوين تلك العادة. فشعرها لم يتغيّر قطّ، ولا وجهها الخالي من المساحيق، ولا زيّها الذي ترتديه في العمل، والأهمّ ابتسامتها التي لا تفارق وجهها. كلّ ذلك جعل مارك يشعر بالأمان. اعتبرها إنسانة لا تُنسى في أهمّ حقبة في حياته. ومع أنّهما لم يلتقيا قطّ خارج المتجر، ولم يدُر بينهما حديث طويل، إلاّ أنّه شعر أنّ صديقته الجديدة أصبحت تعرف ما يريد قوله، وما يريد البوح به. ذكرا كلارا بضع مرّات أخرى، فقط لأنّهما أرادا الإشارة إلى شيء ما، إلاّ أنّهما لم يتحدثا في تفاصيل أعمق. وجدت سابينا أيضاً بعض الأمان في صداقة مارك، وأصبحت واثقة من ولادة رابط خاصّ بينهما عندما قال لها إنّه يفضّل المجيء إلى المتجر في الأيّام التي تعمل فيها، وأراد بالتالي أن يعرف تلك الأيّام. لم تكن مغرمة بهذا الرجل الذي يكبرها سنّاً، ولم تتخيّل نفسها بين ذراعيه، إلاّ أنّها اعترفت لنفسها بأنّها تفضّل أن تكون معه عوضاً عن أشخاص آخرين. شعرت بالرغبة في دعوته إلى فنجان قهوة خلال استراحتها عدّة مرّات، لكنّها غيّرت رأيها في اللحظة الأخيرة. لا شكّ أنّ مارك سيدعوها إلى فنجان قهوة عندما يصبح جاهزاً. وحتّى ذلك الحين، يمكنهما الاكتفاء بالتجوّل بين أواني المطبخ، وتمضية بضع دقائق أمام مجموعات السكاكين الجديدة، والتحدّث في مواضيع مختلفة تماماً وهما يحدّقان إلى المبارش. لم يفهم أيّ منهما كيف كان الكلام يبدأ عن أيّ شيء ثمّ يتحوّل إلى حديث شيّق وذي مغزى. لكنّهما لم يفاجآ أيضاً عندما اكتشفا أنّهما يتحدّثان عن النهضة الإيطالية وهما يحملان مصفاة. بالطبع، لاحظ مدير سابينا الوقت الذي تمضيه مع هذا الزبون بالذات،

لكنّه لم يستطع قول شيء عندما قام بحساب مجموع ما أنفقه ذاك الرجل حتّى الآن.

بينما كان مارك يستعدّ للخروج أمام المرآة في شقّته، داعبته فكرة دعوة سابينا إلى فنجان قهوة للمرّة الأولى. كان واثقاً أنّ هذه الشابّة لن تسيء فهمه. فهو لم يكن مغرماً بها، هذا مؤكّد. في الواقع، كان يتمنّى من وقت إلى آخر لو يغرم بها، إلاّ أنّه كان يشعر بالارتياح معها أكثر من أيّ شخص آخر في حياته، باستثناء كلارا. لاحظ أيضاً أنّ سابينا لا تكنّ له أيّ مشاعر. وفي هذه الحالة، لا بأس بدعوتها إلى فنجان من القهوة. أضف إلى ذلك أنّه يشعر أنّه مدين لها. لا شكّ أنّه ما كان لينجح في تأسيس حياته الجديدة من دون مساعدتها. فقد كانت المرأة الشابّة تتقن وظيفتها، ولم تجعله يشتري شيئاً يندم عليه لاحقاً. في الواقع، لقد منعته من شراء بعض الأغراض التي أرادها لمجرّد أنّه رآها في مجلّة وظنّ أنّها مفيدة. قالت له: "لست بحاجة إلى آلة كهربائية لطبخ الأرزّ من أجل إعداد البيلاف" مثلاً، أو "هل تذكر المصفاة التي اشتريتها الشهر الماضي؟ يمكنك استخدامها لهذا الغرض أيضاً"، وهكذا وفّرت عليه بعض المال. بلى، عليه دعوتها إلى فنجان قهوة. حتّى إنّه يجدر به ربّما انتظار استراحتها ودعوتها إلى الغداء. بعدما نظر إلى نفسه مرّة أخرى في المرآة، رشّ بعض العطر داخل ياقته للمرّة الأولى منذ أشهر، وذهب إلى المطبخ. وضع اللائحة التي كتبها مسبقاً في جيبه، ورفع قليلاً صوت المذياع الموضوع دائماً على إطار النافذة. لم يكن عليه إضاءة المصباح، فالصيف لم يحمل معه الدفء فحسب، بل نهاراً أطول أيضاً. وبعدما تأكّد من أنّ الفرن والغاز مطفآن، غادر شقّته متوجّهاً إلى تو لو مارشيه.

بدأ ينتظر سابينا وهو يقلّب مقشرة تفّاح بيده. فهم أنّها لا تعامله على نحو مختلف نظراً إلى الاهتمام الذي تمنحه لبقيّة الزبائن. كانت

دائماً لطيفة ومحترمة مع الجميع. ولم يبد عليها أيّ إزعاج وهي تعرض كلّ أنواع كسّارات الجوز على إحدى الزبونات في تلك اللحظة، وتخبرها بماذا تختلف كلّ واحدة عن الأخرى. فكّر مارك أنّ امرأة مثقّفة مثلها، لا تعرف فقط عن أواني المطبخ بل تعرف الكثير أيضاً عن الفنون والأدب، لا يجب أن تعمل هنا. لم يسبق له أن سمعها تتذمّر، أو تشتكي من التعب أو الملل. لكن، لا بدّ أنّ هذا جزء من شخصيّتها الناضجة التي كوّنتها في سنّ مبكرة جدّاً. أراد أن يطرح عليها اليوم سؤالاً يراوده منذ أشهر. ماذا تريد من حياتها؟ ما هي مخطّطاتها؟ لا بدّ أنّ لديها هدفاً أسمى وضعته لنفسها.

هذا الاهتمام بحياة شخص آخر فاجأه فعلاً. ربّما لم يسبق له أن تساءل عن حياة الناس من قبل لأنّ حياته كانت شديدة التنظيم. كان مكانه ومكان زوجته في هذا العالم محدّدين، وكان هذا كافياً بالنسبة إليه. لم يشأ أن يعرف شيئاً عن أولئك الأشخاص الذين اعتبراهم أصدقاءهما، ولا عن آمو، ولا عن جارته في المبنى التي كانت تغلق باب المصعد ببطء لكي لا تصدر أيّ ضجّة، كما أنّه لم يكترث لمعرفة كيفيّة عيش أولئك الناس. ومع أنّ أوديت موجودة في حياته منذ سنوات، إلاّ أنّه لم يحاول قطّ أن ينظر إلى حياتها عن كثب ويرى ما الذي يحدث فيها. لقد عاشت أوديت زواجاً سعيداً، أليس كذلك؟ لقد أنجبت ولدين، وستصبح جدّة الآن. ماذا تحبّ؟ وماذا تكره؟

جارته في المبنى خسرت زوجها، أليس كذلك؟ لا بدّ أنّها تعاني من وحدة رهيبة. هل تملك أولاداً؟ هل يأتون لزيارتها؟ عندما فكّر فيها الآن أدرك أنّ ظهرها محدودب. فهي تمشي محنية الظهر. هل يؤلمها ظهرها؟ كان واثقاً أنّ كلارا تعرف إجابات كلّ تلك الأسئلة، لا بل وأكثر. حتّى إنّها ربّما تعرّفت على آمو أكثر منه. ألم تأخذ له حساء العدس إلى الصالة قائلة إنّه حساؤه المفضّل؟ متى عرفت بذلك؟ كيف قامت بإعداد ذلك الحساء،

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ووضعته في علب صغيرة، وحملتها إلى الصالة؟ ألـم تُحضر له أيضاً دواءً للزكام عدّة مرّات؟ كيف عرفت أنّه كان مريضاً؟ فهو لم يدرك ذلك حتّى.

لكنّـه يتسـاءل الآن لمـاذا تعمـل سـابينا هنـاك. هـل تخرّجـت مـن الجامعة؟ لا شـكّ في ذلك. ماذا درسـت؟ هل درسـت الفنون أم الأدب؟ لمـاذا لا تعمل فـي مجال مرتبـط بدراسـتها؟ من أين هـي؟ لا بـدّ أنّها من الجنـوب، فهـذا واضـح مـن لكنتها، ولكـن من أين؟ لـم يكـن بحاجة إلى سـؤالها عن سـبب مجيئهـا إلى باريـس، فالـكلّ يرغـب في المجـيء إلى باريس في النهاية. العالم بأسره يرغب في ذلك. لم يفهم مارك كيف تتّسع هذه المدينة لهذا العدد من الناس. لماذا يحشـر أولئك الأشخاص أنفسهم في تلك الشـقق الصغيرة؟ لم يسـبق له أن دفـع إيجاراً فـي حياته - بفضل والديه - لكنّه سـمع أنّ الناس يدفعون مبالغ طائلة للعيش في تلك الشـقق الصغيرة. كيـف جنى أولئـك الناس ذلك المـال؟ أين تعيش سـابينا؟ ربّما في الدائرة العشـرين، أو ربّما في ضواحي الدائرة الثامنة عشرة. هل يمكنه طرح كلّ هذه الأسـئلة؟ هل يحقّ له ذلك، أم إنّها ستكون شـخصيّة جدّاً؟ وقبل أن يتوصّل إلى جواب، أتت سابينا.

بدا مارك مختلفاً اليوم. كانت سـابينا تلاحظ التغييـر الذي يطرأ على حياة هـذا الرجل الـذي لا تعرفه على الإطلاق؛ بل تسـاعده فقـط كزبون. أصبح شعره أطول، وغرّته مائلة إلى اليسار. واختلط الشعر الأحمر بالشعر الرمادي في شاربه وذقنه. أمّا شـعره فقد خلا من اللون الأحمر. لم يفارق الحزن وجهه إطلاقاً، إلاّ أنّه بدا باعثاً على الهدوء، لا الاكتئاب. وبينما كان عاجزاً عن النظر إلى الأعلى في الأيّام الأولى، بدأ ينظر حوله بفضول أكبر مؤخّراً. ووجد ما يقوله أيضاً عوضاً عن الاكتفاء بالإصغاء. شـمّت سـابينا رائحة عطر. كانت رائحة تعرفها؛ إنه عطر منعش، رائحة البحر. هل اشتراه مؤخّراً؟ أم إنـه يملكه منذ وقت طويل وقد تركه فـي إحدى الزوايا، ووجد

الآن الشجاعة لاستعماله للمرّة الأولى منذ أشهر؟ ربّما هذا هو العطر الذي كانت زوجته تحبّه. ربّما احتفظ به في إحدى الزوايا لأشهر لأنّه يذكّره بزوجته.

اعتقدت سابينا أنّ مارك قد يقدم على الانتحار في أوّل مرّة رأته فيها. فقد كان بالغ الحزن واليأس، ولم يستطع احتمال شيء يذكّره بزوجته، لا سيّما هو نفسه. وعندما كان أسبوعان يمضيان من دون أن يأتي إلى المتجر، كانت سابينا تقول لنفسها: "لقد فعلها، لا شكّ أنّه انتحر ألا يملك مارك أصدقاء؟ لا تعرف. أليست لديه أسرة؟ أشقّاء؟ أقارب؟ ومع أنّها أرادت حقّاً معرفة إجابات تلك الأسئلة، إلاّ أنّها لم تجد الشجاعة لطرحها. وعوضاً عن ذلك، كانا يتكلّمان دائماً عن مسائل يومية في كلّ مرّة يتقابلان فيها، ويستسلمان إلى حيث يأخذهما مجرى الحديث. لم تنزعج سابينا من ذلك، فثمّة تفاصيل كثيرة عن حياتها لا ترغب في الحديث عنها على أيّ حال.

ربّما لهذا السبب لم تدعُ مارك إلى فنجان قهوة، مع أنّها فكّرت بذلك كثيراً. فلو سألها عن حياتها، فهي لا ترغب في الكذب، بل تودّ أن تكون صادقة. لهذا السبب، لم تكن تجري أحاديث طويلة مع الناس مطلقاً، أو تسمح بتحوّل الحديث إلى حياتها الشخصيّة. يمكنها أن تتكلّم عن أمور أخرى لساعات، كالسياسة، أو الفنّ، أو الكتب، أو أدوات المطبخ، ما لم تكن مضطرّة للحديث عن نفسها. كانت أساساً تشعر بالخجل لأنّها لم تخبر أسرتها التي تركتها في الجنوب سوى بجزء من قصّتها، وكذبت عليها. ولا ترغب بأن تحمّل ضميرها أكثر من ذلك.

لكن، على الرغم من كلّ هذه الأحاسيس، لم تتمكّن من رفض عرض مارك عندما سألها عمّا إذا كانت ترغب بتناول الغداء معه في ذلك اليوم، بعدما وضع كلّ ما يحتاج إليه في سلّته، وقبل أن يتوجّه إلى الصندوق. وعندما ذهبت بعد نصف ساعة كما اتّفقا، وجدته أمام أوتيل

دو فيل، يتفرّج على المتزلّجين على العجلات. كان المتزلّجون بسراويلهم الضيّقة الملوّنة والقصيرة قد بدأوا بملء المكان الذي يمارس الناس فيه رياضة التزلّج على الجليد خلال الشتاء. جرّب مارك التزلّج على الجليد بضع مرّات في طفولته بناء على إصرار أمّه، لكنّه لم يستطع حتّى أن يتخيّل نفسه على تلك العجلات. سابينا بالمقابل لم تجرّب أيّاً من الرياضتين. قالت لمارك: "لا بأس بالتزلّج على الجليد، لكن ألا ينتمي التزلّج على العجلات إلى الثمانينيات؟" تحدّثا كيف أنّ كلّ شيء تقريباً يبدو رديئاً من الناحية الجمالية في تلك الحقبة، على الرغم من فارق السنّ بينهما. فاعترفت سابينا أخيراً أنّها قامت في الماضي بتشعيث شعرها مثل الجميع. لم يفهم مارك معنى ذلك. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يسمع فيها بتلك التسريحة. بالطبع، إنه يذكر من دون شكّ حشوة الكتفين، فمن لم يقع ضحية تلك الموضة؟ أو السترات ذات الأكمام المرفوعة؟

عرف الاثنان أنّه لو كان بينهما أيّ كيمياء؛ أيّ نوع من الانجذاب، لما تمكّنا من الحديث عن تلك الأمور بهذه السهولة. وفي ظلّ هذا الغياب المريح للحبّ، ذهبا إلى المقهى المجاور. اختارا طاولة تُمكّنهما من التفرّج على المتزلّجين، وجلسا. كانت سابينا لا تملك سوى نصف ساعة أخرى، ممّا يعني أنّ عليهما طلب الطعام بسرعة. بعد ذلك، تنتظرها أربع ساعات من العمل. أوشك مارك أن يسألها: "لماذا لا تجدين عملاً آخر؟"، لكنّه بدّل رأيه في اللحظة الأخيرة. فكّر أنّه ربّما سيسألها عن ذلك في المرّة القادمة. عوضاً عن ذلك، تحدّثا عن كيف أنّ التسعينيات هي فترة الثمانينيات الحقيقية. فقد كانت التسعينيات عقداً ضائعاً، إذ قفزت البشرية من الثمانينيات إلى العام ألفين مباشرة. فقد أصبح العالم حديثاً فجأة، وتقدّمت التكنولوجيا سريعاً جدّاً. وعندما حلّلت سابينا المسألة حتّى اللحظة الأخيرة، ووقفت للعودة إلى العمل في الموعد، وقف مارك أيضاً. ومع أنّهما يعرفان بعضهما منذ أشهر، إلاّ أنّها المرّة

الأولى التي يقبّلان فيها بعضهما على الخدّين وهما يودّعان بعضهما حتّى الأسبوع المقبل. أدرك مارك في تلك اللحظة أنّ هذه الفتاة هي الصديقة الأولى التي يتعرّف عليها بنفسه منذ سنوات. جلس وطلب فنجان قهوة آخر. تناول دفتر ملاحظاته الذي صار يحمله معه أينما ذهب، وفتحه على صفحة بيضاء.

كان يقلّب في ذهنه الفكرة التي اقترحتها عليه أوديت منذ مدّة. فقد تحدّثا عبر الهاتف بضع مرّات منذ أن التقيا، وكانت بالغة اللطف معه. سألته في كلّ مرّة عمّا إذا كان يحتاج إلى المساعدة. وفي إحدى تلك المكالمات، ذكر مارك ما سيطهوه مساء. وبما أنّهما أتيا على ذكر الموضوع، مرّة أخرى، اضطرّت أوديت إلى منع نفسها من البكاء، وأعطته بعض النصائح التي قد تفيده. عرفت أنّ مارك يعير اهتماماً لاقتراحاتها لأنّه طلب منها الانتظار لإحضار قلم وورقة، ودوّن ما قالته: "ملّح الجهة الأولى، ومن ثمّ الثانية. دعها تستريح لعشر دقائق. حسناً"

كان مارك يكتشف ببطء مدى فائدة تبادل المعرفة في مجال الطهي. فحتّى لو كانت الوصفة مفصّلة جدّاً وجيّدة، ثمّة دائماً شيء آخر؛ شيء هامّ يضيفه طاه آخر. كانت كلارا تتحدّث مع أمّها مرّة أو مرّتين في الأسبوع قبل وفاة هذه الأخيرة، وتسأل عن وصفة معيّنة في كلّ مرّة. لطالما قالت إنّ أمّها تتقدّم عليها خطوة دائماً. وكانت دائمة التذمّر من أنّها مهما برعت في الطهي، فلن تصبح أبداً ماهرة بقدر والدتها. وقد اضطرّت إلى نسيان طعمات عدّة بعد وفاة أمّها. حاولت، لكنّها لم تستطع قطّ إعداد الأطباق بالنكهات ذاتها. لم يفهم مارك لماذا كانت زوجته تبكي. هل كانت تذرف الدموع شوقاً إلى والدتها، أم لأنّها لم تعد تستطيع تناول أطباقها بعد الآن؟ وها قد أصبح الآن يفهم ما كانت زوجته تعانيه. إذ ثمّة طعمات لا يستطيع نسيانها، ويشتهيها ويريد تذوّقها مجدّداً. إنّه طعام كلارا؛ لكنّه عرف أنّه لن يتمكّن أبداً من إعداده بالطريقة نفسها، ولن يجد

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الطعم نفسه في مكان آخر.

في بعض الأحيان، كان الباعة في سوق الخضار، أو بائع السمك، أو الجزّار يعطونه نصائح غير موجودة في كتاب الطهي. فيدوّنها مارك إن استطاع، اعتماداً على المكان الذي يتواجد فيه. وإن كان يحمل الكثير من الأكياس، فهو يستمرّ بترديدها بينه وبين نفسه حتّى يصل إلى المنزل، ويملأ المساحات الفارغة للوصفة الموجودة في الكتاب. وعندما يقلّب الصفحات من الخلف إلى الأمام، يرى التقدّم. كان يفكّر أنّ عليه العودة إلى البداية عندما يُتمّ كلّ الوصفات ليبدأ من جديد. هذه المرّة، سيأخذ ملاحظاته في عين الاعتبار من دون شكّ، وربّما سيُضيف إليها ملاحظات جديدة.

كتاب السوفليه، من جهته، بقي على الرفّ، وظلّ الكثير من صفحاته غير مقروء. جرّب منه وصفتين، مُنيتا بالفشل، وكانت كلّ مرّة أسوأ من سابقتها. فقرّر وضع الكتاب جانباً إلى أن تتحسّن مهاراته. لم يعلم كيف اعتقد أنّه يستطيع إعداد السوفليه وابتاع ذلك الكتاب أساساً. ربّما لن يتوصّل أبداً إلى ذلك المستوى في حياته. فثمّة أشخاص يمضون طوال حياتهم في المطبخ، لكنّهم لا يتمكّنون من إعداد سوفليه ناجح. مع الأسف، اكتسب تلك المعرفة من مقدّمَي برنامج إسكاباد غورماند، بعد وقت طويل من شراء الكتاب.

كتب أسماء بعض الأطباق التي شعر أنّه قادر على إعدادها على الصفحة البيضاء، تحت بعضها. لم يعرف أيّها يناسب الآخر أكثر. ولم يكن واثقاً ممّا إذا كان يستطيع تقديمها في الليلة نفسها. أضاف السلطة في آخر اللائحة. هل من الممكن أن يكون مخطئاً إن مزج الطماطم، والخيار، والبصل الأخضر، والخسّ الذي يأتي في علب، ويكون مغسولاً مسبقاً؟ إلاّ أنّه يخاف دائماً من الخلّ؛ فهو لم يتمكّن من التوصّل إلى طعم حموضة جيّدة في السلطة التي أعدّها حتّى الآن، ولم يُقدم بعد على مزج

الخلّ ببعض عصير الليمون.

فكّر أنّه يستطيع ربّما أن يسأل عن الأطباق التي تتلاءم مع بعضها في سوق الخضار. ربّما استطاع بائع السمك إعطاءه بعض الاقتراحات. لا بدّ أنّ سابينا طاهية ماهرة أيضاً، كما فهم من أحاديثهما حول أدوات المطبخ. لم تسنح لهما الفرصة بعد للتكلّم عن الطعام، لكنّه عرف أنّ الشابّة تستطيع إعطاءه فكرة جيّدة إن سألها. قرّر دعوتها إلى الغداء في المرّة القادمة التي يذهب فيها إلى السوق المركزية، وأن يطلعها على لائحته ويسألها عن رأيها. ربّما يجدر به دعوتها إلى العشاء الذي سيقيمه. رفع نظره عن لائحته وحدّق إلى المتزلّجين. كان صدى الموسيقى التي تُعزف للمتزلّجين لكي يرقصوا على أنغامها يتردّد من الأبنية المجاورة وتتكرّر كلّ جملة مرّتين. سمع هذه الأغنية على التلفاز منذ يومين وهو يطهو. كانت تغنّيها امرأة شابّة تدعى أوليفيا... لكنّه لا يتذكّر شهرتها. ما كان ليتذكّر اسم الأغنية، لكن من الجيّد بالنسبة إليه أن يعرف هذا القدر. ففي الماضي، كان يتابع حياته من دون أن يلاحظ أيّاً من تلك التفاصيل.

فتح صفحة أخرى من دفتر ملاحظاته، وكتب أسماء الضيوف المحتملين: أوديت، هنري، سيلفي، جاك، سوزان، دانيال. كان يفكّر بهذه المسألة منذ أن طلبت منه أوديت تذوّق طعامه. مضى عام تقريباً منذ أن خسر كلارا، وبقي بعيداً عن أكثر الناس الذين أحبّوا زوجته. عرف أنّهم تعذّبوا مثله وافتقدوها بقدر ما افتقدها. وربّما كانوا يريدون المجيء إلى المنزل الذي عاشت فيه صديقتهم لسنوات، والإحساس بها في ذلك المكان مرّة أخرى. ينبغي أن يحضروا جميعاً إلى ذلك العشاء، وليس فقط أوديت. ربّما حان الوقت لتوديع كلارا بشكل لائق. أضف إلى ذلك أنّ هؤلاء الأشخاص الذين كانوا مقرّبين منه طوال أعوام يستحقّون أن يعرفوا كيف يعيش.

اشتملت اللائحة على سبعة أشخاص، بمن فيهم هو. أضاف

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

اسم سابينا إلى أسمائهم، وحاول أن يرى كيف يبدو على الورقة. كانت الصديقة الوحيدة التي تعرّف عليها من دون مساعدة كلارا. بالطبع، سيعتقد الجميع أنّها المرأة الجديدة في حياته. ربّما يجدر به الاتّصال بأوديت وإخبارها مسبقاً أنّها ليست كذلك. ولا شكّ أنّها ستخبر الباقين. لكن، ماذا ستعتقد سابينا؟ هل ستشعر بأنّها بديل لزوجته المتوفّاة؟ هل ستفهم أنّ الدعوة لا تعني شيئاً في حفل عشاء للأزواج فقط؟ وهكذا قرّر شطب الاسم.

حتّى الآن، أعدّ مارك كلّ الأطباق لشخص واحد. كان يقسم دائماً مقادير الوصفة على أربعة، ويطهو على هذا الأساس. ولم يعرف كيف سيتمكّن من إعداد الوصفات نفسها لسبعة أشخاص. أوّلاً، لم يعرف ما إذا كان يستطيع أن يحضّر طعاماً في طناجره ومقاليه لسبعة أشخاص. فإن أوصى الكتاب بتحمير اللحم على حرارة 375 درجة لساعتين، يقوم عادة بطهي ربع الكمّية لمدّة نصف ساعة فقط. وإن استقرّ اختياره على اللحم، سيتحتّم عليه أن يكون شديد الحذر حيال التوقيت. كم يجب أن تكون المدّة؟ بالطبع، سيكون من الأسهل الطبخ لثمانية أشخاص. كلّ ما عليه فعله هو أن يضرب المقادير باثنين، ولا مشكلة بوجود حصّة إضافيّة. بهذه الحالة، عليه ترك اللحم الذي أعدّ مثله لنفسه منذ مدّة في الفرن أربع ساعات. وعلى اعتبار أنّه يحتاج إلى نقعه لساعتين قبل طهيه، سيتطلّب منه إعداد وجبة واحدة ستّ ساعات لتجهز. عليه حساب كلّ دقيقة من ذلك النهار بدقّة، وتنظيم أموره جيّداً. كان قد ساعد كلارا في السابق في نقل الأطباق إلى الطاولة في غرفة الجلوس، لكنّه لم يعرف كيفيّة إعداد شيء ممّا كانت تقوم به. شعر فجأة بالإرباك العارم، وفكّر أنّه لن يتمكّن من التعامل مع أفكاره ومع الأشياء التي خطّط لها، لذلك قرّر التخلّي عن المشروع من الأساس. ففكرة الاجتماع، والتي كانت صعبة جدّاً وحدها، أصبحت أكثر صعوبة مع مسألة الطهي لهذا العدد الكبير.

أغلق دفتر ملاحظاته ووضعه في جيبه مع قلم الرصاص. دفع الفاتورة ثمّ وقف مسرعاً. أشعّة الشمس التي جعلته يسترخي في البداية سبّبت له التعرّق الآن، والموسيقى التي كان يصغي إليها بسرور ثقبت أذنيه. بدأ يمشي باتّجاه سان جيرمان بخطى سريعة، ومن هناك إلى المنزل. عندما دخل شقّته، تناهى إليه من المذياع صوت الأغنية التي كان يسمعها في الساحة. وضع كلّ ما كان يحمله عند المدخل، وخرج بالسرعة التي دخل بها. لا هذه الشقّة، ولا ضلوعه كانت تتّسع لقلبه.

* * *

كان صباح آخر صعب جدّاً ينتظر فيردا. فأمّها لم تنهكها نفسيّاً فحسب خلال الأشهر الأخيرة، بل جسديّاً أيضاً. كانت كلّ عظمة في جسدها سبق أن كُسرت سابقاً ثمّ شفيت لاحقاً تؤلمها الآن. ولم تساعدها الرطوبة التي ازدادت سوءاً في الصيف. أصبح رسغها، الذي تمّ تجبيره في الماضي، متورّماً كالطبل. وبينما كانت تحاول مساعدة أمّها على الجلوس برسغها المضمّد، حفز هذا المشهد ذهن والدتها المشوّش أساساً، وأعادها إلى ماضيها المظلم مرّة أخرى. اعتقدت فيردا أنّ كلّ ذلك الهراء لا بدّ أن يعني شيئاً. يبدو وكأنّ ذكريات السيّدة نسيبة، التي كبتتها لسنوات، أصبحت تطفو إلى السطح واحدة تلو الأخرى. فتظهر أسرار لم يسبق لها أن باحت بها لأحد، بما في ذلك أفكارها السيّئة حيال الناس، وتخيّلاتها الإباحية. ومع أنّ فيردا شعرت بالإحراج ممّا قالته أمّها، ولم تستطع النظر إلى وجه سنان بسبب ذلك، إلاّ أنّ تلك الإشارات من حياة أمّها المغلقة ساعدتها على فهم حياتها الخاصّة.

لطالما بحثت فيردا عن السبب الذي جعل أمّها تشعر بالاكتئاب طوال الوقت، وتهمل ولديها لاحقاً، شيء غير وفاة أبيها، شيء أكبر بكثير. كانت تعرف أنّ بعض النساء اللواتي يحببن أزواجهنّ كثيراً، يدرن ظهورهنّ للحياة بعد خسارتهم ويدوم حزنهنّ عليهم لبقيّة حياتهنّ. لكنّ

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أمّها كانت امرأة لم تستطع الاستمتاع بالحياة حتّى عندما كان زوجها حيّاً. وبما أنّ السيّدة نسيبة خرّبت حياة فيردا إلى حدّ ما أيضاً، لذا أرادت فيردا الاعتقاد أنّه لا بدّ من وجود شيء عميق ومحزن جدّاً حدث معها. لقد أحبّت فيردا سنان، لا سيّما لأنّها عرفت أنّه أحبّها كثيراً. لكنّها لم تتزوّج به لأنّها أغرمت به، ولا لأنّها أرادت ذلك حقّاً. فقد قبلت بالزواج في تلك السنّ المبكرة لأنّها عرفت أنّ الأمر ضروري. كان لا بدّ لها من وضع أحلامها جانباً وتنظيم مستقبلها الذي أضاعته أمّها عندما كانت صغيرة جدّاً.

لذلك أرادت أن تعرف ذلك السرّ الذي تخفيه أمها قبل أن تموت لكي تتمكن من مسامحتها. فقد كانت تخشى ألاّ تتمكّن من تذكّرها بحبّ إن لم تفعل. كانت تنتظر موتها منذ مدّة، والشعور بالذنب يتآكلها من الداخل إلى الخارج. لكنّها لم تستطع أن تقاوم توقها إلى ذلك اليوم. فكلّما استلقت على ظهرها ليلاً، وأحسّت بالألم في كلّ جزء من عمودها الفقري، لم تتمكّن من مقاومة إغماض عينيها والتفكير بجنازة أمّها. وغالباً ما فكّرت في أنها ستشعر بالحرّية في ذلك اليوم، وأنها ستستعيد سلام حياتها للمرّة الأولى.

كانت تشعر بالذعر بشكل خاصّ عندما تفكّر بولادة إيلا القريبة، ولم تستطع إيجاد حلّ. عليها أن تكون مع ابنتها عندما تنجب طفلها في بلد بعيد. عرفت أنّ دوفال سيساعد إيلا كثيراً، وأنّه يتولّى أساساً الكثير من أعمال المنزل، لكنّ فيردا كانت متواجدة مع ابنها وكنّتها عند ولادة ولديهما، ولا بدّ لها من أن تكون مع ابنتها الآن. لا يجب أن تسمح لأمّها بأن تسرق منها هذه الفرحة أيضاً.

بدأت السيّدة نسيبة تبكي: "ماما، احمليني، أنا متعبة، لا أريد السير حالما رأت رسغ فيردا المضمّد. كانت فيردا قد تعلّمت من تجاربها

السابقة مواساة أمّها بتقمّص شخصيّة جدّتها عوضاً عن محاولة شرح الواقع لها. فأخفضت صوتها وراحت تهدّئها وكأنّها طفلة. أضافت وسادة ثالثة تحت رأسها وجلست على حافّة السرير. جفّفت عينيها وهي تمرّر يدها على شعرها بحنان. يبدو أنّ السيّدة نسيبة عادت إلى طفولتها، ولكن، إلى أيّ عام؟ وأيّ بلد؟ كانت السيّدة نسيبة واحدة من أولئك الأطفال الذين أتوا من سالونيكا في ظلّ تبادل السكّان. حاولت نبش تلك الذكريات والحديث عنها من قبل، لكنّها لم تتمكّن قطّ من تذكّر ما حدث تماماً. فقد كانت صغيرة جدّاً عندما أتت إلى إسطنبول، حتّى إنّها لا تذكر وصولهم ولا ما حدث بعد ذلك.

بدأت الآن تبكي وهي تحدّق إلى الضمادة على رسغ ابنتها. سألتها فيردا وكأنّها تتحدّث إلى طفلة صغيرة:

"هل تريدين مني أن أنزع هذا الرباط؟ هل يخيفك؟"

"لا أريد أن أمشي، احمليني

"أين سنمشي يا نسيبة؟"

"تلك الفتاة لا تملك يداً"

"أيّ فتاة؟"

"احمليني، أنا متعبة"

"أيّ فتاة لا تملك يداً يا نسيبة؟ لا تخافي، أخبريني

"أنا متعبة، احمليني

فهمت فيردا أنّها لن تتمكّن من معرفة شيء منها، فتوقّفت عن المحاولة. كانت السيّدة نسيبة تردّد الجملة نفسها مراراً وتكراراً في بعض الأحيان. ربّما تتذكّر بماذا كانت تفكّر في تلك الفترات القصيرة التي تعود فيها إلى رشدها. يبدو أنّها رأت فتاة من دون يد عندما كانت طفلة، ربّما

في سالونيكا. وربّما خلّفت تلك الفوضى لديها ندباً أعمق ممّا ظنّوا. لن تكتشف فيردا أبداً أنّ أمّها أُخذت إلى المستشفى لإعطائها لقاحاً عندما كانت طفلة صغيرة، ورأت امرأة من دون يد هناك، تبكي بصمت وهي تنتظر تغيير ملابسها، وأنّ تلك الحادثة طُبعت في ذهنها وسبّبت لديها خوفاً من فقدان أحد أطرافها طوال حياتها، وأنّ الطفلة نسيبة تعبت في نهاية تلك الزيارة وبكت طالبة من أمّها أن تحملها. عوضاً عن ذلك، ستفضّل الاعتقاد أنّ أمّها مرّت بوقت عصيب ومؤلم في أثناء التبادل، وأنّ تلك الذكريات ظلّت عالقة في لاوعيها وعذّبتها طوال حياتها. فقد سمعت من قصص التبادل الأخرى كيف أنّ الناس أُجبروا على السير مئات الأميال. ستضع أمّها في تلك القصص وتعتقد أنّ الطفلة الصغيرة لم تتمكّن من نسيان ذلك النوع من الإرهاق.

لاقى حفل زفاف إيلا نجاحاً باهراً. فعندما تتذكّر فيردا ذلك اليوم، تعجز عن إيجاد عيب واحد فيه. كانت قد شاركت في تقديم الطعام، حتّى إنّها تحقّقت ممّا إذا كانت الأمور على ما يرام في المطبخ أثناء الحفل. كان المكان الذي اختاروه جميلاً جدّاً، بدا مثل حديقة في قصّة خيالية. قدّم طقس إسطنبول غير المتوقّع هديّة للأمّ والابنة، ومنحهما يوماً جميلاً. كانت فيردا متوتّرة فعلاً عشية الزفاف بسبب المطر الغزير، لكنّ المطر خلّف وراءه سماءً صافية في اليوم التالي. أحسنت فعلاً بإصغائها إلى نصيحة أمّها وشراء ثوب زفاف أكبر بمقاس واحد. فإيلا لم تتمكّن من التوقّف عن الأكل، وأصبح ثدياها، وبطنها، وردفاها، أكثر امتلاءً في ذلك الوقت القصير.

عرف جميع المدعوّون سبب ذلك الزواج العاجل. في الواقع، لم يكن من الممكن ألاّ يفهموا أنّ إيلا حامل بمجرّد النظر إليها. تفّ الجميع مرّتين وقالوا: "يبدو الفستان رائعاً عليها، وجهها يتألّق جمالاً"،

لكنّهم جميعاً عرفوا ما المقصود بذلك. لا بدّ أنّهم حلّلوا المسألة فعلاً بين بعضهم. ولا بدّ أنّهم تساءلوا: كيف ستتحدّث الأسرتان؟ ومع أنّ هذه المسألة أزعجت حقّاً دائرة الأسرة والأصدقاء المقرّبين، إلاّ أنّ سنان وفيردا وجدا أسرة دوفال بالغة اللطف، والتهذيب، والدفء. أمضوا وقتاً طويلاً معاً محاولين إيجاد حلّ وسطي بواسطة إنكليزية ركيكة جدّاً من الطرفين والكثير من الإشارات. ورأت فيردا أنّهم يحبّون إيلا حقّاً، فما الذي يهمّها غير ذلك؟

وبينما هي تتصفّح ألبوم الزفاف على طاولة المطبخ الآن، فوجئت بسرعة مرور الوقت. مضت ثلاثة أشهر الآن، وستصبح جدّة مرّة أخرى بعد مضيّ أربعة أشهر. إنها تحبّ حفيدها منذ الآن، لكنّها تشعر بالحزن لأنّه سيعيش بعيداً عنها. هل سيعرفان بعضهما ويحبّان بعضهما كما ينبغي هكذا؟ شعرت بالغيرة من والدة دوفال. فهي ستكون قريبة من الطفل، أضف إلى ذلك أنها امرأة لطيفة جدّاً، ولا شكّ أنّ الطفل سيعشقها. مثلها تماماً، سيكون حفيدها من أولئك الناس الأكثر قرباً من جدّاتهم لأبيهم. فقد كانت فيردا دائماً الوحيدة بين أصدقائها التي تحبّ جدّتها لأبيها أكثر من جدّتها لأمّها. في المرّة الأولى التي سألتها فيها إحدى الفتيات في المدرسة من تحبّ أكثر وأجابتها "جدّتي لأبي"، أوشكت تلك الفتاة على فقدان توازنها والسقوط. لم تكن تتوقّع ذلك الجواب، فنادت بقيّة الفتيات على الفور، ونشرت جواب فيردا عن سؤالها. ارتفعت أصوات تعجّب من المجموعة، "ماذا؟" لقد شعرت بضرورة التبرير منذ تلك السنّ. كانت جدّتها لأمّها قد توفيت وهي شابّة، ولم تتمكّن من التعرّف عليها كثيراً، ولا شكّ أنّها كانت ستحبّها لو عرفتها. لكنّ هذا الجواب لم يُرضِ أحداً. المهمّ أنّها كانت تحبّ جدّتها لأبيها أكثر، ولا أحد يفعل ذلك. وحفيدها الفرنسي سيقول الشيء نفسه يوماً: "أنا واثق أنّني لو عرفت جدّتي لأمّي أكثر لأحببتها أكثر من جدّتي الأخرى"

هذه مشكلة ستُضطر فيردا للتعامل معها لاحقاً. عليها أن تخطّط الآن كيف ستكون مع ابنتها خلال الولادة في حال لم تمت أمّها قبل ذلك. كالعادة، قبل أن تبدأ بالتفكير بتعمّق في شيء ما، تملأ الركوة ببعض الماء. ما زال هناك كيس شاي واحد من مجموعتها الثمينة. من خلال علبة الشاي تلك، تعلّمت فيردا أنّ بعض وسائل الترف تحسّن من حال الناس، فتعهّدت لنفسها باستعمال كلّ الهدايا التي ستتلقّاها منذ الآن فصاعداً. عليها أن تسمح للآخرين بتدليلها عندما يريدون ذلك.

توجّهت إلى الخزانة وتناولت أحد أكواب البورسلين الرقيقة. وضعت فيه كيس الشاي الحريري الهرمي وانتظرت سماع صوت الصافرة لدى غليان الماء. وقبل أن يغلي الماء ويصدر الصوت، أطفأت النار وصبّته في الكوب. فهي لم تشأ المخاطرة، على الرغم من نوم أمّها العميق بسبب الدواء. لديها ساعتان فقط يومياً يمكنها أن تمضيهما بمفردها. وقد أحسّت أنّها ستفقد عقلها إن تخلّت عنهما أيضاً. قالت لنفسها: "لنفكّر" بعد ثلاث دقائق، رفعت كيس الشاي من الكوب وتناولت رشفة منه. لا بدّ أنّ طعم الفراولة ورائحتها يبلغان نقطة حسّاسة في دماغها لأنّهما يهدّئان أعصابها على الفور. كانت إيلا قد دوّنت النكهة على كلّ كيس من الشاي قبل رحيلها. فوجئت وسُرّت لدى رؤيتها أمّها تستخدم للمرّة الأولى هديّة تلقّتها، فقالت لها: "أخبريني عندما تنتهي لكي أرسل لك علبة جديدة" لم تكن فيردا غريبة عن فكرة نقل طعام خاص مسافة أميال. فكم من مرّة وضّبت الأرضي شوكي المحشوّة بعناية، وطلبت من ابنة السيّدة غولسيرين، التي كانت تعمل كمضيفة، أخذها معها عندما تذهب إلى باريس. لم تحمل تولين الأرضي شوكي فحسب، بل أخذت معها أيضاً الجبن المجدول، وجبن كاسيري، والكوسا المحشّوة، ومعجّنات الكرّاث، وحلوى عنق الحمل. عادة، لم تكن فيردا تطلب خدمة من هذا النوع أكثر من مرّة واحدة، لكنّ تولين ألحّت عليها وأقنعتها أنّ لا مشكلة

لديها في ذلك. في تلك المناسبة، تعلّمت فيردا مفهوم الكارما من تولين. كانت الطريقة السنسكريتية لقول المثل التركي المعروف: "كما تزرع تحصد" كانت تولين واثقة أنّ هذا المعروف سيرجع إليها. مع ذلك، ومع أنّ فيردا تعرف كلّ المشاكل التي يمكن أن يتحمّلها الناس من أجل تناول طعام ما، إلاّ أنّها لن تتّصل بابنتها وتطلب منها إرسال علبة شاي جديدة لها بينما هي حامل وتواصل العمل. بل عوضاً عن ذلك، ستستمتع بآخر فنجان منه وتجد بديلاً له.

فكّرت بإحراج مجدّداً أنّه سيكون من الملائم إن توفيت أمّها بعد شهرين ونصف. إذ سيكون لديها شهر ونصف حتّى موعد الولادة، وهذا سيترك لفيردا وقتاً كافياً للاهتمام بكلّ شيء. فكّرت: "فقط إن سار كلّ شيء حسب الخطّة" لكنّهم لا يستطيعون التخطيط لشيء. تساءلت: "ماذا لو وضعت إيلا طفلها باكراً، لا قدّر الله؟" لكنها حاولت التخلّص من تلك الفكرة، ثمّ بدأت تدوّن كلّ ما عليها فعله بالترتيب في مفكّرتها الذهنية. بعد وفاة السيّدة نسيبة، سيكون عليها التجهيز من أجل الأسبوع، ومن ثمّ الأربعين. وإن توفيت فعلاً قبل شهرين ونصف، فلن تتمكّن من الذهاب إلى فرنسا سوى قبل الولادة تماماً.

حاولت ابتلاع تلك الفكرة المريعة مع رشفة شاي أخرى. اعتادت أمّها على القول في بعض الحالات: "لا تُغضبي الله" وكانت هذه الحالة واحدة منها. فمحاولة التفكير في موعد وفاة شخص وولادة آخر قد تكون من الأشياء التي تغضب الله فعلاً. شربت بقيّة الشاي في رشفة واحدة، وأحرقت حلقها وكأنّها أرادت معاقبة نفسها. ثمّ وضعت الفنجان على الطاولة ورفعت يديها وبدأت تدعو: "اغفر لي يا الله. أرسل إليّ كارما جيّدة... كارما جيّدة"

10

لم تكن أيّام ليليـا تختلف عن بعضها. حتّى إنّهـا عادة لم تكن تعرف في أيّ يوم هـي، وتخلط الأحـداث، فتعتقـد أنّ الحدث الـذي حصل في صباح اليـوم الفائت قد حصـل هذا الصبـاح، وتعجز عن التفريـق بين ليلة مضى عليهـا أسـبوع والليلـة الحالية. وبمـا أنّها تنفّـذ واجباتهـا مثل رجل آلي مبرمـج، كانت تنسـى مـا يفترض بهـا فعله. لـذا، عندما دخلـت غرفة آرني وقالت: "علينـا تغيير ملاءاتك"، نظر آرني إلـى زوجته بقلق، واضطرّ إلى تذكيرهـا أنّها قامـت بذلك قبل سـاعة. تقلّصـت أحاديثها مـع النزلاء واقتصرت علـى كلمات مكرّرة. "مرحبـاً"، "مرحباً" "كيـف كان يومك؟" "جيّـد، وأنـت؟" "جيّـد" "هذا شـهيّ فعـلاً، شـكراً لـك"، "يسـرّني أنّك استمتعت به" "تصبحين على خيـر"، "وأنت بخير فـي بعض الأحيان، عندما تردّد الكلام نفسه، تتوقّف لدقيقتين وتفكّر، ثمّ تنظر حولها وتحاول إيجاد اختلاف ولو بسـيط عن اليوم الفائت. لم تعد تجد ما تقوله لإخوتها علـى الهاتف عندمـا تكلّمهـم كلّ مـدّة. إذ لـم يعد لديهـا ما تخبرهـم إيّاه عن النـزلاء، ولا عن آرني الـذي ظلّ على حالـه، كما أنّ ليليا سـئمت من شـكواها. وعندما كان الطرفان يغرقـان في الصمت، لا يعـود لديهما خيار سـوى إغلاق الخطّ. فتلتفت أخوات ليليا إلى أزواجهنّ قائلات: "مسكينة ليليا"

كانت ليليا قد فقدت الأمـل، علماً أنّها لم تتخيّل قطّ أنّها ستستسـلم يوماً. لم تعد تتوقّع شيئاً من المستقبل ولا من يومها الحاضر. كانت تعيش كلّ دقيقة وكلّ سـاعة لمجرّد الانتهاء منها، ولا تجد في يومها شـيئاً خاصّاً

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عندما ينقضي. لم تكن واعية لشعرها الدهني، ولا للهالتين السوداوين حول عينيها، أو التجويف الذي يحيط بهما. ولم تعرف ماذا تقول عن نفسها إن سئلت. كانت في الماضي شخصاً أراد أن يرسم، وأمّاً لعشر سنوات فقط، وزوجة أمضت العام الأخير من حياتها كخادمة، ومتفائلة نجحت في العيش حتّى الآن من دون إدراك أيّ من ذلك.

في أحد تلك الأيّام، وبعدما قدّمت الفطور لآرني، ذهبت إلى غرفتها عوضاً عن التوجّه إلى المطبخ لتحضير لائحة الطعام لذلك اليوم. خلعت رداءها الذي لم يفارق جسدها منذ أيّام حتّى موعد النوم، ثمّ دخلت للاستحمام من دون أن تتفحّص جسدها في المرآة، كما اعتادت أن تفعل. وعندما تأكّدت أنّها أزالت أوساخ الأيّام العشرة الأخيرة، جفّفت شعرها بأطراف منشفتها. سرّحت شعرها الذي أصبح أقلّ كثافة بالمشط الذي لم تلمسه منذ مدّة. وبعدما ارتدت ثوباً آخر ناسب جسدها تماماً، جلست أمام المرآة وتفحّصت وجهها. إلاّ أنّ فراغ عينيها أجفلها.

شعر آرني بالقلق من وضع ليليا في الآونة الأخيرة. وأصبح الآن يتتبّع تحركاتها قدر الإمكان، ويحاول فهم ما يجري. كانت ليليا تجهل أنّها تقوم بكلّ شيء على نحو آلي، لكنّ آرني رأى الرتابة التي آلت إليها حياتها. كانت زوجته تأتي إلى غرفته دائماً بعدما ينهي فطوره، ثمّ تأخذ الصينية وتذهب إلى المطبخ، وتبدأ بتحضير الطعام لذلك اليوم. في بعض الأحيان، كانت تتمتم بشيء بينها وبين نفسها، لكنّ آرني لا يتمكّن من فهم ما تقوله مهما حاول الانتباه. أمّا اليوم، فقد وضعت الصينية على الطاولة وذهبت إلى غرفتها من دون قول شيء. وعندما سمع الأصوات الآتية من الأنابيب، عرف أنّها تستحمّ. فتابع الانتظار بترقّب. كان يتوق لمعرفة ما الذي غيّر روتين ليليا اليومي. وعوضاً عن تشغيل التلفاز والإصغاء إلى نشرة الأخبار الصباحية، أخذ يصغي إلى خطواتها. بعد عشرين دقيقة، سمع باب الطابق العلوي يُفتح. حاول أن يفهم ما إذا كانت قادمة إلى

المطبخ أم لا من صوت خطواتها.

أتت زوجته إلى المطبخ أوّلاً، وبعدما فتّشت أحد الأوعية، أخذت منه شيئاً ما. بعد ذلك سمع آرني صوت طقطقة، لا بدّ أنّه صادر عن محفظتها. توجّهت الخطوات نحو مدخل المنزل، ثمّ تعالى صوت زوجته وهي تتحدث على الهاتف. لا بدّ أنّها تتّصل بسيّارة أجرة. بعد المكالمة، سمعها تتجوّل في المنزل مرّة أخرى، ثمّ تناهى إليه صوت الباب الأمامي وهو يفتح ويغلق. لا بدّ أنّها خرجت. لم تشعر بالحاجة إلى إخباره إلى أين ستذهب، كما أنّها لم تودّعه. فجأة، شعر بالخوف. هل ستعود؟ تحرّك في سريره باضطراب. لم يكن من الأشخاص الذين يصغون إلى حاستهم السادسة، لأنّه لم يعتقد قطّ بوجودها، إلاّ أنّه أحسّ الآن بشيء ما، أحسّ بوجود خطب ما. إذ لم تترك ليليا الهاتف معه كما تفعل عادة قبل أن تغادر المنزل. ومع أنّه يستطيع التنقّل بمفرده مستعيناً بالواكر، إلاّ أنّ الجلطة الأخيرة التي أصيب بها جعلته يخاف حتّى من الوقوف. أشفق على ليليا كلّ حياته لأنّها اعتمدت عليه تماماً، وها هو الآن يعيش معتمداً عليها بالكامل، ومن دون أن يبدي أيّ امتنان. ظلّ ممدّداً وهو يشعر بالاضطراب. مهما حاول التفكير، لن يكتشف ما لم تخبره هي. حمد الله لوجود نزلاء في المنزل يستطيع أن يطلب مساعدتهم في أسوأ الأحوال. وهكذا، شغّل التلفاز على إحدى محطّات الأخبار وشاهد التعليقات على الانتخابات المقبلة ليبعد عن ذهنه الأفكار السيّئة.

غرقت ليليا في مقعد سيّارة الأجرة العريض، وأخذت تراقب الشوارع الخالية. لم يكن من المعتاد إطلاقاً أن يمشي الناس في هذه الأحياء. إذ كان هذا الأمر يقابَل بالاستهجان، فينظر الناس إلى المشاة بريبة. لم يكن أحد يستمتع بالأزهار المزروعة في مساحات صغيرة في وسط الطريق. تساءلت: من كان آخر شخص انحنى واشتمّ عطرها؟

عندما وصلت السيّارة إلى وسط المدينة، طلبت من السائق الانعطاف يساراً إلى أحد الشوارع، والتوقّف أمام وكالة السفر الوحيدة في البلدة. طلبت منه العودة لأخذها بعد خمس وأربعين دقيقة، وترجّلت من السيّارة. حيّتها المرأة الجالسة خلف المكتب بابتسامة مشرقة. فالنساء اللواتي تجاوزن الخامسة والستّين يعتبرن أهمّ زبائن الوكالة. معظمهنّ متقاعدات تزوّج أولادهنّ، ويملكن بعض المال الذي تم ادخاره، ويعتبرن السفر أشبه بالوظيفة. فمن أكثر هدايا ذكرى الزواج شيوعاً السفر. كما أنّه أفضل عزاء للأرامل الجديدات.

صافحت ليليا المرأة التي بدت أصغر منها بعشرين عاماً على الأقلّ، وجلست على الكرسيّ الذي أشارت إليه. سألتها المرأة: "كيف يمكنني مساعدتك؟" أرادت ليليا أن تعرف متى تقلع أرخص رحلة إلى الفيليبين. كلاّ لن تكون رحلة ذهاب وإياب. نظرت المرأة إلى ليليا لبعض الوقت، وقد جمدت أصابعها على لوح المفاتيح. لا بدّ أنّها واحدة من أولئك المسنّين الذين يريدون العودة إلى بلادهم وقضاء شيخوختهم فيها. كلاّ، إنها تريد تذكرة واحدة لها فقط وليس لشخصين. هذه المرّة، ألقت المرأة نظرة سريعة على يد ليليا اليسرى بحثاً عن خاتم زواج، ورأته. لا بدّ أنّها فقدت زوجها ولا تملك أطفالاً على الأرجح. وهي تريد أن تمضي بقيّة حياتها بين أقاربها هناك.

كانت الرحلات الأرخص ثمناً في كانون الأوّل. هل يناسبها 12 كانون الأوّل؟ أخرجت ليليا بطاقة اعتمادها من حقيبتها، وناولتها للمرأة. وبعدما تمّ ترتيب كلّ شيء، طلبت الموظّفة من ليليا الحضور إلى المطار قبل ساعتين من موعد الطائرة المحدّد عند الساعة 6:30. وحالما غادرت الزبونة المكتب، طمأنت نفسها قائلة إنّها ستعيش حياة أفضل عندما تتقدّم في السنّ.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

عندما غـادرت ليليا وكالة السـفر، كانت سـيّارة الأجـرة تنتظرها في الخـارج. وبعدما طلبت مـن السـائق إعادتها إلـى المكان الـذي أحضرها منه، التفتـت إلـى النافـذة مجـدّداً واسـتغرقت فـي أفكارها. كانت تشـعر بالفضـول حيال الكثيـر من التفاصيـل التي لم تفكّـر فيها منذ سـنوات. لم تكـن تملـك أيّ فكرة عـن الحياة فـي بلادهـا بعـد رحيلها. كانـت تكتفي بمتابعة الانتخابات الرئاسية من وقت إلى آخر، وتشعر بالفخر لأنّهم قاموا بانتخاب امرأة لرئاسـة الجمهورية مرّتين. تسـاءلت عن الحيـاة في بلدتها. كم تطوّرت؟ ربّما أصبحت أكثـر حداثة بكثير. كانت كانتابـون قرية جبلية فقيرة لا تمتاز بأيّ أهمّية حتّى عشـرين عاماً خلت. ما كان لليليا أن تتخيّل في الماضي أنّ الزاوية المخصّصة للسفر في مجلّة نيويورك تايمز ستكرّس معظم صفحاتها لهذه القرية الصغيـرة. إلاّ أنّ هذا الأمر غير المتوقّع حدث عقب أحد الاكتشافات.

تنـاول المقـال بمعظمه كهـف كانتابـون. وذكـر أنّ صيّاديـن أجانب اكتشـفوا الكهـف المؤلّف مـن هوابط بطـول ثلاثمئـة متر وعرض عشـرة أمتار، في عـام 1985. ابتسـمت ليليـا عندما قـرأت ذلك. من سـيعلم أنّها كانت تسـرق بيـوض العصافيـر من أعشاشـها في ذلـك الكهـف من أجل عمّتهـا الكبـرى؟ كيف لهـا أن تقنـع كاتـب ذلـك المقـال، الذي ذكـر أنّ دخول الكهف مـن دون خوذة ومصباح أمرٌ خطير، أنّها كانـت تتجوّل فيه وكأنّها تسـير في أيّ مكان آخر فـي صغرها. عرفت أيضاً مـن ذلك المقال أنّ قريتهـا أصبحـت مقصـداً سـياحياً شـعبياً، وأنّ معظـم الناس يكسـبون رزقهم من خـلال العمل في ذلك المجال بشـكل أو بآخـر. عرفت أنّها إن وضعت عربة هودوغ عند مدخل الكهف، فستبيع كثيراً. ولو كسبت خمسة دولارات في اليوم، فسيساوي ذلك خمسـين بيزو فيليبيني. وهي تعرف أنّ فاتورة المياه لشهر كامل لا تسـاوي هذا المبلغ. بحسب المقال، إنّ العيش بمسـتوى متواضع في كانتابون لا يكلّف أكثر من ثلاثمئة دولار في الشهر.

وإن أمكنها إضافة المزيد من المال إلى مدّخراتها خلال الأشهر الأربعة القادمة، فقد تتمكّن من العيش في منزل في قريتها لمدّة ثلاث سنوات على الأقلّ من دون الحاجة إلى فعل شيء. لم تتمكّن ليليا من إيجاد السعادة بأيّ شكل من الأشكال في الولايات المتّحدة. وكلّ ما تبغيه منذ الآن فصاعداً هو أن تعيش من أجل نفسها فقط.

مع اقترابها من المنزل، عاودها الشعور بالاستياء. ومع أنّها عرفت أنّه لم يتبقّ أمامها سوى بضعة أشهر، إلاّ أنّ العودة إلى روتين حياتها اليومي الذي أصبحت تكرهه أزعجها جدّاً. وبعدما ترجّلت من السيّارة، وقفت أمام هذا المنزل الذي بنته بكثير من الآمال في الماضي ونظرت إليه. أدركت أنّ لا شيء في الحياة يحدث مثلما يتخيّل الناس، وأنّ الكون يتبع طريقه الخاصّ، لكنّها لن تستسلم قبل أن تحاول مرّة أخيرة. قالت لنفسها: "أربعة أشهر بعد، أربعة فقط" تمسّكت بالأمل الذي بعثته فيها تذكرة الطائرة الموجودة في حقيبتها، ودخلت. لم تعرف أنّه على الرغم من المسافة التي أصبحت تفصلها عن آرني، إلاّ أنّه ما زال يميّز وقع خطواتها عن خطوات الآخرين، وأنّه أخذ نفساً عميقاً حالما دخلت، وأغمض عينيه.

أمضت ليليا بقيّة يومها في المطبخ كالعادة. لم تقل شيئاً وهي تقدّم لزوجها الغداء، ولم تبادله النظرات التي وجّهها إليها. لم تشعر بالذنب على الإطلاق لمعرفتها أنّها سترحل بعد أربعة أشهر من دون أن تقول شيئاً، وستترك خلفها زوجها المريض الذي يحتاج إلى مساعدتها. السبب الذي منعها من النظر إلى زوجها هو عدم احتمالها رؤية عينيه الرماديتين اللتين أصبحتا أكثر انكماشاً خلف عدستي نظّارته السميكتين.

ومع أنّها قبلت بالعيش من دون إيذاء أحد في هذه الحياة، على اعتبار أنّ ذلك فضيلة كبيرة، إلاّ أنّها قبلت أيضاً القسوة التي أحسّت بها؛

ربّما لأنّها عرفت أنّها ستضطرّ إلى الاستسلام مجدّداً إن لم تكن قاسية. في الواقع، تمنّت أن يواصل آرني معاملتها بفظاظة، وقسوة، وقلّة احترام كالعادة. فهي معتادة على أن تضعف وتنسى الأخطاء التي ارتُكبت في حقّها، وتسامح. كانت تعرف أنّ النسيان من أكبر نقاط ضعفها. لهذا السبب، كانت تحتاج إلى أن يتصرّف معها الآخرون بدناءة. وبينما انتظرت في الخارج بعدما أجلست آرني على كرسيّ المرحاض، فكّرت بالتذكرة التي وضعتها في درج خزانتها وشعرت بالارتياح. ستتذكّر تلك التذكرة في الأيّام الآتية، في اللحظات التي تشعر فيها بالإحباط واليأس، وستسرع إلى غرفتها وتحملها بين يديها عندما تحسّ بأنّها عاجزة عن احتمال المزيد.

ستمنع نفسها من البوح بالأمر لأحد، مع أنّها أرادت أن تشارك الآخرين فرحتها. أوشكت أكثر من مرّة على إخبار شقيقاتها على الهاتف، لكن لحسن الحظّ أمسكت لسانها في اللحظة الأخيرة. إذ لم ترغب في أن يحاول أحد منعها. فهي تعرف تقريباً ما سيقوله الناس عندما سيكتشفون مخطّطاتها. سيقولون لها: "هل أنت مجنونة؟ لا يمكنك الذهاب في مغامرة من هذا النوع وأنت بهذه السنّ. مهما حدث، فآرني زوجك منذ سنوات عديدة، ولا يمكنك تركه بمفرده" سيقولون لها إنّه من المفترض بها أن تكون مخلصة لزوجها، على الرغم من أنّهم لم يحبّوه يوماً أو يشعروا بالقرب منه. سيحمّلونها أطناناً من الذنوب. على أيّ حال، يجد الناس دائماً ما يقولونه عن أيّ موضوع كان. فما أن تسألهم عن رأيهم - حتّى في أمور لم يسبق أن فكّروا فيها - حتى يجدوا الشجاعة لقول الأشياء التي تخطر ببالهم وكأنّهم خبراء فيها، وذلك من دون التفكير في ما إذا كانوا على خطأ أم على صواب، وما إذا كانوا قادرين على التأثير أم لا.

كانت ليليا مصمّمة على إبقاء مخطّطاتها طيّ الكتمان. وفي أكثر

من مرّة، وصل الحديث عرضياً إلى موضوع "الرحيل" أو "الذهاب إلى مكان ما" وهي تتحدّث مع أولاّ، فشعرت بالإثارة. تألّقت عيناها ورغبت في كشف سرّها للفتاة، إلاّ أنّها نجحت في كبت مشاعرها قبل أن يفوت الأوان. كانت تأخذ قطعة كبيرة من الخبز، وتغمسها في صلصلة الطعام، ثمّ تحشو فمها بها. وإلى أن تعبر تلك اللقمة فمها وتجد طريقها إلى معدتها، تكون قد هدأت. تعلّمت هذه الطريقة في الأكل من إيال. فالأميركيون لا يغمسون أبداً الخبز في طعامهم. إمّا لأنّهم لا يتناولون أطباقاً كثيرة المرق، أو لأنّهم لا يملكون خبزاً جيّداً. فهم يأكلون الخبز المحمّص مع الحساء. وفي المطبخ الفيليبيني، لا يأكل الناس تقريباً أيّ خبز مع الطعام، بل كان الأرزّ هو البديل. كان إيال يشتري خبزه من متجر خاص في مانهاتن. وقد بدأت ليليا بإعطائه المال كلّ ثلاثة أيّام أو أربعة طالبة منه إحضار خبز لها أيضاً. فقد وجدت طعمه حتماً أطيب من خبز الشطائر الذي تبتاعه من السوبرماركت. كان أكثر ملوحة وإشباعاً، ويبدو طعمه أقرب إلى الطعام بحدّ ذاته. لم تعتقد يوماً أنّ لقمة من الخبز تجعل الإنسان يشعر أنّه أفضل حالاً إلى هذا الحدّ. لكن، إن أرادت توفير المزيد من المال خلال الأشهر الأربعة الآتية، فعليها أن تتخلّى عن هذا الخبز، بالإضافة إلى الكثير من الأشياء الأخرى. فقد أحبّ كلّ من ألكس وأولاّ هذا الخبز الذي يبلغ ثمنه خمسة دولارات وخمسة وعشرين سنتاً أيضاً. ولم يكن بإمكانها إنفاق عشرة دولارات على الخبز كلّ أسبوع.

بدأت ليليا بخفض ميزانيّة البقالة منذ اليوم الذي اشترت فيه تذكرتها إلى الفيليبين. كانت تملك عادة غرفة مؤونة مليئة بالطعام تكفي لأشهر عديدة. فقد أصبحت من أولئك الأميركيين الذين استغربت سلوكهم كثيراً عندما انتقلت إلى نيويورك. إذ كانت تملأ عربة التسوّق بالكامل في كلّ مرّة تذهب فيها إلى السوبرماركت، وتنسى عادة ما اشترته في ما بعد. وفي

أحد الأيّام، تناولت قلماً وورقة، ودخلت غرفة المؤونـة. كان لديها تقريباً عشـر علب من حليب جـوز الهند علـى الرفـوف، فدوّنتها علـى لائحتها. رأت قربهـا أكثـر من عشـر علب مـن لحم البقـر المعلّـب. يمكنهـا إعداد وجبات عديدة بواسطتها. وبجانب علب اللحم، كانت ثمّة كومة كبيرة من الحساء المعلّب. من سيعرف إن وضعتها في قدر وقامت بتسخينها؟

أخـذت لائحـة مؤونتهـا تطـول تدريجيّـاً. تسـلّقت السـلّم الصغيـر وتفحّصـت ما يوجد علـى الرفـوف العليا. كان لديهـا الكثير من الأشـياء، حيث إنها تحقّقت مـن تواريـخ صلاحيّة بعضهـا. نظّفت الغبـار الموجود على العلب التـي تناولتها بيدها، ثـمّ أعادتها نظيفة قدر الإمـكان. فوجئت حقّاً لدى رؤيتها أكياسـاً كبيرة من الأرزّ فـي آخر أحد الرفـوف. لا بدّ أنّها هناك منذ مـدّة طويلة جـدّاً. وضعـت نظّارة القـراءة المتدلّية حـول عنقها، وحاولت أن تتأكّد من عدم فسادها. لكنّ الأرزّ بدا في حالة جيّدة. وجدت أيضاً البرغل الناعم قرب الأرزّ. لا بدّ أنّه هناك منذ سـبع أو ثماني سـنوات على الأقلّ. كانت المرأة التركيـة التي مكثت في المنزل لمـدّة قصيرة جدّاً في إحدى المرّات قد أعدّت منه السـلطة من خلال مـزج البرغل بكثير من البقول الخضراء، وصلصلة الطماطم، والبصل. ما كان اسم تلك السلطة؟ حاولت ليليـا أن تتذكّر تحـت ضوء الغرفـة الضعيف. ظلّت تكـرّر الكلمة عندما تعلّمتهـا للمرّة الأولـى. يومها ضحكت المـرأة التركية مـن الطريقة التي لفظت بهـا الكلمة، وقالت إنّهـا أعجبتها. لـم تتذكّر ليليا اسـم المرأة أو اسم السـلطة. حملت الكيس بيدها لدقيقتين وفكّرت، لكنها لم تستطع تذكّر شـيء. رفعـت الكيس نحـو الضوء المثبّـت في السـقف، وأخفضت النظّارة علـى أنفها لتتمكّـن من الرؤيـة على نحو أفضـل. يبـدو وكأنّه ثمّة شـيء في الكيس. نزلت عن السـلّم بحذر، وعادت إلـى المطبخ. وحينها، رأت بوضوح أنّ الكيس يحتوي على دود، فاقشعرّ جسمها بأكمله. فتحت سـلّة المهملات وألقته فيها، ثمّ نزعت كيس النفايـات بأكمله ووضعته في

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الخارج. عادت إلى غرفة المؤونة، ولم تكن القشعريرة قد فارقتها بعد. على الأقلّ، كانت جميع المواد الأخرى صالحة. تجاهلت أوساخ الفئران التي وجدتها على الرفوف. لا بدّ من وجود بعض الفئران في منزل كبير كهذا، ومحاط بالخضرة. فالفئران موجودة في كلّ المنازل. لقد مضى زمن طويل منذ آخر مرّة قامت فيها بتنظيف هذا البيت كما يجب، إذ لم تكن تملك الوقت أو الطاقة من أجل ذلك. كما أنّها لا تملك المال لدفعه للمرأة المكسيكية التي استأجرت خدماتها مرّة. لهذا السبب، تحوّل المكان بأكمله إلى كرة غبار كبيرة. من يعرف منذ كم من الوقت لم يُمسح الغبار عن رفوف هذه الغرفة؟ وهي لن تبدأ الآن. فعندما سترحل بعد أربعة أشهر لن تترك خلفها زوجاً مريضاً، وخمسة نزلاء، وأقارب مصدومين، بل ومنزلاً تعمّه الفوضى أيضاً. سيضطرّ جيانغ ودونغ إلى الاهتمام بهذه الفوضى؛ هذا بالطبع إن كانا ينويان الاهتمام بأيّ شيء. تساءلت عمّا سيشعر به آرني عندها حيال ترك كلّ ما يملكه لهذين الشخصين الناكرَين للجميل. ومع أنّ ليليا أرادت أن تترك كلّ شيء خلفها، وألاّ ترى أبداً الولدين مجدّداً، إلاّ أنّها رغبت في رؤية الصدمة التي ستسبّبها لهم. ليتها فقط تستطيع رؤية وجه آرني في تلك اللحظة، وسماعه وهو يخبر الولدين بما جرى. كم ترغب في معرفة ما سيكون عليه ردّ فعل دونغ وجيانغ. لا شكّ في أنّهما سينزعجان كثيراً.

عندما أنهت تدوين لائحة الموجودات في غرفة المؤونة أخيراً، أدركت أنّهم يستطيعون العيش عليها لمدّة طويلة. كانت الثلاّجة تحتوي أيضاً على الكثير من اللحم المجلّد، ممّا يعني أنّها لن تحتاج إلى إنفاق المال لشهرين. بالإضافة إلى ذلك، هي التي كانت تصرّ على إعداد طعام جيّد، ولم يتوقّع منها أحد هذا الأداء العالي. وكثيراً ما قال لها النزلاء إنّ شطيرة ستكون كافية. فهم يمضون معظم وقتهم في الخارج على أيّ حال. وبعد أن يبقى الطعام أيّاماً في البرّاد، كان ينتهي به الأمر في سلّة

المهملات.

كان زوجها أكثر من يسرّ بتناول شطيرة. سيبدأ آرني بمراقبة سلوك ليليا منذ ذلك اليوم. فقد لاحظ التغيير الذي طرأ على زوجته. ومع أنّه لم يستطع أن يكتشف ماهيّته، إلاّ أنّه عرف أنّ ليليا تخطّط لشيء ما. فقد أصغى إلى التمتمة الصادرة من غرفة المؤونة التي أمضت فيها ليليا ساعات، والتي كانت محاذية لغرفته، وحاول أن يحزر ماذا يجري. كان من المستحيل ألاّ يلاحظ التغيير الذي طرأ على المطبخ منذ ذلك اليوم. فمع أنّ ليليا ما زالت تمضي معظم وقتها فيه، إلاّ أنّها لم تكن تحضّر الكثير، وظلّت تعدّ الوصفات نفسها. شعر آرني بالسرور لأنّه لم يعد يشمّ روائح الطعام الثقيلة، واكتفى بتناول الشطائر البسيطة، لكنّه كان سيشعر بأمان أكبر لو عرف سبب ذلك. فكّر في التحدّث مع زوجته عدّة مرّات لمعرفة شيء منها، لكن بما أنّها لا تنظر حتّى إلى وجهه، فهو لم يجد الجرأة لفعل ذلك. فهما لم يعودا يتبادلان أكثر من خمس كلمات.

كان واثقاً أنّ ليليا تركت آثاراً لسرّها في المنزل، لكنّه لم يستطع أن يبحث سوى حوله عندما ترك غرفته للذهاب إلى الحمّام، وتمنّى أن يرى شيئاً مختلفاً في المطبخ من طرف عينه. كان عادة يتابع وقع الخطوات في المطبخ بعد الساعة الثامنة، ويحاول أن يسترق السمع إلى أحاديث زوجته مع النزلاء. لكنّه لم يجد شيئاً هامّاً، فهم يتحدّثون في الأمور نفسها.

في إحدى الليالي سمع أولاً تقول: "وجدت كتابك"، لكنّه لم يسمع أكثر من ذلك لأنّ صوتيهما انخفضا في ما بعد. لم يسبق لليليا أن قرأت كتباً غير كتب الطبخ منذ سنوات، وبرأيه لن تبدأ الآن. ومع ذلك أراد أن يعرف. نادى ليليا لكي لا يفوّت هذه الفرصة. نظرت ليليا ناحية غرفة آرني باستغراب، وبدت دهشة مماثلة على وجه أولاً وكانو الذي كان يحضر الماء من البرّاد. لم يكن آرني يتكلّم قطّ بوجود النزلاء في المطبخ، وينتظر دائماً ذهابهم ليقول ما لديه. استأذنت ليليا وذهبت إلى غرفة زوجها.

فتحت الباب وأطلّت إلى الداخل بفضول. هل من الممكن أن يكون قد تعرّض لجلطة جديدة؟ قال آرني: "أريد الذهاب إلى الحمّام" في تلك الأثناء، أخذ النزيلان حاجتهما وغادرا المطبخ. فآخر ما كانا يرغبان في رؤيته هو وجه سيّد المنزل.

ساعدته على الوقوف، ومشت بجانبه بصمت. وعندما خرجا من الغرفة ودخلا المطبخ، قال آرني إنّه يحتاج إلى استراحة. كلاّ، لا يريد مقعداً، بل يكفيه الاتّكاء على "الواكر" كانت ليليا معتادة على الدوار الذي يعاني منه بعد نهوضه من السرير، لذلك انتظرت بصمت. وبينما حاول آرني تمالك نفسه، نظر إلى الأعلى وتفحّص ما حوله. تمكّن من رؤية الكتاب الموضوع على الطاولة وسط المطبخ. كان كتاباً كبيراً، ذا غلاف سميك ولامع. لم يستطع قراءة ما كُتب عليه من الزاوية التي وقف فيها ومن المسافة التي تفصله عنه، لكنّ الغلاف كان مليئاً بالخضرة، وامتزجت فيه أيضاً بعض الألوان الصفراء والبرتقالية. لا بدّ أنّه كتاب طبخ آخر. ربّما قرّرت زوجته تغيير أسلوبها، لا شكّ أنّ هذا هو السبب في كلّ ذلك التبدّل. بالنظر إلى الغلاف، يبدو أنّ رأيها استقرّ على المطبخ المتوسّطي. إلاّ أنّ نظّارة آرني ضلّلته في الواقع. ولو أمكنه إلقاء نظرة عن كثب، لتمكّن من قراءة كلمة فيليبين على الغلاف.

* * *

أمضى مارك الأسبوع بأكمله وهو يبدّل رأيه. وبعدما عاد من الصالة، جلس إلى طاولة المطبخ أمام التلفاز، وظلّ ينظر إلى اللائحتين اللتين كتبهما. فإضافة طبق جديد إلى لائحة الطعام، ومن ثمّ شطبه وإضافة آخر، ليغيّر اللائحة بأكملها بعد ذلك، أصبحت لعبة ممتعة بالنسبة إليه. كما أصبحت مراجعة الوصفات تضاهي بمتعتها تأمّل رسومات سيمبي. أدهشه كثيراً المرور بهذا التغيير الكبير وهذا التحوّل المفاجئ في اهتماماته. لم يستطع أن ينكر الإبداع الموجود في طهيه طعامه الخاصّ

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

بينما كان يكتفي بتأمّل التحف الفنّية التي صنعها أشخاص آخرون. كان يختبر شعوراً لم يستطع التعبير عنه، وسيحرجه التحدّث عنه مع أيّ كان. والسبب في ذلك أنّ ما يعدّه كان بسيطاً جدّاً حيث إنّه لا يقارَن بما يراه على التلفاز، ولأنّ بعض الأحاسيس قد تبدو سطحية عندما يُحكى عنها لشخص آخر.

لم يشعر أنّ وضع لائحة جديدة، كما كان يفعل في تلك اللحظة، مضيعة للوقت، بل أحسّ أنّ القيام بذلك يُغذّي روحه. لم يتمكّن من اتّخاذ قرار نهائي بعد مع أنّه عمل على بعض الوصفات لمدّة، إلاّ أنّه اختار رغم ذلك عدّة أطباق كان واثقاً أنّه يستطيع إعدادها وتقديمها بشكل جيّد.

من جهة ثانية، بدا من المستحيل بالنسبة إليه أن يقرّر ما إذا كان يجب أن يدعو سابينا إلى العشاء أم لا. وفي كلّ مرّة فكّر فيها بالأمر، قرّر ألاّ يفعل خوفاً من إيذاء مشاعر أصدقاء كلارا، لكنّه اضطرّ إلى إقناع نفسه بأنّ هذا هو السبب الحقيقي لعدم دعوتها. فعلى الرغم من أنّه لا يملك مشاعر رومنسية تجاه المرأة الشابّة، إلاّ أنّه خشي من وجود دافع آخر في أعماقه. أحسّ أنّ عليه التأكّد من أنّه لا يملك أيّ مشاعر خفيّة تجاه سابينا. عندها فقط، يستطيع التخلّص من توتّر أفكاره والتصرّف بحرّية.

ومع اقتراب يوم السبت، ازداد تردّده وشعر بضغط أكبر. لم يكن مجبراً على الذهاب إلى تو لو مارشيه، أو رؤية سابينا، أو دعوتها إلى شرب القهوة، لكنّه أحسّ في الوقت نفسه أنّ عليه فعل كلّ ذلك. عرف أنّ عيني الشابّة ستبحثان عنه، وخشي أن تفسّر عدم ذهابه بطريقة مختلفة.

هكذا، وجد نفسه يسير في الشارع باتّجاه السوق التجارية بعدما تناول فطوره، وأمضى ساعتين في المطبخ. ستودّع باريس الصيف قريباً جدّاً، وسيبدأ المطر بالتساقط. ستبدأ ألوان حدائق لوكسمبورغ بالتغيّر. والرجال المسنّون الذين مارسوا لعبة الكرة الحديدية سيختمون

مبارياتهم الصيفية. كان مارك يحبّ لاعبي تلك الرياضة أكثر من الرياضة نفسها، ويتفرّج عليهم أحياناً. كان يحبّ السترات المزرّرة التي يلبسونها، والطريقة التي يعلّقون بها ستراتهم على الأعمدة عندما يفاجئهم يوم مشمس في منتصف الشتاء، والطريقة التي يضايقون بعضهم فيها. كان كلّما شاهدهم في طفولته، اعتقد أنّه سيمارس هذه الرياضة مع أصدقائه عندما يكبر. إلاّ أنّه في الواقع اختار دور المتفرّج، ولم يستطع إدخال نفسه في حياة الآخرين.

اقتراب فصل الخريف أخاف مارك. فقد استغرق وقتاً طويلاً للعودة إلى حياته الطبيعيّة، وكان يخشى أن ينقلب كلّ شيء رأساً على عقب مع حلول الذكرى الأولى لوفاة زوجته. إلى أيّ إحساس سيلتجئ؟ لقد تعب من البكاء، لكنّه ظنّ مع ذلك أنّه لم يبك بما فيه الكفاية. كان يعرف أنّ في أعماقه ألماً أكبر بكثير سيطفو على السطح عندما يحين الوقت. وربّما سيزداد الحزن حدّة، ليحرقه مرّة أخيرة قبل أن يفلته. وفي أثناء كلّ ذلك، سيحاول مارك أن يواصل العيش ويحيا حياة لاجئ في الأيّام التي لا يؤلمه فيها قلبه.

تخلّص من تلك الأفكار السوداء عندما وصل إلى السوق الواقعة عند تقاطع شارع مونج وسان جيرمان. كانت الألوان مفعمة بالحياة، والروائح منعشة؛ حيث إنه شعر وكأنّه استيقظ من حلم عميق. صاح أحد الرجال وهو يحمل بطّة في الهواء: "كانت هذه البطة من لحم ودم هذا الصباح، لكنّها سترتاح في بطنك الليلة" هذه الجملة التي تفتح شهيّة الفرنسيين أثارت رعب زوجين أميركيين تواجدا هناك في تلك اللحظة. لكنّ مارك لم ينتبه لأيّ منهم، وتابع سيره مباشرة نحو البطّ. بدت الطيور طازجة جدّاً. هذا هو اليوم الأوّل الذي سيغشّ فيه من كتاب الطهي. فمع أنّه يملك لائحة احتياجاته لذلك النهار، إلاّ أنّه أشار إلى إحدى البطّات تلقائيّاً وطلب من البائع أن يلفّها له. عرف أنّه سيواجه وقتاً عصيباً عندما

يقوم بطهيها هذه الليلة، لكنّه مع ذلك دخل السوق المركزية حاملاً البطّة بيده.

تذكّرت سابينا يوم السبت الفائت بسعادة. كانت مسرورة لأنّها وجدت الصديق الذي كانت تبحث عنه منذ سنوات. لم يُبد أيّ منهما اهتماماً بحياة الآخر، وحتّى لو شعرا بأيّ فضول تجاه ذلك، إلاّ أنّهما لم يتحدّثا عنه. لم يشعر أيّ منهما أيضاً بميل إلى توجيه الحديث إلى حياتهما الخاصّة. بل على العكس، فقد تحدّثا عن كلّ المسائل العامّة، وظلاّ بعيدَين عن الخصوصيات. قرّرت سابينا أخيراً بعدما وزنت مشاعرها أنّها ليست مغرمة بمارك، وأنّ ذلك لن يحدث أبداً. إلاّ أنّ الحبّ لم يكن السبب الوحيد الذي يدفعها إلى مشاركة حياتها مع شخص آخر على كلّ حال. فقد تعرّضت للذلّ والمهانة بسبب الحبّ، وفقدت ثقتها بنفسها. تلك الأوقات هي أكثر ما يسبّب لها الحرج، وعبارة "الحبّ الأعمى ليست كافية لوصف ما مرّت به. عندما تحبّ سابينا شخصاً ما، فلا حدود للألم الذي تكون مستعدّة لمعاناته. وعندما تحبّ رجلاً، فهي تذلّ نفسها جسدياً وذهنياً على السواء، وفي نهاية المطاف، يكون الطرف الآخر هو الذي يتعب دائماً من سلوكها، ويتركها أشلاء.

لهذا السبب، فهمت بسهولة أنّها ليست مغرمة بمارك. فهو لا يستطيع إهانتها، أو شتمها، أو تعذيبها. تمنّت أن تتناول الغداء مع مارك اليوم أيضاً. كانت واثقة أنّه سيأتي، فهو لم يفوّت يوم سبت منذ أشهر. أضف إلى ذلك أنّه لا يختلق أعذاراً للمجيء، بل إنّه يحتاج فعلاً إلى تلك الأغراض. فمارك ليس متسرّعاً أو شغوفاً بما فيه الكفاية لاختلاق الأعذار. وتماماً كما أملت، ظهر زبونها الأكثر وفاء بين الرفوف، حاملاً بيده كيساً في وقت الظهيرة. انتظرها بصبر وهو يتجوّل في المكان كما يفعل دائماً. لفتت نظره شوكة. كانت قبضة الشوكة تشبه قلم الحبر. فهي حمراء، من السليكون المستدير، ومزوّدة بزرّ على سطحها تماماً مثل

الأقلام. عندما ضغط على الزرّ، بدأ رأس الشوكة يستدير حول نفسه، على نحو ليس سريعاً أو بطيئاً. وبينما نظر مارك إلى الشوكة مذهولاً، وحاول أن يفهم ماهيّتها، تناهى إليه صوت سابينا: "صُنعت في أميركا. إنّها شوكة سباغيتي فكّر مارك، "بالطبع" هذا منطقي، لكن، هل يمكن للناس أن يبلغوا هذا الحدّ من الكسل؟ وبعدما شاهد الشوكة وهي تستدير لبضع دقائق، نظر إلى سابينا وسألها:

"هل اشترى أحد هذا الشيء حتّى الآن؟"

"لقد وصلت للتوّ، لذلك لم نبع أيًّا منها بعد. لكن، لا أظنّ أنّ أيّ فرنسي سيبتاعها"

هكذا، أخذا يتحدّثان عن أمور لم يُفكّرا فيها في ذلك اليوم. وكانا يضعان بعض الأشياء التي احتاج إليها مارك في السلّة في الوقت نفسه. ونظراً إلى كلّ ما قام بشرائه حتّى الآن، فقد تحسّن مطبخه كثيراً. اشترى بعض الأشياء ليس لأنّه يحتاج إليها الآن، بل لأنّها أعجبته. لم يخطر في باله من قبل أنّ فوطة مطبخ، أو مملحة، ستثير إعجابه إلى هذا الحدّ.

عندما وصلا في النهاية إلى الصندوق، اتّفقا على اللقاء بعد ربع ساعة في المقهى نفسه. وبينما أخذ مارك يفكّر في أنّه يملك ربع ساعة فقط للتوصّل إلى قرار نهائي بشأن دعوة العشاء، كانت سابينا تفكّر في الوقت نفسه في دعوته في إحدى الليالي بعد انتهاء عملها.

شعر مارك بالسرور لأنّ الطاولة التي جلسا إليها في المرّة الماضية كانت خالية. وبما أنّ فصل الخريف قد حلّ ببطء، سلّطت الشمس أشعّتها على طاولتهما من زاوية أخرى هذا الأسبوع. إن جلسا إلى الطاولة نفسها كلّ يوم في الوقت نفسه، فسيتغيّر العالم حولهما، وستتّخذ الحياة شكلاً

مختلفاً على أيّ حال، حتّى لو لم يغيّرا أيّ شيء في حياتيهما. وعلى الرغم من الهواء الدافئ، ارتعش من فكرة أنّ الإنسان لا يملك تأثيراً على الحياة. في الواقع، كلّ ما مرّ به خلال الأشهر الماضية كان كافياً لجعله يدرك ذلك. ومع أنّه أصرّ على الوقوف عند النقطة نفسها في حياته لسنوات، إلاّ أنّ الحياة في أحد الأيّام أتت وسحقته فجأة. ومع ذلك، ما زال يتبع الطريق نفسه. أصبحت لديه مجدّداً عادات في حياته، لكنّها عادات جديدة. كان من الممكن لمجرى حياته أن يتغيّر، لكنّه ما زال يجري بانتظام. والفرق الوحيد هو أنّه أصبح يعرف على نحو أفضل بقليل أنّ هذا أيضاً قد يتدمّر.

مع ذلك، جلس من دون خوف إلى الطاولة نفسها، لا بل جلس في الواقع، على الكرسيّ نفسه. لم يخطر في بال سابينا، التي توجّهت نحوه بعد خمس دقائق فقط، أن تجده في مكان آخر، ولا على كرسيّ آخر. جلست وكأنّها تجلس إلى طاولة صديق قديم جدّاً، وقالت بارتياح: "الشمس ليست مزعجة كثيراً هذا الأسبوع، أليس كذلك؟". وبعدما طلبا الطعام، بدآ يشاهدان المتزلّجين في المكان نفسه، ويرصدان وجوهاً من الأسبوع الفائت. تلك الفتاة ترتدي السروال الضيّق نفسه، وذلك الرجل ما زال يدور حول الفتاة نفسها. سوف يلتقيان في النهاية بالتأكيد. وبينما كانا يتحدّثان عن هذه الأمور، أخرج مارك اللائحة من جيبه ووضعها على الطاولة. لاحظ نظرات سابينا الفضولية فبدأ يتكلّم. أراد دعوة مجموعة من الأصدقاء – إنهم في الواقع أصدقاء كلارا – إلى العشاء. ستكون هذه هي المرّة الأولى التي سيطهو فيها لشخص آخر غيره. وهذه هي المأكولات التي يظنّ أنّه يستطيع تدبّر أمره بها. فهل هي منسجمة مع بعضها؟ هل الأنواع كافية أم لا؟ بدأت الشابّة تتفحّص الورقة الموضوعة أمامها بعناية. تناولت القلم الذي وضعه مارك على الطاولة ووضعت علامات استفهام بجانب بعض الأطباق. هل لديه وصفاتها؟ هل يعرف

الكمّية التي يجب تحضيرها؟ وكم عدد الساعات التي سيستغرقها ذلك؟ عليه التأكّد من أنّه يملك جميع المكوّنات. بدآ يتحدّثان عن التفاصيل. في أيّ يوم سيكون العشاء؟ عليه أن يقرّر المشروبات بحسب الطقس. يمكنه اختيار ألوان الطعام حيث تكون متمّمة للفصل. جرى الحديث بشكل طبيعي وسريع، وسرعان ما حان الوقت لذهاب سابينا. ترك مارك السؤال الذي كان يجول في رأسه لكي يجيب على نفسه في دفء الحديث الذي دار في الساعة الأخيرة:

"هل تودّين المجيء؟"

من دون أن تفكّر بالأمر أو تجعل منه مسألة كبيرة، أجابت سابينا بشكل طبيعي: "بكلّ سرور" وقفت بسرعة مجدّداً؛ تماماً مثل الأسبوع الفائت، وبدأت تركض لكي لا تتأخّر. كانت قد أصبحت في منتصف الطريق عندما استدارت وبدأت تركض عائدة. وضعت المال المطويّ الذي كانت تحمله في يد مارك ورحلت من دون أن يتمكّن من قول شيء. ظلّ مارك جالساً هناك يراقب المتزلّجين. كان قد تردّد في الواقع بطرح السؤال عندما انسكبت الكلمات من فمه، لكنّ الأوان قد فات. ثمّة شيء فيها يجعل كلّ شيء يبدو طبيعياً أكثر. فالأمور التي تبدو صعبة في غيابها تصبح سهلة عندما تكون متواجدة. وهذا يفسّر سبب شعوره بالراحة كلّما ذهب إلى المركز التجاري على الرغم من إحساسه بالتوتّر قبل وصوله.

طلب الحساب وهو ينظر إلى البطّة التي وضعها في الظلّ على الطاولة. حمل الكيس وقرّبه من أنفه، فأكثر ما يخشاه هو التسمّم. كان دائماً يشمّ رائحة شرائح الحبش التي يبتاعها لصنع الشطائر قبل استخدامها، لكنّه لا يستطيع أن يتأكّد من صلاحيّتها أبداً. لذلك، قام أحياناً برمي الشطيرة بعد القضمة الأولى. عرف أنّه في تلك الليلة سيعاني من

الخوف نفسه مع البطّة. إن لم يتمكّن من معرفة ما إذا كان الطعم غريباً أم لا، سيتحقّق من الوقت الذي أكل فيه، وسينتظر أربع ساعات ليرى ما إذا كان سيصاب بالمرض. وإن أحسّ بالغثيان أو بقرقرة في أمعائه، فسيعرف أنّه أصيب بالتسمّم. حتّى الآن، لم يعان من هذه الأعراض سوى بضع مرّات، لكنّه قرّر أنّها ذات دافع نفسي لأنّ شيئاً لم يحدث. ولكي لا يواجه الكابوس نفسه تلك الليلة، قرّر المرور بالسوق في طريق عودته إلى البيت وسؤال البائع. إذاً عليه أن يسرع. فأسواق باريس تفتح باكراً وتختفي في ساعة مبكرة من بعد الظهيرة. ولا يستطيع أحد أن يعرف أنّها كانت موجودة هناك بعد ربع ساعة من رحيل الباعة.

عبَر نهر السين وهو يركض، ثمّ دخل شارعاً صغيراً مرتبطاً بالجادة. مرّ من أمام متجر للكتب الهزلية في طريقه، والتفت إلى الواجهة تلقائيّاً؛ كما يفعل منذ سنوات عديدة. لفت انتباهه غلاف كتاب جديد معروض. رأى على الغلاف ظلّ شابّ يقف على قبّة ويدخّن سيجارة في ليلة أرجوانية. عرف من عنوان الكتاب أنّ المنارة والأبنية الظاهرة في خلفيّة الصورة من القاهرة. نظر مجدّداً إلى الكيس الذي يحمله بيده، ثمّ دخل المتجر. لن يستغرق شراء الكتاب وقتاً طويلاً.

لكن، بالطبع لم ينته من شراء الكتاب وبعض الكتب الأخرى في أقلّ من نصف ساعة. وعندما تحقّق من الساعة وهو يغادر المتجر، أدرك أنّه لن يتمكّن من إيجاد الباعة، إلاّ أنّه ركض مع ذلك. حين وصل إلى بولفار سان جيرمان، رأى عمّال المدينة ينظّفون المكان الذي أقيمت فيه السوق. فأبطأ من سرعته وأخذ نفساً عميقاً.

كانت مدام بومون قد أمضت الصيف في ساري-سولينزارا مثل كلّ عام. وبدا من تألّق وجهها أنّها لم تحرم نفسها من فوائد الشمس. تحدّثت عن منزلها الصغير وحديقتها هناك أمام كلارا مرّات عديدة، كما قامت

بدعوتها هي وزوجها إلى المنزل. ومع أنّ كلارا أخبرتها أنّها تودّ ذلك حقّاً، إلاّ أنّها أجّلت زيارتها كلّ صيف. ربّما لأنّها علمت أنّها لن تستطيع إقناع مارك بالذهاب.

مضى يومان على عودة مدام بومون، وكانت تتتبّع مجيء مارك وذهابه من خطواته ومن ثقب بابها. بدا بحال أفضل من ذي قبل، فقد اكتسب وجهه بعض اللون، ربّما بسبب الشمس. تساءلت عمّا إذا كان قد وجد صديقة جديدة. هل أحرز تقدّماً في الطهي؟ أرادت أن تطرق على بابه لإلقاء التحيّة عليه. إذ يبدو وكأنّه تجاوز الصدمة وتابع حياته. لم تشأ مدام بومون أن يعتقد أنّها لا تكترث لأمره، بل كلّ ما أرادته هو إعطاؤه بعض الوقت. وبينما كانت تفكّر بذلك، التقته أمام المبنى. كان الرجل يحمل أكياساً بيديه مثلها تماماً. ألقيا التحيّة على بعضهما وهما يبتسمان. تذكّر مارك أنّ هذه المرأة كانت مهمّة بالنسبة إلى زوجته، وفكّر أنّ إبقاءها على مسافة منه كلّ تلك الأشهر ربّما جرح مشاعرها. ولهذا، قال لها بصوت صادق: "مرحباً مدام بومون" وحمل أكياسها من دون أن يسمح لها بالاعتراض. من الواضح أنّها فوجئت باهتمامه المفاجئ بها، إلاّ أنّها لم تقل شيئاً، بل فتحت بوّابة المبنى، وتركت مارك يمرّ، ثمّ تبعته. صعدا السلّم من دون انتظار المصعد. وبما أنّ مدام بومون لم ترغب في تفويت الفرصة، فقد دعت مارك لشرب الشاي. كانت قد أعدّت الشاي مسبقاً في الواقع، وخرجت لإحضار بعض البسكويت وحسب. لكنها بالطبع، ومثل كلّ مرّة، ملأت الكيس الشبكي من دون أن تلاحظ. لا بدّ أنّ الشاي انتقع تماماً في تلك الأثناء. لم يرفض مارك العرض، لكنّه أخبرها أنّه سيترك الأكياس في المنزل ويعود. وبعدما أخرج الكتب من الكيس ووضعها على طاولة المطبخ، تناول البطّة وفتح البرّاد. في تلك اللحظة، خطر له أن يسأل مدام بومون عمّا إذا كانت البطّة لا تزال صالحة. لذا، طرق بابها حاملاً بيده البطّة الملفوفة بالورق. قال: "قبل أن آتي، أودّ أن أسألك

شيئاً"، وأمسك الورقة من الجانبين مضيفاً: "هل تظنّين أنّ هذه البطّة قد فسدت؟" قرّبت المرأة المسنّة أنفها من اللحم وشمّته، ثم قالت له إنّ اللحم يبدو من رائحته طازجاً جدّاً؛ وكأنّه ذبح هذا الصباح. فشكرها مارك قائلاً إنّه سيعود حالاً. وبعد خمس دقائق، وبينما كانا يغمسان البسكويت في الشاي، أخبرته جارته كيف يطهو البطّة.

* * *

خسرت أمّها الكثير من وزنها. فالسيّدة نسيبة التي لا يخفى حضورها على أحد أينما حلّت، بمظهرها المعافى وساقيها الطويلتين، بدت صغيرة الحجم الآن. كانت فيردا تشعر بكلّ عظامها وهي تغيّر ملابسها أو تساعدها على الاستحمام. فثدياها اللذان كانا كبيرَين في الماضي أصبحا متهدلين، وكذلك بشرة ذراعيها. ومع أنّ أمّها تعتقد أنها كسيحة، إلاّ أنّ ساقيها بدتا سمينتين وقويتين كما كانتا من قبل. لم يسبق لفيردا أن ابتعدت عن أمّها في حياتها مطلقاً. حتّى إنّها لا تملك ذكريات من دونها. فقد كانت معها في صغرها، وفي كلّ مراحل زواجها، وفي أثناء إنجابها ولديها، وولادة حفيديها، وفي كلّ دقيقة من حياتها. لم تستطع حتّى أن تتخيّل الفراغ الذي ستخلّفه أمّها عندما تموت. فمن جهة، كانت تتطلّع إلى ذلك اليوم. لكن، من جهة أخرى، لم تستطع أن تتخيّل الحياة من دون السيّدة نسيبة. وكلّما نظرت إلى نفسها في المرآة، دُهشت لرؤيتها عينيها الغارقتين، وتجاعيدها العميقة، والبقع الداكنة على خدّيها. فبينما كانت تنتظر أمّها لتشيخ وتخرج من حياتها، شاخت هي نفسها. عندما نظرت إلى صورتها في المرآة عند الساعة السابعة والنصف صباحاً، أدركت أنّها تبدو أكبر من سنّها البالغة ثمانية وخمسين عاماً. تذكّرت نصيحة ابنتها، ووضعت المرطّب الذي اشترته لها من باريس على البقع الداكنة. ينتظرها نهار طويل، فعند العصر، ستستقبل صديقاتها من أيّام الثانوية. فالفتيات الثماني لم يفترقن قطّ. كنّ يلتقين من وقت إلى آخر في منزل إحداهنّ

كلّ شـهرين. والآن حان دور فيردا. قلن لها: "سـيكون هـذا صعباً عليك، دعينا نلتقي في منزل واحدة أخرى هذه المـرّة. فأنت لديك واجبات كثيرة أساساً". لكنّ فيردا أصرّت على عدم تغيير الخطط. الآن، وفي هذا الوقت من النهار امتصّـت أمّهـا كلّ طاقتها، ممّا جعلهـا تندم علـى قرارها. لكنها بالطبع لن تلغـي اللقاء. ومع أنّهـا لم تنم طـوال الليل، وتعانـي من صداع خفيف، إلاّ أنّها على أتمّ الاستعداد للذهاب إلى المطبخ.

خطّطت مسبقاً لما سـتحضّره. راجعت الأطباق واحداً واحداً خلال الأيّام السـابقة، وقامت بتحضير بعضها في اليومين الأخيرَين كلّما وجدت الوقت لذلك. الآن، بما أنّ السـيّدة نسـيبة نائمة، يمكنها إعداد الأشياء التي يجب تقديمها طازجة. كانت الليلة السـابقة ليلة عصيبة لأنّ السـيّدة نسـيبة اسـتيقظت كثيراً وطلبـت من فيـردا أن تغيّر لها حفاضها. لم يسـمع سـنان أيّ ضجّة بسـبب سـدّادتي أذنيه، ولم يلاحظ كم مرّة اسـتيقظت زوجته ثمّ عادت لتتمدّد مفتوحـة العينين، وهي تحدّق إلى السـقف لأنّها لم تسـتطع معاودة النوم.

تسـاءلت عمّا سـتختلقه أمّها أمـام صديقاتها. في الواقـع، كنّ يعرفن أمّهـا جيّـداً، ويعرفـن أنّهـا لـم تكـن مسـتقرّة ذهنيّـاً حتّـى قبـل أن تصاب بالخـرف. كما أنهـنّ زرنها خـلال الأشـهر الأخيـرة واحدة تلـو الأخرى، وغالباً ما اتّصلن لكي لا يتركنها وحدهـا. إلاّ أنّ أيّاً منهنّ لم تر الحالة التي آلت إليها.

ذهبت فيردا إلـى المطبخ وحاولـت العمل من دون إحـداث ضجّة. شـغّلت المذياع وراحـت تصغي إلى نشـرة الأخبـار. كانـوا يتحدّثون عن الانتخابات الرئاسية في الولايات المتّحدة والتي ستجري بعد ثلاثة أشهر. قالوا إنّ هـذه الانتخابات سـتغيّر رأي العالـم بأكمله. فلو تـمّ انتخاب هذا الرجل المدعوّ أوباما، فسيكون أوّل رئيس أسـود للبلاد. نسجت فيردا من قبل تخيّلات عن كونها ولدت فـي بلد آخر، وفي ظروف أخـرى. كثيراً ما

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

قالت: "لو أنّني ولدت في أميركا لكنت شخصاً مختلفاً، ولتمكّنت من عيش حياة مختلفة" فكّرت أنّه كان من الممكن أن تصبح طاهية مشهورة هناك، أو أن تحسّن أداءها في الرسم وتصبح رسّامة. كانت ستذهب إلى الجامعة، هذا مؤكّد. ولم تكن لتصبح بلا فائدة كما هي الآن. فكّرت بكلّ ذلك مجدّداً، وعملت على عجينة البروفيترول التي تحبّها صديقاتها. تركتها لترتاح قبل أن تملأ بها كيس العجين. أخذت استراحة وأعدّت لنفسها فنجاناً من القهوة، ثمّ جلست في المطبخ. لم تتصفّح كتاب السوفليه منذ أن رحلت ابنتها، ولم تجرّب أيّاً من الوصفات. أخذت الكتاب، ووضعته أمامها، ثمّ فتحت إحدى الصفحات بشكل عشوائي. كانت تفكّر في إعداد برك الباذنجان لصديقاتها، لذلك عندما رأت وصفة سوفليه الباذنجان مفتوحة أمامها، اعتبرت ذلك إشارة وغيّرت رأيها. كانت صديقاتها على استعداد دائماً لتجربة طعمات جديدة في منزلها، وعرفت أنهنّ لن يخذلنها أبداً حتّى لو لم ينجح السوفليه. أمّا إن تمكّنت من إعداده كما ينبغي، فسيكون ذلك نجاحاً كبيراً.

عندما أنهت قهوتها، وقفت وتحقّقت من العجين. كان قد برد بما فيه الكفاية، فوضعته في الكيس المخصّص له وأخذت تضغط على الكيس. وعندما أنهت ما تقوم به وغسلت يديها، سمعت أمّها تناديها: "فُسون!" سرّت لأنّها أنهت عملها، وبما أنّها أصبحت معتادة على مناداتها بهذا الاسم، ذهبت إلى الغرفة الصغيرة. مثلما يتحوّل تعاطفها إلى كُره فجأة، يمكن لغضبها أن يتحوّل أيضاً إلى حبّ. وبما أنّ فيردا لم تعرف كيف تتعايش مع كلّ هذه العواطف المختلفة في وقت واحد، لم تستطع أن تتصوّر ما الذي تشعر به معظم الوقت، وغالباً ما حاولت بجهد ولعدّة ساعات في اليوم إيجاد مركز أحاسيسها. عليها الاستعداد روحياً لكلّ حديث من خلال إغماض عينيها. فالسيّدة نسيبة تملك مفاجأة دائماً. ومع مرضها، بلغ الإبداع ذروته لديها. عندما دخلت فيردا الغرفة، لاحظت

أنّ أمّها فكّت أزرار ثوبها، وأخرجت أحد ثدييها. ما رأته وما سمعته لم يعد يفاجئها. إذ أصبح من النادر أن تعود أمّها إلى رشدها، فهي تعيش معظم الوقت في عالم الخيال. استعدّت فيردا لمعركة جديدة، وجلست على طرف السرير. كان الحديث مع السيّدة نسيبة أصعب من الحديث مع طفل. فعقلها يقفز من فكرة إلى أخرى من دون أيّ تسلسل منطقي.

"ماما، لنضع ثديك تحت ثوبك مجدّداً، ما رأيك؟"
"فُسون، أحضري فيردا، أريد إرضاعها"
"ماما، أصبحت فيردا كبيرة الآن، ولم تعد بحاجة إلى إرضاع"

وضعت السيّدة نسيبة إحدى يديها تحت ثديها وحدّقت إلى فيردا. بدت وكأنّها تريد التأكّد من أنّ ابنتها تقول الحقيقة.

"لكنني ما زلت أملك حليباً، انظري"

وعندما عصرت ثديها ولم يخرج منه أيّ حليب امتلأت عيناها بالدموع.

"لقد جفّ حليبي تماماً"
"أجل ماما. لكن لا تقلقي، ففيردا قد كبرت. ولستِ بحاجة إلى إرضاعها على أيّ حال. سأساعدك على تبديل ملابسك بعد قليل، إذ سيزورنا ضيوف اليوم. سأنظّفك بعدما أنتهي وألبسك ثوب نوم جديد. اتّفقنا؟ ما رأيك؟"
قالت السيّدة نسيبة "حسناً"، من دون أن تعرف ما الذي وافقت عليه. متى كبرت فيردا ولم تعد بحاجة إلى الحليب؟ حتّى فُسون تبدو أكبر ممّا

يفترض بها. يجب أن تتزوّج سريعاً، وإلاّ سيفوت الأوان. مرّ الوقت من دون أن تدرك. وبينما كانت ابنتها تغلق أزرار ثوبها، غرقت مجدّداً في النوم. نظرت فيردا إلى فم أمّها المفتوح الخالي من الأسنان بينما كان رأسها يسقط على الوسادة. كانت أمّها امرأة جميلة في ما مضى. وكان أحمر الشفاه يناسب حقّاً شفتيها المتناسقتين. كيف أصبحت هكذا؟ تجمّعت الدموع في عينيها مجدّداً على نحو غير متوقّع. ما تمرّ به يشبه معركة طويلة جدّاً؛ من ذلك النوع الذي ينهك الناس. كانت تكره نفسها في بعض الأحيان إلى حدّ لا تستطيع معه أن تقاوم الصراخ في وجه أمّها، ثمّ تشعر بذنب كبير كلّما رأتها هشّة على هذا النحو. لقد انقسم قلبها إلى نصفين يتعاركان معاً؛ إلاّ أنّها معركة لا يمكن أن يفوز فيها أيّ طرف. كانت تعرف جيّداً أنّه على الرغم من إحساسها بالذنب، وتعهّدها بألاّ تكون هكذا، إلاّ أنّها لن تتمكّن من منع نفسها. رتّبت غطاء السيّدة نسيبة القطني وعادت إلى المطبخ. وبعدما جفّفت دموعها وأنفها، استأنفت العمل مجدّداً.

لم تفكّر فيردا يوماً بشيء آخر في أثناء طهوها غير ما تطهوه، وحفاظها على تركيزها إلى هذا الحدّ أدهشها دائماً. فعندما تقوم بأعمال أخرى تكتشف دائماً أنّها تفكّر بأمر آخر؛ تقريباً بكلّ ما يزعجها في الواقع. أمّا في المطبخ، فهي تتوحّد مع ما تقوم به. ربّما لهذا السبب ينجح كلّ ما تعدّه ويكون محطّ إعجاب. فعندما تضيف ملعقة سكّر إلى الكرّاث المقلّى بزيت الزيتون، أو عندما تعصر الليمون الحامض على الفول، فإنّها تركّز على تلك الملعقة أو على نصف الليمونة وكأنّ حياتها بأكملها تعتمد عليهما. ربّما هذا هو سبب تعلّقها الكبير بمطبخها؛ لأنّه لا يسمح لها بالتفكير في شيء آخر، أو باستجواب الحياة، أو نفسها، أو القلق والشعور بالحزن.

هكذا تكون عموماً، لكنّها في هذه اللحظة، عندما مزجت مكوّنات

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عجينة البروفيترول قامت بذلك من دون التفكير فيها. لم تنتبه كم أضافت من النشاء ولا من السكّر. حتّى إنّها لم تعرف متى أضافت الحليب. فصلت بياض البيض عن الصفار بحركات آليّة، ولو لم تر قشر البيض لما تأكّدت من أنّها قد استعملته. لقد احتلّت أمّها كلّ مساحة ذهنها، ولم تعد قادرة على استجماع أفكارها. يبدو وكأنّ السيّدة نسيبة لم تعد تملك وقتاً طويلاً. حتّى إنّها قد لا تستيقظ من نومها الذي غرقت فيه للتوّ، فقد بدت متعبة إلى هذا الحدّ. تركت فيردا الخليط يغلي على النار، وأسرعت إلى غرفة أمّها مجدّداً، لتجد السيّدة نسيبة ممدّدة كما تركتها. وعندما اقتربت منها، رأت صدرها يعلو ويهبط بخفّة مع كلّ نفس تأخذه، فعادت إلى المطبخ مجدّداً بخطى سريعة. حرّكت الملعقة بسرعة للتخلّص من الكثافة التي تجمّعت في قعر القدر. وعندما أطفأت الغاز، قامت بأمر لم تقم به من قبل قطّ، إذ مسحت القليل من الخليط بطرف إصبعها عن الملعقة وتذوّقته. كان طعمه كالعادة، هو نفسه.

كانت على وشك إخراج الصينية من الفرن عندما رنّ الهاتف، فأسرعت إليه كي لا يوقظ أمّها، وعندما أجابت كانت تلهث.

"ماما، ماذا يجري؟"

"أهلاً حبيبتي. جدّتك نائمة، لذلك ركضت"

"ولذلك تهمسين. لم تبدّلي حتّى الآن بطّارية الهاتف اللاسلكي، أليس كذلك؟ على الأقلّ يمكنك نقل هذا الهاتف إلى مكان آخر

"أعرف أعرف، أنت على حقّ، لكنّنا لم نتمكّن من الاهتمام بهذه الأمور"

أطلّت إلى غرفة أمّها حاملة الهاتف بيدها. كانت نائمة بهدوء.

"لا تقلقي، لم تستيقظ على أيّ حال. كيف حالك يا صغيرتي؟ كلّ شيء على ما يرام، أليس كذلك؟"

"أجل... أجل... لكنّني أريد أن أسألك شيئاً. موعد الولادة في آخر سبتمبر أو بداية أكتوبر. لقد أصبح قريباً، فماذا ستفعلين؟"

"أنت تسألين عمّا إذا كنت أستطيع المجيء، أليس كذلك؟ سنرى ماذا سنفعل، سأجد حلاً"

طمأنت ابنتها، لكنّها لم تكن تعرف ما هو ذلك الحلّ. فحتّى لو أخذ سنان عطلة من العمل لبضعة أيّام، فلن يتمكّن من رعاية السيّدة نسيبة بمفرده. وأخذ أمّها إلى منزل أخيها سيكون أصعب، لا سيّما وأنّ منزله صغير بوجود طفلين. من جهة أخرى، إنّ زوجة أخيها نازان ترفض رعايتها. حتّى إنّهما لا يزورانها، فما بالك برعايتها؟ كانت إيلا قد أخبرت أمّها في بداية حملها أنّها ليست مضطرّة لحضور الولادة، لكنّها بدأت تغيّر رأيها مع ازدياد حجم بطنها. كانت قلقة دائماً في أحاديثهما الهاتفية الأخيرة، ولديها دائماً ما تسأل عنه. مثلاً انحنت منذ يومين من دون أن تنتبه، فهل هذا يؤذي الجنين؟ ارتطم بطنها بزاوية الطاولة، فهل من الممكن أن يكون شيء ما قد حدث؟ تناولت السمك على العشاء، وشعرت بالغثيان في منتصف الليل، هل أصيبت بالتسمّم؟ الاتّصالات الهاتفية التي كانت تقتصر على أيّام الجمعة أصبحت يومية تقريباً، ولا وقت محدّداً لها. شعرت فيردا بالذنب مع أنّها تعرف أنّه ليس بيدها حيلة. فعجزها عن مساعدة ابنتها في وقت هي بأمسّ الحاجة فيه إليها يزعجها. كانت عادة تنزعج من ذلك، وتلوم أمّها بقلب مليء بالحقد.

شعرت بذنب أكبر بعدما أغلقت الهاتف، ومع أنّ الساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة صباحاً، إلاّ أنّ الإنهاك بدأ يظهر عليها. لم يكن أمامها مهرب، لقد أدركت ذلك. ملأت البروفيترول بالخليط بشكل

آلي مجدّداً. وبينما هي تصبّ صلصة الشوكولاته سمعت صوت السيّدة نسيبة: "فيردا!". لم تستطع منع نفسها هذه المرّة، وأجهشت ببكاء اهتزّ معه جسدها بعنف، من دون أن تفكّر بالصداع، أو باحمرار عينيها، أو بصديقاتها اللواتي كنّ على وشك الوصول. وبينما راحت أمّها تكرّر اسمها، بكت واضعة رأسها على يديها الملطّختين بصلصة الشوكولاته.

عرفت صديقات فيردا فور دخولهنّ أنّها تمرّ بيوم عصيب. من الواضح أنّها كانت تبكي لساعات مع أنّها حاولت تغطية عينيها المتورّمتين والآثار الحمراء حول شفتيها. عرفن جميعاً مدى صعوبة ما تمرّ فيه لأنّهن قمن واحدة تلو الأخرى برعاية أقارب مرضى. ولطالما عرفن أنّ الخالة نسيبة ستكون امرأة صعبة في كبرها. فقد كنّ صديقات لفيردا منذ أيّام الدراسة، ورأين كيف اعتنت تلك الفتاة المسكينة بأمّها خلال صباها، بينما استمتعن بشبابهنّ إلى أقصى حدّ. أمضت فيردا أيّامها إمّا في العمل المنزلي أو منتظرة في المستشفيات بينما كنّ يجلسن في المقاهي. كانت تهتمّ دائماً بالمنزل، كما كانت ممرّضة لأمّها. ولا تذكر أيّ منهنّ أنّها رأت الخالة نسيبة بخير. أمّا الآن، فهي تبدو كالشبح. إنّها مريضة الآن فعلاً. خلال الأشهر الماضية استمعن إلى أخبارها، لكن من الواضح الآن أنّ أجلها بات وشيكاً. فمن الصعب معرفة ما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة أم لا وهي نائمة.

أغلقن باب غرفتها وذهبن إلى غرفة الجلوس من دون إصدار ضجّة كبيرة. ظلّت فيردا تحذّرهن من أنّها قد تقول أغرب الأمور عندما تستيقظ، وأنّه لا يجب أخذها على محمل الجدّ، فعقلها يخدعها طوال الوقت. ولا يجب أن يشعرن بالخوف أيضاً إن بدأت تصرخ، أو أن يغادرن المنزل. قالت لهنّ إنّها اعتادت على ذلك. فقد مضى وقت طويل منذ أن توقّفت عن الإحساس بالإحراج. شعرت بالانزعاج في البداية عندما اعتقدت أنّ

الجيران سيأخذون ما تقوله على محمل الجدّ، لكنّها توقّفت عن الاكتراث بذلك منذ مدّة. قالت: "لا يمكن الهرب من القدر، أليس كذلك؟"

لو عرفت صديقات فيردا تحت أيّ ظروف عملت طوال النهار، وكم مرّة تنقّلت بين غرفة أمّها والمطبخ ذهاباً وإياباً، لقدّرن ما قامت به أكثر. في الواقع، بدا عليهنّ جميعاً الرضى على كلّ حال، برؤوسهنّ الملقاة إلى الخلف، وأعينهنّ المغمضة، وهنّ يستمتعن بالطعام. كنّ يسحقن اللقمة في أفواههنّ بواسطة ألسنتهنّ، ويتذوّقنها جيّداً، ويقلّبنها مرّة أخرى في أفواههنّ، قبل ابتلاعها. نجح السوفليه فعلاً، مع أنّها أعدّت كمّية كبيرة منه، وحضّرته من دون أن تلاحظ ماذا تفعل. قالت إحدى صديقاتها: "ممتاز فيردا. لم أكن أعرف بوجود سوفليه الباذنجان. كيف تمكّنت من فعل كلّ ذلك وسط هذه الفوضى؟ كيف وجدت الوقت؟" وعلّقت أخرى: "حسناً، ابنتها تعيش في باريس. بالطبع ستتقن المطبخ الأوروبي" وتابعت إحدى الحاضرات، "لماذا أتعبت نفسك من أجلنا؟ لديك أساساً الكثير من الواجبات. كان بإمكانك طلب كلّ شيء من محل الحلويات. كما تعرفين، أنا لم أعد أحضّر شيئاً. إذ أتّصل بألتينكيك، ويحضرون كلّ شيء"

عرفن جميعاً كم تُفرح هذه التعليقات فيردا. فهي تجد دائماً ملجأً لها في المطبخ منذ صغرها. كانت تأتي إلى المدرسة حاملة علباً مليئة بالأطايب، وتحبّ مشاركة صديقاتها بنتائج مواهبها. لطالما جرّبت وصفات مثيرة للاهتمام، حتّى في ذلك الحين، واكتشفت طعمات لا يعرفها الآخرون. جميع صديقاتها تناولن في وقت أو آخر الأطباق نفسها في أماكن فاخرة خلال رحلاتهنّ إلى الخارج أو في مطاعم شهيرة، ودهشن لدى اكتشافهنّ أنّ فيردا أعدّت الطبق نفسه منذ سنوات عديدة وهي صغيرة. بالإضافة إلى ذلك، لم تكن لديهنّ في ذلك الحين كتب طهي غريبة أو شبكة إنترنت يستلهمن منها وصفات جديدة. حتّى إنّ

طريقة تقديمها للطعام كانت منمّقة، ولا تختلف أطباقها عن التحف الفنّية. جميعهنّ أجمعن على أنّ موهبتها ضائعة.

عندما رحلت صديقات فيردا، شعرت بالسرور لأنّها نسيت مشاكلها ولو لساعتين. لم تستيقظ أمّها خلال الزيارة بفضل جرعة المهدّئ الزائدة التي أعطتها إيّاها. فمع أنّها استقبلت صديقاتها مرّات عديدة على مدى السنوات، إلاّ أنّها ما زالت تشعر بالحماسة وهنّ يتذوّقن طعامها. تأمّلت وجوههنّ وهنّ يتناولن السوفليه خصوصاً، وحاولت أن تعرف ما إذا كانت تعليقاتهنّ حقيقية أم لا. لم تكن هويّة الضيف مهمّة بالنسبة إليها، ولا عدد المرّات التي أعدّت له فيها الطعام. فكلّ مرّة كانت بالنسبة إليها اختباراً جديداً، وقد نجحت فيه ذلك اليوم أيضاً. شعرت بالفخر على الرغم من معرفتها أنّ الأمر ليس بذي أهمّية. وبينما كانت تجمع الأطباق والأكواب بعد رحيلهنّ، أحسّت بالسعادة على الرغم من تعبها الجسدي والصداع الذي لم يفارق رأسها طوال الوقت. كلّما استقبلوا أشخاصاً على العشاء، كانت الحماسة تلازمها بعد رحيلهم، وبينما هي تنظّف كلّ شيء خلفهم بغضّ النظر عن الوقت، كانت تطلب من سنان إخبارها كيف وجد كلّ طبق من أطباقها. وفقط عندما يكرّر زوجها للمرّة الثالثة كم كان كلّ شيء رائعاً، تقتنع بذلك. لكنّ هذا الأمر لا يمنعها من سؤاله فجأة في اليوم التالي: "كان خبز الجوز شهيّاً فعلاً، أليس كذلك؟"

عندما أنهت كلّ شيء أخيراً، ورفعت ساقيها على الطاولة المنخفضة، سمعت مفتاح سنان وهو يدور في قفل الباب. سيسألها بعد قليل: "ماذا لدينا على العشاء؟" وستجيبه فيردا كالعادة: "ما رزقنا به الله"

11

أجبرت ليليا نفسـها على مغادرة الفراش صباح ذلك اليوم من شـهر أغسـطس. انتظرت عبثاً دخول النسيم مـن نافذتها المفتوحة طـوال الليل وأمضت واحدة من أكثـر ليالي الصيف حرارة ورطوبـة. تصبّب العرق من جبينها، وسـال على عنقهـا وبلّل الوسـادة. ومع أنّها اسـتغرقت فـي النوم لفتـرات قصيـرة، إلاّ أنّهـا أمضـت معظم الليـل وهـي تتقلّب في سـريرها محاولة الاسـترخاء. لذلك، عندما جلست على سـريرها ولامست قدماها الأرض، دفعت نفسـها للنهوض مدركة أنّ يومها سـيكون عصيباً. لم تكن تملك القوّة الكافية لفعل شـيء، لا للنزول ولا لمرافقـة آرني إلى الحمّام. أحسّـت أنّها لا تسـتطيع إعداد الفطـور أو وضع لقمـة في فمهـا، لكنّها لم تكن تملـك الخيار. كانـت وحيـدة ولديهـا زوج ترعـاه، ومنزل تهتـمّ به، ونزلاء عليها إطعامهم.

دخلـت الحمّـام بصعوبة كبيـرة، واتّـكأت علـى المغسـلة بمرفقيها. فتحـت الماء البـارد بيدهـا اليمنى وغسـلت وجههـا. وعندمـا تمكّنت من الوقوف مسـتقيمة ونظرت إلى نفسـها في المرآة، أدركت كم تبـدو متعبة. كانـت عيناهـا منتفختيـن أكثر مـن أيّ وقـت مضـى. بلّلـت يدها مجـدّداً ووضعتها على عنقها، ثـمّ مرّرتها على كتفيها من تحـت ردائها لتبريدهما. لـم يبد لهـا أنّها سـتتمكّن مـن تخفيـض حـرارة جسـدها مهما فعلـت، إذ كان العـرق يتصبّب مـن كلّ مسـام جسـمها. التفتت ونظـرت إلى حوض الاسـتحمام، هل يمكنهـا إجبار نفسـها على الاسـتحمام؟ لـم تكن تملك القوّة للقيـام بذلك. عـادت إلى غرفتهـا وهي تجـرّ قدميها. عليهـا النزول

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى الطابق السفلي. لا بدّ أنّ آرني استيقظ وينتظرها للذهاب إلى الحمّام، لكنّها لا تملك الطاقة للوقوف. عادت للجلوس على سريرها، وانتظرت زوال الدوار. أغمضت عينيها، ودفعها الثقل الذي يضغط على صدرها مجدّداً إلى السرير، بقوّة أكبر من الجاذبيّة. استلقت على سريرها مجدّداً؛ قد تشعر بتحسّن بعد عشر دقائق. لكنّ الثقل الذي تشعر به في ذراعها اليسرى ظلّ موجوداً حتّى وهي مستلقية. ربّما كانت تشعر بالوخز في أناملها لأنّها لم تستيقظ تماماً. تصبّب العرق من جبينها مجدّداً، وازداد الضغط على قلبها. أخذت أنفاساً عميقة وعيناها مغمضتان. في كلّ مرّة تنشّقت فيها الهواء، شعرت بألم في صدرها. كانت متعبة إلى حدّ أنّها لم تستطع التفكير بسبب ذلك أو الإحساس بالذعر. فالنوم الذي جافاها في الليلة الماضية عاد الآن، ولم تتمكّن من فتح عينيها مهما حاولت. أخيراً، خسرت معركتها مع النوم.

وعندما استيقظت مجدّداً، كانت الشمس قد غيّرت موقعها ولم تبد سوى أشعّتها. ومع أنّ الضغط الذي كانت تشعر به في صدرها قد زال، وتوقّف العرق، إلاّ أنّها ما زالت متعبة. جلست على سريرها ببطء، ووضعت يديها على حضنها وحاولت استعادة نشاطها. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً. لا شكّ أنّ آرني قد استيقظ منذ ساعات، وربّما حاول أيضاً الذهاب إلى الحمّام بمفرده. مضى وقت طويل منذ أن توقّفت ليليا عن استخدام جهاز المراقبة. فقد أطفأته في إحدى الليالي عندما أصبحت عاجزة عن سماع أزيز تنفّسه وصراعه مع الأغطية.

حتّى إنّ الأصوات التي كان زوجها يصدرها - والذي اعتقدت أنّها أحبّته عن بعد لسنوات - أصبحت تزعجها الآن. وهي تعرف أنّه لم يعد يطيقها هو أيضاً. كلّ ما لم يفهماه في الماضي طفا إلى السطح الآن مع مرضه. كانا بحاجة إلى تراجيديا كهذه ليريا الحقيقة. أخيراً، فهما أنّ الحبّ الذي اعتقدا أنّه تعرّض للصدأ مع السنوات لم يكن موجوداً من الأساس.

لا بدّ أنّ جسدها كان متعباً جدّاً، لأنّها لم تتمكّن من الوقوف إلاّ بعد عشر دقائق أخرى. وبعدما غسلت وجهها بالماء مجدّداً، غادرت الغرفة. كانت حركاتها لا تزال بطيئة. وحتّى لو أرادت أن تسرع، لم يسعفها جسدها. نزلت إلى الطابق السفلي وهي تمسك بالدرابزين، ولم تسمع أيّ صوت في المنزل. يبدو أنّ الجميع رحلوا أساساً. لم تعرف أنّ آرني تتبّعها من مكان نومه، وأنّه كان ينتظر بقلق منذ الصباح الباكر. سمع أصوات الناس وهم يدخلون المطبخ ويرحلون، لكنّه لم يقل شيئاً أو يطلب مساعدتهم على الرغم من قلقه الشديد. في الواقع، اعتقد أنّ شيئاً ما قد حدث لليليا. فزوجته أكبر منه سنّاً، وربّما انهارت هي أيضاً في غرفتها كما حدث له قبل أشهر، وانتظر دخول شخص ما. ومع أنّه فكّر بذلك الاحتمال، إلاّ أنّه لم يطلب من أحد الذهاب للاطمئنان عليها.

سيطر على احتياجاته الجسدية خلال نصف الساعة الأولى من استيقاظه، ثمّ أدرك أنّه لم يعد يستطيع الاحتمال، فنهض للسير متّكئاً على "الواكر"، إلاّ أنّه لم يقدر. فنظراً إلى أنّه نادراً ما يتنقّل هذه الأيّام، شعر بالدوار عند أقلّ حركة. وحتّى لو لم يشعر بالدوار، فهو لم يشأ المخاطرة خوفاً من الإصابة بجلطة أخرى. كان يرفض السير حتّى إلى باب غرفته من دون وجود ليليا بجانبه.

وللسبب نفسه، لم يغادر سريره هذا الصباح، بل تبوّل في الوعاء الموجود دائماً قرب سريره. ومع أنّه تجاهل تشنّجات أمعائه لبعض الوقت، إلاّ أنّه لم يعد يستطيع احتمال الألم، وأصبح واضحاً أنّه لن يتمكّن من إمساك نفسه أكثر. فأخرج كلّ المناديل الورقية من إحدى العلب، ووضعها على سريره، وقضى حاجته فيها محاولاً موازنة نفسه قدر الإمكان. شعر بالتعب الشديد في النهاية، إلى درجة أنّه لم يستطع حتّى تغطية العلبة، واكتفى بوضعها على الأرض، ثمّ رمى نفسه على السرير تقريباً. أصبحت رائحة الغرفة لا تطاق، وما كان بإمكانه البقاء فيها

في الظروف الطبيعية، فما بالـك بالنوم فيها. ومع ذلـك، انتظر عاجزاً وهو ممدّد. شـعر بالغضب الشـديد، إلاّ أنّ قلقه كان يوازي غضبه. قد لا تكون ليليا أذكى النسـاء وأبرعهنّ في تحمّل المسـؤولية في العالم برأيه، إلاّ أنّها لم تكن سـيّئة. وما كانت لتتخلّى عنه هكذا من دون سـبب. لذلك، عندما سـمع خطوات زوجته على السـلّم، شـعر بارتياح وسـخط هائلَيـن. لماذا تسـير ببطء مع أنّها تعرف كم تأخّرت؟ لم يسـتطع مقاومة الابتسـام عندما فكّر أنّهـا لا تعرف مـا ينتظرها في غرفتـه. ألم تعـرف أنّ موعـد أدويته قد فات وأنّـه يتضوّر جوعاً؟ ومع ذلـك انتظر من دون قول شـيء. كانت هذه طريقتهمـا الجديدة فـي التواصل؛ إذ يحـزر كلّ منهمـا ما يفكّـر فيه الآخر مـن دون كلام. عرف من الأصـوات الصـادرة من المطبـخ أنّ ليليـا هناك تحضّر القهوة، وتخرج الخبز من البرّاد، وتضعه في آلة التحميص. بإمكان آرني الانتظـار قليلاً بعـد. إن كانت الإثـارة الوحيـدة في حياتـه المبرمجة هـي الصدمة التي سـتصيب ليليا قريبـاً، فبإمكانـه الانتظار. إنّـه الآن جاهز لدخولهـا غرفتـه. لكـنّ الخطـوات توقّفـت. ربّـمـا كانـت تنتظـر تحمّص الخبز أمام الطاولـة. ومع أنّهما كانا يكرهـان تلك الآلة القديمـة، إلاّ أنّهما لم يشـتريا واحدة جديدة لسـنوات. لا بدّ أنّها أبطأ آلـة لتحميض الخبز في العالـم، فهي تحتاج إلى سـبع دقائـق لتحميص شـريحتي خبـز. كان آرني ينتظـر منذ ثلاث سـاعات ونصـف تقريبـاً، ويمكنـه الاحتمال سـبع دقائق إضافية.

أحسّ وكأنّ كلّ ثانية وكل مِلّيثانية من الدقائق السـبع تلك انقسـمت إلى أجـزاء صغيـرة، وانقسـمت كلّ منها إلى سـنوات وسـنوات، حيث إن الزمـن توقّف فـي الكـون بأكمله. فقـد حـلّ صمت مطبـق علـى المنزل، ولـم تُسـمع أيّ ضجّة في الحـيّ بأكمله الذي لا تعيش فيه سـوى أسـر مع أولاد. أيـن الجميـع؟ لمـاذا لا يخـرج أولـئك الأطفـال من تلـك المنازل

ويركبون درّاجاتهم؟ لماذا لا يلعبون وهم يصيحون إلى أن يطلب منهم الكبار التوقّف؟ أين خراطيم المياه في تلك المنازل؟ لماذا لا يلعب أولئك الأولاد الماكرون بالمياه ويبلّلون بعضهم؟ لم يكن يسمع سوى زقزقة العصافير في ذلك الصمت؛ إذ لم يكن أحد غيرها يشعر بالرغبة في الحديث، فهي وحدها التي أرادت الغناء والمغازلة. ولو لم يصدر صفير عن القطار الذي يمرّ قرب النهر كلّ ساعة، لما عرف أحد أنّه ثمّة حياة هناك. شعر آرني بكلّ تلك الدقائق السبع، دقيقة تلو الأخرى. لكنّه تمدّد من دون إصدار أيّ صوت، وانتظر الصوت الذي سيصدر من آلة التحميص بعد قليل.

أخيراً، سمع صوت خروج الخبز من الآلة، لكن هذا كلّ شيء. أيّاً يكن المكان الذي تقف فيه ليليا، فإنّها لم تسر نحو آلة التحميص، ولم تُخرج شريحتي الخبز، ولم تدهن الزبدة على سطحهما المحمّص وتضعهما في طبق. ما زال صوت العصافير وحده هو المسموع من الخارج. وهكذا، ظلّ آرني ينتظر في سريره.

بعدما دخلت ليليا المطبخ أعدّت القهوة، وأخرجت الخبز من البرّاد. وبما أنّها أصبحت حذرة مع كلّ قرش تنفقه مؤخّراً، فقد تخلّت عن الخبز الشهيّ الذي يشتريه إيال، وعاودت شراء ذلك التوست الموضوع في الأكياس الصفراء. أخرجت أربع شرائح ووضعتها في آلة التحميص، ثمّ اتّكأت على الطاولة وبدأت تنتظر. هذه الآلة تستغرق وقتاً طويلاً حقّاً. أدركت أنّ آرني غاضب جدّاً، فهو لم يقل شيئاً مع أنّه عرف أنّها في المطبخ. ومع ذلك، لم تكترث ليليا في ذلك اليوم. فقد أزعجها الحرّ فعلاً، وأحسّت بالتعب إلى حدّ أنّها لم تجد القوّة الكافية لفتح الماء وتبريد جسدها بعض الشيء. خلعت خفّها المنزلي ووقفت على البلاط البارد حافية القدمين. ساعدتها البرودة التي انتشرت من أخمص قدميها

إلى جسدها، فرفعت رداءها من أطرافه وجلست على البلاط. كان ذلك شعوراً جميلاً. عرفت أنّ البقعة التي تجلس عليها ستسخن قريباً. لكن، حتّى ذلك الوقت يمكنها أن تسند رأسها على باب الخزانة وتغمض عينيها. فكّرت في أثناء ذلك أنّ سبع دقائق وقت طويل حقّاً. لو كان الناس ينتظرون الدقيقة التالية من دون فعل شيء على هذا النحو، عوضاً عن ملئها، فستكون الحياة طويلة جدّاً. عندها لن يرغب الناس في معرفة كيفية انقضاء السنوات. كانت الدقائق السبع وقتاً طويلاً فعلاً؛ وقتاً لا نهاية له. لا يجب أن تنقضي، ولن تفعل.

لن تفتح ليليا عينيها مجدّداً في المكان الذي جلست فيه، ولن تسمع أبداً صوت الخبز وهو يخرج من الآلة مجدّداً.

* * *

نظرت السيّدة نسيبة إلى ابنتها بعينين برّاقتين للمرّة الأولى منذ أيّام، لا بل ربّما أشهر. بدت مثلما كانت تبدو في سنوات شبابها. كان ثبات رأسها دليلاً على صفاء ذهنها. فيردا - التي لم تكن تملك الطاقة للوقوف بعد عدد من الأيّام العصيبة - فهمت على الفور أنّ أمّها استعادت رشدها. شعرت بغصّة، وامتلأت عيناها بالدموع. فعلى الرغم من تعبها الشديد وغضبها على أمّها، إلاّ أنّها ما زالت تشتاق إليها. وكلّما استعادت السيّدة نسيبة شيئاً من وعيها، رغبت فيردا في التحدّث معها عن الماضي، ومراجعة ذكرياتهما معاً قبل وفاتها. ومع أنّ الكثير من تلك الذكريات ترغب في نسيانه تماماً، إلاّ أنّها أرادت تعزيز الأيّام التي قضتها مع أمّها.

طرقت السيّدة نسيبة بيدها الصغيرة على طرف سريرها. ربّما تحاول هي أيضاً التمسّك باللحظات التي تستعيد فيها إدراكها. جلست فيردا قربها بلطف، وأخذت يد أمّها النحيلة بيدها. وعلى الرغم من كلّ المؤشّرات التي تُظهِر أنّ السيّدة نسيبة واعية، إلاّ أنّها نادتها بتردّد: "ماما" فظهرت ابتسامة حزينة على شفتي أمّها الرقيقتين. كانت على وشك القول، "أجل،

هذه أنا"، لكنّها بدّلت رأيها.

"فيردا، لقد خسرتِ الكثير من وزنك!"

"نعم فعلت، لكنّني سأستعيده"

مكتبة الرمحي أحمد

"ألم تصبغي شعرك؟"

"لا وقت لديّ. في الواقع، تعجبني هذه الخصل الرمادية أيضاً، وأفكّر في تركه على حاله"

"كلاّ، لا تفعلي ذلك، فأنت ما زلت شابّة. ستبعدين زوجك عنك"

"لا تبالغي، ماما"

لم تكن فيردا تريد التحدّث في هذه الأمور التافهة، بل عليهما قول أشياء أخرى أكثر أهمّية وعاطفية. لم تعرف حتّى ما إذا كانت أمّها قادرة على التكلّم كما كانت مجدّداً. لذلك، يجب أن يكون حديثهما ذا معنى؛ غير أنّها لم تجد القوّة للغوص أكثر.

"لا تتحدّثي هكذا. عليك أن تكوني دائماً جميلة المظهر أمام زوجك، وإلاّ سيبحث عن امرأة أخرى"

كلاّ، كلاّ... لا تريد فيردا التحدّث عن أبيها. ولا يجب أن تتحدّث أمّها عن الألم والجروح مجدّداً. لا يجب أن تكونا سطحيتين فتتحدّثان عن العلاقة بين الرجل والمرأة مرّة أخرى. لهذا السبب، قرّرت قبول ما تقوله أمّها والانتقال إلى موضوع آخر.

"حسناً، سأصبغ شعري"

"ضعي بعض مساحيق التجميل أيضاً"

"سأفعل"

لم تفهم أمّها لماذا لا تملك الوقت لأيّ من ذلك، ولم تعرف أنّ انتفاخ عينيها ناتج عن قلّة النوم، ولم تدرك أنّ فيردا قامت برعايتها ليلاً ونهاراً واهتمّت بمنزلها في الوقت نفسه. حتّى إنّها لم تعد تمضي وقتاً مع حفيديها، فما بالك بإيجاد الوقت للاعتناء بجمالها. فكّرت في ذلك بينها وبين نفسها، لكنّها لم تفصح عنه بصوت عال. بالمقابل، كانت السيّدة نسيبة مدركة للواقع للمرّة الأولى منذ أشهر. شعرت أنّ ذهنها صافٍ أخيراً، وأصبحت قادرة على رؤية كلّ شيء بوضوح. أرادت التحدّث مع ابنتها عن ذلك، لكنّها لم تعرف كيف تبدأ، وظلّت تحوم حول الموضوع. أخيراً، وجدت الطريقة المناسبة.

"فيردا، أنا آسفة على كلّ شيء؛ على كلّ ما فعلته. أرجوك سامحيني يا عزيزتي. فذهني يتشوّش فجأة، ولا أعرف من أكون عندها. لا أعرف ماذا أقول، أو ماذا أفعل. أرجوك سامحيني إن آذيتك"

أخيراً، زالت الغصّة من حلق فيردا، وتدفّقت كلّ المشاعر التي تراكمت هناك على شكل شهقات ودموع. ستختفي هذه اللحظات الثمينة قريباً، وستتحول أمّها مجدداً إلى شخص آخر. وستبدأ بالصراخ وقول قصص غريبة. يجب أن تفهم أمّها الآن أنّها سامحتها؛ نظراً إلى مظهرها. فهما لم تكونا بحاجة إلى الكلمات في تلك اللحظة. شدّت السيّدة نسيبة على يد ابنتها قليلاً، قدر ما استطاعت، وتركت دموع فيردا تسيل، وانتظرت من دون قول شيء. ربّما كانت هذه اللحظات أثمن الأوقات التي قضتها الأمّ وابنتها منذ سنوات؛ لحظات خصّصتاها لبعضهما وحسب.

ولولا رنين الجرس، لجلست فيردا هناك ممسكة بيد أمّها طوال

اليوم. التفتت ونظرت إلى أمّها مرّة أخرى قبل مغادرة الغرفة. كانت هناك ابتسامة على وجهها المتعب. وشعرت وكأنّ ثقل أشهر عديدة رُفع عن كاهلها، وأحسّت بسلام لم تشعر به منذ وقت طويل. ومع أنّ مشاكلها لم تُحلّ، إلاّ أنّها عرفت أنّها ستكون أقوى منذ الآن فصاعداً.

كان من بين المغلّفات التي سلّمها إيّاها ساعي البريد إشعار يفيد بأنّهم لم يدفعوا فاتورة الكهرباء خلال الشهر الماضي. ظلّت هي وسنان يطلبان من بعضهما دفع الفاتورة طوال الشهر، ونسيا أمرها في النهاية. ومع أنّها أصرّت مرّات عديدة، إلاّ أنّ سنان رفض دفع الفواتير آليّاً، وأراد رؤية الفاتورة والإيصال كلّ شهر. في الواقع، لم تر فيردا أيّ مشكلة في دفع الفواتير من قبل، إذ كانت تحبّ الاهتمام بتلك الأمور. لكنّ هذا العمل مثل أيّ من الأعمال الأخرى، تحوّل إلى حمل كبير بالنسبة إليها. ستهتمّ بالموضوع عصر ذلك اليوم قبل أن تنسى. يمكنها الذهاب في أثناء نوم أمّها.

وضعت المغلّفات على طاولة المطبخ، وفتحت باب البرّاد بسعادة متجدّدة. كانت إحدى جاراتها قد أحضرت لها ثلاثة أطباق من حلوى السنينية التي حضّرتها بمناسبة ظهور سنّ حفيدها الأوّل في الليلة الماضية. تناول سنان حصّته وأتى على معظم حصّة فيردا لأنّه يعرف أنّها لن تأكلها، لكنّه لم يلمس حصّة حماته. فالكلّ يعرف مدى ولع السيّدة نسيبة بهذه الحلوى. كانت تعدّها بشكل رائع عندما كانت تتمتّع بصحّتها، وهذا ممّا لا شكّ فيه. كانت تستخدم المكوّنات بسخاء، وتضع الكمّية المناسبة من القرفة، ولا تعجبها الطريقة التي يعدّها بها الآخرون. في الواقع، كان ذلك ينطبق على كلّ الأطباق. فمع أنّها كانت تأكل الطعام الذي تعدّه ابنتها معظم الوقت خلال السنوات الأخيرة، إلاّ أنّها كانت دائماً تجد خطأً فيها؛ فهو إمّا ينقصه الزيت، أو الملح، وإمّا مطهو بشكل زائد أو غير ناضج بما فيه الكفاية. ما كان عليها تقطيع اللوبياء بهذا الشكل. لا

يجب أن تستخدم شيئاً غير الزبدة مع أرزّ بيلاف. وما لم يبد البيلاف وكأنّ قطّة مشت عليه، فهو ليس جيّداً. لا يجب وضع بصل في الباستا مع لحم البقر المفروم، ولا يجب طهي الفول قبل فركه بعصير الليمون الحامض. وإن أعجبها الطعام الذي تعدّه فيردا، فالسبب يرجع إلى المكوّنات الطازجة ذات النوعيّة الممتازة. وبينما يُعجب العالم بأسره بطهي فيردا، تقول عنه السيّدة نسيبة: "لا بأس به"

كانت فيردا قد قدّمت لأمّها بعضاً من حلوى السنينية في الليلة السابقة، ولكنّها لم تستطع إقناعها بأنّها ليست مسمّمة. فعندما لا تكون السيّدة نسيبة في كامل وعيها، فهي ترفض أن تأكل أي شيء، حتّى الأطعمة التي تحبّها كثيراً. وفي بعض الأحيان، كانت ترمي الطبق على الأرض، بما فيه من طعام. أصبحت سجّادة غرفتها قذرة جدّاً، إلى حدّ أنّهم سيضطرّون إلى التخلّص منها في النهاية.

أخذت طبق الحلوى وذهبت إلى غرفة أمّها. لا شكّ أنّ السيّدة نسيبة ستقبل بتناوله الآن. حالما دخلت الغرفة شعرت بشيء مختلف في عيني أمّها. كلاّ، ما زالت كما هي. بدت عيناها صاحيتين تماماً، ولكن كان ثمّة شيء مختلف في مظهرها لم تستطع فيردا أن تتبيّنه. نظرت حولها حاملة الطبق بيد والملعقة بالأخرى. أخيراً، وقع نظرها على المنضدة المحاذية لسرير أمّها. كانت عبوة الباسيفلورا المفتوحة فارغة، وكذلك زجاجة شراب الباسيفلورا. نظرت مجدّداً إلى أمّها وإلى المنضدة ثمّ انحنت وألقت عليها نظرة عن كثب. كانت العلبتان اللامعتان فارغتين. تعرف تماماً أنّها اشترتهما مؤخّراً. في الواقع، لقد واجهت صعوبة في الحصول عليهما. نظرت إلى أمّها مجدّداً. كان فمها مغلقاً، وما زالت تواصل الابتلاع. وضعت فيردا الطبق والملعقة على المنضدة، وأمسكت بذقن أمّها. لم تدرك سوى بعد دقيقتين أنّها كانت تصيح: "ماما، افتحي فمك" وعندما فتحت السيّدة نسيبة فمها أخيراً، كانت قد ابتلعت كلّ

تلك الأقراص بمساعدة شراب الباسيفلورا. أخذت يد ابنتها التي تمسك بذقنها بيديها الاثنتين، وقالت: "اجلسي جلست فيردا على المساحة الخالية من السرير مجدّداً، كما فعلت منذ قليل. هذه المرّة كانت أعينهما دامعة. أشارت فيردا إلى سطح المنضدة برأسها قائلة بصوت ضعيف: "أحضرت لك الأشوري، أعرف أنّك تحبّينها كثيراً". أراحت السيّدة نسيبة رأسها على الوسادة قائلة: "هلاّ أطعمتني تناولت فيردا الطبق بيدها، ثمّ ثنت إحدى ساقيها تحت جسدها واقتربت من أمّها. غمست الملعقة في الحلوى بحركات بطيئة وملأتها بالأشوري. كانت يدها ترتجف وهي تمدّها إلى فم أمّها. كالعادة، أخذت السيّدة نسيبة وقتها للاستمتاع بالطعام. فتحت فمها مجدّداً ونظرت إلى ابنتها، فأطعمتها فيردا ملعقة أخرى وراقبتها وهي تأكل الحلوى ببطء. لم تعد يدها ترتجف بعد بضع ملاعق. تابعت إطعام أمّها وهي تمرّر يدها على وجهها من وقت إلى آخر. وعندما وصلتا إلى منتصف الطبق، غرقت السيّدة نسيبة في نوم عميق، وعرفت فيردا أنّها لن تستيقظ منه مجدّداً.

* * *

فتح مارك عينيه بعد دقائق من شروق الشمس من دون مساعدة المنبّه الذي سينطلق بعد قليل. ملأت أولى أشعّة الشمس الغرفة بكسل من بين الستائر التي تركها مفتوحة ليتمكّن من الاستيقاظ بسهولة. فقد عانى من وقت عصيب وهو يحاول النوم في الليلة الفائتة، ولم يتمكّن من أخذ قسط كاف منه. هذا يعني أنّه سيشعر بثقل في عينيه طوال النهار. لكن، من دون أن يأبه بالتعب الذي سيشعر به في آخر هذا اليوم، نهض بحماسة ذكّرته بأيّام شبابه، ورتّب سريره على الفور. لحسن الحظّ، لم ير نفسه في المرآة المقابلة للسرير. ولو فعل، للاحظ حركات جسده التي تعكس عادات رجل اعتاد على العيش وحيداً، ولسبّب له ذلك الألم مجدّداً. ومع أنّه أنكر ذلك وأجّله لوقت طويل، إلاّ أنّه أصبح معتاداً على الوحدة في

النهاية، وأصبح مرتاحاً مع هذه الحياة التي وجدها غريبة في ما مضى.

بدأ يومه بالاستحمام، والحلاقة، وتسريح شعره أمام المرآة بعناية. اعتقد أنّه سيكون حزيناً في هذا اليوم، لكنّه شعر بحماسة كبيرة. فكّر بكلارا لبضع دقائق منذ أن استيقظ، لكنّ اللائحة الطويلة من الأشياء التي عليه القيام بها في ذلك النهار قطعت عليه أفكاره وألهته عنها.

بعدما ارتدى ملابسه وقف وسط غرفة المعيشة ونظر حوله. تحقّق ممّا إذا كان المنزل الذي نظّفه في اليوم السابق، لكي لا يرهق نفسه اليوم، لا يزال كما تركه. كان من المستحيل إيجاد ذرّة غبار على أيّ من الرفوف، أو الكتب، أو أوراق النباتات. حتّى إنّه نظّف الغبار العالق على الرفوف الصغيرة منذ عام بواسطة فوطة رطبة. فتح دروج غرفة المعيشة واحداً تلو الآخر وتفحّص فوط الطعام المطوية هناك منذ وقت طويل، واستقرّ رأيه على طقم بلون البيج. قام بكيّ آثار الثنيات على القماش بعناية، ثم نشرها على أحد الكراسي لكي لا تتجعّد مجدّداً. ألقى أيضاً نظرة على الأطقم الصينية الثمينة التي لم يلمسها منذ وفاة كلارا، واختار مجموعة منها. جهّز ثمانية أطباق طعام رئيسة، وثمانية أطباق للمقبّلات متناسبة معها، وثمانية أطباق للسلطة وضعها بشكل منحرف على الطاولة، لكنّه لم يرتّبها بعد. كما أخرج أيضاً الأواني الفضّية من علبة مصنوعة من خشب الجوز ورثتها كلارا عن جدّتها ولمّعها بنَفَسه.

كان هذا اليوم مناسباً لاستخدام فكرة رآها في أحد الكاتالوجات التي أعطوه إيّاها في السوق المركزية في أحد الأيّام أثناء خروجه. ما عليه سوى كتابة أسماء المدعوّين على أوراق مستطيلة، وشراء ثماني إجاصات صغيرة. سيضع الإجاصات في أطباق المقبّلات، ويعلّق الأوراق عليها من خلال ثقوب صغيرة سيصنعها في الزوايا، وبهذه الطريقة سيتمكّن كلّ مدعوّ من معرفة مكانه. فتح دفتر ملاحظاته الصغير للتأكّد من أنّه لم ينسَ تدوين الإجاص على اللائحة، ثمّ تحقّق من اللائحة مجدّداً للتأكّد من

أنّه لم يُغفل شيئاً. بدأ يشعر بالارتباك منذ الآن. ومع أنّه خطّط لكلّ شيء بالتفصيل ورتّب للوجبة، والصلصة، والسلطة التي سيعدّها، إلاّ أنّه ما زال يشعر بالتوتّر بسبب الأشياء الكثيرة التي عليه تحضيرها.

أخذ نفساً عميقاً وألقى نظرة من النافذة. رأى من مكانه سوق الخضار. خلال ربع ساعة، فُتحت كلّ الأكشاك. قرّر تناول فطوره في الخارج، لكي لا يزيد من الأعمال في المطبخ. وعندما غادر الشقّة، أدرك أنّه ترك صمتاً كبيراً خلفه. للمرّة الأولى منذ أشهر، لم يشغّل المذياع أو التلفاز فور استيقاظه. فعاد إلى المطبخ، وشغّل المذياع الذي لا يفارق إطار النافذة، ثمّ رحل. لم يهدّئ هذا الأمر أعصابه فحسب، بل أعصاب الجيران أيضاً الذين اعتادوا على سماع صوت آتٍ من الطابق الثاني.

جلس إلى إحدى الطاولات المجاورة للنافذة في مطعم لو سيترون، وطلب أومليت البطاطس مع القهوة. كان بحاجة إلى فطور كبير لكي لا يشعر بالجوع مجدداً خلال النهار. فهو لا يستطيع أن يسرق شيئاً من الطعام الذي سيحضّره. فهم الآن لماذا كانت أمّه تغضب عندما يسرق من الطعام الذي تعدّه للضيوف، وتضرب يده بالملعقة الخشبيّة. فكلّ جزء من المكوّنات كان لازماً. وإن نقص أيّ منها، فستتأثّر الوجبة بأكملها. كان قد طلب من الجزّار الكمّية اللازمة، وقام بحساب ما يلزمه من الطماطم، والبصل الأخضر، والحليب، والكريما. عليه الذهاب إلى الجزّار، وسوق الخضار، والمرور بكشك الأجبان، وشراء ثلاث زجاجات من الشراب اليوم. تحقّق من الساعة ونظر حوله. كان على وشك مناداة النادل عندما ظهر حاملاً الطبق بيده.

خرج بعد عشرين دقيقة فقط، وقد أشبع جوعه. سيهتمّ أوّلاً بالأغراض التي تلزمه من سوق الخضار، ثمّ سيقصد الجزّار. ألقى عليه بائعو الخضار التحيّة بمرح. لا شكّ أنّهم شعروا بالفضول لأنّه قام بشراء

كمّية أكبر من الخضار اليوم. أجل، سيقدّم للمرّة الأولى الطعام لمجموعة من الأشخاص. ماذا سيعدّ لهم؟ اللحم بصلصة البصل. أجل، سيضيف بعض الشراب الفرنسي إلى الصلصة. سيقطّع البصل إلى قطع صغيرة جدّاً، ثمّ يقلّيها بالزبدة وزيت الزيتون، ويضيف الشراب والكريما. أجل، سيستعمل ملح البحر.

سيقوم بسلق أصابع البطاطس أوّلاً، ثمّ سيقلّي الشبت، والبقدونس، والثوم بالزبدة، قبل أن يضيف إليها البطاطس المقطّعة بالنصف. تحدّثت مدام ديلار وهي تختار أصغر حبّات البطاطس وأكثرها استدارة: "إن لم تشأ أن تبرد البطاطس قبل وصول الضيوف، فضعها في الفرن. ستبقى ساخنة هناك. إن لم تبرد، فلن تخسر شيئاً من طعمها، كما يحدث عندما تعيد تسخينها"

بما أنّ مارك اضطرّ إلى ذكر ما سيطهوه تلك الليلة عند كلّ كشك توقّف عنده، فقد استغرق التسوّق وقتاً أكثر ممّا تخيّل. إلاّ أنّه تعلّم مع ذلك عدداً من التفاصيل المفيدة التي لم يكن يعرفها. وبعدما اختار بعض الفاكهة لكوكتيل اللبن، واشترى الإجاص، توجّه إلى كشك الأجبان الذي كان محطّته الأخيرة: "نصف باوند من الجبن الأزرق، نصف باوند من الجبن القبرصي، والقليل من جبن البري. يعجبني جبن تور دو مارزيه"

عندما اشترى الجبن، لاحظ أنّه لن يتمكّن من الذهاب إلى الجزّار أو إلى متجر الشراب حاملاً كلّ هذه الأكياس. فهو لم يعد يملك إصبعاً خالية لحمل المزيد. ليس أمامه حلّ سوى العودة إلى المنزل لترك الأكياس هناك، والقيام بجولة أخرى. عندما فتح الباب، سمع رنّة البريد الصوتي التي تتكرّر كلّ عشر ثوان. كانت هذه أوّل رسالة يتركها له أحد منذ وقت طويل جدّاً. إنّها في الواقع الرسالة الأولى منذ أن أعاد وصل سلك الهاتف. وضع الأكياس في المطبخ، وضغط على الزرّ الأحمر الذي كان يومض باستمرار: "لديك رسالة جديدة. وصلت الرسالة الأولى

يوم السبت عند الساعة العاشرة والنصف: مرحباً مارك، أنا أوديت. أظنّ أنّك بدأت يومك باكراً، أليس كذلك؟ جميعنا متحمّسون جداً لعشاء هذه الليلة. أرغب في سؤالك عمّا إذا كنت تحتاج إلى شيء ما. تحدّثت مع سيلفي وسوزان وأخبرتهما كما طلبت منّي أنّك دعوت صديقة جديدة لك إلى العشاء، لكن ما من علاقة رومنسية بينكما. ومع أنّ حياتك الخاصّة ليست من شأننا، لكنّنا نقدّر مشاركتنا بهذه المعلومة. أردتك أن تعرف ذلك. نحن نتوق للتعرّف على سابينا. نراك الليلة، إلى اللقاء! ما من رسائل أخرى"

ابتسم مارك وهو يقوم بمحو الرسالة. صحيح أنّ حياته الخاصّة ليست من شأن أصدقاء كلارا، لكنّه ما زال يشعر بالرضى لأنّه زوّدهم ببعض التفاصيل. على الأقلّ، لن يشعر بنظراتهم تراقبه طوال السهرة. كان يعرف أنّ أزواجهنّ لا يكترثون لهذه المسألة، لكنّه سينجو بهذه الطريقة من تحديقاتهم الفضولية هم أيضاً.

ذهب إلى المطبخ، ووضع الجبن في البرّاد، ثمّ رحل مجدّداً. سيذهب إلى الجزّار، وإلى متجر الشراب، كما سيمرّ ببائع الأزهار لإضفاء بعض الألوان على غرفة الجلوس. لم يكن مارك يعرف شيئاً عن الأزهار أيضاً، لكنّه واثق أنّ مدام بوليت ستساعده. لقد هرب منها كما فعل مع الجميع في البداية، لكن عندما بدأ يزورها لشراء بعض الأزهار، وجد نفسه في حياة تلك المرأة الطيّبة كما فعلت كلارا في الماضي. غالباً ما أصبحا يجلسان الآن على الكراسي أمام المتجر ويتناولان الليموناضة. أمّا الشراب، فهو للشتاء، كان يعرف ذلك.

بعدما ابتاع الشراب الفرنسي، قصد الجزّار، فحيّاه سيمون بصخب كالعادة. سار حول الطاولة للاقتراب منه، وبعدما أعطاه الكيس، ربّت على ظهره باليد الأخرى. قال له إنّه من المستحيل إيجاد لحم بجودة هذا اللحم، وإن قام بطهيه كما أوصاه من قبل، فسيبدو طعمه كالسكّر.

لا يجب أن ينسى صنع شقوق صغيرة كلّ إصبعين في قطعة اللحم المستديرة، وتغطيتها بأوراق الغار، ولفّها بالخيط الموجود في الكيس. بهذه الطريقة ستحتفظ بنكهتها. سيحتاج طهيها إلى ساعتين ونصف. عليه إضافة الصلصة إلى اللحم في ربع الساعة الأخير بواسطة ملعقة، ولا يجب أبداً صبّه عليها دفعة واحدة. أصغى مارك إلى النصيحة مثل تلميذ وهو يهزّ رأسه. لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يصغي فيها إلى هذه الوصفة، لكنّه لم يعترض على تذكّر النقاط الهامّة. توجّه بعد ذلك إلى بائع الأزهار حاملاً الشراب بيد واللحم باليد الأخرى. كانت واجهة المتجر أشبه بالحديقة. جلست مدام بوليت على كرسيّها كالعادة، تراقب المارّة وتتحدّث إلى من تعرفه منهم. وحالما رأت مارك أشارت إلى الكرسيّ المقابل لها. سألته إن كان يرغب في شرب العصير. كانت ابتسامة مارك ردّ فعل لا إرادي، وتساءل إن كانت مدام بوليت تدرك أنّ الوقت مبكر جدّاً. شكرها بتهذيب وقال إنّه لا يستطيع البقاء لأنّه منشغل جدّاً. قامت المرأة بعملها بجدّية كبيرة، وراحت تفكّر ويداها على خصرها. أخيراً، أعدّت له باقة كبيرة من أزهار الكوبية ذات الألوان المختلفة. لم تشعر بالضرورة لإخباره أنّ كلارا كانت تشتري دائماً هذه الأزهار لدعواتها الصيفية.

فقط عندما سيعود مارك إلى المنزل، ويضع الأزهار في إناء، ستبدو له هذه الصورة مألوفة. فجأة، سيشعر أنّه يقف في غرفة الجلوس التي ترتّب فيها كلارا الأشياء، وستتخدّر ساقاه ويصبح رأسه خفيفاً. سينتابه هذا الإحساس طوال النهار، كلّما دخل الغرفة لترتيب الطاولة، وإحضار المقبّلات، ووضع بطاقات الأسماء على الإجاصات الصغيرة.

بخلاف ذلك، أمضى مارك يومه في المطبخ. وخلال سبع ساعات، أعدّ كلّ شيء بعناية كبيرة وهو يدندن مع الأغاني المتصاعدة من المذياع أحياناً، ويمسك أنفاسه عند اللحظات الحاسمة. وبما أنّه قام بغسل كلّ الأواني، والملاعق، والسكاكين بعد استخدمها، لم يكن في المطبخ ما

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يشير إلى أنّه قام بالطهي في ذلك النهار. وحده اللحم تابع نضوجه في الفرن، وبخلاف ذلك كان جاهزاً تماماً.

وقف أمام الطاولة ونظر إليها مجدّداً. لم يكن ينقصها شيء. نظر إلى الساعة التي كانت تشير إلى السابعة وخمسين دقيقة. بعد عشر دقائق، سيتوفّر خبز طازج في الفرن الواقع عند ناصية الشارع. وبعد ثوان، سيعود حاملاً الخبز، وسيُقرع الباب وتمتلئ شقّته بالناس للمرّة الأولى منذ عام تقريباً. ستدخل سيلفي، وأوديت، وسوزان، وهنري، وجاك، ودانيال ببطء، وسينظرون إلى قطع الأثاث في غرفة المعيشة وكأنّهم يريدون أن يعرفوا إذا بقيت على قيد الحياة. ومن دون شكّ، ستعلو وجوههم مسحة حزن، إلاّ أنّ أيّاً منهم لن يعلّق على الأمر أو يقول شيئاً، أو يُفشل ليلة خطّط لها هذا الرجل بجهد كبير. سيراقبون جميعاً حماسة مارك، وضيافته، وطريقة تنقّله بسرعة بين المطبخ وغرفة المعيشة بتعاطف كبير. وسيجد كلّ المدعوّين باقة الأزهار مألوفة جدّاً وستذكّرهم بالأيّام الخوالي.

فتحوا زجاجة الشراب الأولى قبل وصول سابينا. وبينما تحدّث بعضهم عن أحداث الأسبوع، أثنى آخرون على الطاولة، واتّفقوا جميعاً على أنّ مارك يستحقّ ثناءً كبيراً على مدى نظافة المطبخ رغم كلّ تلك التحضيرات. قبل الساعة التاسعة تماماً، رنّ جرس الباب مجدّداً. دخلت سابينا وابتسامة لطيفة تعلو وجهها، وخجل غير مبالغ فيه يرافق حركاتها. بعدما أعطت مارك زجاجة الشراب، عرّفت المدعوّين الآخرين على نفسها. وبينما حاولت المجموعة الصغيرة التعرّف على هذه المرأة التي تدخل دائرتهم الخاصّة بعد سنوات عديدة، فيما أخرج مارك اللحم من الفرن. وعندما وضعه في طبق خاصّ أعدّه مسبقاً، ودخل غرفة المعيشة، تحوّل الانتباه نحوه. بدا اللحم رائعاً، وباللون المطلوب تماماً. كيف أعدّ الصلصة؟

اجتمع المدعـوّون حول الطاولـة، وأعجبوا جدّاً ببطاقات الأسـماء. أين وجد هذه الفكـرة المبتكرة؟ كيف عثر على إجاصات بالحجم نفسـه؟ جلـس الجميع على المقاعـد المخصّصة لهـم، وانتظـروا مضيفهم ليصبّ لهم الطعام. لم يفـت أحد ارتجـاف يدي مارك. الشـيء الوحيـد الذي لم يعرفوه هو أنّـه كان يرتجف أيضاً من الداخل، وأنّ يديـه كانتا باردتين على الرغم من حرارة شهر أغسـطس. وعندما أصبحت الأطباق جاهزة، غرقت الطاولة بالصمت. وفي تلك اللحظة التي عرف فيهـا كل واحد منهم بماذا يفكّر الآخـرون، رفعـت أوديت كأسـها وسـط الطاولة وكسـرت الصمت قائلة: "بصحّة مارك"

في ثلاثة بلدان مختلفة، وفي الوقت نفسه تقريباً، تتعرض ثلاث أسر لحوادث مأساوية تقلب حياة كل منها رأساً على عقب.

ففي نيويورك، يتعرض زوج ليليا إلى سلسلة من الجلطات تجعله طريح الفراش، وتلزم زوجته بالعناية به بعد أن تخلى عنهما ولداهما... أما في باريس، فيعود مارك إلى البيت يوماً ليكتشف أن زوجته الحبيبة كلارا قد توفيت تاركة فراغاً كبيراً في حياته... في حين أن فيردا التي تعيش في إسطنبول تضطر إلى العناية بوالدتها العجوز بعد تعرض هذه الأخيرة إلى كسر في وركها...

ثلاثة أشخاص مختلفين يحاولون تقبل قدرهم، والتأقلم مع واقعهم الجديد الذي فرضته الحياة عليهم، فيُمنون بالنجاح حيناً وبالفشل أحياناً، ولا يجدون ملاذاً لهم إلا في مطابخهم وبين وصفات كتب الطهي الخاصة بهم، والتي تساعدهم على تخطي الصعوبات رغم كل العراقيل وخيبات الأمل التي يواجهونها يومياً.

في خضم تلك المعاناة، يكتشف كل منهم حقائق كانت غائبة عنه عن خبايا النفس البشرية تجعل حياته تتخذ منحى مختلفاً.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد